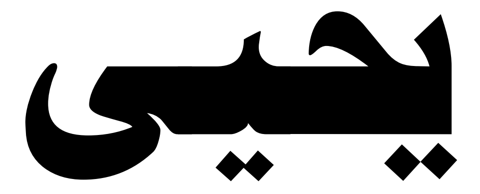


سميحة خريس

رواية

یحیی



رواية

سميحة خريس







الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-614-01-0056-5

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

لتنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

شكر وتقدير

كل التقدير والشكر

للصندوق العربي للثقافة والفنون

على دعمه المراحل الخاصة بالبحث لهذه الرواية

سميحة

إهداء

إلى قلعة الحرية

وبابها؛ بكل قطرة دم يُدَّك

الفصل الأول

جلجول

983 - 999 هجرية

1575 - 1591 ميلادية

صاح الرجال وزعقت النسوة، ونبحت الكلاب بلا انقطاع كما لو كانت ذئاباً ضارية أنهكها الجوع فراحت تعوي في البرية، صار الأفق أحمـــر مغـــبراً، ارتبك الرجال وهم يشهدون انطفاء نار الحطب الذي أودعـــوه الخـــندق حـــول خربة جلجول، توجسوا من اجتياح الموت الأســـود خيامهم؛ مثلما عاش موتاً في القرى المتناثرة حول الكرك، زاد في رعـــبهم سمـــاعهم صرخات العويل القادمة من وراء أسوار القرية الكـــبيرة، كـــان الطاعون مدججاً بالخوف أكثر ممّا يوقعه من ضر في الـــناس، قـــال واحد من رجال قرية القصر القريبة: إن الطاعون مر في الـــديار أكثر عنفاً وخبثاً قبل مئة عام، وإن ما يحدث في زمانهم هذا من العـــام تـــسعمائة وثلاثة وثمانيين هجرية، مقارنة بما وصفه له جده عن جده، ليس إلا تذكارات صغيرة، وخزات عابرة من فعل أهل الأرض، أعدائـــنا مـــن الجن والحن[1] الكفرة، وذهب به الأمر إلى القول إنهم (ويقـــصد تلـــك المخلوقات النارية)، صاروا أكثر رأفة بالبشر. الذين خـــسروا أحـــباءهم، وعـــدوهم شـــهداءً غضبوا من تلك الاستهانة بأوجاعهم.

هجمـــت الـــرياح من الجهات الأربع مصفرة عاوية، واجتاحت الفـــيافي سعيراً مصحوباً بماء غاضب، تشقق وجه السماء برقاً ورعداً، وقال العجوز نفسه برعونة لا يمكن تصديقها: إن المرض يولي.

(1) فئة من الجن.

لم يتـــصوروا أن بلـــية الطاعون التي حصدت الأرواح، وأصابت الـــناس بخـــواء وفزع، تتراجع أمام الريح والمطر، توهموا أنها باقية حتى تحصد آخر روح على الأرض.

تعثـــرت الـــدواب والأنعام والأنام متراكضين بحثاً عن مأوى ومـــلاذ، اعتلـــى الـــصغار وأمهـــاتهم النجود مُحْتَمين بالكهوف، مصطحبين بعض القرفة والزنجبيل للتداوي بها، مع حزم من الحطب؛ خـــوف لحاق غضبة الجان بهم إلى الصخور العالية، قدّر بعضهم أن الرجل العجوز قد يكون على حق، فالمطر كفيل بالبراغيث التي تنقل "الطاعـــوش"[1]، مع ذلك؛ واصلوا صياحهم والهروب، ولكن جمعاً مـــن رجـــال خربة جلجول واجهوا عنف الطبيعة بجلد، هرعوا بين المـــضارب الـــتي تقتلع وتتهاوى، وقفوا يشدون أزر الطحان الذي حالـــت ظروفه دون صعود الجبال بأسرته الصغيرة، سحبوا سجف خيمـــته، وأســـندوا عمودها الخشبـــي الثقيل بأكتافهم؛ متجاهلين الـــصخب النـــسوي في الشق الصغير المجاور الذي انكشف للريح والسماء.

اخـــتلط هـــرج الناس بأصداء الطبيعة الغاضبة؛ فلم يسمع أحد همسات نفل في أذني زوجها عيسى أبو بكر الطحان، همسات متقطعة لاهثة خفيضة، هو نفسه لم يتبين الكلمات، وبسبب من خشية وقرت قلـــبه، ظن لطرفة عين أنها تلعنه، وتدعو ربها ليخلّصها منه، ثم استغفر وتعوذ بالله؛ متذكراً أنها امرأة طيبة ضعيفة.

مسح رأسها المتعرقة بخرقة مبللة، وهي تصارع أوجاعها والحمى، لم تـــدرك النـــسوة ما إذا كانت المرأة تعاني من الطاعون، أم إنها مجرد أعـــراض لمخاض الولادة، وتحت وقع نظراتهن الوجلى، أسبل الطحان

---

(1) التعبير الشعبي عن مرض الطاعون.

جفنـــيه، وثـــنى عنقه منصرفاً محني الكتفين، تظاهر بمساعدة الرجال في إســـناد عمود البيت؛ وجسده الجهم يميد فاقداً توازنه، أفزعه احتمال لحاق الطاعون به وزوجته وابنته، فقد صلى صلاة الجنازة صباحاً على جـــسدين يـــافعين قـــويين لم يعتقهما الوباء، واراهما التراب، وأحرق وصحبه مقتنياهما القليلة من لباس وفراش، كما رافق الحلاق إلى خيمة في سفح الوادي، وأسقى الصغار مزيج الزنجبيل والقرفة والكينا، قبل أن تنقض عليه ابنته بخبر مداهمة الطلق لأمها.

- سامحك الله يا نفل، هذا وقته؟

ظلت عيناه معلقتين بشق البيت الصوفي الصغير الذي أودع فيه امـــرأته لتلد، ربما للمرة العاشرة، لا يذكر، لكن نتاج المرة الأولى، تقـــف قبالـــته لحمـــاً ودماً، بعينين مستديرتين كأنهما طبَقَا عسل مقعّران.

ابنـــته البكر مريم، الأولى والأخيرة، حتى تلك اللحظة، بكره التي حملها منذ سنوات عشر أو تزيد قليلاً، تفصح بناظريها عما همست به أمها، كأنهما تجتمعان على إدانته بما تعانيه نفل من ألم!

لم يتـــبين ما همست به المرأة، لعلها طالبته بالرحمة، الرحمة مطلب كل عبد؛ فالرجال الذين يسندون عمود البيت كانوا يجأرون في طلب الـــرحمة، والسماء التي صارت بيرقاً أحمر، لم تتوقف عن صب رحمتها بقسوة فوق الوهاد والشجر والجبال وبيوت الشعر.

اندســـت كتفاه تحت عمود البيت، واحدودب ظهره، همس في سره معاهداً ربه:

- ورافـــع البيت.. ربـــي المعبود.. ونبيه محمد.. ومولاه علي.. وكـــل أنبياء الدنيا.. وملائكة الآخرة.. والأولياء المباركين.. أكف عن نـــزوات الجسد ورغباته الملعونة، لا أقرب امرأتي... أتوقف عن زرع

أولادي الموتى في رحمها، أتركها تعيش لابنتها، لا أرهقها في جر أشولة الطحين، ورفع جرار الماء، ولا حتى أطالبها بحلب الماعز ونياق الشيوخ، أو شـد الـصوف وغزله.. سأحررها، وأرحمها، هكذا، لله.. سأفعل خـيراً.. فقد فنت المرأة أمام عيني وأنا أزرعها واستولدها ولا يعيش لي صبـي.. لعلها مشيئة الله!! بأي حق أنا العبد الفقير؟؟ عيسى الطحان، بـأي حق؟ بأي خلق؟ أستخدم هذا الجسد الواهن وأُميّته كل عام؟؟.. كفاها رُضَّعاً تحملهم إلى المقبرة وتودعهم التراب، وأجنَة تبكي وراءهم في نفاس مضنّ.. وكفاني عنداً وبأساً.. لا أريد الصبـي.. لا أريده.. يجيء مع الطاعون والعواصف، ينذر بالوبال، لا أريده، سأكتفي بعيون صـغيرتي مـريم العاتـبة.. قـد أزوجها إذا بلغت، فتأتي لي بالأحفاد الذكور.. وإن لم تتمكن، إن ضعف جسدها كما أمها؛ لن أسمح لرجل بتعذيـبها بحثاً عن ذرية من ذكور يخلدون اسمه... سأعيدها إلى بيتي.. سـأعزها في خـيمتي الـتي تعاند الريح، ولن أتزوج بأخرى غير نفل لتنجب صبياناً، سأكتفي بمريم.

بكـى عيـسى الطحـان، ثم تذكر أن يضيف لابتهالاته تشفعاً للمـسلمين والمـساكين لينحـسر عنهم الطاعون الذي لم يفرق بين صغيرهم وكبيرهم.

لم يلمـح الـرجال دمـوع الطحـان، وواصلوا دفعهم للعمود الخـشبـي، في حين أن مريم المتلفعة بفروة الخروف رأت خيط الدمع يشق وجنة والدها، وأمسكت دموعها بعناد، لم ترتعد خوفاً من الرياح والمطـر والمـرض الذي يخنق الصغار بعد محاصرتهم بالحمى والهذيان، وإدخالهم في غيبوبة لا يفيقون بعدها، ولا فكرت بمصير بيتهم المصنوع من وبر الماشية، لكن صياح أمها وهذربات النسوة في الداخل يرعبها، ردت جديلتيها وعلّقتهما ببعضها البعض؛ وهي تشاغل الوقت إلى حين

سمـــاع صيحة الميلاد، وقبل أن تداهمها صيحات البكاء الأليمة المعتادة التي ترافق دفن صبيان أمها واحداً تلو الآخر.

تذكـــرت أنات أمها وهي تنظر إليها جادة تحت ضوء القمر في الليلة المنصرمة وتقول:

- *مريم، وداعتك الولد.*

هـــزت رأســـها موافقة، إلا أنها كانت تستعد لدفن الحمل الذي تصورته أمها يولد، ويعيش، ويكون ذكراً.

صاحت الداية، وانطلقت أصوات تبشير خجلى في معمعة الريح والمطـــر، قبل سماع كركرة رضيع خافتة لا تشبه البكاء. لقد وُلد؛ جاء شقيقها الجديد.

رفـــع عيسى الطحان الوليد العاري بكفيه، فتناثرت نتف من دم وخلاص حول أطرافه الصغيرة الحمراء، كَبّرَ في أذنيه وناح مترنماً: *"الله أكبر... لا إله إلا الله... محمد رسول الله.. الله أكبر"*.

استودعه حزنه، أوصاه بإهداء السلام لصف الملائكة الذين ارتحلوا قـــبله وذهبوا بالأمنيات؛ لم يعتقد ولو لوهلة أن للوليد حقاً في العيش؛ فيما كثرة من بدو الكرك وفلاحيها وزطها دفنوا أبناءهم وذويهم، لكنه قام بالطقس كما ينتظر منه.

وقفت مريم ترقب الطقوس برهبة، وقد خفت صوت الريح، ولم يبقَ في الفضاء إلا رشق محتمل لمطر يتتابع، مسحت النسوة جسد الوليد بـــالملح والماء، وكحّلن العيون المغمضات بخط الأثمد من مرود عريض، وغمست الداية سبابتها بتراب المكان الذي صار طيناً، ثم دست إصبعها في حنك الصغير مبسلمة، كركر كأنه يختنق؛ وهي تدير السبابة المعمدة بالطين في تجويف فم الرضيع الصغير، وتتمتم:

- *من التراب خُلقت؛ وإلى التراب تعود.*

صمتت النسوة يتذكرن مَن دُفن من الأطفال في سنة "الصخونة"[(1)] تلــك، لم تفلح مخاليط الزنجبيل والثوم والعسل مع ضعافهم، وتركت الأقــوياء صرعى في خيامهم وبيوتهم المتواضعة، كانت أقدام صغارهم تــرتجف وهــم يشْكون أوجاعاً مفاجئة، وأجسادهم تلتهب بالحمى، ويدخلــون في غثــيان مــصحوب بهلوسات، فإذا ما تورمت أعناقهم واختنقت أنفاسهم، نفقوا في أيام، وتبعهم بعض ذويهم، يلمُّ الحيُّ منهم متاعَ الراحل، وتُضْرَم النيران فيه، ويبكون حول الرزق والمتاع أكثر مما يــبكون وهم يوارون الأجساد المتخشبة الثرى، يدفنون الآباء والأبناء والأمهات تباعاً؛ كما لو كانوا أنعاماً.

كــان أفــق الخربة ملبداً بحمرة غامضة وكثير من الأسى، وإيمان عمــيق بــأن العدالة لن تفسح لابن الطحان كي يحيا، فالرجل موعود بفقد الأولاد دون أوبئة، فكيف في هذا البلاء!

شمرت الداية ساعديها وهي لا تتوقف عن نهر المرأة التي ما زالت تــتأوه؛ رغم أنها أنجزت مهمتها وولدت الصبــي، ثم بكفين خشنتين نفرت عروقهما لفّت الداية الوليد بإحكام في قماط من البفت الأبيض، لم تــسمع صوته كما يجب، ولم يقلقها الأمر، أكملت مهمتها ببرود وهــي تتهيأ مثل الجميع لفقد الوليد، وضعته في حضن أمه، تحت ثديها المتــرهل مباشرة، بكى عندما ضغطت الداية على خديه؛ تشق شفتيه عنوة، وتدس الحلمة الجافة بينهما.

لم تــتمكن الأم المتعبة من رفع جسدها على نحو ملائم، حاولت الداية إجلاسها وهي تكيل لها الشتائم واللوم لضعفها واستسلامها، ثم تُــربّت في صــفعات خفــيفة متوالية وجه الرضيع كي يحرك شدقيه، عــندها؛ هجمــت مــريم غاضبة على المرأة فقبضت زندها، أبعدت

(1) تعبير شعبي يدل على الوباء.

ســـاعدها ولـــوحت بـــه بعيداً عن وجه شقيقها، ثم نظرت بأسى إلى العلامات الصفراء التي تركها الكف على الوجه الأحمر الصغير، وبكت محتضنة رأس أمها.

مـــن مـــوقعه في الخـــيمة التي غادرها الرجال وقد كفت السماء مطـــرها وريحها، سمع أبو بكر الطحان بكاءً وهنهات، لم يتبين ما إذا كانت تعود لمريم أم لأمها، أم للرضيع الصغير.

قال له صاحب الطاحون الشيخ صايل:

- *سَـــمِّ الولد.. لو كان له نصيب ليعيش؛ سيكون له اسم.. ولو أخذ الله وداعته؛ سيُقبر مسلماً.. سمِّ..*

دارت عينا عيسى أبو بكر الطحان في محجريهما.. ما هي الأسماء التي لم يُسَمِّها بعد؟؟.. لا يجدر به تكرار الاسم حتى لا يضيع ملائكته الـــصغار، ولا يخـــتلط علـــيه أمرهم يوم الحساب، ولا يضيعوه لحظة الشفاعة.. رغم أنه في تلك اللحظة بالذات؛ نسيهم واحداً واحداً.. لا يتذكـــر كيف كانت ملامحهم، ولا ما إذا كانوا قد بكوا، وهل وُلدوا موتى أم ارتحلوا بعد ساعات أم أيام؟

همس باستسلام:

- *اسميه يحيى.*

هـــز الـــشيخ رأسه متشككاً متردداً، ثم غلب إيمانه، واستجمع كلماته، وقال مستبشراً:

- *يحيى!! آه.. الله العالم.. من يدري!!. يحيى؛ ليحيا...*

* * *

تأمل حفار القبور التراب حوله يجف إثر ريح لم تعد تسفع مطراً، وأطلعت حشائش يانعة بين الحجارة والأتربة، راودته نفسه مراراً بحفر مضطجع للوليد الذي سمع أن الطحان رُزق به مؤخراً، أسند ظهره إلى

جـــذع الـــشجرة الكبيرة عند طرف الوادي وفكر؛ إن أبناء الطحان، وعلى ضآلة ما يحتله أحدهم من حيز، باتوا يشغلون مربعاً كبيراً نسبياً.

هـــذا الصباح، لو جاء الخبر؛ لن يتردد بدفن الصغير فوق اخوته، فمرضى الطاعون وإن تراجعت أعدادهم بعد دفن المئات منهم، ما زالوا مـــتوقعين، انحسار المرض لا يعني للحفار انتهاء الموت؛ إذ لا يعقل أن يكفـــوا في جلجول والخرب المتناثرة والقرى المجاورة عن الموت في يوم واحـــد. حـــتى لو كانت السماء سخية بالماء، واعدة بغسل المعمورة، والانـــتهاء من الحمى القاتلة، إلا أن خبث الوباء لن يستجيب بسرعة للابتهالات التي يسمع صداها قادماً من خربة جلجول، أو قرية القصر، أو قرية الكرك.

مع ذلك؛ منعه خجل طفيف من حفر قبر الوليد قبل وصول الخبر اليقين، رفع حفار القبور إبريقه فوق الحطب المشتعل، أرجحه في الهواء وأمالـــه، راقب شلال الميرمية[1] الأخضر ينسكب في انهمار طويل إلى كأسه النحاسي محدثاً هديراً ناعماً، دعا في أعماقه قائلاً:

- *الله يجبرك يا جلجول، الله يجبرك يا طحان...*

بكت مريم قائلة:

- *الله يجبرك يا أبـــي.*

لا تحـــب مـــريم الطريقة التي يرابض فيها والدها عند فتحة الشق الـــصوفي الذي ينسدل ستاراً بينه وبين أمها المتأوهة، التي اعترتها حمى مفاجـــئة، قالت الداية أن لا علاقة لما يعتري نفل بالوباء الذي ينقشع تدريجياً، ومع ذلك سقتها ماءً كثيراً، وحليباً مغلياً، وأطعمتها مزيجاً من حـــبة الـــبركة والعسل والقرنفل، ومسحت جسدها بالورس والكينا، فعلـــت كـــل ما تخيلته لوقاية الجسد الواهن، وجلبت كل ما أشار به

(1) عشبة برية.

الحكيم الشلبـــي، و لم تتوقف كركرة الصغير المتواصلة؛ كأنها حشرجة المـــوت، ولا مـــوت، تمنت مريم لو لم يكن المكان مثقلاً بكآبة المرض الـــذي لم يـــره الـــناس منذ مئة عام، لو كانت الحياة رخية هنية كما اعـــتادت، فيخـــرج والدها إلى الطاحون في قلب وادي الكرك، حيث تغـــدق مـــياه الينابيع في قرية القصر، يسعى وراء رزقه، ويرحمها من قرفـــصائه المخـــيفة مثل شجرة جوز ناشفة، ورأسه بين كفيه، وثوبه مـــشدود حول مؤخرته، بالكاد ترى عينيه مهما طال النهار، وبالكاد ينظـــر إلى طـــبق القش ورغيف الطابون، ومرق الشنينة الحامض الذي تـــضعه أمامـــه، فكل العائلة لا تأكل، والناس الذين تفاءلوا قليلاً بمولد يحـــيى؛ إذ لم تقـــع وفاة بأعراض الوباء بعد ميلاده، جاءوهم بالفطير وأقراص الملة[1] المغموسة بالسمن الصافي إلى خيمتهم، فإذا قرص الجوع معـــدة الـــصبية تناولت كسرة صغيرة، واكتفت، لم تستحسن إشغال فكـــيها بازدراد الطعام بينما أمها منشغلة بالآهات، ووالدها يقعي مثل كلب الحراسة عند المدخل، والوليد الصغير لا يرخي فكيه، وإن أعملت بهما القسوة التي علمتها إياها الداية، يغيظها أن تقضي ساعة تستحلب الأتـــان خلف الشق الصوفي المتواضع، وتوقد الحطب الذي كومته بين أثـــاف ثـــلاث، فتغلـــي ما عصرته من الضرع النحيل، ثم تغط قطعة الـــصوف المـــضغوطة بعناية على هيئة كره صغيرة في السائل، وتنقّط قطـــرات متوالـــية بين الشفتين المغلقتين، تغتنم ثواني الكركرة الغامضة لتعصر صوفتها، فينـــز الحليب منها إلى فم الرضيع، لم تتمكن نفل من إرضـــاع وليدها، و لم ترتَضِ أي من أمهات الخربة الاقتراب من رضيع مائـــت لا محالة، خفن أن تصاب حلماهن بلعنة أو نحس خفي؛ فينتقل مـــصيره إلى أبـــنائهن، كـــن حائرات بين التشاؤم من وليد الطحان،

(1) نوع من الخبز.

والــتفاؤل بالهدوء الذي عم الديرة، وهبط على النفوس بمقدمه، كأنه يفصل بين ارتباك الطبيعة وجنون المرض وبينهم، ويهيئهم لمعاودة مهام الحياة المكرورة.

تستـــسلم الأتان أحياناً لقبضة مريم وهي تطبطب فوق ظهرها كي تفيض ببعض الحنان على الصغير، وتعقطها أحياناً أخرى؛ إذا ما لمحت حمارها يكر حولها، ترتمي مريم أرضاً تحت أقدام الحمارة؛ رافعة أردانهـــا عـــن ذراع نحـــيلة عصبها قوي، تبعد الكر الرضيع عنوة، وتحاول الإمساك بالضرع تحلبه، لا تكف عن المحاولة وإن تمرغت في طين الأرض، لا تريد لشقيقها الرحيلَ عن الدنيا ظامئاً جائعاً، كما لم تـــتهاون بشأن همهمات أمها، وغيبوبتها التي باتت جزءاً من نفاس عسير، ظنت أن حديث الداية حول منع النسوة الحوائض من ولوج الخـــيمة على النفساء كفيل بحمايتها من شرور الولادة، كما أوهمها صـــدر أمهـــا الذي بات متحجراً صلباً بعد ترهل، توقعت أن يدر الحليب يوماً؛ فيكفيها أمر ملاحقة الأتان، أو أن ينتهي ذلك الدوار اليومي، والترقب المر، بحمل الصغير كما اعتادوا إلى المقبرة في سفح الوادي.

رفعت السماء مقتها عن وجه الأرض، تراجعت الريح بالطاعون تماماً، ولم يبق من الأمطار إلا هداياها، نبت أخضر يشق الأتربة وينمو متغاوياً، واسترجع أهالي الخربة بعض أمنهم بتقدم الأيام دون خسائر في الأرواح؛ كـــف حفار القبور عن بحش التراب دون طلب لاسم بعينه، وعـــاد الناس على حذر إلى طبائعهم، تخلصوا من كل ثوب أو وعاء أو غـــرض لامسَ مريضاً في زمان الوباء، حفروا حفرة كبيرة في أبعد بقعة عـــن القرى، وأنشبوا النيران بالأشياء، حتى بعض الخيام العتيقة الثمينة عند مالكيها، والتي لفوا فيها أجساد الراحلين.

صـــارت بكائياتهم الليلية أشبه بأحاديث عن عالم لم يكونوا فيه يـــوماً، مثلما يسرد أحدهم قصة للسمر والتسلي؛ يتحدثون كابحين أي بـــادرة لانفعال عاطفي، لكن الصبايا اليافعات وحدهن كن صادقات بنسيان المرض، والإقبال على الحياة.

أورقت الأشجار بعد تخشب طويل بأزهار وردية، واعدة بموسم لوزيات وحمضيات جيد، وقُطفت الخبيزة ريانة طرية، وأُعدت للطعام، فالـــناس اســـتعادوا شهيتهم بعد حزن، كانت مريم تقطف نبتة الدرير المعطـــرة من الوادي، ولا تجرؤ على دسها في جديلتها أو بين نهدين لم يـــتكورا بعـــد كمـــا تفعل البنات المتغاويات، لكنها تحتفظ بها تحت وســـادتها، تـــشمها إذا أودعت رأسها النوم، فتنسيها هبوب الحطب، وعبق الحليب الزفر، وريح الأتان، أما صاحبتها بنت الحلاق الشلبـــي، فقـــد تواقحت إلى حد التغنج علناً بجرزة من نبتة "الاخضرا" التي يفوح عطـــرها بصورة فجة، شذى حسي عبق؛ يذكّرها بفحولة غابت عن والدها المقعي في أرضه.

نظرت هفوف ابنة الشلبـــي متعاطفة إلى الرضيع الذي اجتاز نفق المـــوت الجماعي وقدر أولاد الطحان الخاص، وهو يستجيب للمسات ناعمـــة من يد أخته على نقرة ذقنه، فيتراقص بؤبؤا عينيه، وينفرج فوه متحسساً قطرات الحليب التي تنـــز من لفة الصوف، فيما أمه منكمشة علـــى آهاتهـــا وأوجاعهـــا دون تحـــسن يذكر، همست هفوف كأنها اكتشفت أمراً مهماً:

- مريم.. أمك تعبانة... هل زارتها نساء حوائض؟

- كيف لي أن أعرف!!.. النساء اللئيمات لن يخبرنني إذا ما كن كذلك، جئن بالعشرات يواسين أمي، ويلقين نظرة على يحيى.

ألقت هفوف نظرة فاحصة، وهمست:

- مريم.. هل تريدين أن يعيش يحياك هذا؟

كان السؤال فجاً، كأن هناك أي احتمال لجواب بعيد عن المنطق.

- طبعاً، إنه أخي يا بلهاء.. أخي الذي أطعمه من حليب حمارتنا.

ذهــــبت الفــــتاتان إلى الداية تسألان عن مشخص[1] تستعيرانه، ضحكت تلك، وبانت بروزات وفراغات فكها مثل مشعب الحقل:

- مشخص!! أتعرفين كم يساوي المشخص يا بنت؟؟ قطعتين من الـــذهب.. قطعـــتين من الذهب، وإن كان مجرد قطعة، الحصول عليه مستحيل، ولا في الأحلام.. من أين يكون لي مشخص؟ كيف تفكرين بحــــيازة أو استعارة مشخص ترمينه في مغلي الماء لتسقي به شقيقك!.. اذهبـــــــي واطلـــي أمك بالورس.. الخوف على المرأة المتعبة، لا على الرضيع الذي خُط قدره مسبقاً، يرحمه ربه.

فكـــرت الصبيتان، أين يمكن العثور على مشخص في خربة فقيرة نائية مثل هذه!

عـــندما قطعـــت هفـــوف المسافة من بيتها غربــــي الوادي إلى جلجـــول في سفح الهضبة، مرت بالأرض المنبسطة التي يتوسطها بيت أوطـــة[2] باشـــا العثماني، لم تفعل ذلك مسرعة كما هي عادة فلاحّي الكرك وبدوانها، تبآطأت؛ وتعمدت استراق النظر إلى النوافذ الحجرية المزخـــرفة، والستائر المخملية المسدلة وراء درفة الخشب الثقيلة المضلعة بالأرابيسك المجلوب، لا بد أن الباشا العثماني يمتلك مشخصاً أو أكثر؛ لكنه يترك الأطفال يموتون دون تدخل.

خلعت هفوف خلخالها الفضي، كذلك فعلت مريم، وفكت إبزيماً ذهبـــياً رفـــيعاً معلقـــاً في غضروف أنف أمها المريضة، وأفرغ عيسى

(1) عملة ذهبية أثرية يُعتقد بإمكانيات سحرية لها.

(2) رتبة عسكرية عثمانية تعادل رتبة الملازم.

الطحان كوارة العام المنصرم من القمح، وجر حماره والأتان، وماعزين جبليين، تحرك جمع غفير أولهم المرأة النفساء، وابنتها، ومن رافقهم من جـــيران وحريم، وقفوا بباب الباشا الذي كان فلاّحو الناحية يطلقون علـــيه اسم "الرومي"؛ كونه هبط أرضهم من شمال المعمورة، ولكنه لم يظهـــر، فقط، زوجته الخانم نظرت من وراء الخمار عبر النافذة المجللة بالـــستار الثقيل، توقعت أنهم نفر يتسولون ما يقيم أودهم بعد انحسار المـــرض، وفقدانهم حاجياتهم القليلة الوضيعة، وعندما تيقنت أن معظم المتربـــصات عند الباب من الإناث، رفعت ستارتها، وأرخت طبقة من خمارها أسفل ذقنها، وتحدثت بلكنة معوجة، وصوت حاد:

- *مـــشخص!! مـــاذا يـــنفعكم هذا المشخص إذا رضيت بأخذ الأتان؟ ألا تطعمون الصغير من حليبها؟*

هتفت هفوف:

- *لا تحملي همّاً، نعيرهم أتاننا.*

نفـــثت صوتاً ساخراً من نخريها؛ نفى أن يكون همهم ما يشغلها، قالت بتعال:

- الأتان، والخلاخيل، والحمار، كلها مجتمعة لا تفي المشخص ثمنه.

- *إذن خذوا أتاننا أيضاً.*

لكزت هفوف صاحبتها هامسة:

- *ســـندبر أتاناً أو ماعزاً لسقاية الولد.. ربك كريم، لا يموت بني آدم من جوع، لو نطعمه من ريقنا، لا تترددي.*

لم تكـــن مـــريم علـــى نية التردد، ولا حتى خطر ببالها الاستعانة بمـــشورة والـــدها كي يقرر ما إذا كان عرض المرأة ملائماً، أو كان المشخص يستحق كل هذه التضحيات، لكنها فجعت حين قالت الخانم زوجة الأوطة الرومي:

- *آخُذ كل ما ذكرت، اضافة إلى دادا... خادم للبيت.*

تراجعت الصبيتان خطوة إلى الوراء، وبرزت نفل متداعية، تحاول إخفــاء إعــيائها بالاســتقامة في السير، اقتربت من الشباك المزخرف وهمست:

- *هاتي المشخص، وأنا أخدمك.*

أوشــك عيسى على الانفلات صارخاً، لكن كف زوجته أبقته متــسمراً مشلولاً، لم تنتبه زوجة الأوطة إلى الجسد المنحني، والصوت الواهن، والضعف الذي يعتري المرأة، طمعت بكسب خادمة، فأُدخلت الــدواب إلى حظــيرة العسكري العثماني، صاحب رتبة الأوطة ولقب الرومــي، ورُصــت الأشولة في كوارة بيته، وولجت نفل إلى حريمه؛ متحاملة على الحمى التي تنهش بدنها.

أمــسكت مريم بالمشخص الذهبــي الثقيل، وتأملته، قلبت قطعة الــنقد المــدورة، فلم تتعرف على وجه الملك قسطنطين والملكة هيلانة المصوَّرين واقفين بوقار على وجه من وجوه العملة، لكنها عرفت مريم العذراء على الوجه الآخر وهي تقلّبه، وهمست مرتعشة:

هاي مريم... سميتي.. سموني على اسمها.. بركاتك يا مريم.

مــتحت مريم ماءً صافياً نقياً من البئر، مستخدمة دلواً جديداً لم ينــــزل البئــر سابقاً، ولم تتوانَ عن استعارة طشت عمّاد من راهبة الكنيسة، عبأته حتى لامس الماءُ الصليبَ المحفور في أعلاه، وجلبت من المولى في الكرك قماشاً، خط فوقه بحبر الهباب آيات من القرآن، قال إن الكــلام هو للمعوذتين الحاميتين بإذن الله وحده، نقعت القماش في ماء الطشت، وتأكدت أن الكلمات ذابت كلها.

الــذين شاهدوا مريم تتنقل بهمة، وتعد لطقوس المشخص دون أن تــسأل عما حل بأمها في بيت التركي، أيقنوا انصراف البنت إلى تحدٍّ

الضعيف، وغسلت أعضاءه عضواً عضواً بكفيها ورذاذ الماء السخي.

تخلـــى عيـــسى أبو بكر الطحان عن جلسته الشهيرة عند فتحة الخـــيمة، صـــار يُرى ملهوفاً، رائحاً غادياً في الزرع الممتد وراء بيت العثماني، آملاً لمح طيف زوجته، وعندما فتح الباب الثقيل، ونادى أهل البـــيت على الفلاحين المجاورين؛ عرف أي جسد يحملون، فسبقهم إلى

وارى عيـــسى جـــسد زوجته نفل الترابَ دون بكاء، و لم تعول ـاء وراءها، كبرت مريم على حين غرة، و لم تفلح في ذرف الدموع حتى ظن أنها تنفجر كمداً، وظل عيسى ممسكاً صدره لساعات طويلة، متلقياً كلمات العزاء والمواساة، مخاطباً ربه:

رحمتك، راحت نفل، برحمتك يا رب، ارحمنا، برحمتك.

ظهـــرت الفـــتاتان اليافعتان لوقت قصير في عزاء نفل المستعجل، فارقـــتا كآبة العزاء سريعاً، و لم تفترقا على تباعد أماكن إقامتهما، تهبط هفـــوف من بيتها فجراً، فاتنة داهمها بروز نهديها قبل صاحبتها، تجتاز المـــزارع، وتتـــبلل بسحب الضباب العابرة بين فروع الأشجار، ولا

فؤادها صوت الحيوانات الصغيرة المتحركة بين الشجر في عتمة الفجـــر، تـــوافي صـــاحبتها؛ وتقوم بمهام بديلة عنها؛ مقدّرة ما حاق بالأسرة من وجيعة، تهرع بين البيوت تستجدي الحليب والسمن لإطعام الرضـــيع. أما مريم، فلم تفارق الوليد بتاتاً، وبانقضاء عزاء أمها، كان البيت خاوياً من الطعام إلا ما يجود به المطهر الشلبـــي وعائلته من إدام ومرق الدجاج وخبز الكردوش المصنوع من الذرة على صاج الطابون،

لم تـــشعر مريم بالجوع ولا العطش، كان لا بد من تذكيرها بين الحين والآخـــر أنها لم تأكل، وأنها بدن يقوى إذا تناول كسرة خبز أو حبات بلـــح، بدت مريم متماسكة، رغم فقد أمها، وربما على شيء من فرح؛ فقـــد نجحت في تغيير مصير الرضيع، وصارت أماً لشقيقها قبل الأوان، هـــي؛ أول مـــن سمعت مكاغاته، وأول من نَظَرها، وتحرك بؤبؤا عينيه وراءهـــا، حين رفع الوليد كفه للمرة الأولى تمكن من إمساك سبابتها بإحكـــام يفوق قدرة بدنه الغض، بكت؛ وأدركت أن الوليد سيعيش، فقد اجتازت به قضاءً محققاً.

يـــداهمها الحـــنين في منتصف الليل، تفتقد لمسات الأم التي تجيد تـــضفير جدائلها ومسحها بالزيت، تتكور مريم حول جسد الرضيع، وتترنم:

- يـــا حـــادي العـــيس مثل العين داريهم، يا حادي العيس خذ روحي وخليهم...

كانوا سلاطين نـــزلوا عن كراسيهم، صاروا دراويش ربـــي ما قطع فيهم...

يـــا حـــادي العيس سلّم لي على أمي، هي حنونة ولا بد تسألك عني...

يـــا جامـــع الشمل تجمعني أنا وأمي، لحكي لها قصتي وأشكي لها همي...

يـــا حـــادي العيس سلّم لي على الكانو، وقل لهم يرجعوا لمطرح الكانو...

وإن أبعدوا اصعبوا وإن أقربوا هانو، في جيرة الله الحبايب وين ما كانوا..[1]

---

(1) من الغناء الشعبي الكركي.

يتظاهر الأب بالنوم العميق حد الشخير المصطنع، يرتعش في فراش الـــشيح، ويبكـــي، ثم يستسلم متعجباً، بل يظن أن حظه وافاه! يشعر بـــسخرية طفيفة جراء فقره التام الذي لن يمكن المحصّلين العسكر من اســـتيفاء حـــصة الباب العالي، ويقبّل وجه كفه وباطنها؛ إذ متّعه فقره بالولد وإن ضَيّع الوليفة، وأبعد الجباة عن دربه، يسلم عيسى قلبه لإيمان يتوافق مع الرضا باختبارات الصبر، والإعجاب بابنته الحزينة اليافعة التي اجترحت معجزة الإبقاء على حياة شقيقها، يقول في سره:

- ســـبحان رب العـــباد، سيعيش، نعم، أما سميته يحيى! سيحيا، سيحيا.

* * *

شُـــغل الناس بالربيع؛ تحولوا إلى مجاميع ماعز جبلي أرعن، رعاة وبـــذارين وحصادين، انتظموا في نوبات عمل وفزعات جماعية، فقراء خـــربة جلجول انضموا إلى ملاّك الأراضي في الكرك؛ يمدون يد العون لقـــاء أجـــور عينـــية في معظمها، وانهمك أهالي قرية القصر بإعداد الطـــواحين للموســـم، اهتزازات الطرق، ودوران المحاجر في المطاحن، وخريـــر تدفق المياه في الينابيع وشلالات الوادي الصغيرة التي تتناثر بين مـــسافة وأخـــرى إلى أن يلتقي الوادي بوادي الهيدان، أصداء منحت المكان حيوية مذهلة، فاستحال إلى فردوس يفيض بالنعم، يحصل الأهالي علـــى القليل من هباته وسخائه، فينتظر الملاّك حزيران كل عام بقيضه؛ مستطلعين قدوم خيل الجباة والمحصّلين، كما يرصدون خاوة الغزاة من القبائل البدوية التي تُدفع بانتظام لقاء الحماية والتعفف عن النهب. رغم كل هذه الويلات المرتقبة، عكس الهناء على الوجوه أماناً نسبياً معقولاً، بل وأتاح لطالبـــي الخضرة والماء التمتع بنهارات سعيدة يغنون فيها إذا مـــا حصدوا أو زرعوا أو قطفوا الثمار، ويتعللون في أماسٍ ينيرها القمر

أو حفـــيرة المـــوقد، يـــسمرون وهم يتحدثون بإيجاز عن رعب سنة الـــصخونة مـــتعوذين، وينتقلون سريعاً لحكايا أبو زيد الهلالي، وعنترة العبسي، استشعرت النسوة رفاهية الموسم وحلاوته ونعيمه، يخرجن إلى المـــزارع يقطفن الثمار، ويَعُدن بسلال التين والعنب والرمان، والنبت الأخـــضر بكـــل أسمائه وأشكاله، تمر النساء والشيب والشبان بالبنت الـــشجاعة مـــريم، صاحبة البأس والجرأة والإصرار، يحيّونها بإعجاب، ويسألون عن الطفل يحيى وصحته، وقد تعتذر النسوة خجلات؛ كونهن لم يقمن بالواجب في إرضاع اليتيم، لكنهم جميعاً، يتفادون ذكر نفل.

سمـــى الشيخ صايل طاحونه "الذراع"؛ كون المكان يشكل زيادة جغـــرافية ممـــتدة على أطراف قرية القصر، ورغم صغر العين التي يقوم علـــيها، فإنه يظل الأول في سلسلة الطواحين التي يمر بها الذاهبون إلى الـــوادي، قَـــدّر أنهـــا ستكون الأهم، إذ يقتنص موقعها أول النازلين المـــتعجلين، أو الذين لا طاقة لهم بنقل حمولتهم الثقيلة إلى قلب الوادي حـــيث الطـــواحين الأكبر التي يملكها شيوخ الكرك وأعيانها، فإذا ما اســـتوفت طاقـــتها، هبط البقية إلى طواحين الشيوخ فما ظنوه يقتنص بعض رزقهم.

يهيـــئ عامـــل الطاحـــون عيسى المكان بحجرته الطينية المتسعة، وســـقفها المغطـــى بقبة مستديرة غير قويمة، لاستقبال الموسم الموعود، ويـــراقب زرّاع القمـــح يرعون زرعهم في السهول استعداداً للحصاد، ويـــساعدون في قَصّ حجر الرحى الجديد، في غمرة انشغاله؛ ينط قلبه فجـــأة بـــين أضلعه، إذا عَنّت نفل على البال، يتصورها وقد فشخت فخـــديها حـــول موقد الطابون، وردّت ردنيها إلى الخلف رابطة إياهما بـــشريط كاشـــفة عن ساعديها، وراحت تقلب العجين بالطشت، ثم تفـــرك مـــا لصق في كفيها، قبل أن تقلب كردوش الشعير فوق صاج

الطابـــون، تعجــبه ســاعداها الملوحتان بكلف جراء قسوة الشمس، ويتفكـــر ما عساه يكون السبب المدهش الذي جعلها بيضاء مثل حبة الـــراحة العابقة بالمسك، في حين يتبقع ساعداها بدكنة غاوية!! يتذكر الـــتماعة سِنّ الذهب والإبزيم على الأنف الدقيق، والابتسامة التي تميل إلى غباء محبب، وبساطة رقيقة متواضعة، ينتشي فرحاً كأنها إلى جواره، ثم يـــنكص حزيناً، ويجدد عهده أن لا يقرب النساء بعدها، مهما قال أنداده من الرجال عن صعوبة العيش وحيداً، لا أنثى تدفئ فراشه، عنيد كمـــا صـــخرة الرحى، أما إذا تعلق الأمر برعاية يحيى، أو مهام عجن القمـــح والـــشعير وخبـــزهما، أو تحطيب الشجر، أو رفع البيت فوق عمدانه، فإن مريم تبدي براعة وشدة تفوقان سنوات عمرها، وإذا قُدِّر للصغيرة أن تكبر ويكون لها حليلها وبيتها؛ فإنه لا يريد من الزمان خبزاً ولا حطـــباً، كـــل ما كان عيسى يتمناه، أن يكف الجيران والصحاب والأقـــارب عـــن مقترحاتهم حول تزويجه، فيتركوه للذكرى الشفيفة المؤلمة، ويتوقفوا عن مزاحهم الثقيل حول فقدانه لرجولته، وحده يعادل عـــشرة رجـــال من الخمسين الذين استعان بهم الشيخ صايل صاحب الطاحون لدحرجة حجر الطاحون الجديد ورفعه على قاعدته فوق عين المـــاء، ما زال ساعده قوياً وعافيته كما ثور، لكنّ روحاً متوجعة تقطن أعماقـــه، كلما التفّ دربه وراء الحقل المنبسط الذي تتغاوى فيه سنابل القمـــح في عـــام، ثم محاصيل الخضروات في العام التالي؛ يراقب بيت العـــسكري العـــثماني، الأوطـــة، وقد ميزته الحجارة وأبواب الخشب ونوافذه، يبتلع ريقه مراً؛ كأنه يرى ظهرها في خطواتها الأخيرة، ويشهد اخـــتفاءها الغريب خلف البوابة الخشبية، حين غابت، وعلق ذيل ثوبها الأســـود المتآكل منحشراً في زاوية البوابة قبل انفتاح الدرفة الضخمة، وانـــسحاب الـــذيل إلى الـــداخل إلى الأبد، كيف تمكنت تلك المرأة

الـــضعيفة مـــن دخول باب الخشب المزخرف، الذي يزعق عالياً بفعل تحرك مفصلاته المعدنية الكبيرة، وما رف جفنها أو التفتت لثانية تنظره واقفـــاً وابنـــتها مفزوعين! يسمع صوت الرتاج الخشبـــي يغلق الباب بـــصورة محكمة كأن الأمر يحدث للتو، من أين جاءت الوادعة الطيبة بكل ذلك الجبروت، لاختيار موت غريب؛ تعلم أنه رابض لها، متربص بهـــا، داخـــل حرملك العسكري العثماني، وفي إهاب جسدها المريض المتهاوي!

عسيرٌ على الطحان اقتطاع تلك اللحظة المهولة من وجدانه، لم يكن مـــضطراً أساساً للمرور من تلك الناحية وهو يعود من القصر إلى الخربة، لكـــنه يـــتجاوز مضارب الفقراء في الخربة، ويقترب كثيراً من قرية الكرك الكـــبيرة، يتخطـــى سورها المملوكي القديم، ويترك لعينيه رؤية ما زرعه الأوطة كل موسم، ينمي غضب روحه ووجيعة فؤاده، في ساعات العمل يجهـــد بـــصدق لنسيانها؛ يندفع بحماسة كبيرة في إعداد الطاحون لموسمه الجديـــد المرتقب، لكن رحلة المشي اليومية تعيدها إليه بقوة، طيف مؤخرة المرأة الهزيل ينسحب داخل البيت؛ لا يتركه للنوم ببساطة، يؤرقه كل ليلة، يحمله وزر ما حدث، يناديه ويغويه، حابساً عواطفه وهواه على امرأة دون ســـواها، امرأة راحلة. مع كل ذلك الألم الدفين، لم يخفِ الطحان فرحته واعتزازه بالوليد الذي يقارع مصيره، ويكتسب عافيته تدريجياً.

الـــشيخ صـــايل العائد قبل اثني عشر عاماً من حرب خاسرة في طـــرف مـــن أصقاع المعمورة، ظل متشككاً باحتمال أن تُكتب للولد الحـــياة، وأن يعـــيش لمخدومه عيسى وليدٌ ذكر، قال وهو يحصي عدد الأشولة المحتمل دخولها طاحونه هذا الموسم:

- ثلاثمائـــة شـــوال.. يجب أن نجد مساعداً للطحان، أحدهما يـــساعد الفلاحين على جلب القمح إلى المزراب ونقله للدلو، والثاني

يقــف علــى حجر الرحي يرقب ضغط الماء، أنا سأكون عند تعبئة الدقيق جاهزاً للوزن والمبايعة، الشغل كثير بحمد الله، هذا موسم خير والعـــبء كبير، وعيسى، الله يجبره؛ مثل مريم منشغل بالولد، الله يجبر خاطـــرهم، ولكن لا أعرف، قد يكون هذا كله ضياع وقت، الولد عليل، وكأن عيسى وابنته مثل العثمانيين؛ راحوا يقيمون الدين بمالطا، وما نفعت معهم.

يرد الحلاق الشلبـــي:

- أنـــت تقيس على خسارات الكوانة[1] التي عشتها مع الروم في مالطا وقبرص، هنا يختلف الأمر، رحمة ربك وسعت كل شيء، والحق أراه، الولد مبروك، والبنت قادرة، لم تترك عسلاً ولا سمناً ولا حليباً إلا أحـــضرته للولد، الجميع يقاسمونها ما لديهم، إذا عاش الولد، فإنه ليس ابنها وحدها، هذا اليتيم ابن جلجول والكرك كلها.

يهـــز الشيخ رأسه، ثم ينادي على ولده الشاب مفتول الساعدين مـــتعب، لإحـــضار دلة القهوة الكبيرة التي تتعتق وتتكثف مرارةً فوق حفرة الحطب والنار، وعندما يصب الشاب القهوة في الفناجين الكبيرة المخـــروطية، يتناول القوم أول شَفّة تتبعها هَفّة، يتهدج صوت الشيخ ويـــتحدث على مهله عن سنوات غيابه القاسية في مالطا، عندما كان عـــسكرياً في جـــيش الدولـــة العصملية التي تعارف الكل على تسمية عسكرها بالروم، فاصلين بينهم وبين المماليك الأتراك الذين اضمحلت دولـــتهم، يحكي صايل ويزيد، يقطع ويوصل، ينسى ثم يغير الحكاية، لكنه يتذكر دائماً بعد أن يلمح الوسن في عيون جلسائه أن يتنهد بعمق مختتماً سرده:

- إيييه... أيام.. الله لا يعيدها.

---

(1) الحرب.

لم يــتعامل أهالي جلجول والقصر ببدوهم وفلاحيهم، أحرارهم وعبــيدهم، مــع قــصص الــشيخ صايل بالجدية التامة، تسلّوا بها، وحفظــوها، وضــجروا منها، أضافوها إلى رصيد حكايات الحصاد، وقــصص الغولة، ومغامرات المهلهل، وإن كان الشيخ يحمل دليلاً حياً علــى مروره بها، جرحاً يشق ربلة قدمه طولياً، شقه سيفٌ في هجمة قديمــة للقراصــنة على السفينة التي تقله، في ذلك الأوان حشا صايل جرحه تبناً كي يكف عن النــزيف، فظل الجلد حوله منفرجاً يكشف عظمة الساق، طال أمد شفاء الجرح حتى فُقد منه الأمل، وظل تذكاراً يستــشهد صايل به كلما تحدث عن فتح قبرص وضمها للامبراطورية العثمانــية، حيناً يقول إنها معركة مع القراصنة ومرة أخرى يدعي أنهم القبارصــة، لكــن المــؤكد أن الجرح العميق أعاده إلى الكرك، بعدما اســتحال استمراره جندياً، وبعد أن ظنت زوجته أنه ميت، ترك أنجاله صــغاراً، وعــاد ليجدهم رجالاً، لم يهتموا به كثيراً في البداية، كأنهم نــسوه في الغياب، لولا تسببه في تغير وانقلاب كبير لحياتهم، عَوّضهم عــن قهر الفقر، وقفز بهم في طرفة عين إلى مصاف الشيوخ والأعيان، فالقطع الذهبية والفضية التي سرقها من خزانة الدفتردار(1) التركي على ظهــر باخرة كانت تمخر عباب المتوسط إلى الشواطئ الإيطالية بقيادة العلج علي؛ غيرت حياته ومكانته، سامحَ صايل نفسه على النهيبة التي حظــي بهــا، عَــدَّها حقه وجزاءه عن غربته وإصابته، لم يخجل من الإفصاح عن مصدر ثرائه، ثم أقام الطاحون بالذهب دون شراكة، على صــعوبة الأمــر لــسواه مــن ملاّك الطواحين على عيون الماء، الذين يتــشاركون جماعــة في ملكية الطواحين، فهرع إليه الجميع يطحنون غلالهــم، مكنــته حصيلة ما خبأه في حزامه من ذهب وفضة وبارات

(1) المحاسب.

ومتالـــيق نحاسية؛ من اقامة الطاحون في ذراع الوادي حيث لا منافس، عدا عن تشييد الحجرات الحجرية السكنية الجميلة المقابلة لمبنى القلعة في قلب قرية الكرك، حيث يقيم شيوخ العشائر والعائلات الثرية والقبائل ذات الـــشكيمة، جعلـــته أمواله شيخاً بلا قبيل، وجاءت له بالشيوخ يـــتعاملون معه، فلم ينسه هذا التحول موقعه، يكاد أن يكون الوحيد الذي لا يتذمر من مكوس وضرائب العثمانيين الروم، إذ أنه في أعماقه يعـــتقد أنه يدفع ضريبة ما نهب من خزائنهم، كان يحسب بدقة ضريبة الويركو[1]، وضريبة التمتع[2] على الطاحون، فيحملها عبئاً إضافياً على زبائـــنه ممـــن أرادوا طحن قمحهم، كما أجاد اقتطاع ما يتوقع إجباره على دفعه للاوطة، وما يتوجب عليه تقديمه للطحان ومعاونيه، واستراح مـــن ضريبة الطابو[3] بدفعها مقدماً ودون نقصان لدى نائب عجلون الشرعي حتى لا تثقل كاهله في زمن يعجز فيه عن السداد، يدفع الشيخ صـــايل استحقاقات مشيخته التي صنعها بساعده، ولا يتبرم، أما جرح قدمه الذي شوه عرقوبه وربلة الساق، فقد احتسبه عند الله، جاعلاً ما ضاع من سنوات عمره زاداً للحكايات المسائية في ليل القرية الطويل، ونياشـــين يعلقها أبناؤه الثلاثة الذين يتمخترون بين الناس في الأسواق كما لو كانوا ينتمون إلى عشيرة قوية، إذ يلين والدهم أمام طلباتهم وإن بالغوا فيها؛ تدليلاً وتعويضاً عن أبوة حرموا منها طويلاً، ابتاعوا سيوفاً علقـــوها في خواصـــرهم، وخناجر طليت أغمادها بالفضة دسوها في أحـــزمة جلدية، وتجاسروا قليلاً على إلقاء كلمات القصيد والغزل في أذان الصبايا عند مياه نبع وادي ساره، والناس الذين كانوا يقيمون وزناً

(1) ضريبة دورية على ملكية وزراعة الأرض" المسقفات".

(2) أقرب إلى ضريبة المبيعات.

(3) ضريبة تسجيل الملكية.

للشيخ صايل وقد تعودوا حكاياته واحتاجوا خدماته، وشيخوه في موقع سكنه في الكرك، أو مسقط رأسه في قرية القصر، أو لدى الفقراء في خربة جلجول، هم أنفسهم من حذروا بناهم وأوصوهن بالحرص والابتعاد إذا مر أحد أبناء صايل المدللين المترفين المفسدين بعيوهم الكحيلة الوقحة.

العلاقة المبهمة الملتبسة بين الأهالي والشيخ لم تكن سواء فيما يختص بعيسى الطحان، ربما لأن للطحان صبراً وطاقة خرافية على الاستماع إلى ما لا نهاية لحكايات الشيخ دون تسلل الوسن إلى أجفانه، أو لأنه ساعده الأيمن ومساعده الأمين في الطاحون، يشتري ويبيع ويزن ويكيل ويراقب؛ دون اضطرار الشيخ إلى الحيطة والحذر، أو للسببين معاً، أحدهما سبق الآخر، لكنهما أضحيا سببين جوهريين لنمو ما يشبه الصداقة بين المالك وعامله، لا يتحدث الطحان كثيراً حول امتنانه للشيخ صايل، ولكنه ممتن، لا ينسى أيام كان راعياً، وكيف اختاره الشيخ في عام نفقت فيه الغنم، ولم يعد له ما يعتاش منه أو يرعاه، في ذلك العام عاد صايل من الحرب البعيدة، وابتنى طاحونته، واختاره ساعداً أيمن له، فمكنه من الزواج، ثم بعدها ولسنوات عشر ظل يواسيه في فقد أولاده الذكور، ويزيد في حصته من الدقيق في سنوات المحل، ولا ينسى الجحش الأبلق الذي قدمه له ليضيفه إلى ثمن المشخص الذي اشتراه من الخانم العثمانية.

للشيخ أياد بيض، وعندما يشكو عمال المطاحن من جبروت أصحاب العمل، لا يستطيع عيسى أن يفعل المثل، لا لقلة العمل، أو عدالة التوزيع؛ يتعلق الأمر بالامتنان الصامت، واحتمال جثته للمشقة والتعب، وروحه للخسارات، وقدرتها على المسامحة واحتساب كل شر على وجهه الأجمل، وقد يكون السبب الرئيس لتلك العلاقة النادرة بين

اقطاعـــي مـــثل الشيخ وأجير مثل عيسى أبو بكر، هي مريم، لأنها من دون بنات الكرك كانت تنادي الشبان الثلاثة بأسمائهم بندية عالية، لا تـــرهب مشيتهم، ولا تصدق ادعاءاتهم، ولا تبدي خجلاً عند الغزل، تـــرافقهم دون حرج إلى سوق الكرك معلقة يحيى في خرج مربوط في جـــيدها ملاصـــقاً لصدرها، وقد يغفو على نبض قلبها الرتيب، تجتاز معهـــم المـــدخل الحجـــري في السور، وهي تتغنى بمتعة الفيء وبرودة الجـــدران وشـــذى الأزهـــار على الطريق، وتتفحص وإياهم الغلال والدواب في السوق العامر بالطيبات والباعة والمشترين، فيتركونها تملي علـــيهم مـــا تراه مناسباً، وتدلهم على احتياجات البيت، وتفاضل بين المـــشتريات وتمـــنعهم عن بعضها، وإن صغرتهم عمراً، وإن لم يعملوا بمـــشورتها تماماً، لكنهم يجدون في الصبية أختهم التي لم يحظوا بها، حتى وإن تـــصرفت كالنساء المتعففات فرمت الخلخال المعدني في وجوههم مـــستنكرة أن يبـــتاعوا لها ما لم تطلبه، رغم المشاحنات الصبيانية فإنها تـــضمر في قلـــبها اعـــزازاً كبيراً لأولاد الشيخ صايل، فقد شاهدتهم يواســـون والدها في محنته، ولم تجد في تغزلهم بها أو اعتراضهم الصبايا المـــارات غـــضاضة، وضـــحكت أكثر من مرة واحداهن ترد الغزل بالـــشتائم أو حجـــارة الطريق، مالت إلى جانب الشبان العابثين على حـــساب الـــصبايا وخفرهن، لهذا اقترحت أن تغني هفوف في زفاف متعب الابن البكر للشيخ وكأنه زفاف شقيقها.

كانت تحتضن يحيى الذي حبا، تمنعه من توسيخ جسده وثوبه بين الأتربة والحصى، تمسد شعره وتسد أذنيه بين الحين والآخر بكفيها حين تعلو زغاريد النساء، قالت:

- حلفـــتكم بالله.. خزقتوا آذانه، اصمتوا قليلاً واسمعوا هفوف، صوتها يبري العليل.

رأي الجمـــيع خدي هفوف يتضرجان حمرة وكفيها تتعاصران، وسمعوا صوتها واثقاً لا يرتعش:

- *وأنا طايح البريه، وأدور على الغزلان، لاقتني ع دربـــي صبية، تـــشبه مطرق الريحان، يا سحره كحل عينيها، يا زين الشعر والغرة.. يا ويلك يا قلبـــي عليها، وين تروح بنار الحسرة؟* [1]

هتف أشقاء العريس معاً:

- *الله.. الله..*

ثم كرر الناس الهتاف:

- *الله.. الله...*

شـــدت أم هفـــوف، زوجـــة الحلاق الشلبـــي، شحمة أذن بنتها لتسكتها وتخفف من اندفاعها وحماستها، لوت الصبية شفتيها ونظرت نحو الجمـــع مستنجدة، فأغاثوها؛ وبخوا أمها، وأصروا على سماعها مراراً وسط حلقات الدحية والهجيني[2]، تجلي صوت هفوف مثل ماء عذب سلسبيل.

نقص أولاد الشيخ صايل في مسيرتهم الاستعراضية اليومية واحداً، حـــيث التزم العريس الجديد ببيته وعروسه، ولم يعد يتسكع مع أخويه مـــبرزاً خنجـــره الفـــضي، حام الآخران حول مريم، يسمعون أخبار هفـــوف، ويتحينون الفرص مع صاحبتها الفاتنة بنت الحلاق، صاحبة الـــصوت الـــشجي والـــنهدين الصغيرين كحقي عطر، تسلت مريم بالاخـــوين المفتونين لفترة، ثم أحست إنها في طور الصبا؛ يستحسن أن تجد لها وليفاً، قالت لابن صايل الأصغر:

- *ولد يا مصعب، اقلع عينيك باصابعي إذا نظرت إلى صديقتي، أنت حصتي.*

---

(1) من الغناء الشعبي.

(2) أنواع من الغناء والرقص الشعبي.

كأنها مازحه، إلا أن مصعب انتشى، وتوهم حول فحولته ما يجعل البنت الصغيرة تعرض قلبها عليه قبل أوان نضج القلب، هكذا كف مصعب عن التحويم حول هفوف، منتبهاً للتغيرات التي تطرأ على رفيقتهم القديمة، فأخلى الدرب طواعيه لشقيقه منصور ليكون العاشق والمرشح الوحيد لترضى عنه بنت الشلبي، لم يكن منصور يمانع في حمل يحيى فوق كتفيه والسير وراء مريم إذا ما قالت له باستغلال مكشوف وهي تبرم ذيل جديلتها فوق سبابتها:

- أحب ازورها، ولكن يحيى صار سميناً، ما شاء الله، حمله ثقيل، ما شاء الله، ولم أصنع له حذاء بعد، انتظر حتى تشتد قدماه، سنة، أثنين، لا، لا لن أذهب، بيت هفوف بعيد، ستتكسر ساعدي من حمله.

يرفع منصور يحيى متبرعاً فوق كتفيه، ويثبت كفيه فوق عقاله، فيزيح الصغير الحطة ويعبث بشعرالشاب وينكشه ضاحكاً، يسبقها الشاب خطوتين:

- سيري.. وأنا أحمل لك يحيى.. نخدمك، ويحيى باشا، وهفوف خانم بعيوننا.

تتضاحك مريم وقد أوقعت بالفتى، إذا وصلت حجرتي الطين التي يسكنها الشلبي وأسرته، تلقفت يحيى وهو يرمى بجسده بين ذراعيها قائلة:

- مشكور يا أخي.. نشمي ما تقصر.

تلتقط منه جسد يحيى بهمة ونشاط، وتختفي به وراء باب المطهر الحلاق، ومنصور على وقفته لم يحظ إلا بهنيهة قصيرة لاح فيها طيف هفوف وهي تستقبل صاحبتها، قبل أن تتواريا خلف جدار الطين، يقسم إنه يسمع قهقهات البنتين تضحكان منه وعليه، لكنه لا يتزحزح؛ منتظراً الملعونة مريم.

تتسار البنتان بحبور حول العاشق المرقوم قرب حائط البيت منتظراً، تقول مريم:

- *غداً تتزوجين منصور، وبعدها أصير سلفتك، أتزوج مصعب.*

تتدلل هفوف:

- *لو دفع ألف وميه.. أمي لن تزوجني مثل باقي البنات، أبوي يقول: ليس سليماً أن يعبث بي رجل قبل البلوغ.*

تضحكان.

- *يا مخبولة.. ألم تبلغي بعد!!.. لماذا إذاً تكور نهداك مثل امرأة؟؟..*

ترتمي هفوف على ظهرها ضحكاً:

- *لاغيظ بهما الحساد.*

تقهقهان بمجون والصبي الصغير يحيى ينظر سعيداً ثم ينفرط مشاركاً إياهما الضحك، ويتململ منصور في الخارج شوقاً وغيظاً، وإذا ما شاهد المطهر الشلبي عائداً إلى بيته؛ تحرك بعيداً وقد أيقن إن مريم ستتركه طويلاً عند الباب وهي تسمع للشلبي يحدثها عن أعشابه وأدويته.

تقوم مريم بمهام امرأة البيت كاملة، لم تشاهد دون شقيقها أبداً، ترعاه وقد وجب أن يرعاها، لكن فارق العمر واليتم جعلاه ولدها الذي لم تلده، تربطه بخريطة تعلقها في عنقها، وتذهب لأداء مهامها، والفتي الذي يحب رائحة عرقها وشذى وفوح نبات "الديرد" الذي باتت تخبئه في كيس ملفوف باحكام ومخاط في ثنية ثوبها، يتململ، ينتهز فرصة جلوسها للانفلات وتدريب قدميه.

انتبه عيسى لتلك العلاقة الوثيقة، واكتفى بالهمس برزانة:

- *يا بنت، اتركي الولد في حاله، لا تسخطي رجولته، دعيه يشتد، ويصير رجلاً، بعد عام أو عامين أو ثلاثة، سأرسله إلى المولى*

ليـتعلم في الكتاب، ها.. أتظنين أن يحيى سيكون مثل اخريين!! لا، لن يكـون مـثل أولاد الرعيان، بل مثل أولاد الشيوخ، سيكون مختلفًا، سيتعلم القراءة والكتابة، ويحفظ كتاب الله، سيصير له شأن كبير.. لهذا أكرمنا الله به.. اتركيه، لا تخنقيه بمحبتك.

تفـزع مـريم لـدى أي انتقاد يؤشر على خطأ ترتكبه في حق الـصبـي، لو كان الأمر راجعاً إلى عواطفها لما تركته يفارق صدرها، لكـنه يكبر، هي نفسها تكبر، وتتعرض إلى مزيد من نظرات مصعب الفاحـصة الولهـى، الذي صير المزاح جداً، كما أن الدم الذي فاجئ صـاحبتها هفوف، نبهها إلى أن دورها قادم، وأن دربها سيتغير، وقد يعجـل بأوان انفصالها عن يحيى، وإذا كانت ستترك الصغير ينمو دون عوائـق محبتها ومخاوفها، فإن لها انفعالات لا تخفيها، فقد شهقت مثل مذبوحة حين وقع يحيى وهي تفلت يده في يومه الأول لدى الكتاب.

تشد ذراعه وتقترب به من شجرة البطم الضخمة والتي تميزت في مـدخل قـرية الكـرك، وجلس في فيئها المولى الشيخ أمين والصغار مـتحلقين حوله، وقد حملوا عيدان القصب، ومددوا أمامهم قطعاً من ورق الكدش الخشن وأقمشة البفت، وبعضهم جاء بقطع معدنية صغيرة قـدت مـن تنكات الزيت التي يرسل بها الأتراك لموظفيهم في القلعة والحجـرة العسكرية، بدا منظر الصغار جميلاً وهم يغطون عيدانهم في الهباب الممزوج بالزيت، ويخطون أحرفهم الملتوية فوق التنك والكدش، لكنها لم تطمئن، وقفت على بعد خطوات وهمست:

- *ها يحيى؟.. تريد مشاركتهم؟؟*

سحب كفه من قبضتها، وتقدم خطوات صامتاً، أقعى قرب أخر ولد في صف الكتاب، وغمس أصابع يمناه في الحُق المملوء سائلاً أسود، متمهلاً، ثم أخرجها، ونظر متعجباً وأنامله تقطر بالسائل الداكن اللزج.

ضحك الصغار، فأسكتهم الشيخ أمين بصوت أجش:

- هش.. هششششش، يا بنت، هل أحضرت ثمن التحاق شقيقك بنا؟؟

رفعت مريم رأسها مستفسرة وهي تمسح أنامل يحيى بطرف ثوبها متضايقة:

- اليوم!!

- غــداً.. هــاتي اللي يقدركو الله عليه، وارجعي بالولد باكر، رغيف، كمشة طحين، بيضة، اللي يقدركو الله عليه.

تنفست الصعداء؛ إذ لم تكن مضطرة لترك شقيقها تحت رحمة أستاذ الكتاب وبرفقة الأولاد الذين تباينت أعمارهم، وضحكوا من صــغيرها بأصــوات ساخرة، لفرط عجلتها في الانصراف، تعثرت بحجــر في طريقها، ثم توازنت، لم تقع، لكن كفها سحبت الصغير؛ فانــزلق أرضاً، تمدد يحيى على بطنه بالكامل، وصاحت مريم صيحة أفزعت التلاميذ والمولى، ثم هرع الجميع إلى الولد الذي وقف ينفض الترب عن ثوبه الجديد، وأخته تتفقد ساعديه وقدميه وصدره ورأسه متلهوجة.

تذكــر أهــل الوادي الصخب الذي أحدثته الصبية يوم كانت تــبحث عــن المشخص، مارست نفس الفزع والانخراط الكامل وهي تعَــزم شــقيقها في المكان الذي وقع فيه.. ولم يفلح الشيخ أمين مولى الكــتاب في ثنيها عن طقوسها، حتى وهو يقول لها إن آيات قليلة من القرآن تقرأ فوق رأس الصبــي، كفيلة بحمايته، لكنها وقد سمعت من فــم الدايــة مخاطــر غــضبة الأشرار من أهل الأرض، وكبار الجان، وتربــصهم بكل من يجرؤ على سحق أرواحهم التي تسبح فوق الأرض مباشرة؛ فقد فزعت، وناجت ربها ليلة كاملة:

- ربـــــي ورب كل العباد.. كله ولا يحيى.. لا تفجعني به، لا تذبح أبـــي بسكين، منذ سنوات أربع، وأنا أداريه مثل ذبالة سراج.. ربـــي، لا تمكن سكان التحتى الأشرار منه.

وفق ما علمتها الداية، نصبت مريم قصاصة من ثوبها على عود في ذات البقعة التي سقط فيها الصبـــي، فردتها مثل خيمة، وأشعلت سبع ذبالات حول نصبها، وأحضرت كل ما في البيت من مؤونة، وأضافت ما منحته هفوف وما قدمه بيت الشيخ صايل.

وضــعت بقجـــاً من الدقيق والشعير والعدس، وجراراً من الماء واللـــبن الخاثر، وحزماً من البخور والطيب والحناء، وسلالاً من العنب والـــتين العسلي، أجلست الصغير تحت الشجرة وقد هجرها التلامذة وأستاذهم مؤقتاً ريثما تنتهي مريم من فعالها.

حملـــت جـــرة الماء ودارت سبع مرات حول الصبـــي ونموذج الخيمة التي أقامتها؛ تبتهل:

- يـــا ســـامعين الـــصوت، صلوا على النبـــي... أولكو محمد، وثانيكو علي، وثالثكو فاطمة بنت النبـــي.

تجرح صوتها بالبكاء، وتبلل وجهها دمعاً، وهي تجوح:

- يا هند الهنود، يا سمر الجلود[1]*.. الغايب احضروه، والنايم اقعدوه، ودخـــيل ع المـــال والعيال.. خذوا هديتكوا، وفكوا شكيتنا... فكوا يحيى ابـــن نفـــل وعيسى أبو بكر.. فكوا حبيب أخته مريم بجاه مريم والمسيح، خذوا علف لخيلكو، ملح لزادكو، حنه لاولادكو، بخور لعجامكو، دخيل ع المال والعيال. لا تقربوا شقيقي بسوء، والحاضر يعلم الغايب.*

تدور مريم ملتاعة وترش ماء جرتها على الأرض وجذع الشجرة، ورأس الـــصبـــي، ينظر يحيى مذهولاً إلى أخته وثوبها يطير مع دورانها،

---

(1) تعابير في مخاطبة الجن.

فعلت مريم فعلتها بذات الشجن ثلاث ليال متوالية، قبل أن تنصرف إلى صباغة قطعة من جلد البقر نقعتها في وعاء نحاسي بالماء والسماق، ونشفتها في الشمس أياماً وحاكتها حذاءً لقدمي شقيقها الذي لا بد سيوافي الطلبة تحت الشجرة يوماً.

صار لازماً أن يفارق الطفل هوايته الغريبة في تتبع مساقط الضوء المنسكب من فجوات قماش الخيمة الصوفية، وملاعبة الشعاع المارق في قلب العتمة، أو تدوير مخروط البلبل الخشبي في دوامة يظل يرقبها مفتوناً، مندهشاً للسر الذي يجعل البلبل يدور بسرعة حتى تكاد لا تراه، ثم يتباطأ ويترنح ويقع.

سخط عيسى لافراغ الدار من الغلال، إلا أنه لم يجرؤ على الاعتراض، قال للشيخ صايل:

- هذه البنت تجوعنا لأجل عيونه، ربي يرحمنا من الخطا.. ماذا لو كانت الداية على حق! وأغضب الولد عفاريت الأرض! الله يرحمنا.

فيجيبه صاحب الطاحون:

- حق!! أنا أساهم بما تطلبه البنت لأني أريدها حليلة لولدي مصعب، أعاملها على قدر عقلها، لكن هذا جنان نسوان، جن وعفاريت!! كيف تصدق يا رجل؟ الذي راح مثلي إلى مالطا وقبرص، وشاف الهول، وركب سفينة العلج إلى ساحل ايطاليا، ودار بالبحر أشهراً وسنوات، لا تركب هذه الحكايات في عقله.

يتأفف الطحان ضاحكاً:

- يووه.. أنت بارع في ايجاد مدخل يجعلك تحكي عن قبرص ومالطا وسفينة البحر... ها!! ماذا تذكرت؟

يترك الطحان الحبل للغارب للشيخ صايل ليتحدث عن مغامراته حين ركب السفينة برفقة الفلسطينين ويهود نابلس والجليل، الصناع

المهـــرة والـــتجار الحذقين، الذين أمر الباب العالي العثماني بترحيلهم ليعمروا أسواق الأرض الجديدة التي دخلها العثمانيون، قبرص، الفقيرة الخالـــية من التجارة والصناعة، يفتح عيسى عينيه موهماً معلمه باهتمامه بالتفاصـــيل؛ فينسيه سيرة زواج مصعب ومريم، إذ اكتشف على حين غـــرة أن البنت راحلة إذا ما بلغت سن الزواج، ولم يكن أكيداً ما إذا كانـــت بلغت سن الزواج، على الرغم من أن أمها كانت أصغر منها حين اتخذها زوجة، ولكنه يتذكر انتظاره لعامين قبل السماح له بمقاربة امرأته، تقض الأفكار مضجعه ليلاً، وينكرها نهاراً، لهذا فغر فاه بتعجب واستنكار والشلبـــي يقول له:

- *لنـــزوج البنتين معاً.*

ربما كانت هفوف جاهزة لحياة جديدة، تبدو امرأة كاملة الانوثة، تـــسبق عجيزتها إذا سارت، وينثني خصرها، وتفوح أردانها عطراً مثل النساء، أما مريم!!

ينكر الطحان على صغيرته مغادرة داره، من للصغير؟ من للعجين والتحطيب؟؟ يتذكر نصائح الأصحاب حول ضرورة وجود انثى تعينه علـــى الدهـــر، لقـــد عوضه الدهر عن انثاه بابنة عمرت بيته؛ يحتفظ بمخاوفـــه لنفسه وهو ينظر إلى الفتاة التي صارت امرأة في غفلة، تقود شـــقيقها إلى الكـــتاب منتعلاً حذاءه الجديد خلافاً للصبية الحفاة، لا يتصور ابتعادها عن خيمته.

لم يـــتمكن الطحـــان مـــن رفض هدية الخطبة التي قدمها شيخه صايل، لأول مرة يشعر بثقل أن يكون الشيخ صايل رب عمله، لم يكن مضطراً لمثل هذه الهدية القيمة، لو قدم دجاجاتٍ أو خروفاً على أحسن الأحوال لرفع عنه الحرج، لكن رب العمل ينفخ صدره ويقول متبجحاً إن مصاهريه سيحظون بخير كثير، وبحبوحة لم يحلموا بها، وما هذه إلا

هدية متواضعة للخطبة، أمسك عيسى بالربيبان[1]، مددها بين ذراعيه، فخشخشت الريالات الفضية في طرفها، قال ببرود دون اهتمام:

- البـــنت بنـــتكم.. ومـــا تهدونه من غالي أو رخيص، هو مهر لواحدة ستكون في بيتكم.. كله يرجع لكم..

ابتلع الشيخ صايل صدمته في استهانة صاحبه الذي لا يبدي فرحاً ولا ابـــتهاجاً بالهديـــة كما فعل الشلبـــي... ونظر بشك إلى صاحبه يتململ ويخترع أسباباً للتأخير:

- اصبروا علينا إلى أن نطهر الولد.

لم يكـــن ختان يحيى مجرد احتفال عابر، فمريم وان كانت أساءت التدبير فأضاعت مؤونة العام بطرد الجان واسترحامهم، إلا أنها تمكنت مجـــدداً مـــن جمـــع طعام كثير، بل وابتاعت من دواج بدوي دفاً له خشاخيش رقيقة بقصد احياء ليلة الختان، جهزت لحفل طهور مختلف، طلبت من مصعب ذبح خاروف ابتاعته من سوق الكرك، عجنت خبز القمـــح بكـــرم كبير، واذابت قطع الجميد المتحجرة في الماء، ومرست الحجارة الحليبية لساعات، تحكها حتى يتختر الماء باللبن.. رائحة اللحم المغلي على أثافي الحطب، والجميد والثريد كانت بمثابة دعوة لكل محب لحـــضور الاحـــتفال بختـــان يحيى، الذي بدا جميلاً وقد عقص شعره، وتطـــيب، وارتدى حلة بيضاء جديدة، علّق في ياقتها حرز قماشي فيه قطعـــة مـــن الشب[2]، وآية قرآنية خطها معلم الكتاب على رقعة من الكـــدش، وخاط فوقها خرزة زرقاء جلبتها مريم من شق في الصخور الفيروزية[3] غرب الكرك، قالت نساء الخربة:

(1) جديلة من الصوف مشنشلة بالفضة أو الذهب تستخدم في رأس العروس.
(2) حجر أبيض يعتقد ببركته.
(3) حجر يوضع لمعالجة الحسد.

- البنت شايفة الضو طالع من طيزو.

زغردت النسوة والحلاق المطهر الشلبـــي يقص بعناية شعر الطفل الذي طال حتى كتفيه مبقياً زغلة بنية ناعمة الملمس في منتصف رأسه، وتوشوشـــت النـــسوة متسائلات حول الربيبات التي تلبسها كل من هفـــوف ومـــريم يتغاوين بها محدثات صليلاً وهن يتحركن بين النسوة يقدمن الزبيب والقلية في كمشات سخية، إلا أهن أطلقن زغاريد بهيجة وقـــد انتهى المطهر من حلاقة الرأس، وعندما أُجلس الفتى على فرشة عالـــية وأحاط به أبوه وأولاد الشيخ صايل، تنحت النسوة قليلاً وهن يواصـــلن الـــزغاريد، وغطت مريم عينيها الدامعتين بكفها، وأشاحت بوجهها حين رفع المطهر ثوب الصغير عن عضوه، ارتعش فؤادها فرقاً، فاحتضنتها هفوف هامسة:

- إيـــش قلـــة العقـــل؟ كـــل الاولاد يتطهرون، شفرة أبـــي حنونة.

هلل الرجال ثلاثاً قبل أن تغنى النسوة:

- يـــا يحيى في يوم الوعيد لا ترمش عينك... ايبييه... قلبك خله حديـــد، والمعلـــم قله هات زيد.. ايبيه... اقرب لي لا تجلس بعيد... والشفرة منها لا تحيد... ايبيييه.

بكت مريم بحرقة حين سمعت صيحة الصغير وقد ختن، ولكنها لم تـــنسَ واجـــباتها، تـــركت شقيقها للمطهر والداية، وتشاغلت بجلب السدور النحاسية المعرمة بالثريد واللبن المطبوخ واللحم، وأعمل الرجال أيـــديهم في الهفـــيت[1] الذي تسبح السمنة على سطحه، ورغم توقف بكـــاء الـــصغير الذي هده الفزع والتعب، وميله إلى اغفاء؛ وقد سُقي زهـــور المليـــسه المخدرة لتخفيف ألمه، فإن مريم ظلت تتلفت متفقدة

(1) طعام شعبي من الثريد واللحم واللبن المطبوخ.

بعينـــيها مطرحه، بعض النسوة قدرن خوفها على شقيقها، وأخريات حملـــن الأمر على محاولات البنت لفت الانتباه للربيبة التي تنتهي بداوئر فضية تخرخش كلما تحرك رأسها، تمسك بها هفوف من الخلف تمازحها وتستعرض ربيبتها:

- *يسعد ذيل الفرس الأصيلة، ارفعي الأكل حتى أغني شوي.*

رفعـــت الأسمطة من حضرة المحتفلين، وتراقصت شعلة النار فوق الحطـــب الذي يحترق ببطء في المنقل تحت دلال القهوة، وما أن خمدت الشعلة ولون وهج النار الوجوه الراضية المستبشرة، ورقت نسائم الهواء حـــتى أطلقـــت هفوف صوتها دون خشية أو خفر، بدت أكثر ثقة مع انبعاث صوتها يهيجن شجياً:

-الـــبارحه العـــين مـــسهرها...

عـــند اللـــي قـــروتها اردافي..

ياخـــوك.. يـــوم اتذكـــرها...

افـــر مـــن مـــرقد دافي..

اوصـــــفك لا تنكـــــرها...

بيـــضا هـــدب رمـــشها ضـــافي..

والعـــين ياخـــوك ماكـــبرها...

يـــشداك جـــم البحـــر صـــافي[1]..

فغـــرت النـــسوة أفـــواههن، ومالت رؤوس الرجال وانحبست أنفاســـهم، وتعلقت عيون منصور وجف ريقه، وتحرك يحيى في مرقده دائخـــاً، ضـــربت الفتـــنة المحتفلين بختان الصغير وهم يعجبون لطلاوة الـــصوت، وأعمتهم عن رؤية الظلال التي وقفت قبالة الشق، كما لم

---

(1) شعر شعبي.

يتنـــبهوا لايقـــاع سنابك الخيل التي توقفت، ولا للرؤوس التي تطامنت دهـــشة فوق الأحصنة المطهمة، لهذا حين التفت متعب وفز كالملذوغ من مقعده، انقطع القوم عن شغفهم الذي أذهلهم وهم يسمعون الشدو الجميل، وبُتر صدى الصوت الحريري الذي تردد في فضاء الليل، قاموا تباعاً ينظرون إلى الضيوف الواقفين بباب الشق والذين استرقوا السمع للغناء الشجي، بعض الجالسين هللوا.. الله واكبر؛ فالخيل بدت فاتنة في ضـــوء القمـــر، والرجال الذين اعتلوا صهواتها ارتدوا ما يبرق ويلمع، هرع كبار القعدة للترحيب بالضيوف.

ظـــل عيـــسى مقرفصاً إلى جوار ولده، والتمع الشرر في عينيه، لم يـــتهج؛ فقد ميز الجمع في لحظة وقوفه، عثمانيون خارج خيمته يتمتعون بطقـــوس خـــتان ولـــده! تجاهل حراك الرجال غيظه وجلسته المستنكرة، وغلـــب عليهم أصول لقاء الغريب والترحيب به، الوحيد الذي عرفوه بين الراكبين، أوطة باشا العسكري ساكن السرايا جامع الجباية، والذي تضاءل ظله فجأة؛ وقد جاوره على حصان فحل رجل جهم مثقل بثوب من جوخ الصايا المبهرج والمطرز بخيوط ذهبية، التمعت خيوط ثيابه المغايرة على وهج نار المنقل، وظلال القمر المطل على المشهد، همامس أوطه والضيف الجهم، ثم تحدث مع الجمهرة المحتفلة؛ ينقل رسالة الضيف الغريب:

- مبروك احتفالات.. جميل.. ضيفنا... عمدة الأماجد والأكارم الفخـــام عـــزتلو، القائمقام كارتال، يقول: مبروك، احتفالات جميل.. وصوت جميل.

تـــوارت هفوف خلف كتف أمها، و لم يلحظ أحد تلك القسوة الـــتي اعتـــرت ملامـــح مريم وهي تنظر بحقد إلى الوفد الهائل الذي لم يستجب لدعوات الكرم التي أطلقها البعض على حذر، لكن لفوا أعناق جيادهم ومضوا مبتعدين.

كان مرور القائمقام غريباً، فهو لا يعمل في تلك النواحي، وقلما يمـــر مـــسؤول إداري رفيع المستوى على هذا النحو من المكان، وإن حدث وجاء كبير من الباب العالي؛ فإن رؤية طلعته البهية تكون حكراً علـــى شيوخ القبائل في القلعة، تذكر الرجال بعض الشائعات، وحاروا في صحة ما قد يكون سبباً لوجود مثل هذا الوجيه في المكان، إذ سمعوا بـــرغبة العثمانـــيين في جعـــل قرية الكرك ونواحيها لواءً أسوة بالمدن الكبرى، لأنهم وإن كانوا على درب الحجاج، فقد شهدوا مرور النساء الخـــوانم رائحات غاديات إلى مكة، أما الرجال العثمانيون من الحجاج فقلمـــا كـــان يمرون من المكان؛ لهذا توجسوا، قال أحد الرجال، إن علـــيهم إرســـال مبعوث إلى بيت أوطه باشا يستطلع أسباب تشريف القائمقام نواحيهم، انفجرعيسى مغضباً:

- *بيت الباشا!!*

صـــمتوا؛ تظاهـــروا كأن شيئاً لم يقطع بهجة حفل الختان، اصطفوا لرقصة الدحية، و لم تعد مريم إلى سابق نشاطها، كأنها قنديل ينوس ضياؤه.

تعـــافى يحيى سريعاً منشغلاً باللعب مع حزم الضوء التي تدخل إليه في مـــرقده، ذلك شعاع خفيف وذاك ساطع، ذاك خفي وذاك ظاهر، وذاك ســـاخن وســـواه بارد، فيما تجعله دوامة البلبل الخشبـــي الذي ابتاعـــته له مريم من دواج[1] عابر، يراقب المدة الزمنية لدوارن الخشب فـــوق الحجر الأملس قبل تطوحه وتوقفه واقعاً على الأرض، ويكتشف طول مدة الدوارن كلما زاد التفاف أصابعه حول المخروط قبل إطلاقه لحركته السريعة.

انصرف عيسى إلى شؤون تتعلق بالطاحون، أما رجال القرية فقد اجـــتمعوا مـــرات وتفاكروا وتعجبوا وتحدثوا بتفاصيل كثيرة، استبعد

---

(1) بائع متجول.

الـــشيخ صايل أن يكون الضيف العالي الجناب في بيت أوطة باشا قادماً لجمع الرجال للخدمة العسكرية، فقد أطال المكوث، وبدا مدنياً يسوح في المكـــان على دعه، كما لا يمكن أن يكون مسؤولاً عن جمع الجباية، فرجال المحصلجية من الجند يقومون بالعملية بطرائقهم الفظة في حزيران وأوقات متفرقة إذا عن لهم، والباب العالي لا يرسل عادة رجلاً له كل هذا البهاء النبيل والأبهة ليقوم بمهمة خسيسة.

أحدث مرور الرجل بالديار ارتباكاً، واسترقت النسوة النظر إليه يتمـــشى في حوض الفول وراء بيت الاوطة حاملاً شمسية أنيقة، أنسى الجمـــيع ما كانوا يتأهبون له فرحين من احتفالات بزفاف ابني الشيخ صايل الذي انشغل بالغريب أيضاً ولم يقدم على خطوة تالية بعد اهدائه الكـــريم للـــربيبات الفـــضية، ولأن الرجل تأخر؛ وانشغل بتحركات غامـــضة، وسمعت مريم وشايات النسوة عن زيارات متعب ابن الشيخ البكـــر المتكـــررة لبيت الباشا، فإنها بعتب وصمت تام خلعت الربيبة، وأودعتها صندوقها، وقلبها يقول إنها ستعيدها إلى صاحبها ولن يكون زفاف.

تظاهـــر مـــتعب بالتردد والخجل وهو يرافق والده لشرح موقفه لعيسى الطحان، في أعماقه كان منـــزعجاً؛ لماذا عليه نيل مباركة أجير الطاحـــون عـــندما يتعلق الأمر بمستقبله وحياته!! لكنه طاوع والده، وتظاهـــر بالتواضع الجم شارحاً أهمية السعي لدى القائمقام لتنصيبه في موقع المختار.

تمتم عيسى:

- *المختار!*

- *المختار يا عمي.. قيمة ووجاهة سيحسدنا عليها أبناء العشائر، القائمقـــام مكلف باختيار مختار من أبناء الناس الذين يعرفون بعضهم*

بالناحـــية، يـــريدون من يكتب ويقرأ، لأن الكرك ستتبع ثمد البلقاء، الأمور ستتغير، هذا أمر مليح يا عمي، لا تزعل إذا قعدنا بدار الاوطة، القائمقـــام يـــريد ذلك، تعرف ماذا يعني المختار؟ صحيح وجع رأس وتعـــب، ولكن فيه فائدة، أقبض كل أربعاء راتبـــي مع العسكر، أي والله، بانـــتظام يـــا عمي، لا أنتظر موسم، ولا زبائن فقراء يستدينون ويسددون على الحصاد، في النهاية، الخربة تستفيد عندما يكون مختارها منها، أليس كذلك؟؟

كأنـــه يسأل الموافقة، ظلت عينا عيسى محنطة محايدة، و لم يعكس وجهه ضيقاً ولا ارتياحاً، وواصل متعب تبريره:

- المختار يساعد في تحصيل الجباية؛ نستطيع أن نقيم المبالغ دون جور الاوطه، والمختار يجلب المطلوبين، ويخبر عنهم، يعطي المعلومات، ويساعد في ضبط أمور العباد، وكف الزعران عن الخربة.

وقـــف عيسى، وجر عصاه خلفه فرسم في الترب خطاً مستقيماً عميقاً وهو يمضى هامساً:

- ربك اللي يختار، المختار.

اعتـــبر مـــتعب الكلمة موافقة وتوافقاً ضمنياً، ما دامت لا تحمل رفـــضاً معلناً، قد يكون هناك بعض العتب الذي يمكن تجاوزه، كما أن صـــايل تكـــتم على الهدايا التي رشى بها الاوطه لتسهيل اختيار ولده، تضامن كلاهما على سرية تحركاتهما ريثما تنقضي حاجتهما.

بعـــد زيارات قصيرة لبيت الاوطه، باشر متعب عمله في تسجيل الأملاك والنفوس والديون بجدية كاملة، قام باستخدام حبر خاص أسود شـــديد اللمعان منحه إياه الاوطه، وانشغل في بناء حجرتين قرب بيت والـــده، إذ لا بـــد للمختار من بيت مستقل، وراحت زوجته تشتري المـــزيد من الثياب والعصبات الحريرية الدمشقية التي يأتي بها الباعة إلى

ســـوق الكرك، كما كلفت النسوة بتطريز عدد من الثياب مثل نساء الـــشيوخ، لأن ما حل بحياتها كزوجة موظف عمومي؛ أهم بكثير من زفافها وحملها بوريث لمتعب.

تعافى يحيى من أوجاع ختانه سريعاً، وفي اليوم الأول الذي عاد فيه إلى الكتاب، شاهد المولى أمين المعلم يقف صائحاً منددا في وجه متعب الـــذي يسترضيه ويحاول التخفيف من غضبه، لم يفهم يحيى ما يدور، وإن سمـــع اســـم هفوف يتكرر، ولكن مريم فهمت وغضبت، شتلت ذراع شـــقيقها بقـــسوة ناكصة في دربها، مشت بغيظ وداست فوق حـــبات البـــندورة المـــزروعة في طـــريقها، وكسرت أغصان الرمان المتـــشابكة، ولم تلتفت ويحيى يصيح جراء عود خدش وجنته، التقطت أنفاسها وتوقفت عند باب الشلبـــي.

وجدت هفوف وأمها يبكين بحرقة، فخمد غضبها، لوهلة شكت إن صديقتها تتواطأ مع متعب على تنفيذ طلبه، ولكن دموع الأم والبنت بينت أنهمـــا مغلوبـــتان علـــى أمرهما، لم يكن الشلبـــي بالبيت، وازداد عويل النسوة، لطمت الأم وجهها وهي تشرح بوجيعة كيف جاءها متعب برغبة الاوطة والقائمقام اللذين أرادا هفوف لتحيي أمسية من أماسيهما في حجرة الـــسلاملك الخاصة بالبيت المحرم على الفلاحين، تمنت هفوف لو كانت صـــماء بكمـــاء، لو انشقت الأرض وابتلعتها، لو قطع لسانها أو ماتت في عـــداد مـــن ماتوا سنة الصخونة، ولم يجرؤ متعب على هذا الطلب الذي يدعي إنه الزامي، دونه غضبة الاوطي والتنكيل بها وبأهلها، لم تعرف لماذا تـــوجب عليها الغناء في بيت ذاك الشيطان؛ وأعولت مريم معهن، وفكت هفوف ربيبتها وألقت بها أرضاً شاتمة الشيخ صايل وأولاده، نائحة.

لم تـــنم القـــرية ليلتها، طأطأ الشلبـــي رأسه خجلاً وهو يتلقى ملامات الجالسين صامتاً، في حين راح متعب يوضح خطورة الامتناع

والرفض لطلب القائمقام، ويهون من أمر ليلة تغني فيها الصبية في بيت الباشـــا، بكى الشلبـــي، وعاهد الجمع على الرحيل من القرية بزوجه وعياله جعفر وزيد وهفوف إذا بزغ صباحه.

تـــبعت النسوة متعب الذي قاد الفتاة، رجمنه بالحجارة ثم توقفن خوف اصابة كتفي البنت المنحنيتين ترتجفان، وبصق الرجال أرضاً وهم يصرخون بالشيخ صايل قائلين:

- هـــذه أول مهـــام المخـــتار الجديـــد يا ديوث؟ تشغل بناتنا للتسري!!.

ارتمى الشيخ صايل متوجعاً قرب المنقل المنطفيء وصاح:

- خافـــوا الله.. الـــولد خـــرج عن طوعي، وهو ملزوم، أهيل الـــسكن علـــى راسي ولا يدخل بيتي، لا ولدي ولا أعرفه، عساكم راضيين!!

دب الـــشيخ صايل كفيه في رماد السكن الدافئ في قلب المنقل، عـــبأ كفيه بالرماد، ومرغ به رأسه ووجهه بهستيرية وهياج، فانتشلته ذراع عيـــسى القوية من وسط عفار الغمامة التي أحاطت به، وجعلته يسعل مختنقاً، أسلمه إلى إبنيه الخجلين، وصاح بصوت قوي:

- وحد الله.. كل شاه معلقة بعرقوبها.. وانت أخونا أبد الدهر.

نامت الديرة على وجع؛ التمت النسوة حول أم هفوف مواسيات مهونات من نتائج تلك الليلة المشؤومة، قلن: هي ليلة وتنقضي، تضيع في الزمان، شتمت الداية الاوطه وضيفه، كما صبت لعناتها على متعب، في حـــين ظلت مريم صامتة مكفهرة الوجه، حتى إنها لم تتنبه إلى تسلل يحيى مع الصبية خارج بيت المطهر الحزين.

يحفـــظ الصغار الدرب ليلاً حتى في غياب الهالة القمرية التي تلف المزارع، يمكنهم تتبع ضياء الفانوس الشحيح الذي يلوح من شباك بيت

الباشا، كما يمكنهم التحرك بخفة دون إثارة ضوضاء تكشف مسيرهم، لم يتوقف أي منهم لارجاع أصغرهم؛ فيحيى الوحيد الذي يرتدي حذاءً، وليس من المرجح أن يشكو أو يحدث صوتاً يكشف تحركهم، كما أن ضألة جسده ساعدهم على رفعه فوق أكتافهم حتى تمكن من الإمساك بدرفة النافذة العريضة، وعاين المشهد بوضوح داخل ايوان السلاملك المضاء بالقناديل في بيت الباشا.

ألحوا عليه:

- ها؟ ماذا ترى؟

همس مصاباً بنفس النشوة الغامضة التي شعرها مرة موجوعاً يوم ختانه، وعاودته ناعمة بلا وجع تلك اللحظة، بل مجرد دبيب خفيف رشيق يسري في الروح:.

- تغني.. هفوف تغني.

أصغوا السمع؛ وتمكنوا من التقاط الصدى الرقيق الصافي لصوتها، أما يحيى فقد رأى بوضوح جسدها ينفرد، ووجهها يأتلق وهي تقف قبالة القائمقام الجالس وحوله جمع الرجال، لمحت الوجه الصغير المدور من شق النافذة؛ فعرفته، ابتهجت عيناها وصدح صوتها؛ كأنها تغنى له وحده:

- خاتم حبيبي وقع بالبير.. له رنة..

واللي سمع رنته.. مرهونة له الجنة.

يا من لقى محرمة بالسوق.. مرمية.

فنجان يا اللي انكسر.. رنت فناجينه(1)

* * *

(1) غناء شعبي.

لم تـــرجع هفوف من بيت الباشا صباحاً، وجهد متعب وهو يـــشرح للجميع رغبة القائمقام باصطحابها إلى استامبول في مهمة تجعلها مطربة ذات شأن وشهرة ومال، زين ما وراء ذلك من منافع لذويها لا تقدر ولا تحصى، تفجر غضب الرجال، ودارت الرؤوس ريـــبة، وحلف عيسى بتراب أبويه وزوجه، إنه سيذهب إلى الكرك ويعود مصطحباً شيوخها لوقف هذا الإذلال، وتظاهر متعب مجدداً باسترضاء والده، الذي لم يرض، بل هدده ومنعه من دخول البيت حـــتى يعـــيد البنت، ويرجع شقيقه منصور الذي هج ليلاً غاضباً، وصاحت أم هفوف:

- والله.. ونبيه محمد.. وعيسى، وعلي وجعفر، ما تصل هفوف بيت الشيخ صايل عروس لولدهم؛ لو أموت، ما أصدقهم، هاي أدوار يقومون بها، ويلعبون علينا معاً.

أمنت مريم على كلمات الأم المحزونة، وعنت نفسها، أحست أن تلك أيضاً مشيئة نفل الغائبة، تفتت قلبها حزناً على ضياع الهوى الذي التقطـــته في عـــيني مـــصعب، وساهرته أمسيات طويلة على وسادها، واســـتيقظت مـــن وهمه مكلومة، في تلك اللحظة لم يغفر أحد لأولاد صايل شراكتهم بالدم مع مختارهم الجديد الذي بدأ عهده بمساندة الجور وتـــضييع الـــشرف، وإن صدقوا وقوع الشيخ صايل في محنة تجاوزت قدراته.

جاحت الخربة عن بكرة أبيها والمختار يقول وهو واقف محتمياً بـــين عـــشرة رجـــال مـــن الجندرمة[1] الأشداء المسلحين بالبندق والـــسيوف، إنه وحفاظاً على الشرف؛ وضماناً لشرعية ما يحدث،

---

(1) رجال الشرطة العثمانيين.

فقـــد وقع في الليلة الماضية على عقد قران البنت إلى الرجل العثماني الغـــريب، القائمقـــام كارتـــال، فصارت زوجته برضاها وبتوكيله شخصياً.

رفـــع الأولاد رايات سود قرب بيت متعب الذي ما زال في طور التشييد، وتوافق الكبار على رفع راية بيضاء فوق حجرات الحلاق والد هفوف لمنعه من مغادرة الديار مكلوماً مشرداً عائلته، أحنى رأسه وهم يواسونه، متمتماً:

- أرث بقلبـــي ستة آلاف ثعبان دفاقة للسم دفق السحاب

لم تصل هفوف بيت صايل كنة، ولم تعد إلى بيتها ابنة، ولا تمكن أحـــد من بسطاء الخربة من التواصل مع شيوخ القبائل؛ ورفع شكواهم إلى كـــبير، كما لم يخطر ببال بسطاء الخربة أن المختار وقع بحرف ملتو مـــن اسمه على صك بيع هفوف جارية للرجل الذي طار صوابه لدى سمـــاع صوتها، لا زوجة شرعية على سنة الله ونبيه، خبأ المختار الثمن الـــذي قبضه؛ وادعى أن الصبية شاركته الخيار طواعية، ولم تجرؤ على لقاء والديها.

تـــسارعت الأمور؛ فإذا بالقائمقام يسرج خيوله ويستعد للرحيل مـــصطحباً هفوف، وقد طرحها البكاء المتواصل ضعيفة خائفة، وتدافع الناس خائفين باكيين على قمة التل المشرف على وادي الكرك؛ يرقبون مـــسيرها ممتطـــية ناقة مسربلة ببساط مطرز يحجبها عنهم، سار ركبها محوطاً بطابور من الجندرمة والعسكر الخيالة الذين لا يعرف أهالي القرية كـــيف تجمعوا، ومتى، وكيف أحاطو بالركب المسرع في قلب الوادي مـــتخفين بالـــشجر، لم يتحرك أحد، وأمسك يحيى بشليل شقيقته التي تنشقت بأسى، وعندما تبددت الأصوات ولم يعد هناك إلا رجع أصداء دفق المياه في الوادي، هيجنت مريم:

- يا عين هلي الدمع سرواً على سور.. الحوض يرشف والساقية تدور...

يـــا رايـــدين الهفوف تعالن نودعها... حنا نودعها وهي تسكب مدامعها...

حمل الهفوف الغالية بالوادي.. حنينه ينوح ويقطع فؤادي..[1]

بكـــي المجتمعون وناحت النساء، ونام المكان على قهره زمناً غير يـــسير، عـــدوا ابنتهم خطفت عنوة وجوراً، فما عُرفت بعدها أراضي هفوف ولا مصيرها، ولا رجع منصور، ولا تراجع متعب.

* * *

لم تعـــد الحياة كما كانت، على الأقل بالنسبة لمريم، وحده يحيى يـــدرك أن تغيراً انقلابياً أصاب شقيقته؛ فقدت رقتها وحنوها، لم تعد تجدل شعرها في ضفيرتين تلقيهما فوق حمائم صدرها، و لم تعد تغني أو تهـــيجن وهي تحلب الماعز، ولا تهرع لحمل كيس والدها مما يجئ به من قمـــح أو فاكهة أو شيئ من الزيت والزيتون وهو عائد من المناحل التي انتقل للعمل بها عوضاً عن الطاحون، كما لم تعد تخرج به إلى الكتاب، أو تـــسأله عمـــا تعلمه في يومه، وتطالبه باسماعها ما حفظ من آيات وأحاديـــث، ونـــسيت التسلل إلى الحرش القريب للقاء مصعب، و لم تشارك في فزعة تصويل القمح قبل نشره وتجفيفه ودفعه للطاحون، ولا عـــاودت جمع نباتات الدرير المعطرة من سفح الوادي ودسها في ثوبها وتحـــت وسادها، وما عادت تنقع مناديلها بمحلول النيلة لتصير زرقاء، ولا تمـــصمص حبات العنب مصدرة تلمظ المستمتعة قائلة إن في قلب تلك الحبة سر عسلي المذاق، تغيرت مريم؛ كأن وجهها قُدَّ من ملامح صارمة تتحرك بمقدار، يتذكر يحيى إن عضلة خدها ارتجفت حين سرق

---

(1) غناء شعبي يقال في شجن في وداع العروس.

خاتمهـــا، عثـــرت به يدلى نصف جسده في قلب البير وقد رفع غطاءه الحجـــري بدفعه بمجمل جسده، كان يمدد نصفه السفلي أرضاً، ويدلى نـــصفه العلـــوي في فوهة البئر، وقد ربط خاتمها النحاسي بخيط صوفي رفـــيع ورمى به إلى عمق البئر ممسكاً بطرف الخيط، وراح يحركه يمنة وشمـــالاً، أفقـــياً ثم دائـــرياً، ثم يـــسحبه ويتفحص بفضول الفطريات والحـــشائش الدقيقة التي علقت بالخاتم، ويعاود رميه وأرجحته مجدداً، مـــستمعاً بانتباه إلى تفاوت نغمة الرنة حين يرتطم الخاتم بجوف البئر أو جداره، شدته مريم فزعة، واستنكرت بجفاء فعلته، قال لها:

- *مـــا هي هذه الأشياء التي خرجت من باطن البئر، ولا نراها في الماء؟ هل سمعت رنة الخاتم على جدار البئر وصوت ارتطامه؟.. هفوف غنت إن للخاتم رنة، أنا سمعتها في بيت الباشا.. كلامها صحيح، هناك رنة وصدى لمن يسمع جيداً.*

انتـــزعت مـــريم الخاتم من يد شقيقها، رمقته بقسوة كأنها تؤنبه، ومـــضت، رأي ارتجاف خديها، يومها علم إن عليه الامتناع عن ذكر هفـــوف بتاتاً، كما تعلم كيف يقرأ مريم من خديها؛ يشحبان ويبهت لونهما وينخسفان إذا مر مصعب، ويتحولان إلى قعر حين توشك على الـــبكاء، لكن دموعها لا تعرف طريقاً إلى محجر عينيها، في خديها لغة وافية لم يعرف أسرارها سواه.

جاء انفصال عيسى الطحان، الذي لم يعد طحاناً، عن رب عمله تدريجياً، دون عتاب أو نقاش، لم يعد عيسى يتردد على المطحنة، فتركه الشيخ صايل على أمل أن تشفى جراح نفسه، وإذ شعر عيسى بالخجل لموقف شيخه الطيب اتجاهه حين أجزل له في العطاء، بل وأرسل رجلين يعمـــران غـــرفة طينية مسنودة بالقش، وفي زاوية منها كوارة[1] جيدة

---

(1) مخزن القمح.

الـــسعة للقمح وأخرى لاستخدام البيت، كان هذا الكرم خليقاً بابقاء الـــرجل في خدمة صاحبه، والمضي في مشروع المصاهرة، لكن الأسى الـــذي غمــــر وجه ابنته جعله يردد مرات إنه على استعداد للسير على الأقدام يومياً إلى الأغوار، والخدمة في غرف استخلاص السكر، على أن يعود للطاحون القريب، واستجمعت مريم شجاعتها ذات نهار، وفتحت صندوقها فأخرجت الربيبة، لفتها بخيش قديم وأرسلتها إلى بيت الشيخ.

انـــصرفت بعـــدها إلى شؤون البيت الطيني الجديد، غير عابئة بما يروجه الشيخ صايل حول قبولهم بسكنى البيت الجديد الذي قدمه مهراً لهـــا، ثم نقـــضهم العهـــد، قالت إنها لم تعاهد أحداً، وإن البيت أجر يـــستحقه والدها على خدمته الطويلة في الطاحون، وقد حاول الشيخ صـــايل تناسى دور عيسى، لكنه مني بخسائر كثيرة، كان العاملون في الطاحون يخونون؛ يضيفون الحمص إلى القمح فيفسدون الطحن، كما يـــرفعون الـــوزن لـــصالحهم ودون أن يـــنال حصته من ذلك الغش المكشوف، وصار أصحاب الأحمال يتجاوزون طاحونه إلى قعر الوادي بحثاً عن خدمة أكثر صدقاً وأماناً، كما لم يعد أحد يحفل بقصة جرحه الذي عبأه تبناً، وبطولاته عند أسوار مالطا وعلى رمال قبرص، ويقظته حـــين كان البحارة يفقدون الوعي على ظهر سفينة العلج علي المتجهة إلى الـــسواحل الايطالـــية، شعر إنه اشترى موقعاً وراتباً لولده، وباع مكتـــسباته الخاصة، لهذا تضامن مع عشق مصعب الذي لم يعد خافياً، قال لمتعب:

- *البـــنت أكلت نافوخه، لا بد أن نـــزوجه مريم، ليس بكيفها، لقد قبضوا المهر على الأقل..*

أراد مـــتعب الانتهاء من تلك القضايا العابرة والتفاصيل المحبطة؛ فـــسعى لهذا الزواج، وحدها العروس المنشودة تتمنع على ما فيها من

شـــوق، ورغـــم ما يطربها من ملاحقة مصعب لمشيها كيفما سارت؛ استبد بها هوس في تخليص حقها وحق صاحبتها.

في صـــباح ندي خاتل الجميع بجماله ونسائمه العطرة، سمعت المـــولى يـــناقش رجلاً حول تعليمات عثمانية جديدة، قال إن على الناس الانضمام إلى حركة المولى يونس العيثاوي الدمشقي في رفض اليسق[1].

انتشر خبر فرض اليسق كضريبة على كل زواج يعقد، ولضمان وصـــول تلـــك الجزية من الناس في كل مكان، أُسقط أي نكاح يتم خارج المحاكم الشرعية للعثمانيين، أو على أقل تقدير في بيوت الحكام الاداريـــين منذ تاريخ1579، وعد كل لقاء بين رجل وامرأة دون تلك الوثيقة وطئاً غير شرعي.

قلـــبت مريم أقراص الجلة[2] المعجونة بالتبن والروث خلف الشق، وهي تستمع بانتباه شديد إلى حديث الرجال:

- *هـــؤلاء لا يخافـــون الله، هل يعني هذا، لأننا لم نسجل لديهم وندفع يسقهم، أن أولادنا كلهم أولاد زنى؟؟ أعوذ بالله.*

- *لا يكفيهم ضريبة الويركو للاراضي والتجارة والغلال، لاحقين شرع الله يحلبونه!!*

- *عشرة قروش!! من أين يأتي أي راعي أو فلاح أو شاب بعشرة قروش؟؟ القرش أربعين بارة نحاس، كأننا نايمين على كنـــز سليمان.*

- *هـــذا لا يناسبنا، طوط الروم لا يخوفنا، نحن بأخر ما عمر الله، دمشق تحت عيونهم، نحن بعيدون، كيف للروم العثمانيين أن يعلموا أننا زوجنا بناتنا؟؟*

---

(1) ضريبة الزواج.

(2) وقود يعد من روث البقر.

- *الاوطـــة يخبرهم، المختار، مختارنا يحفظه الله، يخبرهم، لا يجرؤ المختار على مخالفة الاوامر، إنه شخشيله في ايديهم.*

- *أقطـــع يدي إذا ما كان هذا القانون لأجل ضبط النفوس وعد الذكور وجر الرجال إلى الحرب مجدداً.*

- *هـــذا العيثاوي من أي مكان في الدنيا قرعة أبوه، دمشق والا عجلون والا الكرك، معه حق أن يثور ويرفض.*

أرادت مـــريم الانـــضمام إلى حـــركة التمرد البعيدة تلك على طـــريقتها، وجدت منفذاً تحرج فيه متعب وتصغر شأنه، فأعلنت على رؤوس الأشهاد إنها وافقت على الارتباط بمصعب، وفق شروطها، جاء الـــشيخ صـــايل بأولاده إلا منصور الذي انقطع عن الديرة، اصطحب الـــشيخ زوجه، والمولى أمين، وشيوخ العشائر الذين أرداوا رد جمائله، جر خاروفين، وقفصاً لسبع دجاجات وديك، ولما وضع فنجان القهوة أرضاً قال:

نريد نشرب قهوتكم، ونـــزوج ولدنا مصعب بابنتكم مريم.

لم تمنح مريم والدها فرصة ليرد، وتقدمت بثقة قائلة:

- *موافقة؛ بشرط.*

- *اشرطي يا بنت الكرام.*

- *أتزوج علناً بحضور الكبير والصغير، يعقد المولى عقدي بشرع الله، دون شرع الروم، دون يسق، والمختار يزفني حتى بيته، ويمر بـــي في طريق بيت الرومي والاوطه يتفرج.*

بهت الشيخ واولاده، همس صايل:

- *لم نـــشتك قـــيمة اليـــسق يا ابنتي، الغالي يرخص لك، اليسق قدرتنا، ليس كثيراً علينا.*

لمعت عيناها:

- *ليس كثيراً ولكن صعب عليكم؛ الامتناع عن دفعه صعب عليكم.*

تلفت الرجال وزموا جباههم وقطبوا أجفانهم يحاولون فهم رسالة البنت، متعب أول من فهم الرسالة:

- *هــو تعجيــز يا بنت؟؟ تصغريننا أمام الاوطة بمخالفة القانون العــثماني!! أنا المختار، أحكم على الناس بالقانون، لا أخالف القانون، هذا تعجيز!!*

ردت بثبات:

- *اللي يعجزك، ما أنت بقدره، اتركه لسواك.*

علم مصعب أن لا سبيل إلى الحبيبة التي تتفنن في اختلاق أسباب الفراق، وأن شقيقه لن يجرؤ على تحدى الاوطه بمثل هذا التصرف؛ وإلا عــد مــتعاطفاً ومتورطاً مع ثورة يجرى إخماد إوارها بقسوة في دمشق وحــتى جــبال عجلون، ترك الخطاب القهوة تبرد في فناجينها، جمعوا إبلهم وهداياهم وخرجوا، قام يحيى ابن الخامسة يلم الفناجين ويغطسها في طشت الماء، والأب في اقعاءته الشهيرة بالباب يتصور كيف ستكون عليه الحياة مع ابنة لها بأس الرجال.

صــارت مريم حديث الخربة، وطارت أخبارها إلى الكرك، حتى حين أعلن الشيخ صايل أن ولده مصعب سيتزوج وفق الأصول من ابنة أحد ملاكي الطواحين في القصر، كانت سيرة مريم تسبق كل حديث، ويلهج متعب بغيظ كبير:

- *ريتها تموت عانساً شمطاء، بنت كاسرة.*

بهتت أخبار الفتيان المدعين أبناء الشيخ صايل، قال الناس إن مصعب تــزوج وبات يساعد والده في الطاحون، ورزق أطفالاً كثيرين تشاهدهم الخربة يتنقلون مع أبناء المختار الصغار، وإن منصور تزوج في سهل حوران امرأة صهباء طاعنة في السن، سلمته أرضها ومالها، و لم تمنحه ابناً.

تعـــزت مـــريم على كل خاطب حتى زهد الطامعون، ولكنها صـــارت أختاً للجميع، باتت تكثف زياراتها لبيت الحلاق المطهر الذي تـــسميه الحكـــيم، تتعلم منه أسرار النباتات، وتساعد أم هفوف على مهامها وقد ثقلت بحمل جديد، ترعى ولديها جعفر وزيد وهما يلاعبان شـــقيقها، تعـــد مسحوق حبة البركة وتخلطه بالعسل الصافي وتغذي الحبلى، التي ما أن شعرت بأوجاع الطلق حتى استدعت مريم قبل طلب الداية، تظاهرت مريم وهي تغلي نبتة الولادات "كف مريم" إن ذاكرتها محـــت لحظات مولد يحيى؛ وانتظرت مع العائلة صوت المولود الجديد، راعهـــا انهمـــار دمـــوع الحلاق مع ولادة ابنة انثى، غص بالذكرى، وأجهـــشت الأم رافعـــة كل حرج عن تقليب الذكرى ونكأ الجراح، قالت:

- *اسميها هفوف.*

شهقت الداية وتعوذت من الشيطان الرجيم، قالت:

- *لا تفاولي بالشر على الرضيعة، لا تسميها باسمها وكأنها ماتت.*

بكـــت أم هفـــوف بحرقة، ومريم تمسح دمعها وتشاركها العويل والاهتزاز، والرجال يصيحون في الخارج:

- *وحدوا الله.. هذه ليست جنازة.*

قالت أم هفوف:

- *أسميها نفل إذاً.*

تحـــنو الجراح على المكلومين أحياناً، أن تحمل مريم رضيعة على اسم أمهـــا؛ يمنحها أمالاً غريبة، لسبب غامض نذرت ذاتها أماً للصغيرة، ترعاها كما رعت يحيى وتهيئها لتصير زوجة له دون البوح بأحلامها إلى أحدهم.

صـــرّت سبع قمحات في صرة صغيرة، ونذرت سبعة نذور توزع فيها السمن والزيت والعسل، تصرفت عن وسع فهي ومنذ أن تمكنت

مـــن جمـــع خير كثير بعطاء الناس والأحباب؛ لم تعد تخشى محلاً ولا ضيقاً، كانت تقول:

- *لا يجيء الغد إذا لم تنته من تصريف اليوم.*

حفظت مريم غيباً بعض ما كان يحيى يردده، ولكنها لم تتعلم خط الحروف على ورق الكدش.

بعد سنوات خمس وعندما بشرها المولى أن يحيى بات يقرأ جيداً، وإنـــه بز أترابه في فك الخط، وفهم الكلمات والجمل، بل إنه قد يكون خليفته تحت الشجرة إذا شاء الله، زغردت لأول مرة، ودمعت عيناها، ونذرت زيارة مقام جعفر الطيار إذا ما صار يحياها مولى.

عاودت مريم الاهتمام التام بشقيقها، لا تتمهل في إظهار شفقتها واهتمامها إلا إذا زجرهما عينا والدها، أو ابتسم يحيى هازاً رأسه متقبلاً عطاءهـــا بحنو كبير؛ يكفيه منها أنها تتركه يقوم بجولات المشي الطويلة في الغابـــات، فيـــسوح بين الجداول والعيون يتأمل ويعيد رفع حجارة الـــسناسل الـــتي وقعت، أو تثبيت النبات الذي اقتلعه الصغار، ورفع العصافير والفراشات والحشرات المرمية على الدروب مصابة أو جريحة إلى مواقـــع آمـــنة علها تشفى وتطير، أو الجلوس متربعاً لساعات تحت شـــلال الـــضوء القـــادم من نافذة الحجرة الطينية التي يسكنون، يعقد مقارنـــات ومقاربات بين غمر الضوء وخيطانه التي يتذكرها في طفولة مبكـــرة في الخيمة، وانهمار النور من النافذة، ورغم شح ما يناله عيسى الـــنحال، مـــن عملـــه، فأنه لم يطلب من ولده مساعدته، كان ينتظر بشغف انتهاء الفتى من حفظ القرآن وإعلانه استاذاً مرافقاً للمولى أمين.

مـــا زال يحيى على سلوكه الغريب في دس أنامله في حُق الحبر الأسود، لا يعنيه أن شقيقته تتأفف لهذا الهباب الذي لون أنامله، ولا يـــوقفه تذمـــر أستاذه وانتقاده الدائم، يفعل ذات الحركة الطفولية

البريئة، ودائماً تصيبه الدهشة وهو يتأمل سقوط القطرات اللزجة من أناملـــه أرضـــاً، يقول يحيى كلمات ينوء بها عمره ولا يفهمها من حوله:

- *الحبر سر الكلام، روح اللغة، ما الذي يصنع الحرف؟؟وكيف تنبت المعاني في دم الحبر!!*

بعض الصغار حفظوا كتاب الله قبله، أولاد الشلبـــي انهوا كتابهم ســـريعاً وفارقوا الكتّاب يساعدون والدهم، الكبير جعفر يرافق والده مساعداً، والأصغر زيد يتضمن مزرعة داخل سور الكرك، بينما ما زال يحـــيى يتلقى التعليم، أزعج هذا التأخير عيسى، ظنه تراجعاً في قدرات ولده، ابتسم المولى أمين بفرح قائلاً:

- *يحـــيى يتأخر بالحفظ، لأنه مولع بالفهم، يسأل كثيراً عن كل صغيرة وكبيرة، وينشف الدم في عروقي وهو يجادل، ويشهد الله أنه ينير لي ما لا أراه، اصبروا عليه ما زال فتياً، وسيحفظ.*

لم يمر على الكتّاب فتى مثل يحيى، يجلس متربعاً صامتاً فإذا ما ظن المـــولى إنه أنهى نهاره في التحفيظ والتفسير، بسمل الفتى ورمى بسؤال بـــسيط في كلماتـــه ومعـــناه؛ يجعل المولى يتلعثم، ويطول الحوار حتى ينصرف الصبية ويهبط المساء، ولا يتوقف جدل المولى والتلميذ، إذ يجره يحـــيى منذ أول أية في كتاب الله إلى أخر أية، يخلط نهاره بالليل، يقينه بالشك، ويضع خبرته اللغوية على محك يجعله يتواضع للفتى الذي يفك رموز اللغة، فيقول المولى أمين بعد نقاش عاصف:

- *لـــولا أني عجوز مل الحياة؛ ما تركتك تنال مني يا ولد، لقلت لك كما أقول لسواك، لا تسأل عن ما خفي.*

يبتسم يحيى بود قائلاً:

- *ما ضير أن نبحث عما خفي معاً.*

لم يجـــرؤ المـــولى على القول بأن كثيراً مما يقوله الفتى عصى على فهمه، وأن الجدل المتواصل حول كل حرف وكلمة يدفع به في دروب يـــصير فـــيها المتلقي لا المرسل، ولكنه كان صادقاً حين عزا ليونته إلى تقدمـــه في العمـــر، وشعوره إن الكتاب تحت الشجرة لن يستمر بعد رحـــيله إلا إذا هـــيأ له تلميذاً شقياً بفكره مثل ابن النحال، و لم يفزعه إعلانه أن يحيى ختم القرآن ببلوغه ثلاثة عشر عاماً من عمره.

بعض طقوس احتفال مريم بحفل ختمة القرآن أعادت إلى الأذهان أمـــسية الختان المخيفة، لكن كثير من الطقوس أيضاً غابت، استعاضت مـــريم عـــن الهفيت بمغلي البحتة من الأرز المطحون والحليب والعسل والسمن، وقد أبقت النسوة لقيمات البحتة الطرية المتزحلقة في أفواههن يـــستطعمن مذاق الأرز الغريب الذي دخل أسواق الكرك غلة باهظة الثمن، والذي طبخته البنت عوضاً عن طحين القمح لتثير الإعجاب من حـــولها، وتؤشر على أهمية مناسبتها ورفعة شأن شقيقها، حرصت على ابتياع ثوب أبيض، وعباءة عسلية، وحطة قطنية وعقال من لفتين سود غلـــيظة، أرادت أن يبدو شقيقها أميراً؛ وعلمت أن وسامته التي باتت واضـــحة في ملامـــح وجهـــه الأسمر الرائق الجميل وعينيه الواسعتين الكحيلتين سيكون لها أثرها، وستجعل من أمر تقبله أستاذا جديداً أمراً ســـهلاً ومطلوباً لدى أهالي الخربة، غاب الغناء عن طقوس الاحتفال، فقد نظرت مريم بحدة إلى النسوة اللواتي هتفن:

- *بيض الله والخضر وجهه.*

ثم تـــأهبن للغـــناء بتـــصفيق أكفهن وضرب الدربكة الفخارية، تراجعت حماستهن وصمتن حين قالت مريم بحدة حاسمة:

- *يحرم الغناء على أهالي خربة جلجول، ليس في بيتي على الأقل، ثم أن هذه مناسبة دينية.*

وافقن معها على ما ذهبت إليه، وتركن أمر القراءة من دعاء ختم القرآن للمولى الذي قرأ بشجن وصوت مرتعش:

- اللـــهم أنت أحق من ذُكر، وأحق من عُبد، وأنصَر من ابْتُغي، وأرأف مَـــن مَلَكَ، وأجود من سُئل، وأوسع من أعطى، أنت الملك لا شريك لك، والفرد لا ند لك، كل شيء هالك إلا وجهك، لن تطاع إلا بإذنـــك، ولن تعصى إلا بعلمك، اللهم حضرنا ختم كتابك، اللهم مـــرغنا خـــدودنا على أعتاب بابك، اللهم إنا نرجو رحمتك، ونخاف عـــذابك، اللهم لا تردنا يا ذا الجلال والإكرام! اللهم إن طردتنا فمن يؤوينا؟! اللهم إن باعدتنا فمن يقربنا؟! اللهم إن عذبتنا فمن ينصرنا؟! ليس لنا إله غيرك.

اللهم أرحمنى بالقرآن واجعله لى إماما ونورا وهدى ورحمة، اللهم ذكرنى منه ما نسيت، وعلمنى منه ما جهلت، وارزقنى تلاوته آناء الليل وأطـــراف الـــنهار، وأجعله لى حجة يارب العالمين، اللهم أجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاك فيه[1].

زغردت النسوة وبكين، وتنفس الرجال الصعداء وهم يعلمون إن هناك وريثاً حقيقياً للمولى، فما دام أعلن هذا التوريث وشهّدهم عليه، وإن ربط الأمر برحيله إلى رحمة ربه، وتهاون في قسمة تلامذته قسمين، يتولى هو الكبار منهم، ويحيل أمر الصغار إلى يحيى.

بعـــد الاحتفال الذي هيأ يحيى لدوره الجديد، قر قرار مريم التبرك بمقـــام الـــشهداء في مؤتة كما نذرت، حملتها النسوة بالتمائم وأقمطة الـــصغار، رجونها حمل دموعهن إلى المقام والتبرك نيابة عنهن بابن عم النبـــي، شدت مريم وشقيقها الرحال على ناقة استأجراها من الكرك، قطعت بهما فراسخ معلومة، مرت شرقاً ببركة القطرانة في قلب الوادي

(1) دعاء ختم القرآن.

فـــنوخت، شـــربا، وغسلا وجهيهما، وبللت مريم جدائلها مخففة من سياط الشمس الحارة، ثم ركبا وانعطفا برحلهما جنوباً إلى قرية مؤتة.

ترجلت مريم بتقديس أمام الحجرة الطينية المقببة، كأن الفضاء ردد أصـــداء معركة مؤتة، راحت تتمتم بما حفظته منذ أيام لحاقها بشقيقها في الكتاب من قصار السور القرآنية، وتقدم الفتى حاسر الرأس هيماناً، دخلا حجرة طينية مستطيلة مبنية من الحجارة والطين والدبش، سقفها علـــى شكل خيمة وأرضها مبلطة، سارت حافية فوق بلاطها الحجري مقتـــربة مـــن قبور الصحابة جعفر الطيار، وعبد الله بن رواحة، وزيد بـــن حارثة، تحسس يحيى بأصابعه لوحة رخامية ارتكزت على أطراف المقـــام، دقـــق بالخط الكوفي الجميل الذي زين اللوحة وقرأ: "هذا قبر جعفر بن أبـــي طالب رضي الله عنه".

ثم انـــتقل إلى لوحة تقابلها أكثر وضوحاً لآية قرانية تعرف عليها "ولا تحـــسبن الـــذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون"(1)

واصل يحيى قراءة ما خط على لوحات الرخام المتناثرة، حادساً إنه ســـيظل عمره كله يفتش عما خط على بلاط الأضرحة، وما خفي من حقائـــق حـــول رجـــال مروا ثم غابوا، في حين بكت مريم وارتفعت هنهاهًا.

قرأ يحيى: "بسم الله الرحمن الرحيم، انشأ هذه التربة المباركة العبد الفقـــير إلى رحمة القدير؛ رجاء لرحمة القدير ورضوانه؛ مستشفعاً عنده بجيرانه -بهادر البدري الملكي- الناصري نائب السلطة المعظمة بالكرك والشوبك المحروستين، في ثاني ذي الحجة عام سبعة وعشرين وسبعمائة هجري. تجدد في أيام الملك الصالح، صلاح الدنيا والدين، الملك الناصر

(1) القرآن الكريم – سورة آل عمران 169.

محمـــد في نـــيابة المقر العالي السيفي نائب السلطنة الفقير إلى الله شمس الدين الهاروني في اثنين وخمسين وسبعمائة".

همست مريم:

- *ماذا كتبوا؟؟*

أجاب:

- *كتبوا أسماءهم.*

* * *

لم يـــسارع أهالي خربة جلجول والقصر والربة والكرك وكثربا وكثيرون غيرهم إلى مناداة يحيى بالمولى، فلحية المولى أمين الذي يعرفون زمـــناً صـــارت بيضاء لا يخالطها غبش الرمادي، ولا صريح السواد، والفـــتى ما زال غضاً وإن خط شعر خفيف شاربه، يرونه يسير برفقة الـــشيخ الجليل سانداً ذراعه بساعده، حاملاً ما وهبه الصغار من طعام وشـــراب لقاء تدريسهم، ممتنعاً عن الكلام إذا ما تحدث، على كثرة ما يجادلـــه علـــى انفراد تحت الشجرة، أهالي تلك القرى الذي تعاملو مع أســـاتذة مخـــتلفين في قـــراهم ومطـــارحم ومضارب خيامهم وتحت أشـــجارهم، سمعوا بسيرة الفتى ابن النحال ونبوغه، وإنه يسأل تلامذته أكثر مما كان يمنح من أجوبة على أسئلتهم الحذرة المرتجفة.

الراعـــي مقـــبل وحده يناديه المولى علناً، دون وجل ولا اعتبار للمـــولى الشيخ الذي طرده مراراً، ومنعه من المرور بقطيع الأغنام التي يرعاها لواحد من شيوخ الكرك، كان مرور الراعي يشتت انتباه الطلبة، وصوت مزماره يقطع استرسالهم في قراءة الآيات، فيتلعثمون، ويتوقفون عن القراءة متشاغلين بأغنامه، يكررون بصعوبة ما يتلون؛ يزجر المولى الراعـــي ويأمـــره بالابـــتعاد، في حين يهش يحيى لسماع صدى الناي القـــصبـــي، يـــستدعيه، ويترك الأغنام والخراف السمينة تتجول بين

الطلبة الذين يلعبون قليلاً ضاحكين، يلحقون بالعنزة المرياع وأجراسها وخلاخيلها تصلصل، ويسمعون مزمار الراعي لحظات، ثم ينصتون جميعاً مع الراعي لقراءة يحيى وصوته الخاشع؛ فيخشعون.

يفز مقبل مسرعاً وراء قطيعه، ويبتسم يحيى:

- لن تتعلم على هذه الصورة يا مقبل.

- يا مولى، لا أريد إلا أن أكتب اسمي، لا يلزمني أن تعلمني كتاباً مفصلاً.

- إن تعلمت الكتاب ستكتب اسمك، ولكن إن تعلمت كتابة اسمك فقط، لن تقرأ الكتاب.

- لا يلزمني، ورائي الشيخ يقطع رأسي إذا تأخرت بالغنم حتى العشاء.

يهرع مقبل وراء أغنامه بقدميه الحافيتين؛ معتلياً الجرد المقابل، مختصراً الطريق إلى بوابة الكرك.

لم يعد عيسى محور اهتمام الفلاحين والبدو العابرين والرعاة لذاته أو لما يجود به، فعمله في المنحلة أبعده عن استرضاء المساكين بحفنات من بقايا القمح والدقيق، بات أكثر التصاقاً بصفة الأجير، يراقب مالك المنحلة بصبر تعرف أجيره على عالمه الجديد وفنونه وأسراره، ويطور عيسى في نفسه رجلاً صامتاً متأملاً لحياة النحل، مكسبه من المنحلة يسير، يغطي طلبات بيته من طعام وشراب، وما كان لدى أسرته الصغيرة أرض يفلحون ولا ماشية يرعون، لهذا تنطحت مريم لظروفها؛ مثلما فعلت دائماً.

طار صيت مريم مجدداً، فهي وقد فرغت من مهام رعاية شقيقها، وغاب والدها نهاره بطوله، وما عاد لها صحبة ولا أقارب، ولا زوج ترعاه، ولا صديقة تزجي الوقت برفقتها، أو وليد تعنى به؛ انصرفت

لمهمـــتين تمارســـهما بالتـــبادل وفق العرض والطلب، تُعد الأدوية من النـــباتات الـــبرية، وتنـــسج صـــوف الخيام والحصر، برعت مريم في الـــصناعتين، مما جعل أهالي الخربة يتعجبون حال رجل ولد راعياً فقير الحـــال لا يـــستند إلى عشيرة، ولا يتمتع بالثراء، ولكنه ينجب مداوية لبيبة، نساجة ماهرة، وأستاذاً مهيباً حافظاً لكتاب الله.

تنـــصرف مـــريم إلى النسيج، تتوهج لتصير والبساط الذي تحيكه كـــوناً بذاتـــه، لا يجرؤ أحد على مقاطعتها كأنها تقوم بعبادة خاصة، تحـــيك الـــصوف على نولها الخاص، تقلب خيط الصوف بين أصبعين متفحـــصة، تـــشده وترخيه؛ مكتشفة جودته ومتانته، ثم تكمل المهمة برفقة نفل الصغيرة، وثلاث فتيات من الخربة قامت باكتراء جهودهن، يحملـــن شلل الصوف المغزول؛ يغسلنه في البرك الصغيرة المتناثرة حول عـــين ســـارة بعـــناية قبل أن تبدأ مريم بمزج الألوان، قلة من النسوة النساجات كن يرهقن أنفسهن بإضافة الألوان إلى حواشي البساط، عدا عـــن اضافة خطوط طولية وعرضية فيه وتنويع درجات الألوان، أطلقوا علـــيها في تلك الفترة اسم النحلة الزنانة، يشاهدون في ذهابهم واياهم النحلة مريم تغلي الماء في الأواني النحاسية، منتجة اللون الأحمر بدرجات عديـــدة وأطـــياف متباينة؛ تكثف مغلي نبات الفوه أو تخففه، لتحصل علـــى أصـــفر جميل نقي بكمية تدرسها جيداً وهي تضيف مسحوق الكـــركم على مهلها، ثم بجرأة تمزج اللونين لتحصل على أزرق غريب بدرجاته، عدا عن أسود كامد أصيل تتحصل عليه بنقيع نبات السماق، ألـــوان البسط التي تنسجها النحلة بنت النحال، غريبة مختلفة وجميلة؛ الأهم إنها ألوان ثابتة، عالجتها بقشر الرمان فباتت لا تتحلل ولا تتداخل إذا ابـــتل البساط شتاءً، ولا يزحف لون على لون، فإذا ما رضيت عن الألوان؛ راحت تصمم ما ينسجم ويتوافق من خطوط وأشكال تزين بها

البساط، ثم أعدت ألة الحياكة التي تحرص عليها مثلما عينيها، تثبت أوتاداً أربعة محددة حجم البساط، وتصل قضيبين حديدين بوتدين يصنعان ضلعين للمستطيل الذي شده النول، تجلس البنات النساجات على أطراف المستطيل، وتقف مريم حاملة كرة الصوف التي صبغتها وأعدتها، تناول طرف الخيط للبنت عند رأس النول، ثم تهرع بثبات مع امتداد الخيط فتصل به للبنت الاخرى، تهرول مثل النحلة بين الفتاتنن بهمة مصدرة أوامرها وتوجيهاتها، وهي ترقبهن يولجن الأوتاد مع انحناءة الخيوط تباعاً، ومريم تبدل كرات الصوف والألوان، وتنحني برهة أثناء جريها؛ تشد ما ارتخى من عقد على الطرفين، في المساحة المربعة للبساط تصنع مريم عالماً من الأزهار والغزلان البرية والنجوم والأشجار، كل هذا جعل من صناعتها منتوجاً غالياً تبيعه في أسواق الكرك بثقة، كل بساط بليرتين؛ لا تستطيع النسوة النساجات في كل جبال الديرة مجاراتها في دقة الانجاز وسرعته وجماله، يقول لها يحيى:

- *أنت تبحثين عن نتائج سريعة، لو تأنيت لكان إنجازك أجمل.*

تضحك بود:

- *دعك في كتابك، لو تأنيت يا شاطر؛ لاعدت العمل دون توقف، ولما انتهيت إلى الجمال الذي ترى، إنما الجمال يأتي خبطة واحدة سريعة ماهرة.*

يسلم الفتى لشقيقته الماهرة، ويروح في اكتشاف جمال ذلك الامتزاج المذهل الذي تصنعه بألوانها.

تقطع مريم وفتياتها الطرقات على ظهر بغل صغير وقد احترقت وجناتهن لفرط ما قضين من ساعات يعالجن بسطهن تحت ضرب أشعة الشمس الحارقة، يبعن ما أنجزت أيديهن في الأسواق، وتبالغ مريم في الأسعار عندما يكون المشتري غريباً تراه في سوق الكرك للمرة الأولى،

تعود وفتياها وقد ابتعن بعض القلائد من الأحجار اللامعة، وحبالاً من أعـــواد القـــرنفل المجففة، يزين فيها أعناقهن، يتحممن في مساقط المياه على الطريق، وقد خلعن بعض ثيابهن الخارجية دون أن يجرؤ امرؤ على اعتراضـــهن، إذا عَنَّ على بال الصبايا اليانعات اللواتي بلغن بالكاد أن يغـــنين، فـــإن مريم لم تعد تمانع، تجلس فوق صخرة تراقب باسمة وهن يرددن:

– *يا ام شعير أشقر يا بنت يا ام شعير أشقر.. يا هيه..*

من بنات الحوش يا بنت من بنات الحوش.. ياهيه..

ما تطيق الغوش حبيبه ما تطيق الغوش... يا هيه..[1]

لم يعـــد الغناء يثقل قلب مريم؛ فمنذ سنوات ارتحل الاوطة الذي فجـــع صباها يوماً، وحرمت من أجله الغناء، وجيئ إلى الخربة بأوطه جديد يعود أصله إلى جراكس المماليك، لم تعرف الرجل يوماً، خاصة إنه ارتحل بعائلته إلى القلعة محولاً داره القديمة التي شهدت مأساها، ثكنة لـــبعض العسكر العثمانيين الذي يكثرون في حزيران طالبين حق الدولة في مـــال وقوت أطفال القرية، ترقب مريم البنات العابثات الجميلات، وتتفحصهن بدقة عل واحدة منهن تكون من نصيب يحيى، كانت نفل خيارها الأول، لكن ابن عم لها سماها على اسمه وحجزها صغيرة غرة، وتعاقـــب جـــيلان من البنات على مريم سريعاً، إذ أن بنات مريم كما صـــرن يـــسمين في الخربة، بتن مطمحاً للخطاب لمهارقمن في النسيج، ومعـــرفتهن ببعض فنون الطبابة التي تبرع فيها معلمتهن، حين ينصرفن عند الغروب من بيتها متمشيات على مهل ضاحكات، يتقاطعن بدرب يحـــيى عائـــداً من الكتاب، يغضضن البصر ويكبحن رغبتهن في تأمل شـــاربه الـــصغير، ويراقبن بحرص خطواقمن المتأنية الراقصة، ويلاعبن

---

(1) غناء شعبي كركي.

جدائلـــهن وهـــو يلقي السلام وقد غض بصره؛ فلم يتسنَ له تفحص أيـــاهن أكثر ملاحة مثلما ترجوه أخته، فقط تأتي أصواتهن وهن يرددن سلامه بمثله، همهمات مبهمة مثل زقزقة جمع عصافير، لا يمكن تفسير ما تداخل فيها من موسيقى ورفيف أجنحة غامض.

يـــرتفع العـــبء عـــن ظهر مريم بانتهاء موسم غسيل الصوف وصباغته ونسجه، فتروح إلى الاهتمام بجولاتها الصباحية، تخرج فجراً، تلـــف جـــسدها بغطاء سميك؛ تفلته إذا كان الصيف حاراً بما يكفي للتغلب على نداوة الصباح وبرده الذي يتسلل إلى العظام، تسمع صوت الديكـــة من بعض بيوت القرية، ونباح كلاب، وهديل حمام، وعندما تـــبدو الدنـــيا مضاءة بنور شفيف رائق تتمكن مريم من التقاط شذى النـــباتات البرية المتجانسة والمختلفة المتنوعة، تنحني بحنو كما لو كانت تـــتعامل مع رضيع، تلمس أعواد النباتات وتتحسس أوراقها، تقربها إلى أنفهـــا وتشم أكثر من مرة، تتذوق بطرف لسانها، ثم تلوك النبات على حذر، لتقرر ما كان منه حامضاً وما كان مراً، وفي المواسم التي تنشغل فـــيها النسوة باعداد كرات الجميد فيخلصن الحليب من الزبدة ويغلينه مستخلـــصات المـــصل الأصفر، وعاجنات ما تبقى بالملح لتجفيفه زاداً جمـــيداً إذا مـــا ولى موسم الحلب، تترك مريم للنسوة براعة مهمتهن، وتخـــتار مهمـــة أكثر دقة، تنافس فيها الحكيم وولده جعفر بمباركتهما ورضـــاهما، تجمع نبتة الجعدة المرة العطرية، تنشفها وتسحقها أو تغليها لتجهـــز مـــن أوراقهـــا التي يتصارع فيها بياض وزرقة دواءً للبطون المغوصـــة، كما تعتني بالبابونج الحلو اللذيذ؛ فتنشفه لعلاج السعال، وتجهـــز الكمـــون بكميات كبيرة مسحوقة؛ لطرد الغازات المؤلمة من الأمعـــاء أو صبغ خيطانها الصوفية، تعالج مريم العطس والأنوف السائلة بمغلـــي أزهار البيلسان العطر، وتجمع حبات العافية حبة حبة، تنظفها

وتـــودعها جرة صغيرة؛ كي تعالج فيها بطناً أمسكت وخنقت صاحبها باحـــداث إسهال متواصل يخلص الجسد من سموم الطعام، ولا تستغني عن الشيح؛ تمنع به انتفاخ البطون وتحوله إلى مسحوق يقي الجروح من الالتهابات، ولمريم أنامل عبقرية في وزن ما يحتاجه المريض، واستخلاص الـــزيت مـــن الخروع لدهن شعور النسوة، لم تترد حين تجتاح الحمى الصفراء الربوع بالتنقل بين الكهوف والبيوت مقدمة ارشادات النظافة والنـــباتات السمية التي تمزجها بحرفية ودقة؛ لتقتل الداء وتنقذ المصاب، وكـــثيراً مـــا ســـقت من سد حالبه وتعسر بوله قدراً من مغلي الخلة، وراقـــبت تلك الحالات كنطاسي خبير، بل بدت في عيون أهالي خربة جلجـــول ومـــا جاورهـــا من الخرب والقرى انتهاءً بالكرك، عبقرية مباركة، مُنحت أسرار الشفاء دون الآخرين.

يأتـــيها سكان الخربة على ظهور الدواب إذا ما غابت الشمس، يتباركون بوجود الأستاذ الذي يقرأ القرآن في حين تمنح شقيقته أسرار عطارتهـــا وأعشابها وتركيباتها المدهشة، ويتداولون الحديث سراً حول بركة وجود الفتى في المنـــزل وتكفلها بشفاء المريض، ولا يجرأون على الإفـــصاح عـــن تفاؤلهم بعد أن نهاهم الأستاذ بنفسه، واستنكر منهم اعتقادهم.

يـــستقبل عيـــسى الناس، يأتون تباعاً إلى البيت مساءً لطلب المداوة؛ أو بحثاً عن بساط مغاير جميل، أو للجلوس إلى الأستاذ اليافع وسمـــاع أســـئلته واجـــتهاداته، وتناول ما تعده مريم من الرشوف الحـــامض المعالج بالكمون، فيمضي لإعداد دلال القهوة فوق نقرة النار، وقلبه يصدح:

- يا دنيا قومي هليّ بالمقبلين اثنين

يحيى مهجة القلب ومريم نور العين.

يغلبه النعاس والناس يواصلون نهارهم بسهر وسمر وحكايات على بـــاب بيـــته؛ يتثاقل معتذراً بتعب ظهره وكبر سنه، يهمس لمريم وهي تطمئن على رقاده على الفراش الصوفي الجديد:

- *مساوين البيت قبلة ومحج! خلي هالناس تروح دورها؛ وننعس.*

تبتـــسم مريم دون تعليق، تعلم في أعماقها أي رضى يجعل والدها منتشياً سعيداً بما عوضته الدنيا في ولديه.

رغم هذا الرضا؛ إلا أن عيسى النحال لم يتوانَ عن تجويد مهاراته في فهـــم طبيعة المنحلة، ما كان يريد أن يتحدث الناس عن حرفيه ابنيه وبـــراعتهما مقابـــل خيبته، فهو الطحان الأفضل في الماضي، وإذا عاد أدراجه إلى طفولته فإنه الراعي الأكثر عناية بعمله، لهذا كان يفتح عينيه مـــراقباً باهتمام شروح معلمه، يتعلم منه أهمية فتح المنحلة في كل اتجاه إلا الـــشمال، عكس هبوب الريح، وبعيداً عن جنوها الشتوي، وأهمية قـــرب المنحلة من الأراضي المزروعة بما يزهر ويثمر، نائية عن البيوت وأماكن تواجد الصغار والنساء على الغدران، كما يمنع اقتراب الأغنام والأنعام؛ وإزعاجها النحل بروائحها ومخلفاتها.

لا يمـــل عيسى من مراقبة دورة حياة النحلات النشطات، يكتشف بدقـــة كـــيف يتـــنادين عبر هزات أشبه بالرقص، عندما تعود النحلة التي انطلقـــت لاستكشاف موقع الغذاء، يستطيع سماع ما تحدث به صويحباتها داخـــل الخلية الخشبية بعيداً عن الضوء، تخفق أجنحتها مفتعلة دوراناً داخل فضاء الخلية؛ تعلمهن بما تذوقت من رحيق الزهر القريب، أو تؤدي ايقاعاً اهتـــزازياً ســـريعاً إذا بعدت المسافة، فيرى عيسى أسراباً تطن طنيناً خافتاً، تخرج من الخلية متجهة مباشرة إلى حيث تمتص رحيق النبات.

يحمى عيسى صديقاته النحلات النشطات من هجوم الدبابير التي تقطـــن دوالي العـــنب، وتفتك بعاملات النحل الضعيفات أمام مدخل

الخلـــية وتطير بها إلى خلية الدبابير تغذي يرقاتها، ينشط عيسى في قتل ملكـــات الدبـــور طوال الربيع، وتخريب أعشاش طائر الوروار الزاهي الألوان البارع في التهام النحلات بمنقاره الأسود الطويل، وإبعاد النمل الـــزاحف إلى قـــاع الخلـــية بالتنظيف، ورفع الخلية على أغصان عالية متعامدة.

صـــار عيسى صديقاً للنحل، يعرف كيف ستكون كثافة وألوان العـــسل الذي يجنيه من موسم الربيع؛ عسل أشقر خفيف يختلط حلوه بحموضـــة لذيذة، إذا كثرت نباتات الزيزفون والحمضيات والزعتر في الجـــبال؛ وإذا أينعت نباتات العجرم والحلاب واليانسون وحبة البركة، كان العسل أسمرَ قانياً ثخين السيلان، تشتري مريم مثل كل طبيب مداوٍ ما يلزمها منه لعلاج القروح والدمامل والتعفنات الجلدية، كما سيكون لهـــا نصيب في العسل الأشقر الذي تبيعه للامهات الولادات، وتلقمه للرضـــع لتـــزيد أوزانهم وتحمر وجناتهم، ولا يفوتها السبب وراء إقبال الرجال شيباً وشباناً على العسل الأسود؛ فتبيعه بسعر أعلى، معتبرة إن الذكـــور وهـــم يلاحقون فحولتهم؛ يبحثون عن متع غير أساسية في الحياة، فكلما أراد المرء تجاوز الضرورات إلى متعه أو زهوه، كلما كان عليه تقديم باهظ الثمن.

دللت إبنة النحال والدها، فصنعت له قفازين جلدين يمتدان حتى الرسغين، دبغتهما في منقوع الرمان طويلاً؛ ليصيرا قاسيين عصين على اختـــراق إبـــر النحل ولسعها، وخاطت حذاءً مشابهاً، كما أفرزت له ثـــياباً سميكة نقعتها بنشاء الذرة؛ كي تصير سداً أمام الإبر المسنونة، إذا لم يفلـــح تـــدخين والدها حول النحلات بابعادهن، وهو يتفقد الخلية اسبوعياً، أو يجني عسل الأزهار المثمرة واليانسون في مطلع تموز من كل عـــام، أو العسل الجبلي الذي تغذت نحلاته على الأشجار الحرجية في

تـــشرين الأول، كاشـــطاً طبقة لزجة ممزوجة بغبار الطلع وشمع العسل بمشط حديدي، مغطياً وجهه بناموسية من شاش قطني خاص ابتاعه له صـــاحب المـــنحلة، الذي لا ينقطع عن التذكير بضرورة الحفاظ على بعض العسل في الخلية؛ مؤونة الشتاء للنحلات النشيطات.

كانـــت مهمة النحال شاقة ومليئة بالتفاصيل، لكنها جعلت لحياة عيسى طعماً حلواً كما العسل، أسقط الرجل وراء ظهره حملاً من التعب والوجـــع والخـــسارات، حين يرقب السائل الذهبـــي الحلو يتقطر عبر فـــتحات المـــنخل إلى وعاء الحفظ؛ يعمر الآمان قلبه، ويستشعر المتعة، مستغفراً ربه لذكرى أيام الطحين وهبابه، وما كان عيسى يضيق بتكليف صـــاحب العمـــل له بحمل أوعية العسل إلى السوق، فقد باتت رحلات التسويق والتسوق التي تقوم بها مريم عوناً حقيقياً له، وحين أفصحت عن رغبـــتها بتوســـيع سوقها إلى القدس، لم يتردد عيسى في مساندتها، دفعا حمارهما في مخاضة زُغر[1] بحيرة الملح؛ محملاً بالبسط وجرار العسل وبقج الـــدواء حتى لم يترك فسحة لامتطائه، وكشفت مريم عن ساقيها مرتدية الـــسروال الانثوي الوحيد في القرية، والذي استعارته من الداية، فغسلته ثلاثـــاً، وارتدتـــه فرحة معتلية ظهر والدها، وقدميه الثابتين تقودناها عبر المخاضـــة إلى القدس، صار لها ووالدها شأن هام؛ تحكي عجائب سوق القـــدس العامـــرة، وتصف قبة الصخرة البديعة كأنها تسرد حلماً، أشار إليهما أهل الخربة كتاجرين عاملين نشطين؛ يثيران الإعجاب والحسد.

انخـــرطت العائلـــة في عمل متواصل، تشققت أيديهم، واسمرّت جلـــودهم، فلم يترك يحيى والده وحيداً في مواسم القطف، وإن عاب عليه مهاجمة أوكار الوروار الأزرق الفاتن، مشيراً إلى إن الطبيعة تتعامل بالعدل مع مخلوقات الله، وإن تدخل الانسان إفساد وجور.

---

(1) البحر الميت نسبة إلى زغر زوجة لوط.

تعود الأب من ولده مثل هذه الملاحظات، يرد عليه بتساهل:

- أنـــت في ملكـــوت، والعالم في آخر، علينا أن نفكر بالعسل، والـــبارات الـــتي سنحرزها لشراء الطحين والقمح والزيت، ولإسناد الكـــوارة الـــتي خزقت في منتصفها، وتربية بعض الدجاجات، للحياة مطالـــب لا علاقة لها بريش الوروار الملون الذي تعطف عليه، أو عدل الطبيعة وجورها.

يأخذ يحيى كلمات والده بذات المنطق المهذب الرقيق الذي يتعامل فيه مع أستاذه، وينصرف وشقيقته إلى تهيئة مزيد من ورق الكدش البني للطلـــبة الذين جاؤوا مؤخراً من قرى مجاورة طالبين العلم، اصطحبهم أولياء أمورهم بحثاً عن معادلات الطرح والجمع والقسمة التي باتت في صف الاستاذ يحيى من أولويات المعارف التي يلقنها، في تلك الأمسيات بالتحديد، تبدأ مريم في الزن المنتظم في أذني يحيى.

- لا بد لك من زوجة.

يكتفـــي الفتى الذي بالكاد يدخل مرحلة الشباب بالابتسام، وهو يخيط أطراف الورق بدقة ليكون لكل طالب دفتر أنيق.

يصعد يحيى إلى الكرك لتتبع ما يجئ به التجار من أدوات للكتابة، أو ســـاعات رملية، أو مزاول لقياس الوقت، لكنه في ذلك النهار كان يجلس وحيداً وقد مالت الشمس إلى غروب، حين اندفع مقبل إليه متحمساً:

- يا مولى.. تعلمني اكتب اسمي، وأعطيك كنـــز.

- ها!! لقيت لقيا مثل الخفارين على كنوز المماليك؟

- تـــضحك مني يا مولى! إذا لم تعلمني أكتب اسمي، لن أعطيك الكتاب الذي وجدته حين انهار مدخل باب الكرك الجنوبـــي بالأمس.

رجف قلبه، لم يصدق يحيى حواسه والراعي يصف له كيف انهار الممـــر المملوكـــي القديم، وانحشر الغنم، وتمكن مقبل من جر الأغنام

الصغيرة والهزيلة، في حين أن السمينة انحبست إلى أن وصل عون رجال أزاحـــوا الأنقـــاض القديمة، وتقاسموا ما وجدوا فيها من خبايا وجرار وصـــحون، أما هو؛ فقد ارتطم بكتاب على نوعين من الورق، أو ربما هما كتابان ملتصقان بفعل بلل قديم، أحدهما مكتوب بخط أنيق، والآخر بحـــروف مـــتقطعة، كـــلا الكتابين مهترئان، غابت الجمل وتقطعت الكلمات، لكن صفحات منهما ظلت واضحة بينة، ارتعشت كفا يحيى وهو يمسك بالأوراق بحذر؛ خشية أن يزيد حالتها سوءً.

علـــم يحـــيى مقبل كيف يخط اسمه في ذات الليلة، ثم رفع سراجاً بفتيل عريض مبلل بالزيت، أشعله؛ ودخل عالماً جديداً قديماً.

* * *

انـــصرف إلى كنـــزه، تتحرك أنامله بدقة ولطف رافعاً الصفحة الأولى عـــن عـــبارة بالكاد وضحت لناظريه، بين رسم تبدت معالمه، وأحـــرف غابت، تمكن يحيى من قراءة جملة صريحة، "هذا كتابـــي أنا الفقـــير إلى الله، طالب المعرفة من غافر الزلات العبد.. الخسرو شاهي، أستاذ العلوم النظرية والحكمية...".

ثم؛ حـــدث قطـــع، توثب فؤاد الفتي يحيى، أيقن إنه إذا سحب الصفحة الملتصقة قد يذهب بالكتابين، هرع إلى مريم، فتفحصت الورق الغريب الصقيل بين يديها، ثم جاءت بسكين دهنته بزيت الخروع، وفي ثغرة صغيرة بين الورقتين دست سن السكين وتقدمت به رويداً إلى أن انفـــتح الـــورق على صفحة جديدة، وانفصل تماماً عن الكتاب الآخر الذي خُط بعناية.

تمكن يحيى من قراءة عبارتين إثنتين في الورقة المكشوفة، بين عدد مـــن كلمات قضى عليها العث وتآكلت، قرأ كما لو أنه يدخل كهفاً غامـــضاً، "فارقت دمشق بسبب ما جرى من خبر في بيت المقدس...

طلعـــت إلى الكـــرك وأقمت عند الناصر... وكنت أتردد على القدس ونابلس.. إلى سنة 633 هجرية...".

قـــرأ مرتعشاً في صفحة أخرى، "كان الناصر تلميذاً فوق ما هو ســلطان، يافعـــاً يسهل أن تلج إلى عقله ومنطقه، فدرس معي كتاب الشيخ العليم ابن سينا.. "عيون الحكمة" وفهمه.

لم تعـــرف مـــريم لمـــاذا جافى النوم شقيقها، وما الذي أبكاه في مخطـــوط قديم أكلته الحشرات ورمد العفن أطرافه، ولماذا بحلق مطولاً بالكتاب التالي كأنه ينظر كنـــزاً كتب على واجهته: "عيون الحكمة.. للعلامـــة الطبيب، الشيخ الرئيس، حجة الحق، الحكم الوزير، أبو علي الحـــسين بن عبد الله بن الحسين بن سينا، المولود عام ثلاثمائة وسبعين، والمتوفى برحمة الله عام أربعمائة وثمان وعشرين".

كلمات شقت خمسمائة عام ووصلته، قدر يحيى إن الورق يرجع للزمن المملوكي إبان كان السلطان الناصر يعيش طريداً في قلعة الكرك، ويـــدرس على يد أستاذ اسمه الخسرو شاهي، كنـــز لا يمكن لمقبل أن يعـــي قدره وقيمته، لكنه يُبكي رجلاً تواقاً إلى المزيد من أسرار الكتاب العتيق المكتشف.

قـــال الـــناس في خربة جلجول إن الأستاذ انقطع عن التدريس وعافـــه، وانصرف عنه مهووساً بأوراق عثر عليها بين حجارة السور المملوكي، وقالوا إنه فقد صوابه لفرط ما يعمل عقله فوق طاقة البشر، لكـــن يحـــيى ظل منصرفاً في أغلب وقته إلى فتح الصفحات المغلقة في كـــتاب العـــيون، فإذا ما خاف السكين المدهونة بالخروع والتي باتت تـــشكل خطراً على أوراق الكتاب، عرضه للندي الصباحي، ثم وضعه مـــندياً تحـــت شمس تسطع بقوة، فتجاوب الكتاب مع العشق الغريب الـــذي عمـــر قلب الفتى، انفتح صفحة صفحة، أودع يحيى الصفحات

الظل ومسحتها مريم بطبقة شمعية شفافة تخفي الحبر ولكن تحفظ الورق أن يتفـــتت، تيسر له فك أوراق الكتاب، جلب صمغ الأشجار صانعاً قاعــــدة مـــن جريد النخل المقوى، ملصقاً الأوراق مجدداً عند أطرافها، مستعيداً كتاب "عيون الحكمة" بأكمله.

هـــنأ التلامـــيذ بعضهم تحت الشجرة بعودة الأستاذ، نظر نحوهم بحب عميق وقال:

- *لدينا الآن كتاب جديد قديم؛ ندرسه.*

وجد التلاميذ صعوبة في الكتاب الجديد، عانوا تلك الصعوبة حين يتوقف الأستاذ شارحاً آيات القرآن، ولكنهم في نهاية المطاف يتعاملون مـــع الكـــتاب المقدس ككلمات لها قدسية تستوجب الحفظ وإرجاء الفهـــم، وقد علموا من الذين تجاوزهم سناً، وعرفوا المولى الشيخ، إن علـــومه أكثر يسراً، فالمعلم الشاب يرهقهم بالأسئلة، ولا أجوبة لديه، وإن بـــدأ في توجـــيههم لكـــتابة عبارة ابن سينا على مفتتح دفاترهم: "تـــرددت إلى المسجد وصلّيت وابتهلت إلى مبدع الكل، حتى فُتح لي المغلـــق، وتيسّر المعسر"، طالبهم بعد الكتابة بالتفكر في العبارة لأيام، باتوا يحلمون بابن سينا المنبعث من التراب؛ باحثاً عن المغلق، متصدياً للمعسر.

ارتـــباك التلامـــيذ لا يقاس بما يعانيه يحيى، ولولا ثقة خفية في قلب شـــقيقته لظنت إن الكتاب لحس عقله؛ يعود من تحت الشجرة مهرولاً إلى كتابه، يفتح الصفحة الواحدة من منتصف النهار حتى غياب الشمس، وقد يغـــالي بإشعال السراج ليتأمل ذات الصفحة، يقرأ بصوت عال، ثم يعيد في ســـره، ثم يـــرجع بالقـــراءة إلى السطر الأول، يحرك رأسه متعجباً، يزفر وينحبس نفسه، ينسى أمر الطعام والشراب، وينكفئ نائماً فوق الورقة بعد أن أضناه فهمها، يتحدث أحياناً بحماسة مفاجئة، يقول لمريم:

- *اسمعي يا حكيمة، لا بد لكل حكيم أن يسمع.*
ويروح في القراءة:
-*"إن كـــل جسم طبيعى فهو متقوم الذات من جزئين: أحدهما يقـــوم فـــيه مقام الخشب من السرير، ويقال له هيولى، ومادة، والآخر يقـــوم مقـــام صورة السرير من السرير، ويسمى صورة، وكل جسم؛ حـــادث أو متغير، فيفتقر من حيث هو كذلك، إلى عدم سبقه، لولاه لكان أزلى الوجود"*.
تقطب جبينها وتعلق ضاحكة:
- *تعدمني؛ إذا فهمت كلمة..*
يواصـــل يحـــيى تفكيك الكلمات الساحرة أمامه دون أن ينبس بشفة.
"الحـــركات المستديرة ظاهرة الوجود، فالأبعاد غير المتناهية ممتنعة الوجـــود، فاذا كانت الأبعاد محدودة، والجهات محدودة؛ فالعالم متناه. فليس للعالم خارج. فاذا لم يكن له خارج؛ لم يكن له شيء من خارج. والـــبارى تعالى، والروحانيون من الملائكة، وجودهم عال عن المكان، وعن أن يكونوا فى داخل أو خارج".
* * *
سارت حياة ولدي النحال على نحو ممتع؛ لا يجدان فسحة لفراغ أو ملـــل أو شكوى، والصبيان الذين أحاطو بالأستاذ، لم يعد يعجبهم تـــسميته بالمـــولى، ربما استنبط بعضهم تعبيراً أرفع شأناً، فأسموه المعلم، يتـــنازل لـــه المولى أمين طواعية عن بعض أيام في تدريس الكبار إذا ما شـــعر توعكاً، خاصة أن الشاب يضع بين يدي أستاذه كل ما جاد به الطلـــبة من بيض وطحين وأطعمة دون نقصان، ولا يقاسمه أو يشاركه الغلة بتاتاً، لكن ما وقع بعدها؛ أنذر بانقلاب في حياة الخربة الهانئة.

مـــات الشيخ صايل بعد شتاء ماطر، ومع هبوب هواء حار قادم من الجنوب عبر صحراء نجد والحجاز، فضربت خيام العزاء على امتداد جبلي مسطح قليلاً مقابل بيت المختار، وتوافد الناس، و لم يتأخر عيسى.

ســـامح عيسى ماضيه على كل ما فقده أو أُخذ منه، أو جافاه، أقعـــى متذكّراً التفاتات الشيخ صايل الحانية، وحكاياته وهو يرفع ثوبه كاشـــفاً عظـــام ساقه متذكراً دوار البحر أو جوع الليالي الباردة على أعتاب مالطا، حن لرفيقه الذي عظمت الهوة بينهما فقادهما إلى فراق، تذكـــره داخلاً بيته جالباً وراءه المختار معتذراً مبرراً فعله، ولجوءه إلى الاوطـــة عدوعيسى الأبدي، غفر له بعد فوات الآوان، ظن إن كل ما حـــدث كان يمكن تعديل مساره لو أن الرجلين صبرا على صداقتهما، وأعملا قلبيهما برهة، لكن العند وقسوة الملامح في وجوه الأولاد ردت قلبـــيهما، وفـــرقتهما إلى أن مات الشيخ صايل؛ وما تجالسا وتكاذبا وتساررا، أمسك عيسى دمعته في ظلام الليل، وقال لنفسه:

- *أولاد صايل أجلاف، وجوههم لا تبشر بخير.*

علـــم الرغم من نفور اللقيا؛ لم يفكر النحال طويلاً بما عليه فعله، أعلـــن أمام الملأ أن خمسة عشر عاماً من الخصام تهاوت، و لم يعد يذكر أســـبابها، وإنه يحفظ في ذاكرته مساندة الشيخ الصديق له وقت عوزه وحاجته، هلل الرجال وكبروا، وأمن بعض الشيوخ الوافدين من الكرك على أصالة الرجل وطيب منبته، بصورة غامضة، تحول العزاء إلى مجلس يتداولون فيه مناقب عيسى ورجولته، ويعرجون على ألمعية ولده الذي التحق بالمعزّين في اليوم التالي، ولا يوفرون تميز مريم وأهميتها في محيطها الذي يتعالج بدوائها، ويجلس على بسطها الجميلة.

تبادل مصعب ومتعب النظرات، كذلك منصور القادم من حوران للعزاء، واصلوا صب مرق الجميد على مناسف العزاء السخية، ولحظوا

انــسحاب عيسى مع دخول الأوطة العثماني خيمة العزاء، وانتبهوا إلى تورد وجه الفتى يحيى وإفساح الجالسين صدر المجلس له، وتشاغل الناس عــنهم بمحادثته والنقاش معه حول أهمية العلوم التي يدعو إلى تعميمها مــثلما حفــظ القرآن وجدال التفسير، وقد تفحص متعب دفتر ولده صباحاً ليميز الأرقام التي تتراقص إلى جوار الأحرف، وشعر بغصة، إذا مــا تمكــن هذا الجمع من الأطفال من فك الحرف وفهمه، ثم راحوا يحــسبون ويحصون، فلابد أن الحياة قادمة بريح غريب جديد؛ ريح قد يقتلعه من موقعه، ويذروه في الفراغ.

لا يحــتاج مــصعب إلى إذكاء النار تحت الجمر، ففي قلبه منطقة معتمة حالكة السواد وفي لسانه طعم مرير، حين تكلم الجمع عن مريم في عزاء أبيه، اكتسح موج الذكريات روحه بذات الغيظ والوجيعة، لم يجــد أبناء صايل ما يدفعهم للامتنان لعيسى النحال وولده في المشاركة بعــزاء أبــيهم، فإذا ما انقضت أيام العزاء، وتفرق الناس، شاهد أهالي الكــرك رجــالاً ثلاثة يصعدون الدرب المؤدي إلى باب القلعة الثرية، ويدقون باب الاوطة العثماني الجديد.

للــرجال الــثلاثة مــصالح مشتركة كثيرة مع كل أوطة تركي يحل بالمكــان، من المحتمل إنهم كانوا يقومون بواجب الشكر والتقدير على ما بذله الرجل من مشقة؛ وعلى تعفير حذاء قدميه في المجيء إلى خيمة العزاء، ومــن المحتمل إنهم يعرفونه بشقيقهم منصور الذي لم يلقه الأوطة سابقاً، أو يعقــدون صفقات تجارية بين الكرك وحوران، ذلك أن زيارتهم لم تكن في نهار أربعاء الموعد المعتاد لقبض راتب المختار الاسبوعي، كل الأسباب قد تكــون ممكنة، ولا يمكن لأحد ممن رأى الرجال الأربعة ينتظرون متحملين ســياط الــشمس عــند سور القلعة، التشكك أو التعجب، أو ربط تلك الزيارة، ولو لوهلة، بأستاذ خربة جلجول الشاب.

لم يكـــن الاوطـــة الجديد أحمق متهوراً، هز كتفه استهانة بعلوم الحـــساب التي يتلقاها أولاد القرية، وأبدى اعتراضاً بسيطاً على التوسع في تفسير القرآن ومناقشة آيات الواحد العليم، قال إن هذا الأمر تجاوز قد لا يكون له شخصياً سلطة مناقشته، فالأستاذ أدرى بحاله وعلمه.

لم يقتـــنع الأوطـــة أن بعـــض الحساب، جمعاً وطرحاً، يمكن أن يتسبب في ضرر ما، لكن منصور وقد زاده الترحال خبثاً ودراية، أشار في ثـــنايا وشـــايته إن تصرف الأستاذ ينم عن استهانته بأسياده، وعدم التـــزام بمـــا جـــاء في كتاب الله من علم يكفي البشرية، تنبه العثماني؛ وطلب لقاء المولى أمين للتباحث فيما قاله أولاد الشيخ صايل..

تأخرت زيارة المولى للاوطة، لا لأن الرجل يتخذ موقفاً، فهو قد أعـــد للقـــاء ثوباً جديداً، وعصى معقوفة أنيقة، وعمامة زاهية اشتراها خصيصاً، لكنه في الصباح الذي ألغى فيه درسه كي يلحق ببيت الاوطة في قلعة الكرك، سمع صيحات الاستغاثة تتردد أصداؤها فزعة في جنبات الجبال، صاح الفلاحون والرعاة، وتراكض الصغار، وأطلت النسوة من بيوتهن وخيام الشعر والكهوف مترقبات خائفات، قفز الراعي فوق نول مريم المنصوب في الخلاء، وصاح بكلمة واحدة اختصرت الفزع قائلاً:

- *الجراد.*

رد الجـــراد المولى أمين عن زيارته، والأطفال عن الكتاب، وبنات مـــريم عن صباح النسج، والباعة عن حوانيتهم الصغيرة في سوق الكرك، وشوهد الناس ينحدرون من الجبال إلى الوديان والمزارع؛ يسابقون الخطر القـــادم، يشعلون الحطب والقش والأعواد اليابسة من أغصان الشجر في حفر بعيدة عن الجذوع والقرامي، ويلطخون بعض العسل على الأغصان الصغيرة؛ عل طائر السمسر الصغير أكال الجراد يهاجم مزارعهم بحثاً عن فريـــسته المفـــضلة، لكنهم وهم يقومون بجهودهم يدركون إنها جهود

ضـــائعة، إذ سرعان ما خيم اعتام أحمر فوق المزارع، كما لو أن معجزة شريرة حلت بالزرع والثمر، وانتشرت ملايين الجرادت ملتهمة في دقائق قلـــيلة الأخـــضر والـــيابس، ولم تبعد الحرائق إلا أسراباً قليلة منها، منذ ســـاعات الصباح الأولى وحتى غياب الشمس، على مدى ساعات ونهار كامـــل، تغطت الأشجار الخضراء بغلالة لامعة متحركة تميل إلى احمرار، ماجـــت مثل قباب ملونة على ايقاع بطيئ، سرعان ما أقلع سرب الجراد الأحمـــر ملـــتمعاً تحت وهج الشمس؛ تاركاً الشجر أعواداً جرداء، حلق يتـــساقط بعـــضه ميتاً عند الجذوع الخشبية العتيقة في المزارع والغابات الحرشية، مصدراً أصواتاً أشبه بسقوط حبات البرد على الأرض، وطارد الـــصغار الجـــراد قرب جدران المنازل، ناصبين له الفخاخ الصغيرة، في ساعات قليلة؛ ضاع جهد عام من الزرع والرعاية والعناية.

أقسم كبار السن أن مثل هذا الهجوم المرير على أخضرهم ونتاج شقائهم لم يحدث منذ ثلاثين عاماً أو يزيد، راقبوا النسوة تغلي ما جمعه الـــصبية مـــن جـــرادات وتهيئها لتؤكل، اقترح البعض تقديم كشف بالخسائر إلى الاوطة؛ عل الخربة وما جاورها من القرى تنجو من زيارة المحصلين في هذا العام الكئيب.

جلـــس الناس متجمعين في مساء الخربة الحزين، لم يختاروا بيت الـــنحال علـــى وجه التعيين؛ استجلبتهم رائحة القرفة التي غلتها مريم وحلتها بالعسل، زجر الرجال بعض النسوة الباكيات، قائلين:

- *هذا الخد تعود على اللطم.*

تحت إضاءة القمر الذي تسيد سماءً صافية، شاهد الناس انكفاءهم وحزنهم في أعين بعضهم بعضاً.

تقاســـم الأهـــالي أحـــزانهم متذكـــرين حزنهم السنوي في دفع الضرائب، أو سنوات غرق البيوت والمال والحلال بهجمة شتاء قديم، أو

محل الأراضي في صيف جاف قاس، سيل من الكلام لم ينقطع، وأباريق القـــرفة تتابع، والرجال والنساء يصبون نصيبهم في الفناجين متلمظين بالسائل الدافيء، قال أحدهم على سبيل المجاملة:

- أنت شيخ يا عيسى، أي والله، خلف الله عليك خيراً في اضافتنا هذا المساء الثقيل.

انـــتقلت الكلمات مثل النار في الهشيم، حتى وصلت سمع متعب، الثقل الذي أحدثه الحدث لم يسعف المختار في تصرف سريع، تحادث وأخـــوته، ســـخروا قليلاً من تعبيرات البسطاء الذين شيخوا النحال، وتـــرحموا علـــى زمـــن كانوا فيه ملء العين في دروب الخربة والقرى المجاورة، وكان الشيخ النحال مجرد أجير وضيع في طاحونهم، وتذكروا إن المـــولى لم يـــذهب إلى الاوطة ليستجوب، وقد أفصح منصور عن دهائـــه حين قدر إن هذا التأخير كان جيداً؛ إذ يمنحهم الفرصة لتلقين أمـــين مـــا يجب قوله، بحذر وخفة دون أن يخطر بباله أنه صار طوع ارادهم.

ما فعله يحيى بعد كارثة الجراد؛ مهد لهم، ومكنهم من رسم خطة مكيـــنة، فـــالمعلم طوف بالبيوت الحزينة مطمئناً على ما فيها من زاد ومؤونة بعد خراب الجراد، وراح يدعو الصغار إلى الالتحاق بالكتاب، ويهـــون على أولى الأمر بتخليه طوعاً عن حصته في طحينهم وبيضهم وخبزهم وعدسهم، قال:

- ارســـلوا الاولاد للكـــتاب، ولا تحملوا هم أجرتي، مصابكم مصابـــي، وهمكم همي.

لم يفسر المولى أمين الأمر على محمل الشك والريبة، لولا زيارات أولاد الـــشيخ صايل المكوكية له، تنبه العجوز فجأة إلى أن اقتراحات تلمـــيذه الذي حظي بلقب المعلم دونه، قد تطيح بنظام تعليمي أفاد منه

عمره كله، وقد تتركه في أواخر سنوات عمره محتاجاً ضعيفاً لا سلطان لـــه، عدا عن أن تنازل الشاب عن أجره، مزاودة علنية عليه، فكثيراً ما مـــرت ظروف الجدب والفقر على الخربة، و لم يهتدِ المولى إلى مثل هذا الحل الذي يقربه من الناس، ولو مؤقتاً.

لم يمنعه وسواس الأشقاء الثلاثة من التحدث مع تلميذه؛ بعض من حـــسن التصرف، وعلو همة تلميذه، ومعرفته العميقة إن الفتي لا يضمر سوءاً، ما أراد المولى الوقوع في شر انتقام مكشوف، قال لتلميذه المتربع قبالته بوجهه المليح وعينيه الضاحكتين:

- *ما فعلته يطمع الناس بالكتّاب، إذا كان الجراد أكل زرعهم، فـــإنهم لا يخلـــون مـــن خبث، يخبئون الكثير، لديهم مؤونة تكفي المحـــصلين والـــبدو والكتاب، ينامون على ذهب، ونحن لا نملك إلا علمنا نقتات به.*

تمهل يحيى قبل أن يرد تأدباً، ثم رسم بسبابته خطوطاً متقاطعة فوق التـــراب، ومحاها، وعاود رسم سواها، والمولى الذي اعتاد تأني تلميذه عـــندما تكون الأمور جادة، توجس خيفة، ماذا لدى الأستاذ مما يفسر فيه استغناءه عن حقه! قال المولى:

- *فيم تفكر؟؟ الاستغناء عن الحق، مقابل إسقاط حق، ليس حلاًّ عادلاً، من حقك أن تؤجر على علمك وعملك.*

رفـــع يحـــيى ناظريه، وحدق بالمولى ملياً، ثم سأل كأنه لا ينتظر إجابة:

- *من الذي أعطاني هذا الحق؟؟*

تحامـــل العجوز على نفسه، علم أن تلميذه سيبدأ طريقته الملحة بالحاق السؤال بالسؤال، خاف ضياع هدفه في منع الاستاذ عن صنيعه، أو جعله مؤقتاً لمرة واحدة على الأقل، قال:

– منذ بدء الخليقة هذا حقنا من الناس، يأخذون العلوم لتتغير حياتهم، وليس لدينا مورد سوى ما علمنا الله، هذا عرفنا، وإذا داخلتنا شفقة على الناس، فليس هناك من يرفض الرحمة، ولكن بمقدار، لا تظلم نفسك لإنصاف الفقير.

تحدث يحيى:

– لم أفكر بإنصاف الفقير يا شيخي، لم تداخلني الشفقة، ولكني لست متأكداً من أن ما نتقاضاه حق لنا.

صفق المولى كفيه ضيقاً، وعلا صوته:

– لا حول الله، في كل بلاد المسلمين، منذ ارتفع أذان أن لا اله إلا الله، وهذا عرفنا، كيف تقول بعكس ذلك؟ المسألة لا تتعلق بك وحدك، ستخرب الكتب الغريبة عقلك، إذا تعود الفلاحون على كرمنا، مدوا أيديهم في جيوبنا.

رد يحيى متمهلاً:

– لا تغضب يا مولاي، قلت لك ليست مسألة شفقة ما دفعني إلى فعلي، ربما جاء الجراد معه بما أنار بصيرتي.

دمدم المولى:

– وماذا قالت بصيرتك؟؟

عاود الرسم بسبابته أرضاً، هذه المرة خطاً طويلاً مستقيماً واحداً، وقال:

– خمس هبات من الله، لا يجوز أن يبذل المرء من أجلها قوتاً ولا مالاً، هي حق لكل انسان، لا ينازعه فيها أخوه الانسان، ولا ينكرها، ولا يضيق عليه بها، الماء، والهواء، والكلأ، والنار، والمعرفة.

كأنما هبط الجراد مجدداً يقتات القلوب، كأنما سيل عرم انهمر من أعلى جبال الكرك إلى قعر الأغوار السحيق، أحدثت كلمات يحيى قلقاً،

فكـــل ما ذكر قابل أن يكون سلعاً تنتفع الناس بمداولتها، نشب صراع الكلمـــات بين الناس في الحقول التي جفت، وفي الجلسات المسائية التي طالـــت، سمى البعض ما قاله يحيى ذكاءً في الحوار ورهبانية لا أصل لها علـــى الواقع، وقال أخرون إنه أفصح عن قلب ذهبـــي يقبع في صدره تجاه أهله وفقراء ديرته، وقال البعض إن الكلام على هذا النحو؛ فتوى، قلـــب هـــذا التفسير تحديداً مجريات الأمور، صاح المولى أمين بين جمع قليل من الرجال:

- فـــتوى!! بأي حق؟؟ ليس إلا ولد لم يكتمل شاربه بعد، يأتي بهلوساته من كتاب مسحور، ماذا عن كل مولى في الديار؟؟ ماذا يقول شيخ العلماء في عجلون؟؟.

العـــسس الذين كانوا يأتون بأخبار اجتماعات الناس ووجهات نظرهم حول ما حدث، يزيدون في الكلام ويطنبون تأكيداً على قيامهم بمهمـــتهم على أحسن وجه، تردد الأشقاء الثلاثة مراراً إلى القلعة، تمنى الاوطـــة العثماني لو كفاه الرجال الاهتمام بهذا التفصيل الغريب، قال للرجال:

- يـــا بشر افهموا، لا وقت لنضيعه على الرعاع، الباب العالي في حـــرب مـــع نمـــسا، ومطلوب مؤون كثير، والناس في كرك ملاعين، دوخـــونا، اخفوا ما لديهم من خير، شغل كثير في عنقي، وسيرة هذا اليحيى مزعجة، لا وقت لدي.

قال منصور:

- ســـيدي، رفع الله مقامه، ما دمتم في حرب، لماذا لا تجمعون هؤلاء الشباب أصحاب القلوب الحامية، والألسنة الطويلة، وترسلونهم للحرب يدافعون عن الدين والباب العالي، بدل أن يضحكوا على عقول أولاد الناس؟؟

حـــيكت المؤامـــرة بعناية، ناقش الاوطة والمختار امكانية ارسال الأستاذ جندياً في عسكر الامبراطورية العظيمة، لكن تمتعه بحق الوحيد في عائلـــته منعهم من المضي في هذا، ولم يذهب بحيلتهم هباء، فأدرج اسم يحيى وحده دون سواه على خارطة التجنيد؛ لا كعسكري محارب، ولكـــن أســـتاذاً يعلم الجند آيات القرآن، وأرسل الاوطة رجلاً ينقل للاســـتاذ نبأ تكريمه، وانتقاءه دون سواه لخدمة مولاه أمير المؤمنين في اســـتانبول، في تعليم عسكره كتاب الله، لم يرصد الناس حينها ردود فعل يحيى الهادئة، ولكن تحدثوا عن فجيعة مريم عند الغروب.

كـــان عيـــسى يرقب حمرة السماء الصافية بعيداً عن بيته، ويلم حـــزيناً ما نفق من نحلات في قلب المناحل وقد انقرض غذاء النحل من المكـــان، ومريم تنتهي من إعداد بعض الخمائر من طحين قديم، ويحيى يقـــرأ في عيون الحكمة آخر ما أتاح الضوء الغائب كشفه، حين هبط مقبل مسرعاً لاهثاً إلى البيت وصاح:

- عمـــه مريم، عمه، جندرمة مثل الجراد قادمون إليكم، يقولون يأخدون المولى إلى استانبول.

شقت ثوبها بكفيها من فتحة صدرها، ونفلت شعرها، وصاحت صيحة أفزعت الصبايا الحائكات:

- أأأأأووو... يا سامعين الصوت... أأأأووو... يحرم على يحيى خدمة ذباحين أمه نفل، يتموه وحرموه ديد أمه صغير، يثكلون قليببـــي ع كبر! خيي لا يروح من الديرة ولا يوافيهم.

تحرك الفضوليون خلف العسكر المنحدرين إلى بيت النحال، وأفسح الخائفـــون أمـــام الخيل التي أثارت الأغبرة وهي تتقدم، والجندرمة بلباسهم العـــسكري الذي لا يري إلا في مواسم التحصيل، وعباءة المختار ترفرف وراءه وقد ربط رأسه بحطة شدها فوق منخريه منعاً لتنشق الأتربة.

رغـــم صراخ مريم والصخب الذي أحدثته فزعها، إلا أن يحيى لم يحرك ساكناً، قرأ بشغف والظلال تمنع تجلي الحروف والكلمات:

- "الجهة، كل جهة، فهى نهاية غاية، ويستحيل أن تذهب الجهة فى غـــير النهاية، إذ لا بعد غير متناه. وإذن، لو لم يكن إليها إشارة، لما كان لها وجود، وإذا كان إليها إشارة، فهى حد ليست وراء ذلك، فلو كان حد، ما أمعنت إليه الجهة لم يحصل، لم تكن الجهة موجودة لشىء، لا تتم أفعالها إلا بالأجسام".

شعر إن جهته تناديه، وإنه ماض نحو غاية عبر اشارة، وإن جسده ســـيحمله بـــلا عناء، دس كتاب عيون الحكمة تحت الفراش وأمسك بنسخة من كتاب الله؛ ضمه إلى صدره متأرجحاً.

محا المساء بعتمته بقايا النور حول البيت الصغير، حين تنحى مقبل قلقـــاً معلناً وقوف العسكر وترجلهم، والتقطت مريم شرشفها ورمته فـــوق شقيقها، فانسدل مثل ستار خفيف، وقفت عند الباب ووضعت كفـــيها في خصرها وعيناها تفيضان غضباً، قال العسكري وهو يحرك عصاه أفقياً:

- *أين أخوك؟؟*

تهكمت وهي تنظر إلى المختار في عينيه مباشرة:

- ماذا يقول الرومي؟

أجاب وقد أرجفه الضوء المنبعث من بؤبـــي عينيها:

- *يسأل عن أخيك، يطلبونه باستنبول.*

سدت الباب بجسدها، مرتكزة بأعلى صدرها وكتفها إلى اليمين وبردفها إلى اليسار، وقالت:

- *كيف يدخل علينا ونحن حريم؟؟ شئ لا ترتضيه يا مختار، أنا لا أخوة ذكور لدي.. الرومي واهم...*

قطب متعب جبينه وقال:

- لا تلعبـــي معنا يا بنت، أنا أعرف، لا تلعبـــي بالعسكر، أراه من هنا، إذا لم يكن لك اخوة؛ فمن يكون القابع هناك؟

كـــلام أشبه بالجنون، تعرف مريم إنها لا تخدع أحداً، وإن متعب يدري بوجود شقيقها ويعلم، ولكن تجمع الأهالي حول سرية الجندرمة أغـــراها باستكمال اللعبة، تلوت مغيرة نقاط ارتكازها على الباب بين يمـــين وشمـــال، وهـــي تلاحـــظ فعل الجندرمة في مد رؤوسهم علهم يشاهدون القابع في الداخل، قالت ساخرة:

- يـــا عيب الشوم، المختار يدخل جندرمة الروم بيت حريم!! لا تفعلـــها، وأنـــت حامي شرف البنات! ألا تعرف من في الداخل؟ هذه أختي.. أنت المختار، تعرفها، أختي.

تـــبادل العـــسكر النظـــرات، وزمجر متعب وقد غاظه مماطلة الفتاة:

- اختك!! حفظها الله، ما اسمها؟

صمت المجتمعون عن الهمهمة، وتعلقت أنفاسهم بشفاه مريم التي تمهلت برهة، ثم قالت ببساطة مخيفة:

- اختي.. هفوف.. تعرفها.. هفوف.

ذهـــب الليل بكل ضوء في المكان، لم يشاهد الناس الجزء الذي أصـــفر وجـــه متعب، ولا ظنوا أن لعبة النساجة في استخدامها لاسم الهفوف، قد أورثت في قرارة نفسه مرارة لا تُحتمل، حين لوى الجمع أعـــناق جـــيادهم مغادرين، التقوا بعيسى قادماً فوق ظهر حماره، ولم يعرف النحال لماذا صاح فيه متعب من بين الجند:

- ســـيكون حسابكم عسيراً، لن تتمكنوا من إخفائه، سنجده، سنأخذه من بين تلاميذه، خبئوه كالنساء، أو دسوه في كوارة الطحين،

سنمسك به عاجلاً أو أجلاً، سنرمي به في بلاد الواق الواق، ولن تراه عينك حتى تموت.

لم تنم الخربة ليلتها، حاصرها الجندرمة العثمانيون بخيلهم ومشاهم وسـيوفهم الصقيلة، خرج الصبية يتفرجون، فرقوهم بتشويح السياط والـصراخ، لكـن الأمر أفلت من أيديهم، فقد اختفى يحيى متخفياً في ثياب امرأة.

دهنت مريم صفحة وجهها بهباب أسود مموهة ما تبقى من ملاحة وأنوثة فيها، دست جسدها بالكامل تحت فرشات الصوف، وأخرجت شيئاً ملفوفاً بقطعة من الخيش، ربطت خبيئتها إلى خصرها بحبل صوفي، وأسـدلت ثـيابها، وفعل يحيى فعلها، فربط كتاب العيون في خاصرته أسـفل ثوبه، خرجا كما لو كانا امرأتين، عجوز وشابة، برفقة مقبل الـذي مـا فاته أن يستعرض تفوقه في التعرف ليلاً ودون ضياء على مـسارب الخربة ودروب الجبال، لم يكون أي منهما متأكداً من وجهة سيره، لكنهم ابتعدوا عن بوابات الكرك مقدرين إن الحرس لا يفارقوها لـيلاً، وتوغلوا جنوباً متفادين حراك الجندرمة المحتمل، اجتازوا الوادي إلى حـرش شوكي، ما أن انتصف الليل بلا قمر، حتى التقط سمع مريم هسيس نار موقدة في مكان قريب، تتبعوا الصوت بين الشجر الحرشي العـاري مـن أوراقه، تقدموا على حذر، ثم كشفوا أنفسهم لصاحب الناقة المنوخة مثل صخرة فوق تراب الحرش المأكول.

غابـت مريم ويحيى ومقبل ليلة ونهاراً كاملاً، وتعرض عيسى إلى استجواب قاس مهين، إلا أنه ظل يردد:

- لا علـم لي، البـنت شورها براسها، والولد صار رجلاً، ربما ذهـبت إلى الكرك تبيع ابسطتها ودواءها، وربما نام يحيى تحت الشجرة في الكتاب.

استنكر عيسى أن يكون له بنت تدعى الهفوف.

اشـــتعل مـــتعب غيظاً وخنقاً؛ موقناً إن الفتاة لعبت به وأوجعته بـــدهاء مكـــشوف لم يملك الرد عليه، وجعلته سخرية صغار الخربة، أخافـــته باســـم جاء من الماضي السحيق، ولم يتمكن من اقتحام بيتها خـــوف صياحها وتلطيخ موقعه إلى الأبد بعار وهمي، اختفت وشقيقها مـــع مطلـــع النهار، لم يترك موقعاً إلا وجعل الاوطه يحاصره ويمشطه بجـــنده، بحـــثوا بجلد لأيام في كوارات المنازل، وبين بيوت الشعر، في الكهـــوف أعالي الجبال، والغابات حول الكرك، وعند مساقط المياه في المـــوجب، وفي بقايا الهشير النابت بين السبخات عند بحيرة الملح الميتة، وأعلـــنوا عبر مناد طوف بالخرب والقرى: إن يحيى فر من الخدمة لدى الـــباب العالي، وإن على من يعرف عنه شيئاً التخبير في الحال وإلا وقع الوبال، وكان حسابه عسيراً، مع ذلك؛ فإن أحداً لم يسعفهم بخبر، بدا كما لو إن يحيى رفع من الوجود.

عـــادت مـــريم وحدها، لم تحدث أحداً حول اختفائها ليوم وليلة علـــى كثـــرة مـــا سألت، حين أقلع الناس عن التحلق حول والدها، واكتفوا بتخيلاتهم للاختفاء المفاجئ، وهلوسات يزيدون عليها ويغيرون في وقائعها كل مساء، وفارقت بيت النحال ظلال خيل العسكر المحومة حـــوله، بكت مريم مجهشة؛ ونياط قلبها تتقطع، ولسانها يتلعثم؛ واصفة لوالدها ما جرى من أمرها وشقيقها.

كـــيف التقت بالدواج الذاهب إلى سيناء، فساومها لاصطحاب شـــقيقها متكبراً وطامعاً، مؤكداً إنه لا يحتاج إلى أستاذ في رحلته، وإن مثل هذا الحمل عبء على رحلته في الخلاء المكشوف، كما إن تشبث مقـــبل بمـــرافقة صاحبه، يضاعف العبء؛ مما يستلزم مضاعفة الأجر، فكت مريم خبئة الخيش، ورأى الدواج المشخص الذهبـــي يلتمع، فلان

ووافـــق على إرداف المسافرين الفارين ناقته، أمر المرافقين بخلع ثيابهما الخيـــشية، وضـــمها إلى بقجته مانحاً اياهما ثياباً مختلفة، ارتديا جلاليب بدويـــة وحطـــات خفيفة، تلاصقا وراء الدواج والناقة تستقيم واقفة، وشـــد صالح الدواج الرسن، وضرب عنق الناقة بكفه، وخب بهما إلى سيناء.

الفَصْـلُ الثَـاني

التيه

999 – 1001هجرية

1591 – 1593 ميلادية

خلفوا وراءهم صفير الريح وأغصان الشجر متخشبة عارية، خبّت الناقة تحمل راكبيها الثلاثة بعيداً عن جريان الوديان؛ متفادين السير في الدرب المحاذي لبحيرة الملح زغر، فاجتازوا العريش والسهول المنبسطة المكــشوفة، مـــنحدرين مع بداية الصدع الإفريقي على امتداد الأرض الخفيضة.

عندما صارت العريش وراءهم، مد صالح الدواج ذراعه مشيراً إلى نقطة لا ترى، وقال:

- *بأمر الله ومشيئته، ندخل التيه.*

تقلبت عينا يحيى، واستدارت كتفيه، متلفتاً في كل صوب؛ ذاهلاً لــتموجات بحر الرمل، يسيطر عليه شعور بأنه مجرد نقطة حائرة ضائعة في فراغ مهيب.

خففـــت الـــشمس غلواءها عند المغيب، ترجل صالح يقود الناقة المـــثقلة بـــسلال البضائع وأكياس الخيش المعبأة، أمدهما بحبات من بلح جاف، محذرا من الإفراط في الطعام أو الشراب، لم يعجبه افتتان الاستاذ بالكـــون الرملـــي العجيب، وتجواله بعيداً عن مسير "ريا" ناقته الحبيبة مـــثلما الـــولد، هـــدده إذا ما فقد حرصه وصاحبه، وابتعدا يتجولان ويتسليان؛ فإن التيه سيبتلعهما، وهو لن ينتظرهما فيعطل سيره، أو يرتد للبحث عنهما في أراضي صيادي الصقور الشجعان وعشاق النوارس.

تقلب ليل ونهار لأيام كثيرة، وتباهى البدوي بشبريته المعلقة على حـــزام الجلـــد في خاصرته تحسباً لقطاع الطرق والمعتدين، تحدث عن

رحلاتـــه المكوكية بين مصر والشام، واستيطانه سيناء، ثم أطلق صوتاً أجـــشاً متـــرنماً؛ فـــتأرجح رأس الناقة، وداخ المسافران والجمع يقطع صحراء التيه متوغلاً في سيناء، انبعث الحداء المغنى شفيفاً مغايراً للهجة صالح العدوانية الحادة، وجاس في صدريهما شجياً.

- ســـايق علـــيك الله.. ما تبوّحي... يا مفرحة الصغار.. يومن تروّحي..

هز مقبل رأسه متعجباً وقد اعتراه شك فيما إذا كان راعي الناقة يحـــدث بهيمته أم طيفاً في ذلك السديم الرملي العجيب، فإذا ما وصلت ريـــا براكبيها إلى حدود امتزج فيها الرمل والصخر الجرانيتي الأسود، مط صالح صوته، وترنحت كلماته وناقته وعمامته:

- ايييييه.. يا من يحدرها على شط العرب.

ظـــن يحيى لوهلة أن البدوي يحكي عن شط مائي يتجهون إليه، ولكـــن صالح قادهم صوب دياره في جنوب سيناء مبتعداً عن البحر؛ جـــف الهـــواء واشتدت سياط الشمس قسوة، فجففت جلود أكفهم، وســـفعت وجناتهم بحمرة اسودت مع هياج الرمل، وتغضنت جباههم وهـــم يزمون جفونهم يتقون حدة الضوء في العيون، لم يملك الرجلان اللـــذان شاركا صالحاً رحلته الاعتراض؛ وهو يعلن أنه لن يقودهما إلى مـــصر كمـــا وعد الصبية الملهوفة في أحراش الكرك عندما تقاضى ثمن تهريبهما من قبضة الجندرمة المسعورة، تحدث وكأن الأمر مفروغ منه؛ فالـــدرب طويل، وديرته تقع على الطريق، وهو لم يزر أهله منذ عام، انـــزعج مقبل، أما يحيى فقد صارت الدروب لديه سيان، يكتشف في كـــل خطوة تبدل ملامح الطبيعة من حوله؛ لم يعترض، بل واستبد به شوق خفي لمشاهدة العالم الخيالي الذي حكى عنه البدوي طويلاً كأنه يسرد ذكرياته لناقته دون الرجلين.

اجتاز الركب الصغير جنوب سيناء، تناقصت الكثبان الرملية إلا قلـــيلاً متفـــرقاً بين جبال غرانيته وعرة المسالك، وسارت الناقة الهوينى كأنها تعرف دربها، انخفضت الشمس إلى مغيب، واشتعل الكون أحمرَ، ويحيى يتأمل تقاطع الخطوط في عرض السماء وراء جبال شاهقة، حين صاح صالح:

- *هذه ديرتي.. وصلنا.. بعون الله وصلنا.*

همّـــت الناقة مهرولة براكبيها وراغت كأنها تعرفت على المكان مـــثل صـــاحبها، وأفلت صالح رسنها، فتشبث مقبل بخاصرة صاحبه خـــوف أن يطـــير جسده من فوق الناقة الحمقاء المندفعة، وعلى بعد، لاحت الديار، بيوت شعر خيمت متفرقة في بطن واد وادع بين جبلين، وعـــرائش مـــن فروع الشجر وجريد النخيل، وضياء نار يتراقص مع ظـــلال تـــشبه اللـــيل، وصلهم نباح كلب بعيد، فصاح صالح جذلاً مستبشراً:

- *هوووووو.. أنا صالح... ههوووووووو..*

هرعت زوالات رجال ونساء صوب الناقة، وقفز صالح دون تمهل مـــن فوق السنام العالي، تاركاً رفيقيه يرقبان استقباله الحميم مبتسمين وقـــد اكتـــشفا إنهما رافقا رجلاً من لحم ودم، له أهل وأحبة، لا مجرد دواج بعينين طامعتين بمشخص مريم.

تـــشبثت بـــه امـــرأة عجوز وغمرته بردنيها حاشرة جسده بين ذراعـــيها، ودس شيخ ذراعيه بينهما محاولاً جذبه إليه، ونطت حولهما فـــتاة تـــزعق صيحات مهووسة، ثم على غير توقع، قفزت الفتاة مثل جندب معلقة ذراعيها وساقيها حول ظهر صالح ومؤخرته، فانفرط جمع المستقبلين ضاحكين بحبور، خففوا احاطتهم به، وأفلتته العجوز مترنحة مولـــولة جـــذلى، أشبع راعي الناقة الدواج الفتاة ضماً ولثماً، ثم تذكر

رفيقيه الغريبين وما زالا يعتليان السنام، شد رسن ناقته ينوخها، فتثنت وانكفـــأت مقدمـــتها مقعية مستريحة على بقعة الرمل المجاورة للعرائش المـــصنوعة من جريد النخل، وترجل مقبل قافزاً، في حين انـــزلق يحيى أرضاً متمهلاً، وقف على قدميه مبتسماً كأنه يولد من جديد في مساء الواحة الصحراوية الندي.

* * *

نهـــاراً، طوف يحيى بناظريه بين العرائش والخيام المتواضعة المتناثرة حـــوله، ثغاء الأغنام وصلصة أجراس الجديان الصغيرة، وهرير الكلاب المتحاومة؛ أعادا مقبل لحميمة حياة الرعاة التي يعرفها، وإن بدا له القفر مخـــيفاً وسط جبال رمادية قدت من صوان، كانت عينا الراعي تتبعان مسير الغنم، ويحيى يتأمل الأشكال المخروطية والمدببة للجبال التي تلتقى مع السماء المكشوفة، لام نفسه قليلاً على هذا الرضا الذي يغمره؛ كأنه لم يفر إثر مصيبة ولم يترك أهلاً ملتاعين لفراقه، تحسس الكتاب المشدود إلى خاصـــرته فانتـــشى، وتقلـــب بين رضا وملام، لكنه ابتسم سعيداً وراعي الناقة يقبل نحوهما حاملاً رغيفاً مدوراً كبيراً من الملة، تتبعه فتاة الأمـــس وقد رفعت زكوة[1]، صغيرة وضمتها إلى صدرها تتوازن مع ثقل القربة، وهمس مقبل:

- *الجندب جاءت معه...*

بـــدا صالح شخصاً مختلفاً؛ شيخاً يحسن وفادة ضيوفه، اعتذر عن تجويعهما في الرحلة الطويلة، مؤكداً إن الزاد عزيز شحيح في السفر، لا يجوز تبذيره، ولكنه تقاسمه معهما على قدر ما استطاع، وضع الرغيف على طبق قشي، كأنه يفرط في كرمه، تحدث يأمر البنت أولاً ثم يقدمها لضيفيه:

---

(1) وعاء من جلد الخروف.

- *صبـــي اللبن يا بنت.. هذه ابنتي شهاوي.*

ضحكت شهاوي عن سن ذهبية كاشفة لثة لحمية عريضة داكنة، وتراقص حاجباها وهي ترحب بالضيفين، وتصب الحليب الطازج من زكوها فوق الخبز؛ صانعة إفطاراً شهياً لرجلين جائعين.

انـــدفاع فكيها وعريض ضحكتها والأسنان الصغيرة المتعالقة؛ دفعت مقـــبل لتـــسميتها بالسنجاب، بينما قفزها وضوضاؤها منحاها عنده اسم الجندب، مخفياً سخريته واستهجانه الذي أثاره اسمها الغريب، نهاه يحيى عن التعلـــيق بنظـــرة تأنيب جانبية، وانصرف كلاهما إلى الطعام، فأكل يحيى القليل، وأجهز مقبل على ما تبقى؛ مؤكداً إن كل طعام هذه الديار الفقيرة لا يعدل ما حصل عليه الدواج البدوي حين دس المشخص في ثنايا ثوبه.

قـــضى الضيفان نهارهما الأول في الواحة الصحراوية التي يسميها أهلـــوها "نخيلة" لقصر نخلاتها، ظلوا في العريش الصغير يتمتعون بكرم الضيافة وضحكات والدي صالح الهرمين اللذين يقومان بمهمات وهمية حـــول العريش، ولكنهما في النهارات التي توالت بعد ذلك، شاركا في الحياة اليومية كأنهما مواطنان في المكان.

يـــنقل مقـــبل الإبل من القصيلة[1] المخصصة له، ويرافق الرعيان الذكور رحلتهم الصباحية في الفيافي المحيطة، وقد يلتقي بشهاوي وهي تـــرمح وراء أغـــنامها، وتهـــش بعصاها حول السخال الفارة، فتأتيه وصـــحبه ببعض الماء واللبن والخبز الذي اشتم رائحته فجراً تنبعث من الـــصاج[2]، نفـــخ مقبل في قصبة الناي، فسمعوا شجوه، وردوا عليه بـــنفخاتهم علـــى المقرون[3] الذي يصلصل في السكون المحيط، في حين

(1) حظيرة مسورة.
(2) مسطح معدني يحدودب قليلاً يستخدم لشواء الخبز.
(3) ألة موسيقية تشبه الناي يستخدمها بدو سيناء.

رافق يحيى الدواج برحلات قصيرة متفرقة إلى حيث يبيع بعض ما جلبه في رحلـــته الأخيرة من بضائع سورية كالأقمشة والحلي والأواني، وما يحمـــل من ملح وأعشاب عطرية ومصنوعات نحاسية صغيرة، لكنه أبداً لم يجـــازف بعـــرض أثمن ما يملك على المشترين، وما باح بسر اقتنائه المشخص لصديق أو رفيق، ولو بغرض التباهي.

في الصباحات الندية، حين يخرج يحيى مبتعداً عن الواحة مسافات طويلة، لا يتوجس صالح، فكل من يتجولون في نواحي الواحة يعرفون خـــبر الراعي والاستاذ اللذين جاء بهما الدواج، وما كان أحدهما يمثل مطمعـــاً للعربان وقطاع الطرق الذين يسطون على المارين على طريق الحـــج شمال الواحة، ولسبب غريب، لم يخش صالح ضياع الأستاذ في التـــيه، وثق بقدرة الفتى على معرفة دربه دون إرشاد، بل وخلال أيام قلـــيلة، أدرك إنه يسير ببساطة إلى حيث يقصد بلا هلع أو تردد، كأنما يعرف الدرب مسبقاً، فإذا مر به في ظهيرة ساخنة؛ ألقى له خرقة مبللة يضعها فوق رأسه العارية، ومضي.

شـــوهد يحيى مراراً في الخلاء، يُخرج ورقاً مضموماً إلى وسطه، ومـــربوطاً بإحكـــام، يفرده فوق صخرة ملساء؛ يحرص على استوائها الأملـــس كـــي لا تفـــسد من أمر أوراقه ما أفسده مرور الدهر، يقرأ بخـــشوع، ويبدو مثل نملة ضالة، يقرأ الصفحة ويعيد، يتوقف، ويتنهد ويعيد، ثم يروح إلى تأمل طويل، يحار مقبل لقدرة الأستاذ على تسريح ناظـــريه في الأفـــق والورق تناوباً نهاراً بطوله، في أعماقه؛ يخشى على صاحبه الجنون، ويرد بصلافة على العربان الذين استنكروا توحد الرجل وانفراداه بكتاب، يقول لهم:

- كيف لأمثالكم فهم الأستاذ؟؟ إنه يفوقكم فيما يحمله رأسه من مخ، بينما تحملون بطيخاً.

يتقـــبل الـــبدو روح مقـــبل المرحة، يتعودون مرافعته التي تسبق هجـــومهم، كأنـــه واقف بالمرصاد لمن تسول له نفسه انتقاد الأستاذ، يعيّـــرهم؛ إذ لم يحظوا بأستاذ مسبقاً، فيفكرون في إمكانية الإفادة من نـــزول الرجل في أرضهم، الأمر الذي لم يرق للدواج، فما كان يظن إن إقامـــة الفتى قد تطول ليمكن صبية الواحة الصحراوية من القراءة أو الكـــتابة أو حتى حفظ قصار السور القرآنية، كما إنه اكتشف كنـــزاً جديداً يمكنه استثماره؛ ما دام الفتى خليّ المسؤوليات، في غصون أيام؛ صـــيّر مقـــبل راعـــياً للإبل يؤجره كما لو كان عبده، وتمكن من بيع خدمات وقدرات الأستاذ في الاستدلال على الطريق.

بدأ الأمر صدفة، كان يحيى منشغلاً كعادته بكتابه العجيب، يقرأ ويـــتأمل ما خط في عرض الصفحة بالخط الرقيق، والأحرف التي بهت حبرها:

- *"وإذا قـــيل واحـــد، يعنى به موجود لا نظير له، أو موجود لا جزء له، فهذه التسمية تقع عليه من حيث اعتبار السلب.*

وإذا قيل: حق، عنى أن وجوده لا يزول، وأن وجوده هو على ما يعـــتقد فـــيه. وإذا قيل: حي، عنى أنه موجود لا يفسد، وهو مع ذلك على الإضافة التى للعالم العاقل.

وإذا قـــيل: خير محض، يعنى به أنه كامل الوجود، برئ عن القوة والنقص، فإن شر كل شيء نقصه الخاص.

ويقـــال لـــه خير، لأنه يؤتى كل شيء خيريته، فإنه ينفع بالذات والوصـــال، ويضر بالعرض والانفصال، أعنى بالمواصلة؛ وصول تأثيره، وأعنى بالانفصال؛ احتباس تأثيره".

كـــأن بـــرقاً اجتاح الفتى، صار ذهنه وعاءً مفرغاً لعبارات بدت جـــوفاء تـــتأهب للامـــتلاء، راح يستعيد ما حفظ من القرآن، ويجعل

الكلام في مصفوفات محاولاً تثبيتها في بقعة من الفراغ الواسع في الجسد والروح، سأل نفسه مرات: ماذا يريد هذا الابن سينا أن يقول في عيون حكمته؟.

تنــبه إلى أن الــرجل لم يكن يقول؛ بقدر ما انطوى كلامه على الــسؤال، فكبر سؤال يحيى، هل يعالج الفيلسوف سمات الخالق؟ الواحد الحق الحي الخير! أم يقول قولاً عميماً حول الكون وصفاته؟؟ وقع يحيى في الحيرة، واستوى مندهشاً سعيداً، قال:

- *ما دامت الحيرة تقودني؛ فلن أتوه.*

مــر به جمع رهبان متسربلين بعباءات من جلد الماعز، وقلنسوات طُرز أعلاها بصليب أزرق صغير؛ تقي رؤوسهم الحليقة أشعة الشمس، سألوه كأنه عارف باتجاه الدير.

يقــسم صالح إنه لم يتحدث عن الدير، وما وصف مكانه ودربه علــى مــسمع مــن يحيى سابقاً، وإن كان عارفاً بطريق دير القديسة كاترينا، إلا أنه لم يكن موضوعاً للحديث بين الرجلين.

عندما توقف الرهبان أمام يحيى سائلين عن الاتجاه، لم يتردد، ولا تمهل وهو يمد يده غرباً ويشير إلى الفضاء الخالي، قائلاً:

- *هناك.. تسيرون على بعد مغيب واحد لاحقين قرص الشمس وهو ينحدر في السماء، تصلون باذن الله.*

تهــامس الــرهبان فــوق ظهور بهائمهم متسارّين وقد تراقصت عكازاتهم على جنبات المطايا، وتدلت أرجلهم بصنادلها الجلدية، واغتنم صالح اللحظة، سأل بجدية عارضاً مساندة معقولة:

- *كم تدفعون؟ ويرافقكم الأستاذ دليلاً، تراه مثلكم يقرأ ويكتب..*

هكــذا صــار الأستاذ دليلاً في صحراء لم تطأها قدماه من قبل، واعتــرف به الدواج أستاذاً، استخدم اللقب المهيب رغم اعتراضه على

فكـــرة تعلـــيم الصبيان في الواحة؛ وتركهم مصالح أبائهم دون متابعة ورعاية، مما قد يضيع الأنعام، ويشتت الجهود، ويسوف الوقت، ويدفع بسطاء الرعاة والزط إلى التساوي مع شيوخهم وأولياء النعم، قال:

- لا لزوم لقراءة الكتب، فالحياة معلم كل انسان.

نظر يحيى مبتسماً بود أثار غيظه، بسمل وجّود قارئاً:

- "و لتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون" [1].

هـــز صالح كتفيه متظاهراً باللامبالاة، ثم زم شفتيه وشخر صوتاً خفيفاً وقال:

- تظـــن اني لا أعرف!! هذا من القرآن... أعرف والله.. تقوى الله بقلوبـــنا، لاحاجـــة لمعلم يعلمك أن الله حق، هذا نتعلمه مع رؤية الـــرمال وفي غياب كل شمس، مسلمين دون علوم تضيع أوقاتنا، نأمن بالله ونبيه، ونحج ونصوم ونتشهد، لا ينقصنا شي.

وافقه يحيى بنظرة ودود قائلاً:

- لم تفـــارق الـــصواب؛ الإسلام هو الظاهر الذي عليه الناس، شـــهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصيام شهر رمضان. [2].

لا يجـــادل يحـــيى الرجل وقد خبر نـــزقه وعناده، لكنه تمكن من اســـتمالة قلبه، فراحا يقضيان أوقاتهما معاً، ويترافقان في حديث مطول لا يـــصل إلى التقاء فكري ولا فراق إنساني، رغم إن الأستاذ يعلم علم اليقين باستغلال الدواج لمواهبه التي فطر عليها، يقول بكل ثقة ورضى لمقبل:

---

(1) القرآن الكريم سورة آل عمران 104.

(2) حديث شريف.

– أنا أتعلم منه، وأجزيه عن خطواتي في بوابة الدنيا الجديدة التي فتحها أمامي، إنه يتفضل عليّ.

بات العابرون والحجاج المسيحيون إلى دير سانت كاترين يبحثون عن الدواج وعامله الشاب الذي خط شاربه وجهه دقيقاً، والذي يقودهم دون خطأ في الدرب، ويقف بهم عند سفح الجبل مؤشراً على موقع الدير، ثم يتركهم مبتهجين بالوصول، كما أن حجاج مكة المسلمين القادمين من مصر، والذين يعبرون سيناء ميممين شرقاً، سمعوا عن الأستاذ؛ قصدوه ليقود خطاهم في صحراء مطوقة بالبحر من جوانبها الثلاثة، وإذا مرت أيام دون أن يطل باحثون عن درب، أو تائهون على درب؛ فإن الدواج يتبرم، ويثرثر منتقداً الفتى العاكف على قراءة الكتب، قائلاً:

– قم نجد العابرين في الدروب، لا تضيع الوقت مع كتبك الممزقة، مثلها كثير في خزانة الدير.

كانت الإشارة كافية لبعث شوق جديد في فؤاد الأستاذ للورق، وكلمات حبّرها أحدهم على قرطاس، وأفكار نشبت في عقل خبر الحياة فتلقفها روح ظامئ، تريث يحيى لا يبدى شوقه؛ ولا يثير حفيظة صاحبه، ريثما يمر مسافر يصطحبه معه.

أما مقبل، فقد صار لحياته لون جديد وهو يقفز برفقة الأغنام، ويتجول على سنام الإبل، ويخص الناقة ريا بود وتدليل ورعاية، وتخصه برغاء يضحك السمار في ليل الواحة حول النار الموقدة، وهم يلعبون السيجة ويصفون أعوادهم الخشبية الصغيرة مراهنين على لقيمات من خبز أو قليل من سمن، ثم متحلقين حول العجوز، منشد الواحة، والد صالح، الذي صار كمشاً من عظم ناتئ، يمرر ربابته فوق النار المشتعلة، يسخن جلدها، ثم يشد أوتارها شادياً بسيرة الهلالي:

- يقول الهلالي.. والهلالي سلامه

شوف الفجوج الخاليات تروع

يقول الهلالي.. والهلالي سلامه

يبغي الطمع وهو وراه طموع

لابد عقب الوقت.. من لايح الحيا

من بارقن يوصي سناه لموع.

ترتخـــي أوصـــال الناس مع نغم الربابة الحزين وهسيس النار في الحطـــب، ويـــتأمل يحيى في مواويل الهلالي الباحثة في انسانية الانسان، يفسر الحروف ويبحث عن المعنى، قبل أن يعلق صالح ساخراً:

- ها!! سمعت!! هذا علم لم يقرأه أبـــي في كتاب، لكنه يحفظه.

يناكف المنشد ابنه الدواج حول احترام الأستاذ والكف عن ازعاجه، يـــضحك رجـــال السامر، ثم ينصرفون إلى لعبة السيجة صافين أعوادهم الخـــشبية ومراهنين على كوب من السمن، في انشغال الناس؛ يتبادل مقبل وشهاوي نظرات مختلسة، ترتجف قدميه وهو يرى حمرة الانفعال والشغف تلطـــخ وجهها الأسمر تحت شعاع ولهيب نار السمر، عندها فقط لا تعود الـــراعية الصغيرة سنجاباً ولا جندباً، ولكن امرأة تُعشقُ، وجسداً يشتهي، وروحـــاً تنادي روحه، وتنشف ريقه، يتمكن منه الغرام ويصرعه، يتمدد على صفا في خالي البيداء؛ يرقب الكون المعلق في قبة السماء نجوماً متلألئة، وشهباً تتساقط تباعاً، وأنواراً وبروقاً تتعالق، ويصيح نشواناً:

- يا الله، لو أحدنا يطير، لو كان لنا أجنحة عوضاً عن القدمين، فنحلق ومن نحب إلى نجمة بعيدة.

يهمس يحيى الدائخ في سحر الليل:

- للقلب خفق كما جناح عصفور، يطير أبعد من النجمات التي ترى، إلا أن العيون تسور الرؤى وتحدها.

ليست شهاوي من فاتنات واحة نخيلة، بجسدها الضامر وفكها البارز وأسنانها المتنافرة، ولكن هواها عصف بقلبين في آن واحد، مقبل الغريب الذي صُرع وبات مسحوراً على حين غرة، يغافل رعيان الإبل مبتعداً بين التلال الرملية المعشوشبة، باحثاً عن راعية الغنم التي تنفلت ضاحكة بمجرد رؤيته، ونهام، قريبها الذي عاش عمره يتهيأ لتصير زوجته يوماً، فمع غياب أولاد العم المباشرين، كان نهام أقرب المرشحين للاقتران بالفتاة، وما ظن سواه إن له فرصة للاقتراب من بنت الدواج الوحيدة الأثيرة مدللة جديها، والتي فقدت أمها إثر ملاريا اجتاحت الصحراء قبل أعوام مع فلول الناموس القادم من البحر البعيد.

لم يحاول القلبان الأهوجان إخفاء تعلقهما السريع، شوهدا مراراً يتراكضان مثل جديين يافعين؛ يتقافزان فوق الصخور العالية لجبل موسى، فشبت نار الغيرة حارقة مؤلمة في فؤاد نهام؛ خطأ نفسه على التأخر في حزم أمره، والإقبال على الزواج من ابنة العم المحبوسة على اسمه منذ أن رأت عيناها النور، وغاظه رؤيتها سعيدة متهللة فوق ما يحتمل؛ كأنها تطير، حمَل أمه وخالاته والعمات طبقاً من الحناء والملح والسكر إلى بيت الدواج؛ ليقمن بالواجب والأصول لخطبة الراعية.

زعقت شهاوي، وحلفت بتراب أمها إنها لا تحل لنهام؛ ولو أغضبت قبيلها ورجالات الواحة، ولو كان الموت دون ذلك، لم يغب عن الجدة البسيطة دافع البنت في إعلان العصيان على قرار رسم لها مع ولادتها، حاولت توجيه النصائح التي قد تفيد في إعفاء ولدها من مواجهة ابنته، لكنها لم تكن صارمة جادة، بدت العجوز مناصرة للهوى، وأبعد ما ذهبت إليه أن ظلت تردد:

- *إنه غريب، تتزوجين غريب!.*

ردت شهاوى دون وجل:

- لو غريب! لو من بلاد الواق الواق.. من أرض الجن، أهواه.. أعشقه... ولا أرضى عنه بديلاً.

ذُعــــر مقبل مما جري، ما كان يظن أن عليه الدخول في خصومات ومعــــارك وهو غريب في الجماعة، رغم ضحكات الجدة، وتطمينات يحيى ومباركته الهوى الذي جعل الحياة تدب في الواحة المسالمة، إلا أن مقبل ظل خائفـــاً من ابن العم الغاضب، شاهد الشرر ينبعث من عينيه وهو يمر به في المرعى، وارتد يومها إلى حيث الأستاذ مستمعاً إلى كلماته المطمئنة، في حين هرع همام إلى الدواج مستنكراً؛ طالباً طرد الغريب الذي تجرأ على الشرف.

مـــثلما تـــسقط صخرة من أعلى الجبل مفتتة على أرض صوانية، فعلت كلماته فعلها في الواحة، أمسك الدواج بثوب همام وشده موبخاً؛ خاصة وهو يتناول مسألة الشرف في جمع، تراجع همام حانقاً إلى الوراء، لكنه صاح بأعلى حسه:

- لا أتبلى، الراعي الغريب لا يعرف حرمة الشرف.

تذكـــر أهـــل الواحة الشابين يتقافزان مثل ماعز فوق الصخور، وضـــحكات شهاوي تفرقع تكشف لحم شدقيها، وصوت مقبل يغني وينفخ في مزماره، وقالوا:

- لولا أن ابن العم شهد ما يشين العرض؛ لما تحدث عن الشرف.

ناحـــت الجـــدة العجوز، وعفرت وجهها بالتراب مقسمة بالله ومحمـــد وعيـــسى إن البنت ناصعة البياض طاهرة، لكن أعين الرجال والنساء المتجمعين على صيحات العاشق المرفوض، لم تصدق ببساطة، قال الجد المنشد موبخاً:

- لا تكذب يا ولد.

ورد همام:

- لا أكذب.. رأيته بعيني هاتين، يركبها.

بطـــح صالح قريبه أرضاً مسعوراً، مزق ثوبه شداً، وخدش وجهه وعـــض كـــتفه، تفـــرفط همام تحته كذبيحة، والرجال يحاولون فصل الجسدين.

قـــارب يحـــيى بين اجتياح الريح للصحراء، والعويل الخفي الذي جعـــل أفراد الواحة يعقدون مجلسهم المسائي، أمسك بكف مقبل غير واثـــق ما إذا كان الاجتماع سيسفر عن خراب يحيق بهما، قرر قراره مـــشاركة الراعي المصير؛ كما شاركه الفرار من وجه الروم في حالك الليل، لكنه لم يتخل عن دوره كأستاذ، قال لصاحبه مطمئناً:

- *لا علـــيك.. أســـوأ ما سيكون، أو يقع للمرء؛ يكون أفضل دروس الحياة عادة.*

بكـــى مقبل مشوحاً بكفيه، وما أطفأت كلمات الأستاذ مخاوفه، ولا ظـــنها تغـــير مصيراً غامضاً بانتظاره، تحفظ أهل الدواج على إقامة مقبل في عريش المنشد إلى حين صدور الحكم، فمر الزمن الفاصل بين الانتظار والقرار كأنه دهر.

بات بدو الواحة على قلقهم، وأغمض يحيى عينيه في سبات قطع عنه هنهنات مقبل الخائف الوجل، فرأى، فيما يرى النائم، جسده يدور عـــرياً في بـــيداء واسعة، يتطاير حوله بشر وبهائم وجبال وشجيرات قـــصيرة، لكنه لا ينظرها، بل يعلق عينيه في الأعالي، يرى نوراً عظيماً يعجزه عن التحديق، يواصل بلهفة تفحص الفضاء، ويشتهي أن يطير، اســـتيقظ يحـــيى علـــى بكاء مقبل، متعجباً من منامه الذي بدا شديد الوضوح، أقرب إلى المنطق من لحظة الصحو.

لم يـــتم إخراج الرجلين من العريش في الصبيحة التالية، وأرسلت لهمـــا الجدة بجره فخارية من الماء، فلم يشعرا جوعاً يذكر، ولكن ترقباً دائماً، وكف يحيى عن مواساة صاحبه الذي لا تفلح المواساة في تخفيف

بكائـــه، ومضى إلى مواساة رغباته التي تتمنى زيارة دير كاترين وقلعة ســـينا قبل أن يتخذ القوم قراراً بترحيلهم، تسلل أحد الرعاة المتعاطفين مـــع العاشـــق ظهراً إلى العريش، هامساً بما حدث في السقيفة، خبرهم بإصرار صالح على حقه في تأكيد عفة ابنته، وعقاب من افترى، مطالباً بإخضاع ابن العم إلى البشعة[1] كي يتبين ادعاؤه، ولما أسقط في يد همام العاشـــق، وافق على التجربة؛ واثقاً من قدرته على خداع المبشع[2]، أو آمـــلاً بـــتدخل الـــرجال لمنع الإجراء الرهيب، لكنهم أقروا بالاتفاق، وساروا عند الفجر شمالاً، حيث يقطن المبشع العليم.

هلع مقبل للتفاصيل وما آلت إليه الأمور، وطأطأ يحيى رأسه على ألم.

صلى الرجال في ساحة الواحة صلاة الفجر على عجل، ثم اعتلوا مطايـــاهم، ووقفت ناقة همام على بعد من ريا، التي رفعت فوق سنامها هودجاً صغيراً مسدل السجف، ضم شهاوي والجدة ونسوة أخريات، قاصدين المبشع في ديار بلي[3].

تجمعـــوا حول المبشع البلوي بعيون فضولية؛ ملتهبـــي المشاعر، راجفـــي الأفـــئدة، بانتظار اختبار البشعة الرهيب الذي سيحدد مصير البنت شهاوي بين براءة أو عار أبدي.

وجـــف قلـــب الأب الذي طالب بالإجراء؛ ماذا لو أن احتمالاً ضئيلاً لئيماً ذهب بكرامته، وحوله إلى مسخ، وفضح ابنته! فكر سريعاً بإجـــراء دمـــوي، لـــو بطش بالصبية واستراح! صرف ذلك الخاطر الـــشيطاني متعوذاً، متوسلاً إلى الله أن لا يفضحه بين أهله، بينما راهن همـــام في سره على تورط البنت بعلاقة مشبوهة، فالهوى قد جرفها؛ ولا بد

(1) طقس كي اللسان بالنار لإثبات الصدق.

(2) الرجل الذي يوقع عقاب البشعة.

(3) منطقة في سيناء.

أن رغبات العاشقين تغلبت على الحرص والحذر، نجاته ستفضحها، وإلا فإن رضابه الغزير لن يخونه في منع آثار مرور النار السريع على لسانه.

وقفـــوا في ساحة مضارب بلي، ولم يتراجع همام عن روايته أمام جمـــع المـــشاهدين، كرر صالح مطالبته بحقه في اختبار البشعة، سحب المبـــشع الذي ورث مهنته عن جده، قضيباً معدنياً من النار المتقدة في الوسط، وأمسك رجلين بنهام يثبتانه، ضغطا حكنه ليمد لسانه، وتفرج الحاضرون مقتربين، وقد اعترت أطرافهم رجفة خفية، أعلنوا أن اللسان جاهز لإظهار الحق، وقال كبيرهم:

- *ابشع.*

مرر المبشع الحديد الساخن على زنديه العاريين ثلاثُا، مزهواً بجسد طاهر بريء لا تمسه النار، ثم وازى بين القضيب ورأس همام الذي انحنى مستهيناً، ولكنه لحظة مد لسانه، علم إن الرضاب لن يسعفه وقد جففه خـــوف عميق، وإن النار طالت سطح لسانه وهم يرغمونه على لحس الحديـــد مرات ثلاث متعجلة، انتظر وقوع معجزة ترأف بحاله، تشتت لبه، وجحظت عيناه ودمعتا وهو يرفع رأسه يجوح من الألم، وزغردت الجدة والقوم ينظرون اللسان التي تركت فيها النار خطوطاً حمراً غائرة، وفاحت رائحة الشواء، سرعان ما بقبق اللسان في دوائر بيضاء منتفخة، انهار همام بين الرجلين عاجزاً عن اغلاق فكيه، وصاح الرجال:

- موغوف[1].. موغوف.. والبنت بريئة.. برئية طاهرة.

تواصلت زغاريد الجدة ودموع شهاوي وزعيقها المبتهج، وبكى صالح متلقياً تهاني الرجال، لم يلتفت إلى ابن العم الذي أخذ يمزق ثوبه ويتوســـل الغفـــران، وكلما سقي ماءً ليبترد، بصقه فاقداً قدرته على التحكم بحركات فيه.

---

(1) محترق بلهجة بدو سينا.

قال المبشع بعد انتهاء هرج الرجال وانخفاض إجهاش همام:

- أجرتنا على الطرفين، وأمر الكذوب متروك للدواج.

اكتفــــى صالح ببراءة ابنته، و لم يجد في تاريخه ما يدفعه للانتقام من همام، قال بتسامح وترفع كبيرين:

- لا نــــريد شيئاً منه، ليكفنا شره ويفارقنا، يهج؛ فلا أرى وجهه في الديرة بعد اليوم أبداً.

عاقـــبه بالنفي في مجهول الصحراء بعيداً عن الواحة، ومهما تمرغ همـــام في تـــراب ساحة المبشع، فإن أحداً لم يلتفت إليه، وسمع الرجال العائـــدون بالهـــودج بشرى الدواج الذي أقسم على تزويج ابنته من الراعـــي الغريب نكاية بالكذوب قاذف المحصنات، وأطلق الجد المغني صـــوته قوياً أجش واثقاً في حداء طربت معه ريا، ورافقته الجدة بدندنة خفيضة محتضنة رأس شهاوي السعيدة وراء سجف الهودج.

عاد الذين ارتحلوا للبشعة يحملون رقعاً قماشية بيضاء؛ معلنين نصر الدواج وأهله، سمعوا صدى صوت المغني يعمر الفراغ:

- لا برقن إلا في حجا(1) *مستهله..*
ولا طرقي(2) *إلا من وراه نجوع...*
ولا ضحك إلا البكا مردفن له..
ولا شبعة إلا مقتفيها جوع...
ولا يدن إلا يد الله فوقها...
ولا طايرات إلا وهن وقوع..(3)

* * *

---

(1) عقول.
(2) صقر.
(3) من القصيد البدوي السيناوي.

وصـــل الحجاج المصريون أطراف التيه منهكين قاصدين قرية نخل البعـــيدة مـــن نخيلة، أكبر التجمعات البشرية في صحراء سيناء، علهم يتفيأون لأيام في قلعتها الخان قبل معاودة سيرهم صوب مكة، سار بهم يحـــيى مبتـــسماً ابتسامته الواثقة على تواضع، والدواج يمهلهم متظاهراً بالاهمية ليظل صاحب الشأن:

- *هـــل أنت أكيد من معرفة الطريق؟؟ لا يمكنني مرافقتك، علي تجهيـــز هودج البنت وبرزتها[1].. إذا لم تكن أكيداً لا تذهب.. الدرب وعر..*

همس يحيى:

- *لا صعوبة في ايجاد القلعة.*

قـــال الدواج في سره: هذا الذي لم يعرض شاربيه بعد، ولا اشتد ساعده، يعرف الكثير.

أخـــرج مـــن حزامه الجلدي سيفه القصير المحلى بالفضة، وناوله الأستاذ الذي تمنع أولاً، ثم استجاب للالحاح:

- *لا تتـــشاطر، الطريق طويلة والبواقين[2] يقيمون في كهوفها، لا تقطع الفيافي أعزلَ دون سلاح، أعيرك العجمية[3]، فتردها وتجلب معها شباري[4] جديدة من سوق نخل، واحدة لي، وواحدة لك.*

ســـارت الـــبغال مـــثقلة بصرر الحجاج المُحرمين وهم يغطون أجـــسادهم المكـــشوفة بفروات الخراف، عبروا الدرب الوعر مجتازين جـــبال خشم الطرف، ووادي العرمين، على طريق الحج الشهير، إلى قلعة نخل الكبيرة.

---

(1) جهاز العرس.
(2) الحرامية.
(3) الخنجر.
(4) تعبير آخر يعني خناجر.

تمايـــل الـــرجال يمنة ويسرة، وماد جسد يحيى تماماً، ولكن رأسه المغطى بالعمامة ظل ثابتاً، وعيناه تحدقان في صفحة من كتاب العيون، يحاول تجاهل أسئلتهم عما يقرأ، ولكنه يضطر إلى شروح موجزة، إذ أنه بالكاد قادر على فك التباس المعاني.

"كل مكمل مدرك، يلتذ به المدرك، وهذا هو اللذة: وهو إدراك الملائـــم، والملائـــم هو الفاضل بالقياس إلى الشيء، كالحلو عند الذوق، والـــنور عند البصر، والغلبة عند الغضب، والرخاء عند الوهم، والذكر عـــند الحفـــظ، وهـــذه كلها ناقصة الإدراك، والنفس الناطقة فاضلة الإدراك، ومدركات هذه نواقص الوجود، فإدراك النفس الناطقة للحق الأول، الذي هو المكمل لكل وجود، بل المبتدئ، وهو الذي هو الخير المحـــض، ألـــذ شيء، وإذا لم تلتذ أنفسنا بذلك، أو التذت لذة يسيرة، فذلك للشواغل البدنية التي هي كالأمراض، ولبعد المناسبة، لغرق النفس في الطبـــيعة، مثل المرضى الذين لا يلتذون بالحلو، أو يتأذون، وإذا زال العائق تمت اللذة بالحلو، وظهر التألم بالمر، وهذا أيضا كالخدر الذي لا يحس بألم ولا لذة، وكالذي به الجوع المسمى بوليموس، فإنه جائع ولا يحـــس بـــألم الجوع، فإذا زال العائق يشتد به إحساسه، فكذلك فقد الـــنفس الناطقة بملاحظة كماله من مؤلمات جوهره، لأن فقد كل قوة فعلها الخاص بها من المؤلمات إذا كانت تدرك".

التقط يحيى أنفاسه وهو يعاود القراءة باحثاً عن دلالات العبارات، ولوهلة، شعر بالحياء كونه لم يكن أهلاً لفهم كلمات كتبها فيلسوف قبل مائة عام، ما قيمة قرن ينقضي ولا يجعل العقل الذي يحبو يسير!.

لا يتنبه يحيى من غيبته عما يحيط به إلا والرجال يسألون بإلحاح ما إذا كـــان دليلهم متأكداً من سلامة الدرب الذي اختاروه، ينظر كمن عشت الشمس عينيه، ثم يقول:

- نعم.. نسير في الدرب الصحيح.. أرى ظل القلعة أمامي.

لا يرى المرافقون الظل، فالقلعة أبعد من أن ينجلي ظلها أمامهم، يتبعونه حتى انقضاء النهار، ويخطر بباله، إنه ذات عجيبة تقطع الدرب، ما هي إلا ظل، ولكن، أين الغيمة التي هو ظلها!

عـــندما عـــبروا قـــرية نخـــل العامرة بالعرائش والبيوت الطينية والأسواق، لاحت الهضبة العالية وأبراج القلعة الخمسة تتوجها، فدبت الحماســـة بين الحجاج، وتناسوا تعبهم وعري أكتافهم، وهرعوا صوب القلعـــة الـــتي انـــشئت على تربيع واسع من الحجر المنحوت، ركضوا صـــعوداً وأقدامهم تعفر الرمل الناعم، وتبعهم يحيى على مهل وهو يقرأ عـــند البوابة الخشبية العريضة نحت وضع عند ترميم القلعة، حيث خط برسم رديء عبارة "مولانا السلطان مراد خان عز نصره".

استراح يحيى في فيء القلعة لساعات، فانجلت له فجأة لذة القراءة بالمعـــرفة، عندما يغمس كسرة خبزه في إدام الحرف؛ يصل إلى فاضل الإدراك، يمـــسك بالفكرة مثل فراشة، يداريها وهي تقترب من سراجه المتوهم، يقرأ في كتاب الله، ويستكين قبل إنتهاء اقامته بالارتواء من بئر القلعـــة، وتأمل لوحة المملوك قنصوة الغوري بانيها، الذي صور راكباً حصانه على الجدار، سالكاً طريق الحج.

هـــبط يحـــيى إلى نخـــل، فابتاع من سوقها شباري صالح، ولم ينس إحضار ما ألحت شهاوي، في طلبه ووصفه، صرة من الخرز الملون الزاهي.

بدأت البنت في الاستعداد لزفافها، أخرجت الجدة ثوبين أسودين حالكين كانت قد خبأهما من مقتنيات الدواج التي جاء بها من دمشق، وجلست النسوة يطرزن حواشي الثوب باللون الأحمر، معلنات انتقال صاحبته من طفولة الأزرق الذي يطرز ثياب العذراى، إلى فحش الأحمر الـــذي يعلـــن صراحة بدء قطف فاكهة الجسد، وشمن بالإبر والأحبار

شـــفتها السفلي بسيالة قطعتها نصفين، ونقطن فكها بست نقاط تقابل ثلاثاً، وزين كفيها ومعصميها إلى الكوعين بخطوط وأزهار وأطيار، ثم أعـــددن كـــشكاشة[1] تنتهي إلى امتداد ترفده العروس خلفها مشنشل بالعملـــة الفـــضية، نقـــبن وجهها ببرقع محلى بالقطع النقدية الصغيرة، فتوارى بروز فكيها وانكشاف أسنانها في حين برز سحر عينيها.

لبست شهاوي أشنافاً[2] فضية فاخرة في ثقب أنفها، معلنة تميزها كابـــنة وحـــيدة لدواج غمر الديرة بالحلي، وافترشت صدرها قلادة كهـــرمان فاخـــرة ممـــزوجة بحجارة المرجان، يتدلى منها قرص فضي وأشكال هلالية، وقطع معدنية لنقود تشي بالثراء.

جـــدلت العـــروس ضفائرها بشماريخ[3] عقدها بالخرز الملون، وغطت رأسها بالخرجة، فاحتجبت وهي تعتلي هودجها الصغير المزين المـــرفوع فوق سنام ريا، ودخلت خيمة البرزة[4] التي أفردت للعريس وسط تكبير وتهليل الرجال وزغاريد النسوة، علا صوت الأهازيج:

- يـــا بـــنت ياللـــي هالـــه باللـــثام،

يلـــى تخطـــي ع الحـــنك حبر ووشام..

ياللـــى تقولـــوا وصـــفنا مطر شاتى..

حـــب الـــبرد بـــيض الثنايا ولو قام...

مـــسهى بـــرمش العـــين رقد الحمام..

وتقـــول موجوعاً على نعاس لو نام...[5]

---

(1) جدائل شعر من الصوف.

(2) أقراط للانف.

(3) خيطان.

(4) خيمة العرس.

(5) من أغاني العرس السيناوية.

غمـــر أهـــالي نخيلة برزة العروسين بالهدايا والنقوط، قدروا غربة مقـــبل، وما لحقه من إذلال باتهامه؛ فأكرموه، وذبحوا الأغنام، وأولموا لحمـــاً وعدساً كثيراً يشترون به رضا الدواج، واصطفوا للسامر نسوة ورجـــالاً متقابلين يغنون مصفقين، والبداع يقف بينهم، يسلمهم بيت القصيد، فيردون وراءه مبتهجين:

- بزرع رزايع من قلبـــي وأنا قاعد... كُله كرامات للي لابس الجاعـــد... يا ريح سلم كُثر ماهبيت... وأكثر سلامي علّى قاعدة في البيت...[1].

فإذا ما طلع نجم الصباح على القوم المحتفلين حملوا العروسين على ريـــا التي قادتهما إلى خلاء بعيد، فلا تلمحمها عين لعشرة أيام متوالية، وحتى يوافيهما يحيى ويعيدهما إلى سكنهما الجديد الذي أعد من جريد النخل إلى جوار عريش الدواج، عادا رجلاً وامرأة توهجت وجناتاهما، فقد صارا زوجين حليلين.

يـــوم أولم صالح لابنته وزوجها خروف الزرب،[2] أخرج عرضاً ملتفاً في قماش خيشي، وضع حرزه في كف شهاوي قائلاً:

- هذا كنـــز ثمين، احرصي عليه يا بنت.

هوى قلب مقبل وهي تفتح الحرز، والتمع المشخص على وجهي الملك قسطنطين وأمه الملكة هيلانه، تذكر الراعي رحلة الفرار، وغابات الكرك، ومزارع الكرمة، وبساتين الفاكهة، وعيني مريم الباكيتين؛ تدلى رأسه على حزن صامتاً.

ظل أمر انتقال حيازة المشخص إلى العروس سراً لا يبوح به مقبل لـــصاحبه خشية نبش جرح التئم، فقد بدا يحيى متحمساً للمرة الأولى

(1) من أغاني العرس السيناوية.

(2) طريقة لشي الخراف بدفنها في رمضاء حارة.

منذ أن قدما الواحة الصحراوية، صار يعتمر عمامة بدو سيناء وسروالاً واسعاً، وقميصاً خفيفاً مفتوح الصدر بقبة مستديرة، وإذا ما برد ليل الصحراء أسدل فوقهما قطفاناً فضفاضاً، واستكمله بحزام جلدي وشبرية إذا ما غادر نخيلة صوب القلعة أو الدير مصطحباً المسافرين والمارة، وقد تخفف الفتى الذي كان أستاذاً من الانفراد بكتبه وأوراقه الغامضة.

- *نسيت إنك أستاذ؟ يا أستاذ!*

لم يزعج السؤال الأستاذ، لكنه تريث كعادته مقعياً أرضاً، وكفه تقبض كمشاً رملياً، تمتم بهدوء:

- *فوق الرمل كلنا تلاميذ، أحب ذلك، أقصى ما يتمنى المرء أن يظل تلميذاً.*

- *تلميذ بلا أستاذ!!*

رفع يحيى ناظريه ورأسه تنحني، فتح كفه فانسكب الرمل من بين أنامله مثل شلالات ذهبية صغيرة، وهمس:

- *كل ما يحيط بي من عالم ظاهر وباطن، أستاذ.*

لا يوغل مقبل في أحاديث لا تتوافق وفهمه، يفضل الانصراف إلى شهاوي، والتمتع بضحكتها البلهاء وهو يدغدغها فوق فراش الشيح، أو السير في محاذاة الأبل مستعرضاً قدراته في نفخ الناي وإطراب الرعاة، أو الجري وراء الأغنام الكبيرة، تاركاً لها تعقب الأغنام الصغيرة الشاردة، مستمعاً لصدى صوتيهما يتناديان بين الجبال.

يلف يحيى وجهه وهو يقود جمع الرهبان صوب الدير في طور سيناء، متفادياً ضربات الرياح المحملة بذرات الرمل، يفك عمامته إذا انحسر العجاج، ويتركها تتدلى وراء رأسه، ويغذ السير، وقد تبين له أنهم يقتربون.

يـــنحنى الـــدرب عند وصول وادي الراحة، وتشْرق القافلة وهم يدخلـــون الوعر، يلمحون السور الطويل المحيط بدير القديسة كاترين، فيتـــرجل الرهبان خاشعين، يسجدون فوق الصخر المسنن ويطيلون، ثم يواصلون الرحلة، بعضهم يختار مواصلتها راجلاً، فتبطئ الدواب سعيها بانتظار حجاج المسير الشاق، يستمع يحيى بانتباه مخلوع اللب إلى تمتمة الرهبان يقتربون وقد لاحت مباني الكنائس الأربع التي تقبع وراء السور مـــرتفعة في طوابـــق عالـــية، في حين ألمت الأبراج بمجموع الحجارة الـــبراكنية الـــسوداء التي كونت الدير الكبير في منعزل تحيط به خضرة مفاجـــئة، يدخل يحيى مع الداخلين، ويقطع الممرات المتعرجة التي تصل الكـــنائس ببعـــضها وتشكل منها وحدة واحدة، فمن كنيسة العذراء العتـــيقة، إلى كنيـــسة التجلي المبنية على طريقة البازيلكا، إلى العليقة الـــصغيرة، يـــتمهل في ممر الأعمدة التي تمثل اثني عشر شهراً متأملاً في الهياكل المقامة على أطرافها.

عندما ينهمك الرهبان في طقوس اللقاء والاستقبال يسهون عن الدليل الذي يجوس المكان متأملاً حدائقه الغناء، يترك الرهبان الدليل يتحـــرك بيـــنهم ولا يفوه بكلمة، يوجزون عند لقائه متمشياً بين أجمات الشجر المثمرة سدراً وبلحاً وبرتقالاً، أو متفحصاً لما يملكون من صوامع الغلال ومعاصر الزيت وكورات الزبيب، أو متأملاً عند بئـــر العليقة شجرة موسى التي تنشر أوراقها الخضر في كل المواسم، يشاركون الرجل طعامهم القليل خبزاً وماءً، مؤكدين حرمة أطعمة الـــبدن من لحم وبيض ونبيذ، متغاضين عن دخوله مسجد المسلمين الـــصغير المنـــــزوي عند أطراف الدير، يجلس لساعات قرب المنبر المنقوش باسم الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله، يقرأ قرآنه، ثم يعود إليهم باسماً.

لا يغادر يحيى نعيم الخضرة والسكينة قبل مشاهدته شعائرصلاتهم، ينظرهم يرتدون ثيابهم الكاشفة عن الصدور والمشدودة بأربطة صوفية تـــتقاطع صلباناً فوق أجسادهم، يمضون حفاة عدا قلة ترتدي الصنادل وتخلعها عند باب ضيق خفيض، يثنون أجسادهم ويطاطئون رؤوسهم دالفـــين صـــندوقاً يتدلي بهم، تكركر روافعه وبكراته تصر، يهبط يحيى معهـــم فـــضولاً ولا يعترضون، وهم ماضون في تمتمة صلواتهم بأعين مغمضة، فإذا ما وصلوا بهو الكنيسة، خطف لبه بهاء القبة الفسيفسائية؛ حيث السيد المسيح يتوسط العذراء وموسى، وقد استلقى بطرس أرضاً، ثم بتحول طفيف للوحة الملونة، يركع موسى عند الشجرة، ويقوم فوق المـــشهد المهيب كله تابوت الملكة كاترين ضاماً رفاتها، وبحروف مائلة خُط بالعربية عبارة "لتستقم صلاتي كالبخور أمامك، وليكن رفع يدي كذبيحة مسائية".

يـــتقدم الرهبان خاشعين؛ يتبعهم مسحوراً، ورائحة البخور تعبئ صـــدره ويغـــشي دخانها ناظريه، يلمح الكاهن الأكبر ملتفاً بقطفانه، مـــثقلاً بـــصليبه الخشبـــي المتدلي حتى وسط جسده الفارع الطول، مأرجحاً مجمرته حول القبة الفسيفسائية مردداً بخشوع مموسق متقطع:

- "يـــا أيها الطويل الأناة، الكثير الرحمة، الحقيقي، اقبل سؤالاتنا وابتهالاتـــنا منا، اقبل توبتنا واعترافنا على مذبحك المقدس غير الدنس السمائي، فلنستحق سماع أناجيلك المقدسة، ونحفظ وصاياك وأوامرك، ونثمـــر فـــيها بمائة وستين وثلاثين، بالمسيح يسوع ربنا، أذكر يا رب مرضـــى شـــعبك، افتقدهم بالمراحم والرأفات، اشفهم يا رب، أبائنا واخوتـــنا المـــسافرين، ردهم إلى أوطانهم بسلام وعافية، أذكر يا رب أهـــوية الـــسماء، وثمرات الأرض، باركها، يا الله الذي من أجل محبته للبـــشر الـــتي لا يـــنطق بها، أرسلت ابنك إلى العالم ليرد إليه الخروف

الـضال، نسألك يا سيدي لا تردنا إلى خلف، محواً لخطايانا، وغفراناً لتكاسلنا، ومجداً واكراماً لاسمك القدوس، أيها الأب والابن والروح القدس، الآن، وكل أوان، وإلى دهر الدهور، آمين" (1).

ترتج أطراف المكان بترداد آمين...

ينتهي الكاهن من رسم صلبانه بالماء المقدس فوق جباه الرهبان الخاشعين الباكين، وتختلط الألسنة بصلوات سريانية وحروف لاتينية، يتقدم الكاهن صوب يحيى مرحباً، ويغيب الرجلان معاً وراء باب المكتبة الخشبي الذي حفر في أعلاه اسم "يوستنيانوس" وأرقاماً باهتة بدت كأنها "خمسمائة وسبعة وعشرون" بعد الميلاد.

يسمح الكاهن للفتى القارئ بتقليب بعض المخطوطات، ويمنع عنه أكثرها، بأنامل ترتجف وفؤاد ينبض، يتوه يحيى بين مئات الأناجيل التي خطت على ورق البردى بماء الذهب، وعشرات الكتب التي لفت بعناية كالمواليد على أرفف الحجر، وتحلت بحروف سريانية وعربية على تشكيلات منوعة، وأرمنية دقيقة التفصيل، وقبطية مزركشة برسوم الايقونات والمرسلين والملائكة.

يلمس يحيى فرمان الراشدين وجلاً، ويقرأ حروفاً غير منقوطة:

" إلى رهبان المسيحيين عامة.. لا نغير أسقفا من أساقفته ولا راهبا من رهبانه، ولا يهدم بيت من بيوت كنائسهم وبيعهم، ولا يدخل من مال كنائسهم فى بناء مسجد، وأن تحفظ ذمتهم وبيعهم أينما كانوا، من بر وبحر في المشرق والمغرب، وفى الشمال والجنوب، وهم في ذمتنا وميثاقنا وأمانتنا من كل مكروه".

يمور صدره نشوة ودهشة وتشككاً، وهو يرى الفرمان مذيل بأسماء الراشدين والصحابة تباعاً، أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب،

---

(1) القداس الإلهي للصلاة القبطية.

وعلـــيّ بـــن أبي طالب، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وطلحة بـــن عبـــيد الله، وسواهم ممن انمحت حروف أسمائهم، وتآكلت عند ثنيات الكتاب العتيق.

يهمس الكاهن في سمع يحيى:

- أرى النور حولك يا بني، ولأنك قطعت فراسخ مشاها موسى ثم المسيح في رحلة العائلة المقدسة، ولأن لك قلباً يرتعش، أدخلتك إلى مكتبتنا، قلب الأسرار، عل نعمته تتم، لا تبح بما رأيت أو قرأت لجهول غافل القلب، وأمض سعيداً.

يمـــضى يحـــيى سعيداً قلقاً منهكاً؛ كأنما يصعد الجلجلة، يعتزل في صـــحراء التيه، فإذا ما انقضت أيام، تنبه إلى طول غيابه عن المضارب؛ تـــرك الدير وراءه مخترقاً قبو الممر الأوسط حيث فتحات مائلة تضيء المذبح، وتمثل الشمس وأشعتها، والقمر في تربيعه الأول.

يغـــادر الدير مثقلاً بما رأى، وما فهم، وما لم يفهم، متخففاً مثل طير يجرب خفق الجناحين.

* * *

أمحلـــت الـــواحة، وتطوح الجريد في أعالي النخيلات الصغيرة في الفضاء الرحب، وعفر الرمل وجه الأرض؛ كأن ريحاً تهب منخفضة في محـــاذاة الأقـــدام وبالكاد تصيب الرؤوس، تشققت الأرض في أخاديد جافة، وقد بلغت الحرارة مبلغاً دفع الرجال إلى تعرية أجسادهم واتقاء الـــشمس في ظـــلال عرائـــشهم، بكى الرضع طوال النهار، وامتنعت الخـــراف وقطعان الماعز عن المسير إلى مرعى لا خضرة فيه، توحشت الصحراء، وقترت على أبنائها، وانحبس المطر.

لام الدواج نفسه إذ استرخى مطولاً لليباب الرملي دون أن يزود بيته وأهله ببعض ما يأتي به الترحال والتجارة، عد عامين منذ أخر مرة

دخل فيها الديار بالمسافرين الغريبين، فهاله انقضاء الزمان؛ شعر بشبابه يولي وجسده يركن إلى شيخوخة لا يحبها، ولا تحبه، عاهد نفسه إذا ما هطل المطر على صعود أرض مصر، وتطلع إلى السماء مناجياً ربه:

- *يالله... أجر عبادك والطف بهم..*

لم تعـــد شهاوي تغفو، يفزعها صوت الريح وعواء الجوع الذي تجأر به بنات أوى خلف التلال المحيطة، وهي تتناهش مع كلاب الحي الموهنة.

فـــإذا كان نهار مغبر شديد الحرارة، تجمع الناس في ساحة الواحة الجائعة، ودار بينهم داوريش يحملون رايات خضر وسود وحمر، ضربوا بـــصاجاتهم وترنموا بذكر النبـــي الأمين، وداروا مرات ومرات حول الدور والشجر مهللين:

- *الله.. الله.. الله.*

وردد الرجال وهم يتمايلون:

- هو.. هو.. هو.. هو...

هلل الجمع الباكي:

- *لا اله إلا هو...*

ثلاثـــة أيام والمريدون والمتصوفون يدوخون في دورات لا تسقي عطشاً، ولا تشبع جوعاً، والكلاب تطرد بنات أوى الجائعات، والرضع يصيحون وحلمات النسوة تجف، والأطفال يتجمعون منشدين حاملين أطراف الجريد المصفرة الذاوية:

- *ســـيّدْ هاشمْ نسترجيكْ.. رشق المطر يرقع فيك.. يا الله المطر. يـــا الله الـــسيل.. اسقي زرعك هالعطشان... حط القمح في الجرّة.. واستّنى رحمةِ ألله.. حط شْعيركْ في بيركْ.. واستّنى.. الله يجيرك.*[1]

---

(1) من أغاني الاطفال في الاستسقاء في سيناء.

بكـــت النساء، وصلى الرجال لربهم عله يسقيهم، باتوا في العراء أياماً قبل أن يلمحوا ضباباً أسود بعيداً يتقدم؛ فإذا به غيمة توقفت فوق شـــجرهم وبـــيوتهم، ثم هطلت، رقصوا معتوهين، ودار المتصوفون بلا انقطـــاع حول أجسادهم تحت المطر، وإن تعثرت أقدامهم لاضطراب شـــقوق الأرض الجافة وهي تبتل وتستوي سادة فجواتها، شبت النسوة نيران التبن الممزوج بالروث، مستبقيات الحطب لما تخبئه الأيام، طبخن على نار التبن عدساً مخبوصاً بالعسل، وخبزن فطائر وزعنها بكرم.

أعقبت الأفراح موسم المطر، واجتاحت البهجة النفوس، وعادت بالحياة إلى إيقاعها الهني، تلك السكينة لم تستمر.

أعلن الدواج إن أوان يقظته من بياته الطويل قد حل، وإنه ميمم هذا العام صوب مصر، تعرف الأم العجوز أن لا جدوى من بكائها وعويلها، فكـــم من ليلة تذكرت مهنة ولدها، وتعجبت لطول اقامته، وتمنت لو أنه شـــاخ وأصابه نصب أو عطب؛ فاكتفى من الرحيل، واستكان مقيماً إلى جـــوارها، لكنها في أعماقها تدرك هوس الترحال والتجارة الذي مسه منذ يفاعته، وحاجة البيت إلى رزق يأتي به من سفره، بكت شهاوي ولطمت خدها، أنبتها العجوز بلهجة حادة ساخرة تبطن غيظاً:

- يا بيت.. علامك تشلخي خدودك!... هذي العمار.. امقدّرة.. واللي يموت.. خلّه يموت.. خلّه.. يزور المقبرة...

تعـــرف البنت التي تكور بطنها إن جدتها لا تعني ما تقول، وإنها تـــزهو برباطة جأش مصطنعة، تفلت منها وهي تحلب الناقة بعيداً عن الأعـــين فتبكي وتجوح، مخمنة إنها قد لا ترى أباها بعد سفره هذا أبداً، لكـــن المفاوضات التي دارت بعد ذلك حول المرافقين لوالدها أرعبتها، فـــيحيى قـــرر مرافقته بحثاً عن عالم جديد كما يقول، ومقبل متردد لا يبغي فراق صاحبه.

شدت البنت ذراع زوجها وصاحت:

- لا تذهب معه.. لا تتركني أبداً، هو جوزك، وإلا أنا حليلتك!! لا تذوقي مر عد الأيام، وتميتني بالانتظار.. يكفي غياب أبوي.

ربت مقبل كتفها مواسياً وقال:

- ماشي اللي يحبك ولو ذقت معه المر.

زعقت شهاوي صيحتها المعهودة، ونفضت كفه عن كتفها بغضبة مفاجئة:

- يحبك وتحبه! وأنا عنز ريتها تموت! لو تروح معه، أشرب القيصوم والقرفة، وأرمي حالي من فوق الطور، واسقط وليدك من حشاي، وأحسبك ما جيت، وأرد لابن عمي مناكدة بيك.

علم مقبل لحظتها أنه سيظل راعياً إلى الأبد في مضارب واحة نخيلة السيناوية، وأن دربيهما هو ورفيقه افترقتا، ولا مكان لالتقاء، لكنه ساومها في خضم غضبتها عن المشخص، فأحضرته غير عابئة بقيمته المالية، دسه خلسة بين حوائج الأستاذ مرجعاً حق مريم لشقيقها، وانطلق الدواج في رحلته الجديدة متنسماً رحيق جنات المحروسة، مردفاً يحيى وراءه، وقد ظن لوهلة إنه على بعد قريب، سيتنشق ريح الفردوس.

الفَصْل الثّالِث

المحروسة

1001 – 1008 هجرية

1593 – 1600 ميلادية

"وحدي، غريب، قطرة ماء على حجر، تتبدد والضوء يغتال ظله".

عبارة كتبها يحيى في قرطاسه بأول ريشة اقتناها من سوق الفسطاط العامر.

استعجله الدواج مستاءً من تسكعه الغريب في أسواق الفسطاط وتلفته مندهشاً وجموع العسكر بسيوفهم وبنادقهم يدفعون الناس دفع النعاج، استعجله مؤكداً إن أسواق قاهرة المعز ستنال استحسانه دون تلك، وتبعث على دهشته أكثر؛ ألح في لزوم وصولهما إلى الجيزة قبل غياب الشمس؛ للقاء الهواري الذي تودع لديه الأنعام قبل دخول المدينة.

تحدث الدواج عن أسماء يعرفها؛ مفترضاً علم يحيى بها، أفرط يصف علاقته القديمة بالهواري ودهاء الرجل وقدرته وفنونه، وحسن ادارته للتجارة، وعلمه بطب الأنعام والبهائم، وأمانته في التعامل، وبياض شليله، وحسن معشره وظرفه.

قطعت ريا براكبيها الطريق الصحراوي، والرمال الناعمة تسف وجهيهما وهما يدخلان الغيمات الرمادية الملطخة بالارجوان الباهت كأخر مخلفات الخماسين، عاودت يحيى ذكريات هروبه من جلجول، ومرافقته الدواج إلى سيناء، فقبض قلبه، وإن يمم وجهه حيثما ذهبت ريا.

توقفا عند سفح الهرم الأوسط، واندفع الدواج في عناق ودي طويل مع رجل بدوي ضخم الجثة بشوش، حينها أخرج يحيى قرطاسه

وريــــشته، ورسم عبارته الموجزة بخط الثلث في منتصف الرقعة، ثم دس مخطــــوطه في عب جلبابه الواسع المشدود بحزام الجلد، كانوا يقفون في منتـــصف التـــتابع الثلاثي لاهرامات قامت على قاعدة مضلعة باستواء مـــربع، وارتفعت فضاءً في تثليث أنيق سامق، وتدرجت أحجامها من الكبير، للأوسط، للأصغر.

غطـــست الشمس خلف الهياكل الضخمة الثلاثة؛ عاكسة ظلالاً عملاقة في عرض الرمل الأصفر الممتد على طول النظر، والمختلط بتربة بنـــية، مـــشى يحيى ساعياً بين الهرمين، الكبير والصغير، مقتفياً الظلال الملـــونة كأنهـــا مرآة المغيب، ناظراً لشامخ الاهرامات، فراعه ارتفاعها واصـــطفافها الهندســـي الدقـــيق، ثم ذلك المجسم لوجه حجري ضخم صـــارم، يـــتأمل الحـــياة ويشهد عليها، وقد طمست الرمال جسده بالكامل.

أودع الدواج ريا في عهدة حظيرة البدوي ريثما ينتهي من تبضعه في مـــصر المحروسه، تجاذب والهواري الذراعين، المسافر يصر على اتمام رحلـــته ليصل قاهرة المعز ليلاً، بينما البدوي الوحيد المستوحش، الخبير بالمكان، يلح في ضيافته؛ طامعاً بالأنيس، قائلاً:

- ترفض تضيف في مضارب الفرعون!!ستلحقك لعنتهم...

بات ثلاثتهم على صخر رطب في قلب الهرم، انحنوا عابرين بوابته المواجهة للغرب، وانحدروا في ممر خفيض يهبط إلى حجرة واسعة معتمة بـــاردة، أشـــعلوا حطـــباً لونت ناره الجدران الملساء بخطوط متقاطعة وأشـــكال تعـــيد تمثيل الحياة، لم يشعر يحيى بضيق أو حرج، والبدوي الهـــواري يـــتأمل تراقص أنوار النار على الجدار، ثم يلتفت إلى الدواج ويسأل:

- الولد! ولدك؟ أول مرة يطيح مصر؟؟

لم ينتظر الهواري سماع الجواب، فهم النفي في عيني الدواج، فأتبع سؤاله بأخر محدد:

- *يعني، من سينا؟!؟*

أجاب الدواج:

- *لا.. لا.. من الكرك.. هذا يحيى الكركي.*

سيان لديه إن كان الفتى الأسمرالمليح الذي يرافق الدواج، إبنه أو عاملـــه، من سينا أو الكرك؛ فالحيرة والفضول في عينيه تغريان الهواري بلعب الدور الذي يحب، محتكراً المساء، متحدثاً عن المكان.

حكـــى عن أرواح ينفلت عقالها منذ بدء الخليقة عند كل مطلع نـــور؛ تهـــيم في السماوات القريبة مقتفية شعاع الشمس، ثم ترتد إلى أجسادها مساءً بانتظار البعث الكبير.

قال الهواري:

- *في الأوض الـــسرية لكل هرم، رسومات للحياة والموت، وما بيـــنهما، الـــبرزخ، وما يليه ويكون بعده، كأنهم يخطون على الحجر حكايتهم.*

تمـــدد الهـــواري متوسداً ذراعيه تتقاطعان تحت رأسه، حدق في النقوش المحيطة بهما على حجر الحجرة، وقال كأنما يكلم نفسه:

- *هـــذه كتابة قبطية، أو فرعونية، ربك العليم، ظني إنها كتبت هـــنا من قبل ما ننخلق، كلنا، يعني قبل البشر، والله أعلم، البشر ما يعـــرفون قـــراءة حروفها، والله أنا أقول دائماً، إن بناة الأهرام خلق هبطوا من السماء، ها!! خبروني من ينقل كل هذه الصخور والموازين إذا لم يكـــن مخلوقاً خارقاً!! ليسوا كالجن أجارنا الله، ولكن أنصاف الآلهة، أجارنا الله وعافانا، يقولون، الذي يبحث عن أسرارهم يصاب بلعنتهم لولد الولد، مالك يا ولد تفتح عينيك مبحلقاً؟ أنا لا أكذب،*

أحـــذرك؛ لا يخطـــر ببالك دخول أوضهم السرية، فاللصوص الذين اجتازوا هذه الممرات، وشاهدوا الصور الجميلة، وأخذوا الذهب؛ لم يتمتعوا به، اصيبوا بغضب كبير، انتهوا نهايات غامضة منهم من عمى الله عيونه، ومنهم من قتل أو غرق أو حرق، نهايات لا يمكن وصفها، لـــذلك لا تطمع يا فتى بأجوبة على أسئلة عينيك، امضِ طالباً رضا وجه تمثال الهول، أرأيته؟؟ ذاك الوجه الحجري الساكت الذي يواجه في مـــوقعه بــــرج الأسد في السماء، يقولون إن له تحت الرمال جسد ســـبع عظيم، أقول لكم، لا أحد يعرف القوم العظام الذين بنوا هذه العجائب، ولا أظنهم رفعوا الصخر أو نقلوه بالسفن على سطح بحر النـــيل، مثلما يفعل البشر، ولكنهم، والله أعلم، صنعوا صخراً خاصاً، ابتدعوه بعلومهم العجيبة، صبوه في مكانه، فكان، هذا الصحيح، ليس كثيراً على بشر لفوا رمم أجدادهم بالكتان لتعيش أزماناً وأزماناً على حالهـــا، مومياءات جاهزة، وربك العليم، ليوم الدين، هؤلاء صدقوني صـــنعوا الصخر.. ويقولون: إنهم كانوا منذ زمن بعيد، قبل أن يأخذ الطـــوفان المؤمـــنين في سفينة نوح، لكن بنى أدم تحاسدوا وتحاربوا، وغلب نسل قابيل، فجمع الجبار نفراوس بن مصراويم أكثر من تسعين جـــباراً، وســـاحوا في الأرض، ولما شافوا النيل قالوا: هنا بلد زرع وعمار.

وســـكنوا، وبنوا البنيان وشقوا الجبال وطلعوا الرصاص والحديد، وهندســـوا النيل اللي كان بحر فارش ع السهل، حفروا وسيروه كيف الحية، ولما حضر أجل أبيهم مصر، قال:

- أحفـــروا في الأرض، ومـــدوا المرمر الأبيض، وادفنوني فيه مع الـــذهب والجوهـــر، واكتـــبوا على الحجر أسماء الله المانعة اللي تصد الفضوليين والسراق، مات مصرايم، ومثل ما حب، دفنوه بين جبلين مع

ذهـــب وياقوت، وخير كثير ولا مال قارون، ومن يومها سمت الناس البلد مصر، وراحوا يدورون على الكنوز بين كل جبلين متقابلين.

غفـــي ثلاثتهم على الصخر الرطب، استرخى يحيى على رجع الحكايـــات الخرافية المدهشة التي سامرهم بها الهواري، رغم شخير الـــرجلين، وانقطاع الهواء النقي، وتلامع خطوط الذهب في رماح جند فرعون على الجدار المعتم، وشعور مفجع بالوحدة، وافاه النوم؛ فحلم.

رأى نفسه على ظهر سفينة فرداً، يبحر في امتداد رملي، والفضاء حـــوله يتقلب أرجوانياً وأزرق في سواد حالك، تتنازع بصره وبصيرته أســـياف النور وأعمدة الظلمة، وتطوح ذراعيه مثل شراعين لا يقلعان، أو جناحين زغبيين لا يطيران.

* * *

صـــباحاً، ترك الرفيقان الجيزة وعبرا طريق معبد الوادي مرافقين لطـــيور البلـــبول والقبطي، ترفرف الطيور بكثافة على امتداد قنوات العيون التي تنتظم الوادي ويتدفق ماؤها مصدراً خريراً متواصلاً، وقفت طـــيور الكركي متجاورة على طول القناة غير فزعة من الهرج حولها، شرب المسافران الماء النقي، وغسلا وجهيهما مستريحين من عرق التعب والـــسفر الطـــويل المضني، بدل يحيى قميصه الذي اهترأ لضرب الريح واتسخ بالرمل والعرق، بأخر خاطته شهاوي، ارتطمت كفه بالمشخص تحت الخرق القليلة التي يحملها، نظر القطعة المستديرة الذهبية، وتمعن في ملامح العذراء الحانية، لسبب لا يعرفه، قبل وجه البتول قبلات ثلاث، ثم ربط المشخص باحكام إلى حزامه الجلدي، وابتسم لصاحبه، شاعراً بـــرابط متين يشده إلى الدواج، معتقداً إنه أعاد له المشخص على هذه الصورة السرية؛ دلالة اعتذار عميق عن مطامع الدنيا.

سارا مخلوعي اللب كأن على رأسيهما الطير.

دخـــلا قاهـــرة المعز من باب الفتوح، وسور المدينة يموج بالناس والعـــسكر، فالمماليك الذين يحكمون اقليم مصر العثماني، صيروا البلاد ســـاحة للعـــراك والفوضى، وقطع عسكرهم السباهية[1] دروب المارة يفتشون بين زكائبهم عما يغنمونه، سار الرجلان مندوهين مع الجموع الـــسائرة ذهاباً واياباً بين البرجين المستديرين اللذين يتوسطان المدخل، عـــبرا من تحت السور ينظران إلى الطريقين المترافقين عمودياً من فوق ومن تحت السور اتصالاً بباب النصر، وانفتح أمام ناظريهما عالم ساحر مقلق تتبلبل فيه ألسنة الناس وتختلط رطانتهم، فالمماليك لا يتقنون اللغة العـــربية، لكـــن المصريين يتظاهرون باستهبال ذكي إنهم لا يفقهون ما يقال بغير العربية، فيدفعون جند السباهية من ترك وابتغاوية وأرناؤوط وبرابرة وتركمان وكرد إلى التصايح بها في عبارات أشبه بالنقيق.

كـــان الدواج عارفاً بطريقه، يتلفت كل هنيهة إلى صاحبه كأنما يخـــاف فقـــده وهمـــا يجوســـان بين البشر والعمران والبهائم محاطين بالـــصيحات والـــنداءات، متعرضين للدفع والإبعاد، أو افساح الطريق كـــيفما اتفق، وجد صالح الدواج نفسه مضطراً مرات لتصويب درب صاحبه، وشد ذراعه كما لو كان طفلاً غراً يمكن ضياعه في هذا الهرج المخـــيف التي تزعق فيه أصوات وروائح متباينة، اشتدت الروائح وهما يجتازان سوق البزورية، وعندما هبط المساء لم يستطيع يحيى التخلص من الـــرائحة النفاذة التي اخترقت رأسه لمئات التوابل المتللة في السوق، ظن في زمن مضى إنه يعرف تلك الروائح، وينادى الأعشاب بأسمائها كما علمـــته مـــريم؛ لكـــنه في سوق القاهرة وقع صريع الامتزاج القاسي والـــروائح الحادة، عطس مطولاً، وكح، شاعراً بصدره يتفتح ويتشقق

(1) عسكر المماليك الأعيان الذين يخدمون مصالح السلطان.

متــــسعاً، أو يــــضيق حــــتى الاختناق، لم يتمكن من تحديد حالته ولا مــــشاعره، لكنه وقد ذكرته الروائح بعطارة شقيقته وأدويتها ولفائفها وأحــــرازها الصغيرة؛ أغمض عينيه، وتمنى لقاءها في هذا العالم العاصف المــــدهش المخــــيف، وانساحت أمنيته شوقاً وتحناناً، فيما كان الدواج يتكفل بتسديد أجر اقامتهما في الربع[1].

نام ليلته مهدود الجسد متراخي الأوصال متوتر الفؤاد على حشية صوفية قاسية متلبدة، والتقط فجراً شخير الدواج ثم ترتيل صوت الآذان بايقــــاع وترنيم عذب لم يسمع مثل حلاوته مسبقاً، عاوده الشجن مع انــــسياح الصوت العذب الندي.. حي على الصلاة، حي على الفلاح، فرك جفنيه مضطرباً يحاول الإفاقة، وأخفى دمعاً يوشك أن ينهمر.

لم يكــــن يحــــيى أول من استيقظ من سكان الربع، من موقعه في الحجرة الطينية التي حظيت بنافذة عالية صغيرة مضلعة، وباب منخفض مفــــتوح على الربع السكني المقام على هيئة دائرية حول شجيرة دفلي تتوســــط الفناء، لمح الجهة المقابلة للمكان، رأى الحجرات المقامة فوق بعضها البعض، والأدراج الملتفة التي تفضي إلى أبوابها، وسمع صوت رفع جرار، واندلاق ماء على تراب، ونهيق حمار لا يراه، وتمتمات خاشعة، ومكاغاة رضيع، وما يشبه المشادة بين ذكر وانثى، قدر أن عليه السير نحــــو وســــط الفناء ليبلل وجهه ببعض الماء من جرة ركنت إلى جذع شــــجيرة الدفلــــى المورقة، والتي تفتحت أزهارها مزيجاً من أبيض مموه وأحمرار باهت، أصغى السمع، ومع انقضاء الآذان، لف المكان صمت مــــريب، فخــــرج متلفتاً ظاناً بأن قاطني الحجرات المتراصة نيام، لكنه عندما رش الماء في وجهه مرتين متحسساً لحيته التي طالت حتى منتصف صــــدره، وجديلتــــيه المعفرتين بطين وتراب السفر، قدر حاجته لحمام

---

(1) مجمع سكني.

يغـــسل روحه وجسده معاً، شعر فجأة بمرور أحدهم وراءه، استدار، فـــشاهد شاباً اسمر يربط قرباً جلديه بحزام عريض موازناً بين القربتين على كتفيه بمهارة، مرتدياً سروالاً قصيراُ يبرز عضلتين تحت ثوب قطني بـــالٍ تعلوهما صديرية مفتوحة على صدر عريض أمرد، وقد وضع فوق رأسه الحليقة قبعة صغيرة مستديرة، قدر أنه في مقتبل العمر، مر الشاب دون أن ينظره، خاطبه وهو يعبر:

- *مرحب يا جار... اخوك السقا.*

خـــرج الـــسقاء يتأرجح بحمل اعتاد أثقله، واستفاق الربع تباعاً، فـــصارت مكاغـــاة الرضـــيع بكـــاءً، وتجـــدد صراخ الرجل والمرأة وخـــصامهما، ونهـــق الحمار، وصاح الديك، وانبعث عواء كلب في الجـــوار، ونداءات لها أصداء مختلفة قادمة من وراء سور الربع، ثم رأى صاحبه الدواج أشعث الرأس عارياً إلا من سروال داخلي طويل، يقف عند باب الحجرة الطينية ضاحكاً:

- *استفقت مع الديك! عظيم، مصر تحب الخفّية.*

ركض جمع من الصغار ذكوراً واناثاً بجلاليب قصيرة حفاة حول الـــشجرة، وأمـــسك أحـــدهم بأخر يتنازعان القلة الفخارية الصغيرة المـــركونة قرب الزير، تبعتهم امرأة صارخة توبخهم، ثم التفتت بود نحو الرجلين الغريبين بالفناء، ردت كشة شعرها ودستها تحت غطاء الرأس، معـــتذرة عـــن الإزعاج الصباحي، مرحبة، مواصلة التقاط الصغار من معاصمهم وياقات أثوابهم كقطط شريدة، دفعت بحزم بنتين إلى الحجرة التي غادرها السقا صارخة:

- *حوشي البنات يا هبله.*

بقـــسوة، دفعـــت بنتاً وثلاثة صبية نحو حجرة منـــزوية مصدرة تعليماتها ممزوجة بالتهديد إذا ما خرجوا قبل الافطار، لحقت بهم توصد

الـــباب، ولكـــنها قبل أن تغيب وراءهم تماماً، مدت رأسها ضاحكة للجارين، مشيرة إنها ستعد لهما بنفسها طعاماً شهياً في يومهما الأول في المحروسة.

أخجل دفق الحنان يحيى، في حين همس الدواج متفحشاً:

- يا الله!! أرأيت كيف يرتج لحم زنديها؟ لا يكاد جسم المرأة في الواحة يستقيم بغير الجلد والعظم، هذه امرأة ناضجة مثل الرمانة.

انـــــزعج الـــشاب الحـــيي، واعـــتذر الدواج عن مزاحه الثقيل المكشوف، وتهوره الذكوري الفاحش، الذي قلب ملامح الشاب الهانئة إلى تقطـــيب وانـــــزعاج، ورغم إنهما ارتادا معاًحماماً أزالا فيه وعثاء السفر، فغسل يحيى شعره، وحل جديلته، ثم أعاد عقصها جدائل قصيرة رفـــيعة أخفاها تحت عمامة نظيفة، وخفف من طول لحيته مبرزاً سمرة وجه لفحتها سياط الشمس، إلا أن الدواج بات على يقين بأن مرافقته الأســـتاذ الشديد التأدب لن تدوم، فالرجل منبهر أمام المدينة وسوقها كـــثير التفاصيل، يدهش ويبهت كلما استوقفه امرؤ محادثاً، هي لوثة؛ قدر الدواج أن الأستاذ الشاب لن يتجاوزها، وقد تغريه بالبقاء والإقامة في المحروسة ما تبقى من عمره، فيما هو تاجر جوال، متعجل في حمل ما خف من بضاعة والعودة إلى امتطاء ريا عند سفح الهرم تهويماً في أرض الله الواسعة.

انـــشغل يحـــيى في التعـــرف إلى ســـحنة الناس، ولون بضائعهم وروائحها، وتمييز ايقاع الأصوات المختلطة من حوله، وفكر الدواج إنه معـــني بتأمين إقامة الرجل إكراماً للسنين المنصرمة من رفقتهما الطيبة، وقـــد تكـــون الخطوة التالية؛ إلزام قاطني الربع على قبوله نـــزيلاً في واحـــدة من الحجر الطينية السبع التي تقوم فوق بعضها البعض في الربع الفقير.

أكلـــوا في يومهم الأول من زاد أم العيال التي عبّقت الربع برائحة طبـــيخها، وزنـــخ دجاجاتها، ولكنها رشت فوق صحن عصيدة الذرة ذرات مـــن مـــسحوق الفلفل الأسود الشهي تحية للجارين الجديدين، مؤكدة إنها لا تستخدم بهاراتها إلا للغوالي الذين يستحقونها، لم تكن أم مراد سخية في إعداد صحونها، تقوم بتجهيز وجبة ضخمة ترفعها على طـــبق عـــريض كل ظهيرة، وتخرج ملتفة بعباءتها؛ تزود الخان القريب بوجبة المسافر لقاء دراهم تكفل لها عيشاً رضياً، كما تقوم بطبخ الزاد لمـــن دفـــع ثمنه من سكان الربع، وقد رفضت في يوم الضيفين الأول تقاضي ثمن أو بدل، ورقعت بالصوت والدواج يعرض عليها قلادة من حجـــر المـــرجان الزاهي في حمرة منيرة يتوسطه هلال فضي، لطمت صـــدرها واستنكرت، أحدث صراخها ربكة، التفت السقا الذي كان يعبئ الجرة عند شجرة الدفلى، مغتاظاً.

- يا حرمه، لم تسقط السماء على الأرض، الرجل وقد أكرمه الله وأغـــناه يريد أن يدفع ثمن لقمته فضة، رجل عبيط، حر، ليدفع الذهب إذا أراد، لا تجعليها حكاية وجرسه، أما تأخذي الدندوشة، أو تصمتي وتريحنا من صراخك.

عاقـــبت أم مراد السقا على تدخله وقلة فهمه بحرمانه من الطعام يـــومها، ولكـــنها أخذت عقد المرجان ببساطة وتحبب بعد ذلك، بل وسمحت للدواج بمخاطبتها باسمها الأول، نعمات.

بعد آذان المغرب تجول حرس بثياب العامة يصيحون في الحارات معلـــنين اقتـــراب ميعاد اقفال بوابات الدرب في الحارة ناصحين بتفقد الغـــياب والحاضـــرين، مؤكدين إن من يتخلف خارج حارته وربعه؛ مسؤول وحده عما يقع معه لو قابل بعض السباهية الغاضبين، فجردوه من لباسه وماله، أو تعرض له قطاع الطرق من بدو وغرباء؛ فآذوه.

أشـــعل راعي الربع برهوم ناراً صغيرة في الفناء داعياً سكان الربع للقـــاء الوافدين الجدد، تحلقوا صغاراً كباراً حولهما، وأعلن الدواج إنه مـــسافر عابـــر، ولكن الأستاذ شأنه في يده، نظروا إليه كأنما ينتظرون تعليقاً وهو صامت، واستدرك الدواج قائلاً:

- *قد يحب الأستاذ الاقامة هنا، يمكنه أن يقوم بتعليم الصغار، فهو بارع في هذا.*

لـــزم يحـــيى صـــمته، وشـــغل الجمع بدخول القرداتي المفاجئ، والـــشمبانـــزي المذعـــور يتنقل قافزاً بين كتفيه، مطلاً عليهم بعينين مذعـــورتين مهـــيجاً الأطفـــال، صاح راعي الربع معترضاً مؤنباً الفتى لادخال الشمبانـــزي مجدداً إلى المكان:

- *يخـــرب بيتك، أليس لك من اسمك نصيب!! راجح وعقلك لا يـــتجاوز عقل قردك وحبة فول!! ألم أنهك عن اصطحاب عفريتك إلى هنا؟*

دافـــع الشاب عن قرده اللطيف الذي لا يجد له مكاناً في حظيرة الدواب خارج الربع، ولا يمكن تركه مربوطاً في الزقاق عرضة للسرقة، فهو شريكه الحقيقي في كسب قوت يومه، مذكراً إن صبـــي النحّاس يقـــتني حماراً، وصغار الربع يجلبون جراء الكلاب المشردة، والبلانة[1] تعلق في قفص عند باب حجرتها ببغاء أخضر غبـــي دائم الزعيق، كما أن البـــنات يدخلن قططاً مريضة عمصاء إلى الحجرات، فضح القرداتي كـــل تجـــاوزات أهـــل الـــربع؛ يحمى قرده، وراح الصغار يناوشون الـــشمبانـــزي الذي قفز أرضاً، يدور حول برهوم ساخراً منه واضعاً كفـــه على مؤخرته العارية، فقع ضحك الصغار وازداد غضب برهوم، فـــيما شـــد صاحب القرد حبله محافظاً على مسافة كافية أمينة كي لا

(1) مهنة المرأة التي تعمل في حمام النساء.

يحـــدث هـــرج مؤذ، وفقد الشمبانـــزي أعصابه فصاح صيحة متصلة زاعقة، ومد ذراعه محاولاً لمس أكف الصغار الذين نجحوا في استفزازه، ونفـــروا مبـــتعدين ضاحكين متصايحين، في حين هدأ القرد وركن إلى حـــضن صاحبه، صامتاً، يهز رأسه بحركة بندولية كأنه حكيم أصيب بالجنون.

في ذلك المساء أحصى يحيى ست عائلات تقطن الربع، وانتبه إلى الـــصغار الحفاة، والبنات الملتفات بالعباءات، والعجائز اللواتي يقرفصن عند البيبان، والرجال الهادئين الذين يكتفون بالتعليقات العابرة، وأولئك المتـــصايحين المتنابزين مزاحاً، وقرقرة ماء النارجيله، مضى المساء وهجع الصغار، وغابت النسوة؛ انفرد براعي الربع برهوم يجلس مسنداً ظهره للشجرة، يقول بتمهل:

- *الاستاذ صحيح أستاذ؟ يعني أستاذ صحيح؟*

قـــدر بـــرهوم إن وجود أستاذ قادر على القراءة والكتابة تمنحه خـــصوصية مخـــتلفة عـــن أنماط الساكنين في ربعه المتداعي، وإنه ند مشرف، كفء حقيقي يستطيع السهر معه بافتخار، قادر على فهمه وتقديـــر كلامه، حدثه عن الباشا السباهي المملوك الذي يملك بنيان الـــربع، والذي فوضه أمر جمع إيجارات السكان، فكأنما صار نائبه في التملك، بينما انشغل الباشا بما لديه من أملاك لا تعد ولا تحصى، فهو واحـــد مـــن الأعيان، وإن كان قانون نامة مصر قد حد من سلطته خـــارج أملاكه، فإن تحكم السباهية باقطاعياتهم ما زال يمنحهم الحق بمد أيديهم في الجيوب والأفواه إذا لزم الأمر، ولا يكف أيدي المماليك عـــن الـــناس، إذ يمارس فرسان السباهية من أثرياء وأعيان المماليك سلطتهم تحت راية السلطان وباسم حمايته وحفظ حقوقه، فإذا سحب منهم بعض امتيازاتهم لتناقص في خراج استانبول، وأخر عليهم وصول

خـــراجهم وجكماجياتهم[1] من أقجات وصرر الذهب والفضة، فإنهم يـــتحولون إلى اقطاعياتهم؛ يقاسمون الناس قوتهم ونتاجهم، معلنين أن "خذ ثارك من جارك"، مضرين برزق المصريين الذين لا شافع لهم ولا مجير، حتى إنهم تجرأوا على الوالي التركي، ولم يكتفوا بما يحصلون من طلبة[2] وضريبة الوكر من الفلاحين حول المحروسة والفسطاط، ومن حوانيت القاهرة العامرة وبيوت الناس الطيبين، طمعت عيونهم بخزينة البلاد العامرة، يرون لهم فيها حقاً، كما يرى جند الخيالة الانكشارية لهـــم ذات الحـــق، وما بين ثورة السباة، وفورات الانكشارية، حماة الـــسلطان مـــن كل فتنة بسيوفهم وأراوحهم، وتبديد الوالي للمال، والعطايـــا للدفتردار[3] وقاضي العسكر، وحصة السلطان، وتكاليف القصور الباهظة التي يتبارى الأثرياء بعمرانها، والمساجد التي يشيدون مزخـــرفة بالذهب والياقوت، وبنيان الوكالات الفارهة، يُقتسم خير الخـــزينة ويتـــبدد؛ ويـــصير الفقراء مورد كل نقص يصيب الخزينة، ولقمتهم القليلة غاية كل طامع، فتمور البلاد، وتشهد المحروسة فورة لم يـــرد مـــثالها علـــى البلاد؛ الكل غاضب وفقير ومحتاج، حتى أن الـــسباهية أغنى الفئات وأوسعها رزقاً وأملاكاً وجشعاً هجموا على بـــيت الـــوالي أويس باشا وأخرجوه من بين حريمه، واحتجزوا ولده رهيـــنة عندما تأخر وصول خراجهم من اسطنبول، نخ الوالي، وانحنى طالباً قاضي العسكر أحمد الانصاري؛ ليختم باقرار لهم فيما يريدون؛ فـــزاد تسلطهم في الأسواق، ومرحوا وسرحوا بالبلاد طولاً وعرضاً يخيفون الناس.

---

(1) منح أو رواتب ثابتة تصل من السلطان.

(2) امتياز مادي يحصله المماليك من رؤساء القبائل والملاك.

(3) رتبة للمحاسب.

فهم يحيى سر الحراك المهووس الذي يسود كل حشد في الطرقات والأسواق والساحات، والخوف الذي يلجم الناس في بيوتهم إذا هبط المساء، ويدفعهم للركض في قضاء حوائجهم متلفتين في نهار قصير.

تغرق البلاد في محنة وظلمة، وتصير المحروسة كهفاً يبتلع أبناءه، وقد يتناوب الجند، مشاة السباهية أو فرسان الانكشارية مهمة إرعاب الناس وجنى ما لديهم من أقوات ومتاع، إلا إن ذلك الخوف لم يكن متصلاً، فقد تنقضى أيام وشهور يكف فيها سباهية الجند الأتراك والمماليك عن التنقل بين العامة والتنكيل بهم، عندها يسود فرح وارتياح يجعل الحياة ضاحكة ماتعة، والناس دافئين ودودين، في ذلك الحال المتقلب، ووسط المخاوف والحذر يتحرك العوام في الدروب وبين الحارات، ويتجدد فرح فطري ساحر، فيتمكن يحيى من ترتيب تفاصيل حياته، وتتراجع غربته الأولى.

صار الأستاذ أستاذاً، يجلس كل صباح إلى صبية الربع ذكوراً واناثاً، يحتمل عبثهم وضحكاتهم ومفارقتهم مجلسه والعودة إليه في فوضى وصخب بين لحظة وأخرى مبتسماً، يجّود آيات القرآن ويرددون وراءه، ثم يرتشف ما تعد أم مراد من كركديه ساخن، ويتركهم يلهون في الساحة، يتناتشون ما يجود به صبي الخباز كريم من أرغفة وهو عائد من جولته الصباحية، ولا ينسي السقا عمر تزويد الزير في الربع بالماء المعطر بماء الورد والشب، محذراً في كل مرة من الإسراف، مهدداً بالتوقف عن سقاية من لا يحترمون الماء ولا يقدسون وفرته.

عودة يحيى إلى دوره العتيق؛ منحت الدواج تحرراً نسبياً، زالت مخاوفه من أن يعيق الفتى تقدمه وحراكه، أو يلازمه أبد العمر وهو لا يبدي اهتماماً بتجارة وبيع وشراء، فلا يفيد ولا يستفيد، وإن كانت صحبته آمنة رائقة، لكن الدواج خطط لاكمال رحلته وحيداً.

صـــار الشاب الأستاذ جزءاً من الربع، يعلم الصغار قصار السور وطوالها إذا وجد بينهم مهتماً، ويتواضع للدور الاجتماعي الذي يكرس انـــتماءه للمكـــان، لا يمانع في خدمات صغيرة متفرقة، فيحضر بعض اللوازم للمرأة الطباخة، أو للبلانة العجوز في الحجرة الواقعة آخر المجمع السكني، كما يحمل عن الرجال أثقالهم، فيعين صاحب الربع وصبـــي الفـــرن ومساعد نقاش النحاس، وصبـــي الوراق، والسقا، يجلس إليهم وصـــاحبه الدواج في ليالي السهر حول شجيرة الدفلى، أحيانا تجالسهم نعمـــات أم مـــراد، أو تنـــضم للحظات زوجة السقا وهي تقنع أحد صـــغارها بالـــنوم مبكـــراً، وقد تقرب العجائز دكات الخشب المربعة ويقرفـــصن أمامها ينظفن أوراق الجيرجير، وتأتي لهم بنت البلانة زينب بمغلـــى القرفة، يتنشق يحيى عطرالقرفة الفواح مستعيداً ذكرى أمسيات جلجول، ثم يرتد سريعاً إلى مكانه في مصر المحروسة، يسمع حكاياهم ويـــرمق بمحـــبة ضحكاتهم، ويعجبه لعب الصغار بكف الشمبانـــزي الـــصغير الطري، دون أن يتحدث بالكثير عن نفسه، ولكنه يلح لمعرفة المزيد عن مصر، يقول صبـــي الوراق أدهم:

- *يقـــول ابن بطوطة: إنها "أم البلاد، وقرار فرعون ذي الأوتاد، ذات الأقالـــيم العريضة" واعي؟؟ لها في كل زمن فرعون، لكن أولادها الطيبين قاعدين فيها، والبكوات والأغوات والسلاطين تروح وتيجي...*

ســـار يحـــيى مـــع القرداتي وميمونه الصغير الشقي في شوارعها الـــصاخبة وأزقتها، وسمع الرطانات المتنوعة، عربية وأعجمية، من كل فـــم، شـــوام مـــتمدنون، وفلاحون سمر، وأفارقة زنوج وخلاسيون، ومغاربـــة عـــرب وبربـــر، وروم تـــرك، ومماليك جركس، وبشناق، ودراويـــش متـــصوفون يـــصيحون باسم الله، وبهاليل يدورون بمباخر نحاســـية، نـــزع يحيى ثوب البدوي السيناوي والعمامة؛ أعاد له صالح

ثـــوبه الكركـــي القديم، دهش لضآلة جسده قبل عامين اثنين أو يزيد بقلـــيل، طالت قامته، وعرض صدره، ونبت فيه شعر صريح لا زغب خجل، وتكورت عضلاته، واشتد ساعده، ما عاد ثوبه القديم ملائماً، ضاق عن عضلات صدره حتى انشق، ولدهشته قدم له أهل الربع ثوباً جديداً اشتركوا في ابتياعه، وقال صبـــي النحّاس مازحاً:

- *حقك وصلك، فلا تطلب من الصغار ثمن تحفيظهم كتاب الله، الطمع وحش.*

لم يطلـــب يحيى ثمناً لتعليمه الصغار الذين باتوا ينامون مبكراً وقد أنهكهم اللعب وأسئلة الأستاذ المحيرة، فإذا ما هبط المساء وغرق الربع في عتمة تتخللها الأصوات والأطياف المتحركة، استعد فتوة الحارة لاغلاق أبـــوابها، وانعقـــد مجلس الربع ليلاً حول شجيرة الدفلى، تشاغل يحيى بمساعدة السقا في تنظيف قربه الجلدية المدبوغة بالقرط اليماني، يصنعان كـــرات صغيرة من قماش يضم بعض بذور نبتة الرجلة أو نوى السدر ونـــبقه، ويـــودعانها الجرار كي تنقي الماء الذي يسير إليه السقا يومياً رحلته بين النهر وتجمع الكيزان وبيوت الحارات البعيدة، لم يكن انهماك الرجلين في شطف القرب وتنظيفها، ولا غفوة البلانة، ولا بقبقة انبوب نرجيلة راعي الربع الأعرج، وصيحات ميمون المفاجئة المتقطعة؛ تمنع أم مـــراد من التحدث اليومي عن زوجها الغائب الذي هج لاحقاً أهواءه إلى اســـطنبول، باحـــثاً عـــن فرصـــة عمل في بناء مساجد السلاطين وقصورهم، تركها تعارك الحياة مع صغاره الذين يسيرون حفاة في طين الأزقة وهم يحملون أسماء تركية مثل علية القوم، يستمع صبـــي النقاش يوســـف بشغف إلى سيرة الزوج الغائب، يتلقط أخباره عسى أن يتبعه علـــى الدرب، وتنفتح أمامه كوة للمشاركة بعمل عظيم مثل المعماري الهارب؛ فقد عمل في نقوش مسجد سنان باشا في السنانية في بولاق.

أعلـــن الدواج استعداده للرحيل، وجلب تصريحاً من قاضي العسكر محمـــد بن معروف يمنحه الحماية وحرية اجتياز التيه، واستعادة ريا بقصد الـــرحيل، مختوماً بختم الوالي أحمد باشا الحافظ، سادت الربع مشاعر حزينة لفراقه، وهو يختلي بيحيى حزيناً معانقاً، هامساً في عتمة الحجرة:

- لا أعـــرف إذا كـــنا سنلتقي يا ولد.. لقد أحببتك مثل ابني، ســـامحني إذا كنت قد أثقلت على أختك، وقبضت ثمناً غالياً لصحبتك، لـــو كـــنت أعرفك حينها معرفة طيبة ما طلبت فلساً، ولو إني لم أهدِ المـــشخص لـــشهاوي، كنت أرجعته لك الآن؛ تستعين به على تدبير أمورك في مصر المحروسة.

هتف يحيى متعجباً مستنكراً:

- ماذا! ألست من وضع المشخص بين خرقي؟؟

لم يعـــرف أي مـــنهما من جاء بالمشخص بين حاجيات الفتى، وتـــنازعت الـــدواج فكرتان، أن تكون شهاوي من فعلت ذلك، أو زوجها الراعي المتعاطف مع أستاذه، سخط لجرأة أحدهما على ارتكاب فعـــل كهـــذا دون استشارته، ورضي عنه في قرارة نفسه، كونه فعل مقدماً ما كان سيفعل الآن لو كان المشخص بحوزته، حلف برأس أبيه وعـــرض أمه أن لا يستعيد القطعة الذهبية، أيقن يحيى إن بقاء المشخص في ملكيته بعد مضى كل هذه السنين، يدل على ارتباط مصيره وقدره بـــتلك القطعة التي اعتقدت شقيقته يوماً إنها أنقذت حياته على صورة غامضة مذهلة.

اتخذ رحيل الدواج مظاهر شجن علنية بين سكان الربع، ومشاعر خفـــية بالحـــزن، كأنمـــا تُرك يحيى في مواجهة القاهرة، نداهة الروح والجسد، ولم يعد هناك من يقوم على تصريف شؤونه، حتى أن برهوم مازحه وهو يقرقر التنباك فوق الجوزة:

- يـــا ولـــد، إذا لم تجد عملاً يضع القرش في يدك، سينتهي بك الأمر متعطلاً متبطلاً مثل داوريش الساحات.

مـــتمهلاً، سوي برهوم بأنامله ما تبعثر من التمباك العجمي الحار فـــوق فخارة صغيرة، تعتلي عود قصب البامبو المتصل ببطن قعر جوزة الهند، وسحب نفساً مستمعاً لكركرة الماء ثم أضاف جاداً:

- لا تـــزعل، أنا عبد مأمور، امهلك شهراً لسداد ثمن اقامتك في الـــربع، الباشـــا حريص، خاصة إن قاضي العسكر تغير، وجاء عثمان أفندي تعاون زادة، وهذا أرنؤدي من بلد الباشا، لو صار أي تأخير في خراج الربع، انتبهوا لنا وأرسلوا رجالهم يحشون الأخضر واليابس.

* * *

تـــسابق الرجال، السقا عمر، والنقاش يوسف، والقرداتي راجح، والـــوراق أدهـــم، والخباز كريم على إيجاد مهنة للاستاذ الذي يتبرع بساعات يعلم فيها أولاد الربع آيات القرآن وفك الخط ومبادئ الجمع والطـــرح، حتى البلانة اقترحت العمل في مثل مهنتها في حمام الرجال، حـــيث لا يتطلب غسل الأجساد العارية في الحمامات العامة، وفركها بالـــصابون وزهـــور الخزامى براعة كبيرة، شكرها متلطفاً وقد راعته تفاصـــيل المهـــنة، وما ظن بقدرته عليها، كانوا فزعين من وصول أي همـــس مغرض في أذني الباشا عن نـــزيل لا يدفع أجرة إقامته في الربع نقـــداً، اصـــطحبه كريم إلى الطاحون وبيت النار في الفرن، فنفر فؤاده وهـــو يتذكر أحاديث أخته حول مهنة والده القديمة في الطاحون الذي أكل عمره وأشقاه، وجال مع القرداتي رافضاً اعتمار طرطور هزلي كما يفعـــل صـــاحبه، ركـــبا معاً القراقير[1] على بحر النيل والفلوكات[2]

(1) مراكب صغيرة.

(2) مراكب.

المـــستأجرة، قـــاطعين القاهـــرة من شرقها إلى غربها يرافقان طيور الخطاف والنوارس البيض، ويجمعان حولهما العوام بصيحات راجح ومـــيمون، لم يثبت الدف في كف يحيى وهو يهزه للقرد المشاكس المـــرواغ الـــذي يتقلب لاعباً مقلداً نوم العازب على ظهره، ونوم العجوز على بطنه، ثم ينطلق بين المجتمعين ماداً كفه الصغيرة بطرطور ســـيده، فيسقطون دراهمهم أو قطع الحلوى راضيين، يلامس ميمون طـــرف الكـــف الواهـــبة بخفة وسرعة قبل تراجع صاحبها مذعوراً ضاحكاً، يقبل القرد كفه التي لامست كف الزبون ويضعها على رأسه علامـــة امتـــنان وعرفان، أو يدير مؤخرته علامة استهزاء واستخفاف بـــبخلاء امتنعوا عن الإكرامية، لم تغرِ تلك المتعة المسلية يحيى؛ ولم تدم زمـــن تجـــواله مرافقاً للقرداتي، وإن قربته من ميمون الذي يزعق قافزاً فرحاً عند رؤيته.

طـــاف في المديـــنة المستعصية باحثاً عن مصدر مورد مالي، عاد مرات عديدة من سوق التوابل دائخاً لفرط ما اشتم من روائح مختلطة، ودبـــر لـــه السقاء عملاً في سبيل يوسف بيك قرب الجامع الطولوني، حارســـاً ليلياً لكيزان الماء الكبيرة، لم يصبر على المهنة أكثر من يومين؛ أضـــناه شوقه إلى هرج الربع وتصايح الصبية، وأرعبته فكرة الاصطدام جـــسدياً أو بالعصى والسكين مع لصوص الماء الكثر، جرب أن يصير ســـقاءً لأيام، حمل قرب الماء ودار بها بين البيوت، غرب وشرق، وإن طاوعـــته ذراعاه القويان وظهره الصلب، إلا إنه تاه في دهاليز القاهرة وراوغـــته الأزقـــة ونهايـــات الحارات؛ وهو الدليل في الفضاء الرملي الـــصحرواي، كمـــا لم يـــسعفه الوراق أدهم في اقناع صاحب عمله باســـتخدامه؛ لفرط ما يخاف ويحرص على مخطوطاته وصحفه وأقلامه من الغرباء.

بـــدا كما لو أن القاهرة استعصت تماماً، وتناقصت أيام المهلة التي أتاحهـــا كرم برهوم، إلى أن قاده يوسف النقاش على ظهر حماره إلى سوق النحاس.

خلـــع لـــبه ما رأى وسمع، تجاوزا جانب القصبة الأيمن ودخلا وسط المدينة، فانفتح شارع المعز الفاطمي أمامهما بوكالاته التجارية مختلفة التخصصات، انحرفا قليلاً إلى جانب فرعي للسوق الذي يتدفق فـــيه البـــشر، حاذا باب زويلة في منطقة الحرفيين، وعبرا أمام ورش صناعة الخشب ودباغة الجلد وصاغة الفضة والذهب والأحجار الملونة الـــزاهية بكـــريمها ورخيصها، ومحلات البسط والقماش، وحوانيت الخطـــاطين وباعـــة القماش، إلى أن ولجا سوق النحاس، انبعثت من الحوانيت الصغيرة المتقابلة الطرقات والصفافير والدق مكرورةً بأصداء تـــتجاوب وتشتد لضيق الممر، طم طم.. طاخ طاخ.. طمطم تك... ططظـــط... أصوات كرنفالية تهاجم الأذن وتذهب بالسمع لعلوها وانـــتظامها، ولكـــنها فتحت في صدر يحيى كوة فراغ عمره الصوت الرتيب.

وقف متلجلجاً ويوسف يقدمه لمعلمه وزوج عمته الحاج جعفر، عدل المعلم البدين من طربوشه المنـــزلق على جبهته، وأراح فخذ قدمه الـــيمنى الـــتي تـــصلبت لفرط الجلوس فمددها أمامه، وقد أزاح جانباً صفيحة نحاسية كان منكفأ فوقها، أرجح قدمه اليسري مجرياً الدم فيها، وعـــدل مـــن تجعد جبة الجوخ تحت ضغط جسده المتين، دارت عيون الفـــتي انـــبهاراً في المكـــان، نظـــر إلى الأواني، والأباريق، والدلال، والـــسيوف، والخناجر، والقدور، والصواني، ورقائق النحاس المنقوش، والعاطـــل عـــن النقش، وصفائح المعدن المصبرة في الزاوية، وتلك التي اتخـــذت أشكالها، والخزائن المقفلة بالأقفال والسلاسل على ماء الذهب

وألوان النقش، واللوحات التي امتزج فيها الخشب بالنحاس، كل شيء حوله بديع؛ يبعث على الدهشة.

تمكــــن المعلــــم الحاذق من قراءة الاصفرار في وجهه، وتتبع عودة الأنفاس إليه وروحه تكاد تزهق حيرة، قال ليوسف:

- *جئت لي بفنان أم مخبول!! الله أعلم.*

شــــغل يحــــيى حرفته الأولى في مصر المحروسة في حارة النقاشين، راهــــن المعلم جعفر على إمكانيات مختلفة لدى الفتى الكركي، ولم يعد يــــبذل الكثير من الجهد مع صبيه ونسيبه يوسف، مقدراً إن امكانياته وقدرتــــه على العطاء وصلت حدها الأعلى، ولن يتقدم أكثر مما فعل، بيــــنما يفــــصح العامل الجديد عن أمل واضح، قدر إنه سيبز أقرانه من ضــــاربــــي الــــنحاس والنقاشين الذين ورثوا المهنة عن أجدادهم، تابع أناملــــه ممسكة بالسمبة تحدد الشكل الدائري في صفيحة النحاس بدقة دون فرجار ولا بيكار، وراقه انسياب ريشة الرسم على المساحة البكر، والإمــــساك الموزون بالمطرقة، علمه بعض الخطوط والنقوش المطلوبة في الــــسوق، واســــتمتع بقدراتــــه في رسم الخط ببراعة يحسد عليها دون أخطــــاء، وأعجبــــته الفراغات التي يتركها الشاب النقاش الجديد بين الخطــــوط المتقاطعة، وتلك الزوايا التي يحفرها برقة وصولاً إلى تشكيل أشــــبه بورق الشجر، كلفه في بداية عمله بتشكيل بعض القدور ورسم الــــنقوش اليسيرة على حوافها، ثم ما لبث أن ترك بين يديه قطعاً أكثر أهمــــية وهو يرقب براعته وخفته وانجازه السريع في وقت أقصر مما يتأتي ليوســــف، الــــذي أدرك مــــنذ الأيام الاولى أن صاحبه يفوقه حرفية، فانصرف إلى طرق الصفائح واعدادها للنقش مكتفياً بهذا الدور، ولأول مــــرة يــــتعامل مع المنافسة في الكار[1] برضا، لا تعتريه غيرة أو حسد،

(1) الصنعة.

مطمئن إلى موقعه؛ لما تربطه من أواصر مصاهرة مع المعلم البدين، ممتلئ بالود الحقيقي تجاه الفتى الكركي.

استقامت الحياة للفتى، بات له خلان وصحبة وحرفة وتلامذة وعالم بحجم اتساع المدينة الصاخبة المجنونة من حوله، وعندما سدد أجرة الربع للمرة الأولى من كد ساعده، ابتسم برهوم يعد القروش القليلة، ودسها في جيب صديريته الخفيف، وقال:

- غائب نهارك كله عنا، عملك مجزي، ولكن!!أنساك نقش النحاس تعليم الصبيان يا أستاذ!!

سخرت نعمات:

- من يسمعك يظن أنك في لحظة شهامة وكرم، ستتنازل عن قروش حجرة الطين البائسة التي تشاركه فيها العناكب والفئران، وتتركه يعلم أولادك العبط، وأولاد السقا الصعاليك، ليصيروا بني أدميين حقيقيين.

كركر الرجل في انبوب أرجيلته، وقطب جبينه تحبباً، مرقصاً حاجبيه:

- تنصبين من نفسك قاضي يا نعمات! اسمعي مني وتزوجيني، أعفيك من أجرة الحجرة، وأشاركك تربية أولاد الأبالسة الذين تظنينهم بشراً.

نفضت كفها من حفرة التراب التي كانت تقلبها حول شجرة الدفلى، وردت الكرات القطنية الملونة المتدلية على جبينها، والمربوطة بمنديل رأسها قائلة بغنج يتبعه حدة:

- لو تموت، زوجي سيعود يا عايب، ويفقأ عينيك الجريئتين، احتشم، على الأقل على مسمع الغلبانة أم العيال.

عاودت تسوية التراب حول الدفلى، منشدة ما حفظته عن لسان أخيها الحكواتي الذي يعمر ليالي السهر في مقاهي الفسطاط، حين يحكي حكايات الهلالي:

- أعرف يا بطل، أنا وليه... جوزي كان بالأصل سلطان.. كان ســاكن علالي وحاكم قبيلة، وأنا كنت في صولة كبيرة.. عساكر ع الجنبين صفالي.. وعلى ريش النعام كنت أنام.. والدهر يا ما صفالي..

تبتسم زوجة برهوم ابتسامة بلهاء متتبعة الحوار اليومي بين زوجها ونعمات، وتركن لشهامة المرأة دون عينيّ زوجها البارعة في تتبع أقفية النساء، ولسانه الدلق الذي اعتاد كلمات غزل فاحشة لا يتبعها فعل.

في ورشة النقش، أفرد الحاج جعفر للنقاش الجديد أدواته الخاصة، مطرقتين، واحدة مقعوفة الرأس، والأخرى مدورة، ثم جاءه بثالثة مسننة بناءً على طلبه، رغم أن الصينية التي بين يديه تحتاج إلى مطارق وأقلام عريــضة، ولكنه انحنى فوقها ينقشها برسم دقيق جميل، وعندما حملها الحـــج المعلـــم منجزة، أدرك إن مهارات الفتى اكتملت، ودفع بصنعته للبـــيع في ســـوق النحاسيين بقلب قوي، حتى وهو يتعجب من تلك الزهرة المنمنة الوحيدة في طرف الصينية، والتي تترافق مع حروف كلمة الكركي، شرح يحيى:

- هـــذا ختمـــي، السوسنة، هي زنبقة سوداء تطلع كل ربيع في سفوح جبال الكرك.

رســـم النقاش الجديد سوسنته في كل آنية نحاسية نقشها، حريصاً علـــى خـــتمه بكنيته التي أسماه بها أهل المحروسة، سواء فوق الأباريق أو الـــصحون، أو الشمعدانات والصواني، وقد أعفاه المعلم من مهمة طرق الـــنحاس، مـــستبقياً جهده وفنه للنقش الفاخر الجميل، تنبه السوق إلى تميـــزه، وأحدث طلباً متزايداً على مصنوعات ورشة الحاج جعفر الذي فـــتح باب خزانته الخاصة، وأخرج ماء الفضة أولاً، مراقباً الشاب وهو ينقش بالماء الباهظ الثمن أول إبريق من النحاس الأصفر البهيج، خاطاً في عرض الابريق بخط النسخ عبارة "لا اله إلا هو"، ثم مزنراً الابريق بشريط

مــــن أزهار اللوتس، وراسماً ثلاثة خطوط متوازية في عنق الابريق الضيق، وآخـــرى متقطعة في صنبور الابريق، ثم في أسفله منمنماً بتلات الزهرة السوداء، متجاسراً على مدها قليلاً على البطن الكروية للوعاء المدهش.

بـــيع هـــذا الإنـــاء بما فاق توقع الحاج، صفر يوسف وهو يرى الدراهم تتساقط في حجر معلمه، كما رفع يحيى ردن كميه وهو يتلقى طلبات جديدة لصنع شمعدان خاص يشترط جودة الابريق، والتعبير عن دلالـــة خاصة تتعلق بالموسيقى، أيقن المعلم أن المشترى صاحب مزاج خاص، وأنه سيجود، فلا يقتر ولا يساوم، خاصة أن الطلبية جاء بها قن أســـود يمتطـــي عربة فارهة مزركشة يجرها حصان قوي، أفاض المعلم كـــرماً وهو يسمح للفتى النقاش بمزج ماء الذهب والفضة والنقش بهما فوق الرق النحاسي المتشكل، والذي أنجزه الشاب في شهرين، مقترحاً شـــكلاً جديداً لشمعدان مخروطي يتسع عند القاعدة ويضيق في أعلاه، حـــيث تمتد رقبة الشمعدان قائمة على رفرف رقيق يوشك أن يشف، صـــنع زخـــارف مذهلـــة من خطوط تثني كأنها أجسام أدمية خرافية التكوين، تمسك بثلاث آلات موسيقية يمكن تبين أوتارها وأبواقها على نحـــو مجرد، نمنم في أعلى الجسد المخروطي تشكيلات متفرقة لحروف موســـيقية، وعـــند قاعدة الشمعدان، كتب يحيى بالخط الكوفي كلمة "الكركي"، ونقش زنبقته المعتادة بالفضة، عميقة واضحة.

* * *

وقـــف يحـــيى فارداً ظهره مطقطقاً سلسلته الفقرية، ثم توجه إلى المخـــزن الداخلي لحانوت النقاشة يطلب صفيحة جديدة، تنشق فجأة عطـــراً كأنه الخزامى مختلطاً بناعم الياسمين، غطت الرائحة العطرة على ســـناج الـــنحاس والفضة الذين يعبق بهما المكان، وبزغ يوسف عند مدخل المخزن يضرب رأسه ببطن كفيه ضربات متوالية هامساً:

- *يا الله.. يا الله.. لن تصدق، لا انس ولا جن، سبحان الله.*

غض يحيى بصره حين خرج ومؤخرة الحاج تداري من يحادثه في مـــدخل الحانوت، تمكن فقط من مشاهدة ذيل حريري أخضر يفترش التراب، انـــزاح المعلم كاشفاً عن امرأتين واقفتين في المدخل، كما لو أن شمساً أضاءت المكان، وجه قمرى يبتسم له، وأخر تطل منه عيون ما شـــاهد في اتساعها، كانت المرأتان ترتديان ثوبين من اليك الحريري، أحـــدهما في خـــضرة الحـــشيش، والآخر في حمرة الياقوت، وتحيطان خـــصريهما الناحلين بحزام كشمير عريض، وقد أسبلت أحداهما فوق وجههـــا برقعاً مثبتاً بشريط مشدود إلى رأسها، وانسدل حول جسدها قفطان زيتوني مفتوح الصدر يكشف زخرف اليك الأخضر تحته بأردان طويلة واسعة، كان التناغم عالياً وفارهاً بين درجات الأخضر في اليك والقفطان الحريرين، قال الحاج بأدب كبير:

- *الهانم تسأل عنك؟*

لم يعـــرف يحيى لوهلة إنه المقصود، ولكن الحاج وضح بكلمات مقتضبة إن صنعة الشمعدان نالت رضا الهانم، ولما تبادلت المرأتان النظر، قالت صاحبة رداء الياقوت التي كشفت وجهاً مليحاً تلعب في صفحته غمازة جرئية:

- *ستي تسأل.. ماذا تقصد ب"الكركي"؟؟*

فاجـــأ صـــوت الصبية مسمعه كأنه قادم من الفردوس، لم يفهم سؤالاً، ولم يحر جواباً، ضحكت الصبية وقد راقها ارتباكه أمام حسنها، تقدمت نحوه خطوة جاءته بعبير الياسمين، عندها عاد إليه ادراكه، وقدر إن الأخرى تعطرت بالخزامى، وإن شوشته الضحكة المقتضبة الساحرة في الـــوجه الملـــيح، وبلبلت انتباهه مجدداً الغمازة اللعوب عند طرف الشفة، وخضرة الحشائش في حدقتي عينيها، قالت:

- *أنت أصم؟؟ ستي تسأل ماذا عنيت ب"الكركي"؟؟*

تدخل المعلم موضحاً الأمر:

- *الولد من كرك الشوبك في أعمال الاردن، كتب توقيعه، إذا لم يعجبكم النقش، نــــزيله عن قاعدة الشمعدان ببساطة.*

تبادلت النسوة النظرات مجدداً، وقالت المنقبة بصوت رخيم:

- *من الكرك، أين؟؟*

نظـــر المعلم بحنق إلى عامله الذي تجمد مجدداً، ويوسف واقف إلى جـــواره ينخـــزه بلمسات موارياً كفه وراء الجلباب مشجعاً اياه على الكلام، قال والخزامى والياسمين تطوحان روحه:

- *من الكرك.. من خربة.. خربة قربها، اسمها جلجول.*

اقتـــربت صاحبة اليشمك، فاشتد فوح الخزامى، رفعت نقابها عن ملاحة، ونظرت ودموع ترقرق في زاوية العين الوسيعة، قالت:

- *من؟؟ من تعرف من جلجول؟*

لم يحر جواباً، بدت جلجول بعيدة، والفاتنتان اللتان أحاطتا روحه بـــشذا عطـــرهما، لم تنتظرا، تحركتا معاً حتى صارتا في مواجهته تماماً، قالت الجميلة التي ردت نقابها وراء رأسها:

- *أتعرف الشلبـــي؟ أبو جعفر الحلاق؟؟*

ارتخت أوصال يحيى، و لم يجسر على التفكير بهوية الفتاة، لكنه قال همساً لم يسمعه سوى الفاتنة صاحبة الخزامي:

- *نعم، أعرفه، أنا.. يحيى.. ابن عيسى أبو بكر النحال.*

نطت دمعة وحيدة، وهمست الفاتنة:

- *الطحان؟؟*

هز يحيى رأسه موافقاً، فهتفت بلوعة كأنها تبكي:

- *يحيى!!.. يا الله... يحيى! لم تعرفني!.. لا تعرفني!!..*

ثم مدت صوتها راعشاً منغماً ساحراً، وتساقط دمعها:

- خاتم حبيبي وقع بالبير.. له رنه.. يحيى.. أنا هفوف.. هفوف الكركية.

* * *

كأنما اختفت القاهرة لساعات طوال، حمل النقاشون وطارقو النحاس كراسيهم الواطية إلى مدخل باب حانوت الحاج جعفر، وارتحلوا إلى جلجول؛ يسمعون الأسئلة وأجوبتها تتنقل بين المرأة الفاتنة التي لم يزعجها احتشاد أرباب الحرفة، واكتفت بإسدال نقابها مجدداً وهي تسمع يحيى يحكي، تنبه يوسف إلى أن الشاب الذي عاش بينهم شهوراً، لم يتحدث عن مسقط رأسه بتاتاً؛ مكتفياً بسماع حكاياتهم حول المحروسة، وها هما الزائرتان الغامضتان تكشفان عن سيرة، وبشر، وأمكنة بعيدة.

تحدث بإسهاب حول جعفر وزيد، ابني الحلاق الشلبي، ومصائر أولاد الشيخ صايل المتباينة، كانت عينا هفوف حانيتين راضيتين، وهي ترغمه على تكرار وصف شقيقتها الطفلة نفل؛ التي لم تلتقِ بها أبداً، وبكت عند ذكر أمها، وضحكت وهي تقول:

- لم أسألك عن أختك مريم، أعرف إنها قوية مثل بغل، لا أتوقع إنها ماتت بداء أو مصاب، عودها صلب، ولا بد إنها ما زالت تعاند زمانها، أعرف، قلبي يحدثني.

حكى لها عن عطارة مريم ونسجها وأنوالها، وعام الجراد الذي تداعت نتائجه فكان من أثاره هروبه مع الدواج، هو نفسه لم يعرف كيف تحدث باسهاب فأدمع عيون السامعين، وسحب تنهداتهم وصفير التعجب من صدورهم، وجعل عيني المرافقة الحسناء تتعلقان بشفتيه.

قـــرب حلول المغيب؛ فرق محاسب السوق المجتمعين باشارات من عـــصاه، مـــشيراً إلى خطر التجمع الذي قد يغري الجند أو السراقين، رُدت روحه إلى القاهرة، سأل بتعجب:

- ماذا عنك؟؟ أين كنت؟ماذا حل بك؟

وقفت هفوف وأحكمت قفطانها فوق كتفيها، نظرت بريبة في وجوه من تبقى من الجالسين والفضوليين، لم يفتها الانـــزعاج في نظرات صاحب الدكان الذي تحول إلى مجلس، قالت تنقل الكلام بين مرافقتها ويحيى:

- جمـــان، حـــان وقت الانصراف، سنثرثر كثيراً في قادم الأيام، فـــتلك حكايـــة اخرى تطول، اصنع لي تؤاماً للشمعدان أعود لاخذه، ونتحدث مطولاً.

غـــادرت وجاريتها، وانسحب رواء عطريهما وراءهما في زقاق النحاسين.

دفع يحيى درهماً وابتاع زيتاً لسراج يصطحبه إلى حجرته مساءً بعد نـــوم ســـكان الربع، ووافق الحاج النقاش على إعطاء عامله البارع ما يحتاج من نحاس وماء الذهب؛ ليكمل ما بدأه في الحانوت، مشترطاً أن لا تتكرر الجلسة المحرجة أمام بابه مجدداً، واعتزل يحيى الجميع في محاولة للاسراع في انجاز الشمعدان التوأم، تذكر بدقه كل طرقة أحدثها، وكل انحـــناءة في كـــتلة النحاس، بل وأعاد رسم الفنانين الثلاثة في أشكال تعبيرية، وهم يعزفون ذات الأوتار والدفوف والمزامير، علق يوسف:

- أصعب العمل أن تأتي بذات الصورة.

قال يحيى:

- بـــل أهـــونه، إنه درب تخبره، يدك تعرفه، وذاكرتك تعينك، الأصعب هو الآتيان بجديد، لا تقليد القديم، بعد أن انجز لهفوف طلبها، سأصنع جديداً.

تعجب يوسف ونسيبه النقاش لسرعة الانجاز، حمل الشمعدان هاتفاً:

- *بديع، لا يمكن أن تفرقه عن مثيله، كأنه هو.*

رد يحيى:

- *لا يمكن أن يكون هو، على أية حال تنقصه السوسنة.*

استعاد شمعدانه، دق بمطرقته الحادة، وبلطف حذر متأن زهرته، دوم تك دوم تك.. دوم تك..

توقف؛ داخ إذ داهمه عبق الياسمين، ظن نفسه واهماً لبرهة، أحس بنشوة تسري في أوصاله، وقدميه ترتعشان رعشة خفيفة كما لو كانت خفق جناحي طائر.. وشعر بجسده خفيفاً مثل ريشة، كأنه انفصل عن الأرض بوصات قليلة وحلق.. أو إنه نائم والسوق يسبح تحته، هزته نشوة غامضة قبل أن يستوي ويلتقط أنفاسه، ويرى ما يحيط به من معالم الدكان واضحة وسط غمام.. واستقام طيفها بباب الدكان، ثم انجلى وتماسك جسداً واقعياً مضمخاً بعطر الياسمين، وهمست جمان:

- تنقش على إيقاع دارج[1].

توقف عن النقش مفلتاً شمعدانه والمطرقة، ووقف، تراجعت رائحة النحاس الثقيلة، وخيالات الحلم العابرة؛ تبدد يوسف وزوج عمته الواقفان بقربه، ولم يعد أمامه إلا وجهها المنير وحشيش عينيها، ابتسمت فانبعج خدها، ووخز قلبه، نظرت حولها متفحصة بلفتة رأس سريعة، ثم ثبتت ناظريها في عينيه متأنية قائلة:

- *أنت حزين يا كركي، تنقش على إيقاع الحزن الكبير، إيقاع دارج.*

---

(1) إيقاع موسيقي.

في وجهـــه جهل ملتبس بشغف لا يخفيه، وخضرة عينيها تخاتله، هز رأسه فضحكت:

- *أقصد... دوم تك.. دوم تك.. هذا إيقاع موسيقى حزين.*

لم يـــبادلها حديـــثاً مباشراً في اللقاء الأول، وإن أحس بوجودها لطـــيفاً ممتعاً، ولكنها إذ يلتقيان للمرة الثانية؛ تدخل وإياه في تفسير أمر لم يخطـــر في بالـــه حـــين دق برأس مطرقته المسنن جذع الشمعدان، استجمع رباطة روحه وهي تنقل له رغبة هفوف ودعوتها لاستقباله في بيتها وعودته معها، بينما الحاج جعفر يقاطعها منهياً الحديث:

- *الشمعدان جاهز يا أخت، يلزمه طرقة واحدة، انتظري بالعربة ويأتيك به.*

انحنى يحيى يضع اللمسة الأخيرة، والمعلم يزفر، وقد تجاهلت الفتاة اقتراحه، ووقفت ترقب يد الحرفي يكمل النقش.

دوم تك.. دوم تك.

مسح يوسف الشمعدان ضاحكاً بخبث وفرح، وأحاطه بكيس من الخـــيش يحفظه، في حين لمح يحيى العربة التي يجرها حصان أسود لامع، ويقودها القن، ووراءه ما يشبه الهودج مغطى بقماش الصايا المزركش، تنتظرهما عند مدخل الحارة الكبير، رجف فؤاده، شده الحاج المعلم من ذراعه هامساً في أذنه، قبل أن يلحق بعطر الياسمين:

- *انتبه لنفسك يا بني، كله ولا درب الغواية، النسوان، كلتاهما، جاريـــتان، والعياذ بالله، غوازي، جنكيات*[1]*، ثوبنا غير ثوبهم، لا نعلم ما وراءهما يا بني.*

اقتادته العربة المزركشة إلى الجنوب خارج باب زويله، شل العطر حـــركته وألجـــم كلماته، إلا إنه ميز رفاه المكان الذي يدخلون إليه،

---

(1) راقصات.

صـــارت العمائـــر أكثـــر جمـــالاً واستقلالاً، وكثرت حولها الحدائق والأشجار، بعضها في مصاف القصور، طرقاتها مسوية إثر مرور مداحل تجـــرها الثيران ورشها بالماء على نحو دائم، فلا تثور أغبرتها مع دوران عجـــلات العـــربة التي يجرها الحصان، أو لمرور العربات التي تقاطعهما الطـــريق جيئة وذهاباً، لم تزعجه سخرية جمان من صمته، وتجاهلها له بعدها، وزهوها حين قالت:

- *هذا شارع خوش، كله أغوات ومماليك وأعيان وترك.*

كل ما تفعله فاتن جميل، فكيف وقد انصرفت إلى دندنة موسيقية خفيفة، وفي رجع صوتها الرقيق ما يشبه صدى المزمار.

توقـــف الحـــصان بباب بيت من الأجر الأحمر، وترجلت جمان تدعوه ليجتاز بوابته الخشبية المزخرفة، كان محاطاً بغابة شجرية صغيرة وأحواض للورد البلدي تزنر المكان، وتترك للداخل أن يطأ ممراً حجرياً قبل فتح الباب الداخلي.

لا يتذكـــر يحـــيى مشاهدة مثل هذا المعمار في حياته، حتى عندما كـــان يزور الراهب في دير كاترينا، ويتمتع مع الزوار والرهبان برفاه المكـــان وعبق البخور، فإنه لم يطمح إلى دخول بقعة في أناقة واكتمال هـــذه الـــدار، وحين أطلت هفوف بلليك أزرق مطرز بالنقوش، محلّى بالأحجـــار اللامعة، وقد تخلصت من برقعها وقفطانها، ونثرت شعرها على كتفيها، سلمت بود يشبه عناقاً قصيراً سريعاً؛ زالت رهبة المكان، وشعر يحيى بطمأنينة غريبة كأنه يجالس مريم.

سمـــع حكايـــة رحلتها الطويلة جارية للقائمقام كارتال الذي أخذها بداية عهده بها إلى أدرنة، فأحسن معاملتها واصطفاها، تحدثت عـــنه بمحبة واحترام، وصفت كيف نـــزل بها أرض مصر، وأقام لها هـــذه الدار حيث يسمرون ويستضيفون البشوات والأغوات وأمراء

الجـــركس المماليك وعلية القوم، ثم كيف اشتد المرض عليه، فكتب كـــتاباً يحررها فيه، ويتخذها زوجة قبل أن يهبها الدار؛ فيكفيها أمر مشارعة ورثته الكثر في أدرنة واسطنبول، ارتبكت أفكار يحيى، كان تجمـــيع خـــيوط الأحداث مرهقاً موجعاً معاً، وقد بكت بحرقة حين علمـــت إن أهلها ظنوا منذ ارتحلت إنها زوجة للرجل، وإن أمر بيعها جارية لم يخطر ببال، ولم يأت على ذكره أحد، ولا حتى المختار الذي قبض ثمن عبوديتها، كلما أجهشت بالبكاء، سارع يحيى للتحدث عن نفـــل الـــصغيرة الـــتي تعلمت الحياكة وخطبت عروساً لابن عمها، فأضحكها.

أمـــسكت كـــتفه بود، وأمالت رأسها تتأمله بشجن، تناولا ما أعـــدت جمـــان من شراب الورد في كؤوس من المينا المزجج بمماسك فـــضية، رشف يحيى من كأسه مستفتياً فؤاده عن النعيم، وإذا بهفوف تـــرفع إلى حجـــرها عوداً من خشب الورد.. وتداعب أوتاره، فتحلق الأرواح، وينسى يحيى وصايا المعلم النقاش، ويقع الصوت الطروب نوراً وماءً رطيباً على خشين الروح:

- مـــا ضاق دهرك إلا صدرك اتسع.ا فهل طربت لوقع الخطب مذ وقعا...

تزداد بشراً إذا زادت نوائبه... كالبدر ان غشيته ظلمة سطعا. (1)

تمنى يحيى توقف زمانه، فلا يكون له سابق، ولا يتبعه لاحق، ذاب في وجد الوتر وتبر الصوت؛ لكنه انكفأ حزيناً، والباب المفتوح يُدخل سيلاً من البشر الأنيقين يرطنون بكلمات لا يجيد حل مغاليقها، يرتدون جبات الجوخ المطرزة بالذهب، ويعتمرون العمائم الملونة والقلنسوات، ويغـــزون الريش في أطراف عمائمهم، يدخلون البهو الواسع، فترحب

---

(1) كلمات الشيخ صالح الكواز.

هفـــوف بهم وتتبادل وإياهم الضحكات واللمسات والقبلات، وتخرج إلـــيهم مـــن الأبـــواب الداخلية، جماعة من الحسان، الشقر والصهب والـــسمراوات، فيجالسن الزائرين، وتوزع أكواب البلور بمنقوع الورد ومخمر العنب على صواني الجواري، وتتناثر الصحون الفخارية والخزفية المعرمة بالثريد واللحم والفريك والحمام والدجاج.

تملمـــل يحـــيى كأن الفردوس ضاق عنه لوهلة، وإن أوشك إطالة جلوســـه لما رنت أوتار القانون، حدق في الصندوق الخشبـــي، وأنامل العازف تتنقل بخفة بين الكشتبان على سبابته، وريشة تتخاطف الأوتار أنغامـــاً ما عرفتها أذنه سابقاً، وظن لبرهة إنه مسلوب الإرادة، باق في المكـــان مـــا بقيت الحياة؛ أيقظته من غفلته ضحكات خليعة جانبية، ســـارع إلى الـــباب مكلوماً هارباً مختلط المشاعر، حاولت هفوف تخفيف روعه بتأكيد لزوم تكرار اللقاء، وتبعته المليحة جمان حتى العربة هامسة:

- تغـــادر ولم تسمعني أغني بعد! صحيح، صوتي ليس مثل بديع صوت سيدتي، ولكني أحب أن تسمعني.

لم يثـــنه لهـــف قلـــبه، ولا أغواه رجاء الصبية الفاتنة، غادر مثل مطارد، تاركاً الحصان وقائد العربة يخترقان ليل القاهرة المعتم يتقدمهما حارســـان مسلحان، تبلبل في سيل العواطف المتناقضة تضرب روحه، وتذروه في مهب الحيرة والوجع حيناً، وفي هيمان وانتشاء معطر مموسق حيناً آخر.

* * *

تنبه الفتى إلى أن المدينة الصاخبة الحافة بالضجيج، وسبل العيش المتنوع حرمته من قرطاسه وكتابه، وأطلقته باحثاً عن مهنة، مبهوراً بمـــا أحاطـــه من صنائع وطرائق وبدع، وأحداث تعصف بالقلب،

مبتعداً عن "عيون الحكمة" حتى النسيان، مفارقاً لكتاب الله إلا فيما يـــدرب عليه صغار الربع ملقناً إياهم آيات القرآن دون تدبر، ساءه سبيله وأفزعه، فاختار الرجوع إلى حيث يجد ما تحب نفسه وتهوى، من تمعن في الكلام، وتنقيب عن المعرفة، هكذا صار يسرع في إنجاز بعـــض أعمالـــه في سوق النحاسين، ويكتري حمار يوسف مختصراً الـــوقت الذي تضيعه المدينة المتسعة، فيوافي أدهم في حانوت الوراق أحمد، صاحب الحانوت الذي كان ينظره شاكاً بداوفعه في البداية، خائفـــاً مـــن تخريبه لكنوزه الورقية، صار يرحب به، يتركه يقلب الكتب والقراطيس والمخطوطات التي حفلت بالنمنمات الصغيرة في أطـــرافها، وبعلوم الفقهاء والأئمة ومحترفي اللغة والكلام في متنها، مخطـــوطات في اللغـــة والـــنحو والأدب والكلام والتصوف والفقة والفلـــسفة، خطـــت على قراطيس كتانية وقطنية.. يجلس لساعات محـــاذراً من الحراك وهو يراقب الوراق يضع لمساته الأخيرة ناسخاً ســـورة الكهـــف على ورق صقيل، مستخدماً خط الرقعة الأنيق، مزوداً منسوخته بالرسومات لاوراق الشجر وأشكال هندسية، فإذا مـــا فـــرغ منها، ختمها بريشته الرشيقة بعبارة "خطه العبد الطامع بمرضـــاة ربـــه، أحمد الوراق في سوق الوراقين في القاهرة، في العام الـــثالث بعـــد الألف من التقويم الهجري، كل من يقرأه، أو يعيد نـــسخه؛ يمنحه الله بيتاً في الجنان، ويباعد بينه وبين المرض والحزن، ويهـــبه الذريـــة الصالحة والرزق الوفير، ويجعل مقامه في الجنة مع العلماء".

يعرض الوراق مخطوطه مباهياً، فينظر يحيى فرحاً، ثم ينبش ما تبقى مـــن مخطوطات لم يتعرف عليها بعد؛ بحر لا قرار له خض جنان الفتى، وجعلـــه يسابق نهاره من درب إلى درب، ما بين نقش النحاس، ونبش

الكــــلام مــــن مــــتون الكتب، التي خيطت بنسج عقدي وشمعت قبل الــــصاقها بغلاف جلدي دبغ بعناية، الأنوار التي أضاءت صفحة وجه يحــــيى، عالجت قلق أحمد الوراق؛ بات ينتظر زيارات الفتى، ملاقياً من يحاوره بما في الحبر من معنى، سمح الوراق له بتصفح الكتب حتى المغيب لقــــاء دراهم قليلة بداية، ثم ما لبث أن أعفاه من أي أجر معتبره صديقاً للكـــتب وله، كما سمح له باصطحاب الكتب والقراطيس والجلود إلى الـــربع، ليعيدها في اليوم التالي، وقد تركت في جفنيه اسوداداً، ودلائل على ليلة لم تعرف النوم.

قلــــب يحيى شغفاً المصاحف المزخرفة بالأشكال والأزهار، وعثر على نسخة من عيون الحكمة التي يعرفها ويكاد يحفظها عن ظهر قلب إبان تأمله في سيناء، وقرأ المقابسات، والامتاع والمؤانسة، لابـــي حيان التوحيدي، وتراجم ياقوت الحموي، والفهرست لابن النديم، والحيوان للجاحظ، وقوانين مصر نامه، وكتابات متفرقة لأعمال مجهولة وأخرى مقلدة، بعضها علم قيم أو فن بديع، وبعضها لغو، وقف مطولاً خلف كتف الوراق يرقب ريشته المستدقة تنغمس في مداد الدخان والصمغ، ثم تنساب على الورق كلمات منمنمة صغيرة.

أســــر يحيى لأحمد الوراق أمر اقتنائه كتاب عيون الحكمة بنسخة مخـــتلفة عتــــيقة، فنصحه أن لا يفشي السر لسواه من الوراقين الذين يبرعون في اقتناص الغالي ببخس الثمن، وتبرع بتجليد نسخة الفتى من الكـــتاب، وما رافقها من كلمات رجح إنها بخط الخسرو شاهي أستاذ الملك الناصر في الكرك، وإنها كنــــز يجدر الحفاظ عليه، فخاط أوراقها بحــــرفية كي لا ينفلت الكتاب، ولا يفسده القدم، متعجباً من أثار شمع مــــريم الذي حفظت به الورق، فإذا ما سأله يحيى تعليمه حرفة الوراق وخط الحروف على شاكلة ما يفعل، هز رأسه رافضاً قائلاً:

هي حرفة الشؤم كما قال التوحيدي، فيها ضياع العمر والبصر، اسمع نصيحة عجوز مثلي، اعتبرك ابناً وصديقاً، إذا خيرت بين علم وفن أو صنعة، فاتبع ما يسر قلبك ويطرب حالك، ولا يثقل كاهلك، ويحير فكرك، فليست الحياة على مثل هذا الجد.

لم يكــــن يحيى متأكداً ما إذا كان العلم لا يسر فؤاده، فقلبه ينبض لكل معرفة جديدة، وروحه تفتتن وهو يقرأ ألعاب حيوانات الجاحظ، كمـــا عـــندما تـــتلاعب غمازات الفاتنة جمان، أو حين يدق بمطرقته السوسنة على طرف الصحن النحاسي.

يمر الوقت سريعاً والرجلان يجلسان في مرمى الاضاءة الخفيفة التي يـــبعث بها قنديل علقه أحمد على مسمار كبير أعلى البوابة، يقرآن وقد يـــتوقفان عن القراءة لتدوال خبر، أو شرح ما تعتم، ويسود صمت إذا ما مر في الطريق رجال الجندرمة برياشهم يتلفتون يمنة وميسرة، وإذا ما تجاوزا، هز الوراق رأسه متمتماً:

- *وكم ذا بمصر من المضحكات... لكنه ضحك كالبكا.*[1]

يـــشرح لرفيقه اختلاط الحابل بالنابل، وصراع الفقارية والقاسمية وخلافهما الذي زرعه السلطان العثماني سليم واحتال فيه ببراعة، حين بـــدأ لعبة مبارزة الشقيقين المملوكيين تحت بيارق ملونة، فمنح أحدهما بيرقاً أبيض والآخر أحمر، وقسم اللاعبين بينهما، العثمانيون يلعبون دور جـــنود أحدهما، والمصريون يلعبون دور جند شقيقه، ثم بمرور الوقت صـــار اللعـــب جـــداً، ولم تعد المنافسة على نياشين السباق للتسلي، وأوغرت الصدور وزاعت الابصار، فإذا بالحقد يتسيد، والصراع يكبر، كأنما تنغرس أقدام العامة في الوحل، كل يوم أكثر، فلا تستطيع فكاكاً، رافعـــو الرايات البيض والحمر لا يجدون الوقت لتدبر شؤون البلاد، أو

(1) المتنبي.

مقارعـــة الـــسلاطين الذين حولوا البلاد إلى مزارع لهم، وحاكورات لولاتهم، وأغواتهم وعسكرهم من سباة وانكشارية، فما ظل مصري لم يتذوق ذل الفقر، وحرقة العازة.

وإذا مـــر جمع من الانكشارية على خيلهم يتمخترون، قلب أحمد الوراق المخطوط بين يديه بحذر وانتباه شديدين، وتمتم بكلمات خفيضة حزينة كأنها حكمة دهره التي قطع بها كل أمل:

- *مين اللي قال الفرس فرسكم!.. دي ملك للي فوقيها..*[1]

رغـــم المتعة التي تبعث بها الكتب في نفسه؛ فإن أحاديث الوراق تـــوجعه، ومخـــاوف الناس في السوق والربع وقد تزايدت مع اشاعات حول تبديل الوالي الحافظ الذي قضى أعلى ولاية عرفتها المحروسة إذ أتم الـــسنوات الأربـــع، دون انقاذ العملة التي تدهورت قيمتها، فشحت الفـــضة التي تأتي من أراضى السلطنة الواسعة، وطرحت أسواق النقد بندقيات[2] فضية مغشوشة خالط فضتها معدن أخر واختل وزنها، وما عاد التجار والصناع يأمنون قيمتها.

مـــال يحيى إلى عزلتة عندما ماجت الأوضاع مجدداً؛ يحتمي بها من عجـــزه على الآتيان بفعل، وفي فجر الربع الحزين بينما كانت نعمات تحفر عميقاً تحت الدفلى وتدس صرة صغيرة، فاجأها برهوم من خلف قارصاً خاصرتها الممتلئة ضاحكاً:

- *بتخبـــي لبكره يا جميل، هو العمر فيه كم يوم!!*

صرخت مستنجدة بيحيى:

- *اشـــهد، لو أصاب صرتي نقصان فهو من يعرف مطرحها، أبو عيون زايغة.*

---

(1) من سيرة الهلالي.

(2) عملة عثمانية قديمة.

عاود برهوم قرصها مازحاً متمادياً، قفزت إلى الوراء غاضبة وهو يقول:

- يـــا مجنونة، أنا أعطيك؛ لا أخذ منك.. خايفة تموتي من الجوع وأنا أتنفس!

تبسم يحيى حزيناً، وعاوده اغترابه يوم دخل باب الفتوح، رد إلى حجرته يناجي ربه بكفين عاجزتين، وذراعين مغلولتين:

- إلهي، جئناك، إرفع عنا قهر المذلة، وأنر دربنا إلى سواء السبيل، نهتدي.

* * *

انتـــبه صـــحبة الربع إلى انغماس الرجل في عزلته تدريجياً، لم يعد يجالسهم أمسيات شجيرة الدفلى إلا قليلاً، ولا يتذكر أطفالهم إلا لماماً، ولا يخطـــر في باله جوع بطنه، إلا حين تأنبه نعمات مرغمة إياه على تـــناول طـــبق البـــصارة، الطافح بطبيخ العدس والبصل، تمازحه بدفع ملعقـــتها الخـــشبية مملوءة إلى فمه كما لو كان طفلاً تلقمه؛ يستحى ويأخـــذ الملعقـــة من يدها ليأكل لقيمات قليلة، شاهدوه هادئاً صامتاً متأملاً، مبتعداً عنهم، ظنوا أن له مزاجه الخاص وطريقته، وغالى برهوم في تقدير مزاجه؛ ابتاع له سراجاً جديداً بدل السراج الذي يستعيره من جعفر؛ منحه فرصة التمتع بالضوء المتراقص على صفحات الكتب، قبل أن يهجع الجمع في الحجر الطينية إلى النوم حتى مطلع الفجر.

تبخـــر أريج الذكري الماتعة التي خبرها في زيارة بيت الغوازي، كما أسماه الحاج جعفر النقاش، ما بقى منها أثر في نفس الشاب المنعزل بمقدار، لكن حدثاً وقع، أعادها مثل بصة نار طار عنها الرماد، قدر لا مفر منه.

ذلـــك المساء وبخه حارس الدرب على التأخر في سوق الوراقين، ذكره بمحن القاهرة ومخاوف الليل، وسمح له باجتياز الدرب إلى الربع،

فداهمته رائحة الخزامي وعصف الياسمين وإغواؤه الفتان، تخيل إن رغبات ذكورية خفية لديه فجرت العبير، لولا اندفاع يوسف عند بوابة الربع هامساً بارتباك:

- *جئن إليك.. انتظرنك في الحانوت عصراً، عم جعفر جن جنونه، استاء وتذمر، أي والله، كاد يطردهن، ثم؛ ثم جئن معي.*

بدت ساحة الربع مثل عيد، مضاءة بالفانوس وشموع متفرقة، التف الصغار حول المرأتين الغريبتين دون أن يزجرهم الأهل ليناموا، وزعت نعمات سكاكر النداغة بكرم على الجالسين، وعرج برهوم حولهما كأنه يرقص؛ يرحب ويكرر ترحيبه ويعرض خدماته، وامرأته تعدل الوسائد خلف ظهريهما، وميمون يقفز حول الشجيرة، ويشير نحو المرأتين ثم يضع كفيه مراراً فوق رأسه في توقير واحترام، يصيح راجح متظاهراً بمناداة قرده، وعيناه تلتهمان الفاتنتين:

- *الله الله يا ميمون.. الله الله... يا عسل.. يا فاهمني.*

يحدق السقا تاركاً أمر تنظيف قربه للغد، ويهيم كريم الخباز فيما يشبه الغيبوبة، ويزجر أدهم زوجته التي تنظر بانبهار أبله، وتجلس البلانة وكفها يحضن وجهها، وابنتها زينب تتنهد، العالم مشغول بالمرأتين اللتين جاء بهما يوسف، انفرجت أسارير وجه يحيى وهش قلبه، واندفع يرحب مع المرحبين، لولا صدق اللهفة في عينيه لأوسعته هفوف بعتبها وملامتها، لكنها اكتفت بالقول:

- *نسيتنا؟؟ خفنا عليك يا جاحد، لا تغب عنا هكذا ثانية؛ تركتنا نركب الخطر ونقطع دروب القاهرة إليك وسط الزعران والحرافيش.*

هوى الزمن الذي راهن فيه يحيى على تناسي الجميلتين في لحظة، وعاد التعلق الغامض يحرك أشجان روحه، وطارت كلمات النقاش التي حذرت من المرأتين، وتبددت صورة الزوار الذين يرتدون الصايا

والجــوخ والدمقس والريش، ويشربون أقداح الورد والعنب المخمر في صالون هفوف، حيث تعلو الضحكات الرقيعة.

تعمــدت جمان كشف لهفتها جهاراً؛ لا تزيح خضر عينيها عن محــياه، فاســترعت انتباهه رغم انصرافه البادي إلى هفوف، ضحكت الحــسناء الصغيرة، وألقت بالنكات، ولامست رؤوس الصغار الحليقة، ولم تمانــع في تحســسهم خــصلات شعرها الكستنائي المتماوجة، ثم اقتــرحت الغــناء، ووسط هياج وتصفيق سكان الربع تغنجت، وهي تبوح:

- أغني ليسمعني أحدهم، غناء خفيفاً على مقام السيكاه[1]*، مقام العــشاق في لحظة أنس، أغني لأحدهم، أغني، لمن في رأسه عيون ترى، وآذان تسمع، وفي صدره قلب حسيس، يشعر.*

تبادل المجتمعون النظرات، ودخل يحيى دوامة الود والجوى، غنت جمان وهي تضرب صينية نحاسية رفعت عنها أكواب الكركديه المنعش؛ مــوقعة لحــناً بهيجاً بضرباتها الخفيفة، وارتفع صوتها فرحاً رائقاً، يعلو وينخفض مع ارتفاع صدرها وارتدادته، وتقدم وتراجع أنفاسها:

- يــا قلــبُ أنــتَ وَعدْتني في حُبِّهِم صبراً.. فحاذِرْ أن تضيقَ وتضجرا..

إنَّ الغرامَ هوَ الحياةُ فمت به صبًّا.. فحقُّكَ أنْ تموتَ وتُعْذَرا..

قــلْ للــذينَ تقدَّمُــوا قبلي ومَنْ بَعْدي.. ومَنْ أضحى لأشجاني يرى...

عــني خــذوا وبيَ اقــتدوا وليَ اس.. معوا وتحدَّثُوا بصَبابتي بينَ الورى..[2]

---

(1) مقام موسيقي.

(2) ابن الفارض.

ســـاد صمت تحولت الفضاءات به إلى صدى ثم فراغ، وامتلأت القلـــوب صبابة، حتى ميمون الذي لا يكف عن الحراك شل في موقعه، وتـــندت عيناه بلمع خفيف، وانهمرت دموع نعمات، وذاب برهوم، وانحبست تنهدات زينب، وفي مرمي عينيها عينا راجح المتيمتان، فإذا ما تـــوقفت الجمـــيلة التي غنت دون حرج وعيناها معلقتان بيحيى، وهو يغـــض بـــصره ويراها بكامل روحه، ويجتاح بهاؤها مجرى دمه، بينما هفوف تستبطن النظرات والأنفاس عما يدور بين الشابين من نظرات، فجأة، صاح الشمبانـــزي زعقة انتشاء قطعت لحظات التجلي عليهما، وأضحكت الربع، وعاد الأنس إلى المكان الذي دبت فيه الحياة وتلون مساؤه.

مـــن سمـــع الطـــرقات التي يعالج بها يحيى النقاش صفائح النحاس المـــبعوجة والمثنية والمطروقة، صواني وأباريقَ وقدوراً وشمعدانات، يدرك أن ثمـــة جديـــداً في مزاجه، بات أميل إلى المرح، ففي اللحظات التي يـــتمكن فـــيها من التغلب على شطحاته، ما بين نقش تحفة وأخرى، يضحك مع المحيطين والمارة، وتوقع مطرقته أصواتاً جديدة.

دوم اس تك.. دوم اس تك.. دوم تكتك.. دوم تكتك...

لم تعـــد الحـــسناء تتـــردد في زيارته في مشغل النحاس أو الربع، يُـــصطبغ نهـــاره بألوان فساتينها، اليك المزنر المتبدل بين أخضر وأحمر وأزرق وذهبـــــي، تأتيه بقوس قزح إلى المكان، وتخلف الفاتنة الجريئة وراءهـــا أريـــج الياسمين، كشفت له إنه بات ينقش على إيقاع بلدي، إيقاع البهجة والفرح، مغيراً الإيقاع الرزين الثقيل الذي سمعته أول مرة.

تذمـــر الحاج جعفر من تردد الصبية وعيون المجاورين وهمساتهم، لكنه رغم نفوره، يعرف إن الفتاة قدر أحاق بصبيه ولا فكاك منه، وإن أيـــة ملاحظـــات إضافية ستطفش النقاش الماهر من حانوته نهائياً باتجاه

سوق الوراقين، لهذا احتفظ بأفكاره لنفسه، وراح يسمع مع يحيى حكاياتها منذ كانت مملوكة للقائمقام التركي كارتال، وكيف جيء بها من البندقية طفلة لم تحبُ بعد، فوقعت الجارية هفوف في محبتها، واقتنتها لتربيها كما بدا لها، على حب النغم، وضرب الوتر، وجزيل الشعر، وخفيف الغناء، فإذا ما ارتحل القائمقام بمحبوبته من أدرنة إلى اسطنبول فالقاهرة، تركت وراءها كل ما عرفته، إلا الصبية التي ربتها واعتنت بها، اصطحبتها رفيقة وجارية وبنتاً توليها ثقتها، تسمح لها برؤية دموعها، وتقوم على ترتيب ثيابها، وابتياع حاجياتها، واستقبال ضيوفها، والإشراف على بيتها في شارع خوش في باب زويلة، لم يكن يؤلمها أن سيدتها هفوف صارت زوجة للقائمقام وتحررت، فيما نسي سيدها تسوية أمورها قبل رحيله؛ فما زال أبناء الرومي العثماني البعيدون يمتلكون نص عبوديتها.

تقول بمرح:

- عرفت سيدتي الحرية في طفولتها، في جلجولكم تلك، كانت كثيرة البكاء رغم الترف الذي تعيشه؛ متألمة لفقد حريتها، وكم فرحت باستعادتها، أما أنا، فقد ولدت هكذا؛ أمة رومية لا أعرف أماً ولا أباً، ولا تضيرني وريقة في اسطنبول، فحتى السلطان الكبير له جارية من البندقية، هي أم ولده وخليفة عرشه، ولنفترض، مجرد افتراض؛ إن جاريته أم الخليفة، مثلاً، ترتبط بأمي بصلة الرحم في البندقية، هذا ممكن، أليس كذلك؟ ألا أكون في هذه الحال هانم، أميرة! ألا تراني مثل الأكابر أعشق مقام السيكاه، وما علمتني سيدتي من حلو الكلام! أنا أميرة يا نقاش، لكني لا أبغي من الدنيا إلا رضاك، فلا تتبطر على النعمة، بوس يدك وجه وقفا.

يغض يحيى نظره باسماً، ودمه يندفع في وجنتيه، فتضحك صائحة:

- *تستحي!! هل يستحي المرء من دمه؟؟*

تدندن في ترجيع ناعم:

- رأيتُ الهلالَ ووجهَ الحبيبِ.. فكانا هلالينِ عندَ النظرْ..
فلم أدرِ من حَيْرتي فيهما.. هلالَ الدجى من هلالِ البشرْ..
ولولا التورُّدُ في الوجنتينِ... وما راعني من سوادِ الشَعَرْ..
لكنتُ أظنُّ الهلالَ الحبيبَ... وكنتُ أظنُّ الحبيبَ القمرْ..

يطل يوسف من داخل الورشة باسماً، ويهرع الحاج جعفر عابساً يرد الباب الثقيل بين الحانوت ودرب النقاشين الذين يعلمون أن الصبية الرومية لم تعد زبونة عادية، ويكاد يحيى ينفرط مثل أوراق وردة تفتحت.

إذا ما زارته في الربع، تضاحك الصغار متهامسين وحمرة الخفر تجتاح وجه الفتى والغزية تلعب حاجبيها، وترقص غمازاها، أو تطلق شدوها الشجي، وشعرها الكستنائي يتموج على كتفيها المهتزتين، ينبه الصغار بعضهم بعضاً عندما تتعمد جمان اطالة إمساك كف يحيى حين الوداع، فيتقلب وجهه ويزوغ ناظراه ولا يسمع له حساً، وإن ارتجفت شفتاه، لم يكن المكان ملائماً لالتقاء العشاق، وإن كانت الجلسة في فناء هفوف العامر بالورود أكثر ملائمة لسر يتشكل، وروحين يندمجان.

حظي الشابان بمباركة هفوف ومساعدها، لكنهما اكتشفا مكانهما الخاص الذي يهربان إليه من صخب القاهرة، وأعين الفضوليين، وانشغالات النقش، والكتب، والغناء.

خرج سكان المحروسة يرقبون موكب الاحتفال الكبير بتنصيب السلطان العثماني محمد الثالث بعد رحيل والده مراد الثالث الذي كثر تعظيمه، كانت احتفالات المحروسة صدى لاحتفالات المركز العثماني

في اســـطنبول، لكـــنها أكثر هرجاً وبهاءً؛ يحاول المحتفلون فيها تأكيد انـــتمائهم وولائهم للباب العالي، وقد كف الجند عن ملاحقتهم الناس وتـــسلطهم في طلب حصتهم، آملين عهداً جديداً لا تستثنيهم الأستانة فـــيه مـــن عطاياها الكثيرة؛ فتعفيهم من معاداة العرب المصريين، جال المنادي بين الناس معلناً:

– لتاج مولانا، السلطان محمد الثالث، تاج الملوك، وأمير المؤمنين، وقائـــد الجـــند حامـــي الديار، وخليفة المسلمين، نأتي موالين حامدين طـــامعين، نرتضيه ونفتديه، ونعلن له البيعة في عامنا هذا، الموافق، ألف وخمسمائة وخمس وتسعين من السنة الهجرية المباركة.

رافق اعتلاء السلطان الجديد تخته عزل رجال العهد المنصرم دفعة واحـــدة؛ فتغير القائمام والوالي وقاضي العسكر، وتداول أهل المحروسة اســـم الـــوالي قورد باشا مقتنعين إن الزمان لا يأتي بجديد، وإن تقلبت الوجوه وبُدلت الأسماء.

يـــدرك العامة إن واليهم الجديد لن يحرك الأمور قيد أنملة، وإنه علـــى أحـــسن تـــرجيح؛ لن يصمد في القلعة أكثر من عام يسوده الفوضـــى ويـــتجدد فـــيه الـــنهب، إلا إنهم احتفلوا بذات البهرجة والاحـــتفاء طلـــباً لمتعـــتهم، تحولت المدينة إلى ساحات أعياد وهي تـــستقبل مـــندوب السلطان، فرفع الفقاريون راياتهم البيض، وأكثر القاسمـــيون مـــن الرايات الحمر في الميادين والأسواق، وهم يهزأون بالـــوالي الجديد، لعبتهم الجديدة، يسيرون باسمه شأن البلاد والعباد، نُـــصبت الـــدواوين، وأقيمت الخيام، ومدت أسمطة الطعام للعامة من شـــحاذين ومهنيين وأغراب في ساحة باب الزويلة، والجامع الأزهر، وصحن القلعة، وعلقت حبال الزينات والرايات، وغادر الناس بيوتهم منتشرين في الساحات المبهرجة البهيجة.

شـــارك يحـــيى الناس المنبثين في كل صوب ودرب، حيث ينتشر البهاليل بصيحاتهم، ويدور المجاذيب في حضراتهم، وتضرب النسوة من جنكيات الروم واليهود بالدف، وينشد المتصوفون بصوت حنون:

- دنـــيا الجمال بتهني الروح.. وتطمن الفكر الهايم.. وكل شي يـــذبل ويروح.. أما الجمال؛ على الكون باين... مالك الملك في إيدك قيادي... الهم الحق فؤادي..

ثم بانسجام تام يتمايلون وأصواتهم تتناغم:

- المدد.. المدد.. يا الله مدد مدد... مددددد.. مدد..

توقـــف يحـــيى مـــسروق الفؤاد وقد خلب المشهد لبه، وضربت القـــشعريرة أطـــرافه، فأوشك أن يميل مع المائلين، لولا كف القرداتي أطبقت على زنده وجرته وسط الزحام، فاستيقظ.

وزع الجـــندرمة الحناء، والبقلاوة العسلية، وتوقفت الأسواق عن العمـــل لصالح الاحتفال، أقفل المصريون حوانيتهم، وراحوا ينبشون في مخازنهم وتحت متاعهم مخرجين الفوانيس الفاطمية القديمة التي خصصوها لرمضان، واندفعت البنات يحملنها على أبواب الدور وفي الأزقة، وجر الفـــنانون عربات خيال الظل بين المطارح والساحات عارضين فنونهم، ومفردين لحكايات عنترة العبسي، وجحا، وجرّ الحكواتيه أوتار الرباب يرددون سيرة بني هلال:

- يقول أبو زيد المسمى سلامه.. جور الليالي يبهدل الشجعان.. آهين مـــن الأيـــام... ثلاثـــة من الزمن.. ولا كان حسابـــي إن الزمن خوان... بتخونّي ليه يا دهر، تكسرني في الغضا... صبحتني بعد الهنا.. تعبان.

وصـــل يحـــيى ويوســـف حواف النيل، تفرجا على المراكب من شخاتير الفقراء إلى حراريق[1] الأغنياء تتطوح على سطح الماء، والناس

---

(1) مراكب كبيرة.

يـــتدافعون لحجز رحلتهم التي تقطع النيل عرضاً بثمن زهيد، يرتفع إذا رغب الراكب برحلة طولية، يحملون كبارهم وبكواهم وأغواهم على المحفات مع رياشهم وجواريهم يغنين، شاهدا الخيام والقباب التي أقامها المحتفلون بين أكمات الشجر، يراقبون عبرها سباق الخيل، ويضحكون للبهاليل الذين اغتنموا الفرصة في تسول لطيف لقاء عرض ضاحك، في حـــين ارتفـــع صياح الباعة المتجولين في كل صوب، فذاك موسم بيع وشراء، وانتهى يوسف مردفاً يحيى على حماره إلى بركة الأزبكية، ربط الحمـــار عـــند مدخل الحدائق المفتوح على كل اللطائف والظرائف، ودخـــل مـــع جموع المحتفلين، رصد يحيى الأماكن بدقة، فإذا ما غابت الـــشمس، أشعل المحتفلون القناديل والمشاعل القطنية المضمخة بالزيت، وحمل الصغار قشور نارنيج مجوفة مملوءة بفتائل مغمسة بالزيت، وداروا بنيرانهم القليلة ينتظرون المدفع المنصوب أعلى القلعة، والذي يطلق طلقة من النفط تضيء سطح الماء، وتسمع فرقعتها في الجيزة وبولاق، وتردد صدى أصوات القيان ينشدن:

- ده زمان، لما كانت الناس ناس، والزمان زمان.

اهـــتدى يحيى إلى مدخل مكلل بالورد، يعلوه النخيل، وصولاً إلى باب لحديقة ظليلة، ثبت على بابها لوح رخامي أبيض خط فيه: "حديقة الصفصاف والآس لمن يريد الحظ والائتناس".

كأنما وقع على الفردوس، فإذا هدأت استعراضات العامة لتنصيب الخلـــيفة؛ أقـــبل كل صباح على إطعام حمار يوسف خُرجاً من التبن، وســـقايته بماء نظيف كي يفوز باكترائه، فيحمله عصراً؛ مرة إلى دكان الوراق، ومرة إلى حيث المربط، مجاوراً الحصان والعربة التي تأتي بجمان، يـــدلفان حديقة الصفصاف مارين بالمقاهي والمساقي، سامعين أصوات ضرب العود والوتر تنبعث من الخيام المضروبة على مسافات متفرقة بين

الشجر الضافي، بعيداً عن عيون الراصدين، في أبعد أجمة شجرية ظليلة، يتراجع خوف يحيى ويقبل على المحبة شغوفاً مشوقاً دنفاً.

* * *

تصرفت هفوف كما لو كانت ولي أمر الشاب الكركي النقاش؛ رغـــم التبسط الذي تبديه إذا جلسا في حديث، أو راحت تحكي عن تفاصـــيل يـــومها، وما تعيده ذكريات الاستانة من شجن، وما تبعثه حكايـــات جلجـــول من ألفة بينها وبين الشاب الذي تجاسر وصار لا يرفع ناظريه عن وجه جمان، يضحك لفعالها الساذجة، ونكاتها البلهاء، ويطـــرب لأغانيها مهما لحن صوتها، أو انخفض وارتفع، حين تنسحب الغواية التي تفيض في جسد الصبية وعيونها العاشقة إلى الداخل لاعداد شراب أو طعام، فإن الحديث يصير أكثر جدية، يحكي يحيى عن الكتب الـــتي قـــرأها في حانوت الوراق، ويشير إلى كتاب الأغاني كي يحظى باهتمام أوسع من هفوف، لكنه لا يتواني عن الحديث حول كتب الفقه والتـــصوف، فكرت وهي تطالع وجهه يتخذ سمة المشوق إلى المعرفة، وسمعت بانتباه، ثم فاجأته:

- *لماذا اخترت النقاشة؟؟ ألست معلماً يا يحيى؟*

ارتـــبك، نفـــس الارتباك الذي يصرعه مساءً ويقض مضجعه، ويختلط بتنهدات الهوى والغرام، فيتقلب مشوشاً مرهقاً لا ينام، انتظرت لحظات ريثما يسحب أنفاسه، هز رأسه وضغط شفتيه، وما رد جواباً، قالت تخفف توتره:

- *لا أعترض، أنا أسأل فقط.*

بالكاد يمكن سماع صوته، لولا شدة انتباهها وقراءة شفتيه، قال:

- *لم أختـــر، أحتاج إلى عمل اعتاش به، لست متعطلاً، ولكن.. الـــنقش على النحاس فن، أحب عملي، أما التعليم، فأني قلق من كل*

كلمة قلتها لطالب قبل اليوم، أحتاج أن أصير تلميذاً لا أستاذاً، أتعلم لا أعلم.

- وما الذي يمنعك أن تتعلم؟

نظـــرها متعجـــباً، كان في طلب العلم مكتفياً بتلك الكتب التي يوفرها الوراق، وبتأمل طويل توفره مهنته التي تجعله يعكف على تحفته النحاســـية، ناقشاً، رابطاً الأشكال والزخارف بعلاقات جمالية معقولة، بدا كما لو أن كل ما في الكون من زمن وأمكنة قادر على تعليمه، في ملجـــئه الآمــــن في حديقة الاياس يعاوده اهتمامه بالظل والعتمة، يرى تكـــرار انحـــناءات الأشجار ظلالاً على الممرات، يمايز بين كثافة النور القـــادم عـــبر وريقات الشجر، والتماع عيني المحبوبة والأفق الذي يزنر المكان، مرور فراشة بجناحين متماثلين ترفان فوق زهرة، يعلمه شيئاً عن الحـــياة، القطـــة العمياء التي جاء بها الصغار إلى الربع، تثير لديه أسئلة متلاحقة، ميمون وهو ينظره بفيض محبة كأنه يفهم ما يدور في رأسه، يدلـــه علـــى معنى ما، لكن زمن جلوسه إلى معلم لم يعد ممكناً، قالت هفوف:

- يليق بك الانتساب إلى الأزهر.

اضـــطربت دقـــات فـــؤاده، ثم انحبس الهواء، استبعدت ابتسامته الوجلى اقتراحات الجارية الجميلة التي استبدل بها شقيقته الغائبة، وبدت كلماتها غريبة وسط ذلك الحيز من العطور والبخور والقصف والشراب والغناء، همست بذكاء:

- أغـــريب أن أقترح، وأنا الجارية، انتسابك إلى مكان وقور مثل الأزهر!

خجـــل من انكشاف أفكاره، وتذكر أمانيه بتلقي العلم في جامع كالأزهر، وأعادت هفوف اقتراحها محملاً بالتفاصيل الدقيقة:

- أنـــت مـــثل أخي، اسمع يا يحيى، دعك من النقاشة وانتسب للازهـــر، لا تـــضيع رأســـك، وما خلقت إلا لتعتني به، لا تحمل هم التكالـــيف، في عنقـــي ديـــن كبير لأهلي، اسمح لي بسداده في تيسيير تعليمك، ليس لي من الأهل سواك، امنحني الفرصة للشعور بالوفاء لمن أحـــبهم، وافقـــني فتـــسعدني، هو أمر أقوم به لأنه يفرحني، ولي من الأصـــدقاء مـــن يعـــرفون قاضـــي العسكر الجديد حسن فتلي زاده، والدفتـــردار الـــذي يجري جراية الأزهر من الخزينة، سيكون مسروراً بخدمتي، ويسهل لك دخول الأزهر دون متاعب.

طـــارت روحه في مهب الاختبار، بين رغبته العارمة في الجلوس طالباً في مكان عريق كالأزهر، وبين قبول عرض الجارية، حاكم نفسه، وتأرجح على حبل القبول والامتناع، لكنه اهتدى أخيراً إلى حل يشفي نفسه ولو قليلاً، أخرج خبيئة شقيقته ونظرها مطولاً، آمن بارتباط قدره بالمـــشخص، وإن هناك سحراً يوثق رحلة حياته وتلك القطعة الذهبية الـــصغيرة، بكت هفوف بحرقة عندما رأت المشخص الصغير، تذكرت كل ما تعلق برحلتها الطويلة في الحياة، وما صنعته وصاحبتها مريم من تضحيات في سبيل الحصول على المشخص الذي عبر الكرك مجتازاً بلاد الـــشام وبـــيداء التيه في سينا ليعود إلى كفها، قبلت عطيته مدركة إنها ســـتعيده له في قادم الأيام، ثم أقامت وجاريتها العاشقة حفل انتساب يحيى إلى الأزهر في قاع الربع، فغنت.

صـــدح صـــوت هفوف الشجي كما لم يسمع يوماً بهذا الصفاء والعطاء والتجلي:

- يوم كأيام لذات لنا انصرمت بتنا له حين نام الدهر سراقا..
نلهو بما يستميل العين من زهر جال الندى فيه حتى مال أعناقا..
كأن أعينه إذا عاينت أرقي بكت لما بـــي فجال الدمع رقراقا..

ورد تألق في ضاحي منابته فازداد منه الضحى في العين اشراقا[1].

لاعبت جمان أوتار العود مصاحبة غناء سيدها، ومازحت القرد الذي أصيب بمس طروب، وردت على مغازلة برهوم المكشوفة ضاحكة مؤنبة، وتغنجت دلالاً وهي تزهو بانتساب حبيب القلب إلى صرح تعليمي بارز، إلا أن مخاوفها عكرت كامل فرحها وزهوها، همست بين جد وهزل:

- *عندما تصير مولى أزهرياً بعمامة، لن تبقي على محبتنا، بل قد تبغض حالنا، وما نحن عليه.*

تفهم يحيى مخاوف الحبيبة والشك في عيني هفوف، قال وهو يوزع أقداح شراب الورد التي أعدتها نعمات:

- *لا تراهني، إذا كان الأزهر يعد تلاميذه للايمان، فإن المؤمن يحب مطلقاً، والكافر يبغض مطلقاً، ومن قل علمه اجتمع فيه بغض وحب، فتأهبي إذا ما ضمني الأزهر، لقلب يفيض محبة، حتى يغرق الربع وصولاً إلى بيت الأزبكية.*

واصلت هفوف غناءها:

- *لو شاء حملي نسيم الريح حين هفا وافاكم بفتى أضناه ما لاقا..*

* * *

اجتاز عارياً باباً منخفضاً ضيقاً ناتئ المسامير، فأحنى رأسه متفادياً الارتطام بالسقف المدور الصلد المحيط بالمدخل كأنه النفق، سار، طقطقت عظامه، وأنّ عاجزاً عن الالتفات خلفه لضيق الممر، قادته خطوات الترقب والتوجس والتطلع إلى نور ساطع، أغمض جفنيه وهلة وقد أوجعه هجوم الضوء على ناظريه، فتحهما متمهلاً حذراً على

(1) ابن زيدون.

صـــحن شـــديد البياض، لا سطح ولا جدران ولا حدود له، ولا نهاية لاتـــساعه وامـــتداده، ضربه الإنبهار، وخالط النور دمه، فمضى يدور مترنحاً نشواناً، ثم استقام جسده على التفاف متسرع مثلما الداوريش، تمدد اللحم أجنحة تحف به.. دار ودار حتى داخ وتبدد.

* * *

فـــتح عينـــيه على انقشاع الحلم، فارتد إلى الواقع مختلط المشاعر خائفاً مبتهجاً متوثباً، تذكر إنه يومه الأول في ارتياد الأزهر.

ســـار خاشعاً محاذاة الجدار الغربـــي للمسجد، كما لو أنه سينكص علـــى عقبـــيه، لكنه في الواقع يتمهل متمتعاً برهبة خطوه على درب غـــامض، وقف برهة عند البوابة الغربية المفتوحة على صحن المسجد العتيق، حين تأهب لدخول بوابة الأزهر؛ بسمل بخشوع كبير، ودلف.

كانـــت صلاة الضحى قد رفعت، والمصلون يتفرقون عائدين إلى البوابة حيث يلتقطون أحذيتهم المصفوفة بانتظام في دولاب خشبـــي، عـــشرات الـــصنادل، والـــشباشب الجلدية المفتوحة، وأحذية برباط، وأخـــرى تنـــــزلق بهـــا القدم، بعضهم ينحني لمعالجة ارتدائه الحذاء، وآخـــرون يكـــتفون برفع أقدامهم وزج أرجلهم في التجويف الجلدي وهم متكؤون على جدار البوابة، نظر يحيى مهرجان الدخول والخروج متفحـــصاً، فاســـترعى انتباهه الكهل المعمم البدين الذي انحنى يصارع ارتفاع كرشه محاولاً ربط ابزيم حذائه، فتعيقه كتل اللحم والشحم التي تزنر جسده، ركع يحيى أرضاً بوجه باسم، ومد كفيه إلى الابزيم يعالجه وهو يخاطب المعمم قائلاً:

- *اسمح لي يا عم.*

أنهـــى يحيى ربط الحذاء وهو يسمع لهاث الرجل يتراجع، انتصب واقفاً، ابتسم البدين، وبصوت تعب لكن ضاحك منشرح قال:

- تشكر، أولادي التلاميذ فقدوا نعمة البصر، هكذا، كما ترى، لـــن يـــساعدني أحـــد، يجدر بـــي ارتداء شبشب مرن حمال للاسية، يتحمل هذه البدانة المفرطة.

اكتفى يحيى بالابتسام، فمسد الآخر لحيته الكثة سائلاً:

- ها!! خارج أم داخل؟

تنـــبه يحـــيى إلى ذهـــوله عما جاء به إلى المكان، استعاد صحوته وهمس:

- داخـــل يـــا شـــيخ، أبحـــث عن زاوية الشيخ عبدالله بن زيد الدسوقي.

أحاط المعمم الشاب بذراعه اللحيمة، استدار به داخلين المسجد:

- شـــامي إذاً! تعال معي، أوصلك، قريباً من مطرحي، الدسوقي معلم زاوية الشوام.

قطعـــا صـــحن المسجد المكشوف والمرصوف بالحجارة الملساء، استظلا بالفيء المحيط بالصحن، والناجم عن انتظام ستة وسبعين عاموداً رخامـــياً، تـــشع بريقاً أخاذاً في جدل جمالي رفيع، بينما زينت نقوش أحرف كوفية الجدران بالآيات القرآنية.

تـــوزع رجال كثر في زوايا متباعدة نسبياً متحلقين حول معلمين وعلماء يرفلون بعباءات واسعة وعمامات بيضاء ملتفة، تطوع البدين في تسمية الزوايا:

- هذه زاوية المغاربة.

تـــتداخل الأصـــوات بخريـــر الماء المنبعث من الفسقية المزخرفة بالفسيفـــساء خلـــف الجالسين، كما تتداخل أصواتهم وهم يتحدثون جماعة بحروف لها ايقاعات لم يسمعها من قبل، تحول دون فهم ما يدور مـــن أحاديث، ازدادت صعوبة الفهم وهما يمران بزاوية الافارقة، وانتبه

يحـــيى إلى خـــزانة الكتب القائمة وراء الأجساد الابنوسية اللامعة، مرا بـــرواق الـــسودانية والجبرت، والاندونسيين، والأفغان، حيث في كل زاوية مكتبة، قدر يحيى أن في كل زاوية قاموساً يعين على التقاء العربية باللغة الأم للطلبة التي تنوعت سحنهم وألوانهم، وبعدت أوطانهم.

توقفا عند جمع هادئ من رجال وشبان وأطفال، فقال البدين:

- هنا مطرحي، قد يحولونه يوماً إلى زاوية، لعل وعسى، أولادي ضريرون يا صاحبـــي، حرموا من البصر، ولكن القلوب بصيرة، على الأقـــل، رحمهم الله من رؤية جنابنا، المكعبر، المدعبل، محسوبك أستاذ العمـــيان برهان أبو جابر، إذا احتجت أمراً، إسأل عن أستاذ العميان، أما أستاذك في زاوية الشوام، عبد الله، فعلى بعد خطوات على يسارك، عند المحراب، قرب المنبر، تدخل الحرم فتجد أخوتك الشوام.

تأمـــل يحيى المكان بحرية وقد فارقه شيخ العميان ملتحقاً بزاويته، ســـار خطـــوات إلى منبر علاه حجر، قرأ الخط الرشيق المنحوت على السطح الصقيل، "بسم الله الرحمن الرحيم، مما أمر ببنائه عبد الله ووليه أبو تميم مَعَدّ، الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى آبائـــه وأبنائه الأكرمين، على يد عبده جوهر الكاتب الصقلي، وذلك سنة ستين وثلثمائة".

قرأ الحجر كمن يعود به الزمن، دائماً يعاوده ولعه الغريب بقراءة ما خط الأولون على الحجارة وفي جدران الأبنية، من موقعه الكاشف لصحن المسجد، ألم برؤية المنارتين الفريدتين، واحدة غربية مزخرفة بعناية، والأخرى شرقية، يعتلي زخارفها رأسان يرفع منها الآذان خمساً يومياً.

اقتلع الهرج الشاب من تأملاته، فقصد زاوية الشوام، داخلاً حرم الجامع المسقوف بالخشب والمتنعم بالظل، بدا في وقفته أنيقاً مغالياً بثوبه المنـــشى وحذائـــه الجديـــد وطاقيته المشغولة، على بعد خطوات من

المتحلقين حول أستاذهم، عاودته ذكريات المجلس الأول، والحبر الذي غمس فيه أصابع الطفل الذي كان، دلت حيرته على جدته، تقدم خطوة قبل أن يتنبه إليه المعلم النحيل، مد المعلم ذراعه ولوح بها داعياً إياه للانضمام بحماسة ولهوجة محببة:

- اقترب يا فتى، تعال.. تعال.. أنت.. ألست "الكركي"!! تعال.

* * *

تم إدراج يحيى بن عيسى بن أبي بكر الكركي طالباً في مدرسة جامع الأزهر، وقد كتب اسمه ونسبه بخط أنيق في دفتر ناظر الأزهر الذي وضع أمام الاسم رقماً يعينه على تنظيم شؤون الطالب الجديد، وجفف الحبر الذي اندلق قرب دفتره بردن ثوبه، منبهاً الشاب إلى إنه موظف اداري لا يحمل لقب شيخ الأزهر كما خاطبه، كما أن أي من المعممين في الجامع لا يحظون باللقب، وما هم إلا علماء أساتذة، ولكن اللقب خلط العوام؛ لم يصدر به ترسيم ولا فرمان، وجامله قائلاً:

- أهلاً بك معنا، أوصى بك الدفتردار ذات نفسه، أنت في عيوننا، المهم أن تنال رضا أستاذك، يمكنك تسميته الشيخ على سبيل المجاملة، فهو أستاذك حتى تجاز، بينما الدفتردار والقضاة يتغيرون، وأنت بعد ذلك حر في اختيار العلوم التي تهواها نفسك.

أية علوم تهواها النفس؟ سؤال حير الكركي، لكنه وجد في تقارب الزوايا ما أضرم الحماسة في فؤاده، وزع أوقاته بين صلاة وصلاة، متنقلاً بين زاوية الشوام يدرس الفقه والحديث على يد عبد الله الدسوقي، أو ينضم للعميان فيسمع ضحكات برهان أبو جابر وحكاياه التي تنقلب اهتماماً جاداً إذا ما عرج على السيرة النبوية، وقد يحلو له مجالسة المجاذيب المقرفصين بباب المسجد يستجدون تعاطف المارة، ويهزون رؤوسهم، بينما أناملهم تعد خرزات المسابح الطويلة، وتنعقد ألسنتهم على تمتمة

غامـــضة يتخللها ذكر الله في أسمائه المائة، وقد يقوم من جلسة روحانية خطفـــت لبه إلى زاوية تعنى بعلم الفلك، أو أخرى تناقش علم الحساب والجبر، أو العلوم الحكمية[1]، وقد ينضم إلى الأحباش والأفارقة في زاوية الأرتيريـــين "الجبرية"، حيث يقرأ معهم ما خط شيخهم حسن الجبرتي، ولا يثنيه احجام أستاذه عن الرسالة الوزيرية وتحذيره طلبته مما جاء فيها، علـــى تصفح أوراقها في خزانة الكتب، ينتشي بهجة ودهشة ولهفة، وهو يفـــتح الدرفـــة عن رفوف وزعت في محاريب رخامية بديعة، وسقفت بأسطح منقوشة بحروف مذهبة، يتناول الكتب المصفوفة تباعاً، ولا يروي ظمأه، يقرأ بسرعة، ثم يعيد الكرة متمعناً بطيئاً، هكذا قرأ ما خط الحافظ بـــن حجـــر العسقلاني في فتح الباري بشرح صحيح البخاري، وميزان الاعـــتدال في نقـــد الرجال، وما أفاد به أبو العباس القلقشندي العباد في كتابه "صبح الأعشى"، وتقي الدين المقريزي في كتابه "الخطط"، وشمس الـــدين الـــسخاوي في كـــتابه"الـــضوء اللامع"، والمؤرخ الفيلسوف ابن خلدون في مدهش ما جاء به في مقدمته.

يقول له أستاذه:

- مـــا زلت في مفتتح الدرب، لا تلج عمق الخزانة حيث الكتب التي تقتل أصحابها، سنقرأ على مهلنا ابن تيمية، ونناقش أفكاره، لكننا تجاوزنـــا في الـــزمان رسالة بن كلس، لا تقرأ المختلفات، قبل أن تقر المسلمات في قلبك.

ينهاه استاذه عن التوغل في قراءة الكون على كل وجه، والاكتفاء بمـــرحلة تؤسـسس وعيه، في حين يحرضه أستاذ العميان على نبش كل خفـــي، وتـــصفح كل مخطوط، والجلوس لأي عالم يزيده ولو نتفة من معرفة، يقول له:

---

(1) الطب.

- جـالس العلمـاء في الدنيا؛ يجعل الله مقامك إلى جوارهم في الجنة، وما يتساوى العالم والجاهل، فالعلماء من ذهب، والمتعلمون من فضة، وسائر الخلق من رصاص.

تتـشكل الأفكـار منسجمة متناغمة في عقل يحيى، يشعر بنفسه تطفو، وعلومه تتمازج، وهو يستمع بخشوع وشجن يفطر فؤاده لآيات الله تتلـى على طريقة أبـي عمرو البصري أحد القراء السبعة الأشهر للكتاب.

يتـصفح الكـتب، ويقارن بتسامح عقلاني كبير اختلاف الأئمة الـسنة الأربعة حول تفاصيل صغيرة، ويجترح فوق اجتهاداهم اجتهاداً جديداً، يفاجئ الاستاذ بنهم تلميذه إلى الكتب المنتشرة في كل زاوية، لم يأخذ أمر قلق الشاب على محمل الجد، بقدر ما عده نوعاً من تقليب الفكـر على نار الشك حتى يصل اليقين، بعد أشهر قليلة رجح الشيخ عبدالله إن تلميذه يحيى سيحظى بزاوية تخصه عندما يجاز.

اختلط الهناء السطحي الذي يبدو في اقبال الشاب على قراءة كل ما تقع عليه يداه، بنار خفية تشب في روحه، يزداد شعوراً بكبر الكون، وتعدده، ووحدته، وهين ما ظهر منه، وعظيم ما بطن، يعود مثل طفل أوجعه الفطام إلى عيون الحكمة، فيقرأ: "كل متحرك حركته تجب عن سبب آخر: إما قوة فيه، وإما خارج عنه، المحركات فى كل طبيعة تنتهى إلى محـرك أول، لا يتحـرك، وإلا لاتصلت محركات ومتحركات بلا نهاية، واتصلت الأجسام بلا نهاية".

تدمع عيناه متفكراً بالمحرك الأول، ويشهق فؤاده وهو يسأل العقل عن أسباب استحالة حركته، وأي الموانع في اتصال الكون على حركة واحدة، كأنه ذرة واحدة!!

* * *

أفاقت القاهرة على دورة تبديل الولاة والقضاة الخطيرة التي تشهد الفوضى عادة، فمنذ الصباح أذاع المنادون في الأسواق اسم الوالي الجديد محمد باشا الشريف، وتزايد الجندرمة مشاة وفرسان في الساحات، اتخذوا لهم مواقع حصينة في القلعة وعند أبواب المدينة وفي مداخل الحارات؛ تجددت دورة الخوف لدى العامة، احتبسوا في البيوت، وأقلوا البيع والشراء، وحاذروا من المرور أمام القلعة أو قريباً من حارات المماليك، أو اورطات[1] الانكشارية، إلا أن يحيى تأخر في العودة في ذلك المساء الرطيب كعادته، وفتح له حارس الدرب الطريق إلى الربع، وقد بات يعلم أن لا مفر من غياب الرجل حتى منتصف الليل، عند باب حجرته تماماً تعثر بطبق القش الذي يتوسطه وعاء فارغ، كانت نعمات قد تركت له نصيبه من الحمام المحشي بفريك القمح، عندما غلبها النعاس، أغلقت حجرتها عليها تاركة الطبق بانتظاره، لتتجمع قطط الدرب وأخرى شريدة على الطبق المدهن، فتترك بقاياه عظاماً دقيقة متناثرة حوله، انحنى يرفع ما تبقي من عظم مبعثر، وبرزت البلانة وسط العتمة هامسة:

- *عدت يا سيدي؟*

لم يتعود أن يخاطبه امرؤ بهذه الصفة، ولكنه لم يجد ذلك المساء ملائماً لتصويب خطاب المرأة التي بدت على لهفة وهي تساعده في تنظيف ما لوثته القطط، وتتحدث:

- *ربنا يسامحها، أم مراد، تترك الحمام المحشي بالباب!! أتظن أن القطط ستمتنع عنه اكراماً للاستاذ!!*

شكرها معفياً إياها من مساعدته، ولكنها لا تستجيب، وتصر على فعلها واضعة العظام في الطبق مجدداً، تقول صادقة:

---

(1) معسكرات.

- *يا ندامة.. أأتركك تنظف الأرض! حاشاك.*

ثم تتقدم بوجهها الحزين صوبه سائلة:

- *أتسمعني؟ أعرف إنك تعبان، لكن أنا في محنة، ربنا لا يوقعك بمحنة.*

رصد التماعات دموعها المنسابة على خديها، وأبدى اهتماماً وهي تتحدث دامعة:

- *يرضيك؟ أزوج ابنتي قرداتي؟.*

جلسا على الحجارة المصفوفة بعناية حول الدفلى، وسمح يحيى لقلبه وهو العاشق أن يتعاطف، وضع كفه على كتفها المائلة انحناءً:

- *ما به القرداتي؟ راجح شاب طيب.*

- *أنا بلانة يا ابني، بلانة يا أستاذ، طول عمري بلانة، لا أتكبر على مهنته، نحن فقراء على باب الله، كلنا فقراء، ولا قلنا، هات ألفين جمل، وألفين حصان، وألفين فرشة نعام، لكن.. واعي إيه يعني بلانة! كنت أخذ زينب معي، بلانة صغيرة، جسدانا يتقشران ونحن نخرج من حر المياه في الجواني لبرد البراني، مرات ومرات، نستحم معاً كل يوم بانتهاء حمام النسوة، نغدق الماء على جسدينا وندعكهما بما نسيته الزبونات من صابون، وأحياناً عطور الياسمين والورد والمسك، بنتي زي الفل، حتى إننا لا نرتاد بيت الخلاء المشترك في الربع، ألا تلاحظ كم نحن مميزتان؟ كم هي فلة ابنتي؟ تقرف من الخلاء المشترك، أأزوجها قرداتي تفوح رائحة ميمون من جلده، يرضيك؟ البنت لا تعرف أهمية ذلك الآن، سرقها الهوى وغمز العيون السود، غداً، بعد فوات الآوان، تأتيني قرفانة تكرهه، ولا تطيق، ماذا أفعل حينها؟*

ابتسم يحيى لفرط البساطة التي تحتوي عمقاً فائقاً، مد ذراعه كلها لتحتوي كتفي البلانة باخوة صادقة، فاستكانت إلى احاطته، نظر نحوها ووجهها يعكس حيرة وظلمة وارتباكاً سائلاً:

- *أتظنين القطط تمتنع عن طبق الحمام اكراماً للاستاذ؟*

بهتها السؤال، لوهلة ظنت الأستاذ لم يسمع شكواها، ولا أحاط همهـــا وقلقهـــا علـــى ابنتها، وإنه يسخر منها، لكنها في وهلة تالية، أدركت رسالته الخفية، هزت رأسها استسلاماً وقالت:

- *القول قولك يا أستاذ، لا تهون ولا نبيعك.*

* * *

اصطحب يحيى ورجال الربع القرداتي إلى حمام خوند مخلفين قرده، ضحكوا وهم يقرصون جسد العريس الذي تعرى ولف عورته في إزار أزرق، قاده ليوانجي الحمام إلى غرفة دافئة بحذر خشية انـــزلاق قدميه المنتعلة قبقابا خشبياً فوق الأرض الرخامية، وسط أهازيجهم التي أفرحت رواد الحمام، صاحوا بصوت جماعي أجش.

- *يـــا حمام العمدة.. ياحمام الغفير.. واللى عنده واحدة سمينة.. يـــوديها للخراطين، واللى عنده واحدة رفيعة.. يوديها للعلافين، واللى معاه واحدة سودة.. يوديها للبياضين، واللى معاه واحدة بيضا.. يرمى علـــيها البشكير، تعالي تعالي.. يابيضا تعالي، والبنت بيضا بيضا بيضا، والبنت بيضا وأنا أعمل ايه؟؟.*

انـــتقل المحـــتفون إلى بـــيت الحرارة حيث غشي البخار الحجرة، وبقبقت مياه الفسقية في منتصفها، مددوا العريس فوق مصطبة رخامية، ورفعوا المأزر عن جسده يلاعبون أعضاءه بفجور مازح، فيدفع أيديهم شـــاتماً، تفـــتحت مـــسامه وتدفق عرقه، فرك المكيس جلده بالليف والصابون وشطفه بالماء، وحف شعر إبطه، وشذب ذقنه وسالفيه، قبل

أن يـــدلك أطـــرافه ويطرقع أصابعه ومفاصله بحرفية عالية، مع طقوس الاستحمام ارتخت عضلات راجح في مغطس يفيض ماء دافئاً، وأغفى في الحجرة الأولى مستسلماً للذة النظافة والتخيلات المنتظرة لزفافه بابنة البلانة.

قالـــت البلانة لسكان الربع إن الأستاذ أشار عليها باستكمال هـــذا الـــزواج، وإنها ما كانت لتشك في كلمة قالها الأستاذ؛ آمنوا علـــى ما ذهبت إليه، وتحدثوا مطولاً حول ما ظنوه من اكتمال في صـــفات الـــرجل الكركي، واختلطت أقاصيصهم بما تخيلوا وتمنوا، فـــصلوا وجمعـــوا تـــصوراتهم عـــن الـــرجل بـــشذرات أحاديث متناثـــرة، وأقـــوال ألقاها عرضاً، أو نظرات وابتسامات ندت عنه، ومواقـــف في مسيرته القصيرة المزدانة بألف لون يجعله بطلاً يسكن القلوب.

في المـــساء الـــذي احتفلوا به بزفاف القرداتي وإبنة البلانة، أغلق الشطار المسلحين بالنبوت والسكاكين مطلع الحارة ومدخلها منحازين لفـــرح المساكين، مانعين من يشكون بأمره من الدخول، وبدا راجح وســـيماً فحلاً ممشوقاً سعيداً واثقاً؛ شبك ذراع زينب الضاحكة وهي تتوســـطهم متألقة بثوب إرجواني قشيب مطرز الحواشي بخيوط فضية منحتها إياه جمان، وقد حنت كفيها، ورزح صدرها الصغير مثقلاً تحت كـــردان فضي من البندقيات الصغيرة المستديرة أهدته إياها هفوف بكـــرم، غنوا وصفقوا وزغردوا، وشربوا شراب الورد، وأكلوا أقراص الـــزلابيا المحـــلاة بقطـــر العسل، وقلد ميمون نومة العروس المستحية، فـــضحكوا حـــتى أوجعـــتهم أحناكهم وبطونهم وخواصرهم، وسط الـــزغاريد الممطوطة السخية، رددت نسوة الربع والجارات في الدرب الأغاني بحبور:

- درج الحمام ع الكوم... ولا فيش جواز اليوم... كلو بعضكم يـــا بـــنات... درج الحمـــام ع الجنا.. ولا فيش جواز السنة... كلو بعضكم يا بنات..[1]

ثم مـــال المجموع إلى صمت وانتباه يسمعون صوت جمان الشجى يتبسط بايقاع ولغو شعبيين:

- كـــيف ما حبنا.. يا ليلى ونحبه، كيف ما حبنا... همل بنات عمـــه وجـــه عـــندنا... كـــيف مص الجصب.. يا ليلى كيف مص الجصب... همل بنات عمه وجانا وخطب...[2]

أحـــنى بـــرهوم كتفيه مسائلاً يحيى وعيناه معلقتان بحسن المليحة المغنية:

- البنت زي القشطة، ما الذي يمنعك عنها؟

تنـــبهت جمـــان إلى صـــمت وليفها لا يحير جواباً عن استفسار برهومة، وتجاهلت ذلك منصرفة إلى صخب العرس، لا يفوت يحيى إن محبوبـــته لا تقـــاوم بين النساء، ولا ينكر على نفسه رغباته، ولا يكاد يداري أشواقه عند اللقاء، وكلما انثنت ذائبة على ذراعه، ومثل مجذوب يحلـــم بلحظـــة الكـــشف، حلم وانتظر وتمنى لحظة تجمعهما جسدين خلـــيقين بالغرام وناره، زوجين جديرين باعلان اتحادهما على الصورة المعتادة المتمناة، لكنه ما تحدث معها حول ذلك، ولا توقف كثيراً حول تعليق برهومة، وقد ماثله تعليق عابر خبيث نطقته هفوف، لم يكن يظن أن أحـــواله ستستقر إلى الحد الذي يسمح لنفسه بإنشاء أسرة، وإنجاب أطفـــال يرثون غربته وتشظي روحه وتشرده في بلاد الله الواسعة، كما أن جمان أحجمت عن مكائد النساء للايقاع بعشاقهن ليصيروا أزواجاً

(1) غناء شعبي مصري في الاعراس.

(2) غناء شعبي مصري في الأعراس.

مـــباركين، تناوبها إحساس بكرامة عالية، وصِغار مهين، فما زالت أمة مباعة، وما هي إلا جارية ورثة كارتال باشا، رغم إنها تتباهي بين الحين والآخـــر بنسبها البندقي الذي يحتمل أن يصلها بالأميرات وصاحبات الألقـــاب الـــرفيعة، يعترى وجنتيها شحوب عابر إذا ما تذكرت واقع الحال، تقارن ما تلقاه من انصراف المحبين والسميعة في أمسيات البيت في باب زويله، بتلك الهالة من التقدير والإحاطة التي يقدمها أهل الربع للاســـتاذ الملتحي وقد شذب لحيته الناعمة، لكنها وقد ترافقت بعمامته الـــصغيرة وقفطانه، فإن قلب العاشقة ينخلع متشككاً، وكلما سارت هيئـــته إلى وقار فإن أحلامها تتضاءل في أن يكون لذلك الحب مسلكه الـــشرعي، ونتيجـــته المرتجاه، وأطفال من لحمها يقفزون حولها، تأمل أحـــياناً إن صـــبرها وصمتها سيأتي به مسوقاً مشوقاً، لكنها لا تراهن، ويزداد انشلاع فؤادها حين تكتشف تلك الصورة التي يتعامل فيها أهل الربع مع الشيخ الصغير، لم تتوانَ نعمات أن تدعوه بالشيخ، وأدهشها إنه قادر على الوقوف لحظات مع شطار الحي فإذا هم يسمحون لفقراء الأحياء المجاورة وطالبـــي السمر والفضولين والغرباء بدخول الحي ليلاً كـــي يجعلوا من عرس القرداتي حفلاً شعبياً كبيراً، تقاطروا حتى زحموا الـــربع، وفُتحت الأبواب، وأُغدقت الأشربة، ووزعت نسوة الحي على الـــضيوف كمشات الترمس المنقوع، وانتقل العرس بأسرجته وقناديله ودفوفه وناسه، إلى دروب الحي في الخلاء المفتوح.

الفقراء الذين شاركوا المحتفلين فرحهم في عرس الربع، كان لديهم مـــا يفرحهم ويخرجهم في ذلك المساء أيضاً؛ فالوالي الجديد أبدى رأفة بأحـــوالهم، وأجـــرى بعـــض الهـــبات للمساكين، وأصدر الفرمانات للممالـــيك مـــن الـــسباة بدفع أجور العاملين في حواكيرهم وقصوره وخاناتهم وبواكيهم، وأنـــزل رجاله يفتشون عن المظلومين الذين منعوا

أجـــر عرقهم، فيأتي لهم بحقوقهم، كما أمر بالتحفظ على نتاج القمح ريـــثما يحـــدد حـــصة العلماء فيه، فكانت الاجراءات بهيجة للناس ما عهـــدوها مـــسبقاً، وإن تجمع الجند والمستفيدون في العهود السابقة في القـــلاع والقصور يبحثون أمر الوالي الجديد الذي عين قاضي العسكر عبد الرؤوف العربـــي مجاوراً الأزهر ومرتدياً الزي العربـــي دون بزة الترك وشراويلهم.

أمسكت جمان صوتها تاركة زمام الغناء والطرب للعامة يصيحون وهم يضربون طبلاً جاء به أحدهم:

- *بلحك سوس يا عبده... بيعه واتجوز ياعبده.*

وصـــل الحاج جعفر النقاش متأخراً على الاحتفال، كان الصخب قـــد اشتد وتعالت ضحكات النساء، والبنات يدرن بين الجمع الراقص مـــتخففات من الشالات ناثرات شعورهن كاشفات سيقانهن، والشبان يقومـــون برقـــصة التحطـــيب بـــبراعة وقد خلعوا صداريهم وعروا صدرورهم، دون أن تصطدم عصيهم الطائرة برؤوس الجمهور الغفير، توقف جعفر يعلو محياه استياء حقيقي، ثم استدار قافلاً، تشبثت به كف يحيى تستوقفه، شد ذراعه بحزم جاف قائلاً:

- *أعوذ بالله، لا أشارك في جلسات المجون، وسهرات الجنكيات شـــياطين الأوتار والأنغام، والعياذ بالله، لم أحضر إلا اكراماً لك، ولو عرفت بالقصف والعصف ما جئت، أعوذ بالله من الشيطان، هذا حال لا يرضـــي الله، أنت أزهري، لا تضع نفسك في مثل هذا الموقع، سبق وقلت لك؛ إلا الغواية.*

وسط الصخب وتدافع جمع من الصبية الذين خلعوا ثيابهم مكتفين بسراويل واسعة تستر عوراتهم يتعاركون ضاحكين، لم يتمكن يحيى من اســـتبقاء معلمـــه النقاش، كما أحجم عن الرد على كلماته الجارحة،

وارتــد إلى الجمــع محــتاراً، لم يلمح هفوف ترقب صمته أمام حجة الــنقاش، وتهز رأسها متأثرة غاضبة، وبنظرة من عينيها تستدعي جمان لتغادر كلتاهما الساحة مكسورتي الخاطر حزينتين.

اخــتفت الفاتنــتان من بين الجموع، وسمع بعض الصبية سنابك الحصان تعدو في الدرب مختلطة باندفاع عجلات المركبة المبتعدة بهما، جــر يحيى نفساً مثقلة بالأسى، وإن حافظ على ابتسامته حريصاً على بهجــة المحتفلين رغم بؤسه وقلقه، وقبل انقضاء الاحتفال بوقت يسير، اختفــى في حجرته متأملاً ما تم وما وقع؛ ضحكات النسوة، أغنيات الحــب واستعراضــات راقصي التحطيب وتعرية الأجساد، والزغاريد والممازحة المكشوفة، والنور ينبعث من وجه جمان فينير الدرب أكثر مما تفعله اضاءة الحطب والنفط الذي أشعله الحارس في الخلاء، صور كثيرة مفككــة يجمعها عقله ثم يثقل رأسه، فينثني إلى فراشه ملقياً حمله، ولا ينام.

حــدق أســتاذ الزاوية عبد الله في عيني الشاب وقد أحاط بهما اسوداد السهد والأرق، قال متيقناً وهو يرد على استفسار طالبه:

- *الغــناء يــصد عــن ذكر الله، ويصرف النفس إلى متع الدنيا وشهواتها دون التفكر بالآخرة، وقد ورد عن أبــي الطيب الطبري: إن علمــاء الأمــصار أجمعــوا على كراهية الغناء ومنعوا عنه، وورد عن ابن الصلاح إجماع تحريم الغناء المرافق للآلة، وفي حديث صحيح لأنس بن مالك جاء: إن هناك صوتين ملعونين في الدنيا والآخرة، مزمار عند نعمــة، ورنة عند مصيبة. بل وهناك إجماع على تحريم إجارة نائحة أو مغنية، اللهم نعوذ بك من مزامير الشيطان.*

مــشى يحــيى مثقلاً وقد تشظت روحه، يفكر بالمقرئين الجالسين حــول الأبواب وفي الزوايا يقرأون كتاب الله مجودين، وبعضهم يعلي

ويخفض في قرار صوته كأنما يوافق لحناً موسيقياً، تأرجح بين القبول والرفض، ثم رق فؤاده لكل صوت جميل وكلم رفيع، عبرَ الفناء المرصوف لساح الأزهر مطاطئ الرأس مهموماً، فوصله نداء برهان مثل صوت قادم من مكان سحيق، لم يتمكن الرجل البدين من القيام إليه، فنادى بإصرار.

وقف قرب حلقة المكفوفين مقبوض الفؤاد، راعته الابتسامات التلقائية التي يرسمونها فوق شفاههم، مادين أعناقهم تجاه مصدر الصوت، وبرهان يصيح:

- يا رجل أناديك، ألا تسمع!.. ما بك انقطعت عنا؟ ومشيك لا يعجبني، كأن القيامة تنذرك وحدك بالقيام، فتقعد محزوناً، ما بك يا كركي؟

حاول انتقاء كلماته كي لا يفسد على العميان فرحتهم بخبر وعود الوالي الجديد بتجديدات في الأزهر وإمكانية تخصيص زاوية لهم تقيهم التجمع في الصحن المكشوف كيفما اتفق، همس يحيى بسر جمان في أذن معلم زاوية العميان، انفرط فؤاده بالبوح، وتسربت كلماته إلى حاسة السمع الحاضرة لدى المكفوفين فتعاطفت وجوههم، وضحك برهان مهوناً، قال:

- استفت قلبك يا ولد؛ كيف لما خلق الله أن يصد عن ذكر الله؟ وهل نصل الإله إلا بتذوق جميل خلقه؟ والتلذذ بمتعة صوره؟ الذين فقدوا نعمة مشاهدة الجمال أكثر معرفة به وتقديراً له في كل ضروبه، وبكل الحواس التي خلقها الله لتعرفه، وقد ورد عن البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم.

تمتم العميان جمعاً:

- اللهم صلى على سيدنا محمد.

وأكمل أستاذهم دون انتظار انتهاء تمتمتهم الخاشعة:

- قال: "لتكونن من أمتي أقوام يستحلون الحرير والخمر والمعازف"، وفي هذا الحديث قال ابن حزم: إنه حديث منقطع بين البخاري وصدقه؛ ولابـــن حـــزم كلمة فصل يقول: إن من نوى باستماع الغناء عوناً على معـــصية الله، فهو فاسق، ومن نوى ترويح نفسه ليقوى بذلك على طاعة الله عـــز وجل وينشط نفسه بذلك على خير؛ فهو مطيع ومحسن، وفعله هذا من الحق، ومن لم ينو طاعة ولا معصية؛ فهو لغو معفوٌ عنه، كخروج الإنـــسان إلى بستانه متنزهاً، وقعوده على باب بيته متفرجاً، وصبغه ثوبه لازورديـــاً أو أخضر أو غير ذلك".. صعب يا بني الأخذ بكلمة فصل، تـــرى في زماننا مسلمين يحرمون شرب التنباك في الجوزة، ثم يتعودون، ويبحـــثون عـــن المبررات في النصوص الشرعية، وستأتي أزمنة يضع فيه الـــشيوخ بدل العمائم طرابيشاً، ثم يخلعون كل ما كان، ويجدون أردية مغايـــرة، فوفـــق ذوق كـــل زمان تختلف حياة البشر، يستنكرون ما لا يعرفون، فإذا ما عرفوا؛ اطمأنت نفوسهم، ما للعقيدة والشرع وكل هذه المتغيرات! لا يذهبن عالم إلى التحريم والتحليل مطلقاً، كأنه في أول الزمان أو أخره، أو مالك للحقيقة دون سواه؛ فيقع في المحظور، لا يحرم بلا سند في كتاب، ولا موافقة في عقل، ولكن يماري كل من كان في نفسه هوى لسلطة، وفي عقله تصور واحد لا يركن إليه، يرتعد مما عداه، أقول لك، وأنت المؤمن: استفت قلبك، وعقلك، يصدقاك.

ثم أشـــار بـــرهان إلى طلبـــته السامعين باهتمام، المادين أعناقهم كأسراب طير تقتفي أرزاقها، وقال مازحاً:

- ليس بالعين وحدها يرى الانسان.

أغمض يحيى عينيه.. فرأى.

* * *

فـــتح يحـــيى كتاب الله بين كفيه خاشعاً فانكشفت صفحة منه، ووقعـــت عيـــناه على آيات بعينها: "قل من حرم زينة الله التي أخرج لعـــباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون"[(1)]

اتخـــذت المناوشات بين يحيى وأستاذه طابعاً صدامياً رغم ظاهرها التوافقـــي على الود والنقاش في أمر المعرفة، فالاستاذ يرى إن الطيبات للمؤمنين الصابرين في الدنيا، أرجئت خالصة كاملة ليوم القيامة، فمن أراد مـــتعاً حسية، خمراً وموسيقى ونسوة، انتظر استحقاقها، وجاهد الـــنفس في الابتعاد عما لا يحل له في الدنيا، ولم ير يحيى أن الأية تحرم المـــتع على تلك الصورة، فدخلا في جدل لغوي حول دلالة العبارات وترتيبها؛ بات الأستاذ ملولاً لكثرة ما يناكفه الفتى في أمور يسلم لها من حـــوله مـــن الطلبة المعممين، قرأ علناً في مجلس الأستاذ ما خطه الامام الغزالي في كتابه "آداب السماع والوجد":

- "البليد الجامد القاسي القلب، المحروم من لذة السماع، يتعجب مـــن الـــتذاذ المستمع، كما تتعجب البهيمة من لذة "اللوزينج" [(2)]، لا تـــدرك البهيمة لذته بطبيعة الحال، وكذلك غلاظ القلوب والعقول؛ لا يدركون لذة الغناء".

لم تـــتوقف مـــناكفات يحيى حول الغناء إلا وقد بدأت جولته حول إباحـــة المـــشروب الجديـــد، القهوة، فإذا ما لعن أستاذه المجاذيب الذين يشربونها كي يجافوا النوم، وخص الشاذلية اتباع العيدورس، والتجار الذين استبدلوا البهار والتوابل بها طلباً للربح، يجلبون حبات القهوة الخضراء على ظهـــر السفن القادمة من اليمن، فيحمصونها، ويسحنونها، ويبيعونها بسعر

---

(1) القرآن الكريم – الآيات من 31–33 من سورة الاعراف.

(2) حلوى باللوز.

مـــرتفع؛ يـــشتريها أصحاب المنتزهات والأماكن العامة وغرز المتصوفين وأصـــحاب المـــزاج والـــسهر، يغلونها مضيفين إليها حب الهيل أوالقرفة أوالزنجبيل والعسل، لم يكن الأستاذ عبد الله على استعداد لسماع ما يفرق القهـــوة عـــن الخمر، فقد وردت الفتاوي من مكة المكرمة بتحريم ذلك المـــشروب الملعـــون الذي ينبه الحواس، ويراق في مجالس الشعراء والمغنيين والنسوة، احتكم إلى "لسان العرب" الذي جاء في حديث لابن منظور من أن القهـــوة هي الخمر، سميت بذلك لأنها تقهي شاربها عن الطعام، ورجع يحـــيى إلى المعاجم التي أوردت كلمة القهوة مقرونة بالخمر، فما وجد من ارتباط يزيد عن أن الشرابين يقهيان عن الطعام ويقللان الشهية.

أقلق التساؤل يحيى، فعاد إلى "تاج العروس شرح القاموس" قارئاً: "قال الحكيم داود رحمه الله تعالى: البن ثمر شجر في اليمن يغرس حبه في مارس، وينمو ويقطف في أغسطس، ويطول نحو ثلاثة أذرع على ساق في غلـــظ الإبهـــام، ويزهـــر أبيض، يثمر حباً كالبندق، وربما تفلطح كالـــباقلاء، وإذا تقشر انقسم نصفين، وقد جُرب لتجفيف الرطوبات والـــسعال والبلغم والنـــزلات، وفتح السدادة وإدرار البول، وقد شاع الآن اسمه في القهوة إذا حُمص وطبخ بالغاً".

حكـــيم الأزهـــر كبير الأطباء أيضاً أوقع يحيى ورفيقه برهان في حيرة، إذ ذهب إلى أن الطبيعة الباردة الجافة للقهوة تضر بصاحب الطبع المعتدل، لكنها حين تصير مشروباً تقطع البلغم عن الصدور المعتلة، وقد يجب على من كان سوداوياً الابتعاد عنها، إذ تزيد أرقه واكتئابه، مال الطبـــيب إلى تـــصنيف المشروب نوعاً من الداوء المذموم احتساؤه لغير التداوى، لكن يحيى قال مستشرفاً ما قد يكون:

- هـــو شـــراب يحقق شيئاً من اللذة المحايدة، وسيكون مشروب العامـــة في قـــادم الأيـــام، كما شراب اليانسون والكركديه والزعتر

والنعـــناع، ولا أرى في تحريمه إلا خوضاً فيما يضيع الوقت، ويصد عن كبائر الأمور.

اشـــتد أســـتاذ الزاوية عبد الله في تحريم القهوة مدعوماً بالفتاوي القادمـــة مـــن مكة واسطنبول ودمشق، فأفاض وزاد، نكاية بتلميذه الكركـــي، وجمـــع حـــوله نفـــر من السامعين يفصل لهم ماهية ذلك المستحضر المفزع، وانفرد بالكركي يؤنبه لكثرة وطول الجدال، ويذكره بفعـــل الـــسلاطين ونقمـــتهم وما هم عليه قادرون، وضرورة تفادي غضبهم، قائلاً:

أفـــتى فقهـــاء استانبول بحرمة القهوة، لا تجلب على فقهاء الأمة الأذى، ولا تقطع أرزاق الأزهريين بالترهات، فوالله إنهم بفرمان يأتي في ليل، يغلقون مسجدنا، ويوصدون أبوابه، ويعطلون فتاوي الشافعية منا لصالح الحنفية من أتباع السلاطين العثمانيين، لا تظن ذلك ببعيد محال، ألم يوقف صلاح الدين صلاة الجمعة في الأزهر سنوات، لظن في نفسه أن المكـــان يجمع الاسماعيلية الرفضة!! وما عادت صلاة الله يوم جمعة تـــؤدى في هـــذه الرحاب إلا منذ مئة عام، إعرف قدرك جيداً، وقس خطـــوك وزلات لـــسانك، ولا تجلب علينا وبال أفكارك يا ولد، ولا تظـــنن إن ذلـــك الأمر من توافه الأمور، ولا يقاس بما ذكرت لك من فواجـــع، فقد أجمع فقهاء استانبول على تحريم القهوة وقرنوها بالخمر، وعلى ما فعلوا وقالوا؛ نُقر ونسير.

* * *

أصلح الوالي الجديد تالف الجدران وما تهشم من البلاط والخشب والـــنقوش بفعـــل الزمن في مبنى المسجد الأزهر، كانت جموع الفعلة المتـــبرعين بعرقهم أو المسخرين تتناوب في العمل طوال ساعات النهار، لكـــن القاهرة ماجت مجدداً، الفقراء الذين كانوا قد استبشروا بالوالي

منــــصف العلماء ومحقق الحقوق، الذي أمن المساكين من خوف وفقر، فأجــــرى المطـــابخ المجانـــية في الـــتكايا والزوايا، راقبوا وجلين حراك الانكـــشارية المـــسعور، وإن انصب في معظمه على الوالى الذي يجمع حوله العلماء مبرراً تقريبهم ورعايتهم بقوله:

- *هؤلاء سلاحهم الكلام، وهو أشد من السيف.*

لم يـــرق للجند تعيين قاضي العسكر عربياً يتقرب إلى المساكين دونهـــم، ويعطـــي العامـــة الأرزاق والهـــبات دون وجل من سباة أو انكشاريين، كما لم يرضهم تغيير معايير توزيع القمح وتقليل حصصهم مقابل زيادة حصص العلماء ومخدمي الدواوين من صغار القوم، فعادوا إلى مضايقة الناس في الأسواق، وأرسلوا يشون بالقاضي في اصراره على اللباس العربـــي والعمامة الصحراوية، وما يحمل هذا التصرف من دلالة علـــى التقليل من هيبة الترك، ساندهم السباة في أول تحالف يقوم بين مـــصلحتيّ الفريقين من عسكر آل عثمان؛ أرسلوا المراسيل تصف حال القاهـــرة، والفتن التي تقوم بين العلماء الذين يدللهم الوالي، فيسرف في صـــيانة أبنيـــتهم، ويتركهم يطلقون العنان لفتواهم على مذهبهم دون مـــذهب السلطان، كما لم يتحرج أعيان المماليك من نقل ما يرد على ألـــسنة المـــصريين من نكات ومساخر سفيهة بذيئة، يهزأون فيها من السلطان، وأمه، وجنده.

وثـــق العسكر في انتصار السلطان في استانبول لهم على الغوغاء، فهـــم حُماتـــه، وشوكته بين رعاع العرب، وأمم الأرض التي يمد ظله علـــيها؛ لم تتأخر ردود الفعل السلطانية، فبدأت بعزل قاضي العسكر وقد جلس إلى كرسيه أربعة أشهر لا تزيد، وعين بديلاً عنه حسن فتلي زادة، فمـــا طال فرح العامة واستبشارهم، وانكفأوا مجدداً على الخوف والحذر، فيما نادى المنادي بعزل الوالي، وتعيين خضر باشا الوزير.

تحلق الطلاب وبعض الشيوخ والصوفيين والدراويش في صحن الأزهر خارج الدرس حول يحيى، وقد مل تكرار حديث القهوة والبلاد تصطخب، وعلا الهمس حتى بات جهراً، توقع العلماء والطلاب انقضاء زمان الهدوء في الأزهر وفي المحروسة كلها، وتزايدت الشكوى من انخفاض قيمة المسكوكات من بندق وأقجة مغشوشة تناقص وزنها، وساد ترقب ورعب مما سيكون من الوالي الجديد الذي جيء به من بغداد كي يسوي ما حاد عن الدرب من شأن مصر وأهلها، خاصة إن السراجين والدلاة والعسكر باتوا يجوسون الحارات بأمر من الوالي، ويدهمون البيوت بوجوه عابسة وأسلحة مشرعة، فيسبون، ويقتطعون ما شاءوا دون حساب؛ تكميلاً لخراج مصر الذي طلبه السلطان قبل أوانه، بحجة مرور السلطنة في زمن ضيق وظروف صعبة.

وصل الوالي الجديد وفي نيته عقاب المصريين، ورسم حدود لا يتجاوزها؛ كي يتناسوا التدليل الذي أفسدهم به واليهم السابق، حتى أنه أسر لقاضيه يحيى بن زكريا وهما يبحثان في سبل لجم المصريين، قال:

- أريدك أن تنسي الواحد منهم حليب أمه.

اكتظت مراسي النيل وشواطيء الاسكندرية البحرية بالمراكب التي تحمل مساهمة أهل مصر في خراج العثمانيين، وتدافع خلق كثير يحملون وينزلون، بينما فئران الموانئ والشطوط تتقافز بين أقدامهم، وقد سمن بعضها وصارت جرذاناً رمادية بأذيال طويلة، بوصول خراج الفضة والذهب من استامبول إلى أتباع السلطان؛ رفعت غلال كثيرة على أسطح السفن، وطالب الكرد والجركس والروم بحصتهم في الخراج، واقتطع المماليك والانكشاريون والسادة والأعيان وزعماء قبائل البدو المحيطة حصصهم قبل اقلاع السفن، حتى بدا للناس أنهم لن

يوفـــوا بالمطلوب منهم ولو باع الواحد منهم أسماله ولحم عياله، خاصة إن النيل لم يوف ويرتفع، وانحسر فيضانه عن الاراضي الزراعية في ذلك العـــام، خـــشي السقائون من اغتراف ما تعودوا من مائه، وصار من المألـــوف أن تقـــع العين على مجموعات من فقراء الريف الذين زحموا المدينة بالشحاذين والمتعطلين، فكثرت المشاحنات وعم النهب، وشارك العسكر الذين ينـــزلون الساحات لفض النـــزاعات في نهب ما تبقى؛ تـــاركين الـــرجال عراة إلا من سراويل تستر عوراتهم، بعد أن يعملوا عصا النبوت في أجسادهم.

لم تطـــل فترة هناء الناس، وتوقفت الأعمال الترميمية في الأزهر، وعاد الرعب يتسيد الحارات والدروب والأسواق، لم يكن الحال مواتياً للجلـــسات الـــرائقة الوادعة في زوايا الأزهر والتفكر بالكتب، وسماع الـــشروح والتفاســـير، فمعظم الطلبة غاضبون، المصريون منهم أصابهم غيظ على ما يرون فيه أهليهم وديارهم، والغرباء المجاورون حرموا من امـــدادهم وجرياتهم التي تعرضت للسطو قبل أن تصلهم، التجأ بعضهم إلى العـــبادة مكثـــرين مـــن الأدعـــية والتوسل، إلا أن الشبان منهم، وأصـــحاب العلم الغزير من أساتذتهم، افترشوا واسع الصحن، وناقشوا بمـــرارة أحوالهم باحثين عن حلول عملية، ظن البعض إن خروج أئمة الأزهر إلى القاضي الجديد الذي صاحب تعيين الوالي قد يكون مجدياً، قد يجري أرزاق الفقراء في مطابخهم، أو ينقد الطلبة الغرباء بعض حقهم في حـــصة الأزهر في الخزينة، تبادلوا الأفكار والاقتراحات، بينما يحيى وأستاذه عبدالله واقعان في صمت عميق يستمعان، فإذا خرج يحيى عن صمته قال:

- ظنـــنت؛ وأنتم نور الأمة وسراجها، إنكم تريدون حلاً لاهالي المحروسة، لا لقعيدي الأزهر وحسب!!

فهـــم الجالـــسون الملامة، وراح البعض يصف استحالة الاخذ بالقوة لتغيير منكر ما أحاط بهم، ويحيله إلى عسير الأمنيات التي دونها المـــوت، الذين خاب أملهم في أنفسهم وفي الدنيا؛ أطلقوا أصواتهم بأدعـــية تـــصب النقمة على الأحوال، وتدعو السامع أن يستفيق، وتتوسل الله لرفع مقته عنهم، وجور المماليك وعسف الجند وخيانة القـــائمين على الرزق عن البلاد، وسكوت الوالي عما يصيب الأمة من أذى.

قـــبل آذان العـــصر بقلـــيل، فُتحت بوابة الأزهر الغربية على مـــصراعيها؛ حتى سمع صرير الحديد على الخشب، وداست سنابك الخـــيل في قعقعة هوجاء حرم صحن الجامع المبلط، ولاحت رايات الانكـــشارية ترفرف، وقفاطينهم تنفخها الريح وراءهم، وسياطهم تهوى على أجساد الصبية المتحلقين في جمع الداعين، اندفع الأساتذة يتخـــبطون إلى الحجـــر الجانبـــية ووراء الأعمـــدة، وتفرق الطلبة والمجاورون وتعالت الصرخات، والجند يتناولون من تلكأ في الهرب من ذراعيه رافعين بجسده فوق خيلهم موثقين ذراعيه؛ لم يكن اقتحام الأزهـــر علـــى هذه الصورة العنيفة المقيتة مسبوقاً، ولم يدم طويلاً، رسالة موجزة تهدد وتعد، واختفى من بين الطلبة خمسة بين مصريين وحبش وشوام، لم يكن عسيراً التنبؤ بما سيتعرض له الرجال الذين تم أخذهم من تعذيب قد يصل حد القتل.

رغم فجيعة ما جرى في صحن المسجد تمتم برهان:

- *مصر ولادة، يأخذون عشرة فيولد مائة.*

هز الأستاذ عبدالله سبابته في وجه يحيى غاضباً:

- *أنت، أنت حرشت الطلاب، الان، أنت ومعلم العميان، معمي القلـــب هذا، كلوا واشربوا نتائج أفعالكم، اطفحوا، الناس تريد العنب*

وأنـــت تطـــاول الناطور، لن نرى قرشاً من الدفتردار بعد اليوم، خلوا المطـــابخ للفيران، والمساكين تجوع، والدروس تتعطل، والله أعلم.. الله أعلم، المخفى أعظم..

* * *

ارتفـــع منـــسوب بحر النيل فجأة وأفاض، لكنه لم يرفع الكمد والحـــزن عن كاهل الناس، وإن زاد في نتاج الأرض، ومكن الفلاحين مـــن سداد بعض ديوهم للسلطان، وفارق أعداد غفيرة منهم المحروسة لقـــضاء مـــصالحهم في مـــزارعهم وقطائعهم، وخفف غلواء السباهية الجزعين على مكاسبهم؛ قدر الكثيرون إن اللحظة فترة استراحة معقولة بـــين هوجتين، كما يحدث عادة، استعادوا رويدا رويداً ايقاع حياهم؛ يـــتجمعون في المقاهي يسردون سيرة عنترة، وعلى أبواب البيوت وفي الـــتكايا والـــزوايا، وصـــحن المسجد الأزهر، ينسل بعض الطلبة من زوايـــاهم منـــضمين إلى جلـــسة يحيى الذي ما عاد أستاذه يرغب في اســـتقباله، وكـــان واضحاً إنه لن يجيزه، إلا أن ما يشغل بال الكركي وصحبه يدور حول هم واحد غامض، ماذا نحن فاعلون؟؟

طـــال انـــشغال يحيى بجماعته الغاضبين الحائرين، وباعد بين ليالي العـــشق؛ فما عاد يرتاد وجمان روضة الإناس والصفصاف، لم يمحُ ما خـــط في فـــؤاده للصبية التي ما عادت تعوده، ولا يعودها منذ عرس القرداتي، كذلك سيدهّا التي اكتفت بتسديد رسوم الفتى بالأزهر دون لقائـــه، وفي مـــساء رائق، مالت نعمات إلى الرأس المعممة، وهمست عاتبة:

- رمـــضان في الـــباب، لم يعـــد أحـــد يجيب لنا صفائح الجبنة الحلومـــي، الله مـــا ألذ تلك التي كانت تجيبها هفوف، لم نعد نسمع أخـــباراً عنها! أيقاطع المؤمن أخته! أليست هي أختك في المحروسة؟ ثم،

يا حسرة على العشاق، ربما زهقت روح البنت جمان، وأنت يا قاسي، ولا أنت هنا.

كعـــادة نعمـــات تترنم بصوت خفيض بحكايا شقيقها الحكواتي، لكنها تعلي الطبقة لتمعن في ايقاظ أشواق الرجل:

- أنـــا لم لقيت لي سعد ولا بخت، ولا خل صادق قناني، كلام الغربا وحملناه، قلت علينا كما ريح هاوي، كلام القربا.. آآآآخ مناه، يحرق فوق فرش الكلاوي.

انبعـــثت ذكـــرى من لا ينساها شوكة في خاصرته، قض العتب مضجعه، لماذا لا يتزوجها؟ كان السؤال الحائر أبداً يداهمه، صغرت همة الهوى، وصار السؤال؛ لماذا لا يصلها فحسب! كأنه الملوم المتهم الخائن للعهد، أوشك على البكاء، لا يحير جواباً، وأدهم يصيح فوق السور:

- لا أظنها ليلة رمضان، سيكون شعبان، السماء سوده ولا هلال ينيرها.

لا يمكن أن تكون السماء سوده، قال لنفسه، لكنه رمضان يختبئ ريـــثما يروي المعمم عطشه وجوعه من الحبيبة؛ أسر لأدهم برغبته في زيـــارة باب زويله، عارضه بشدة، فالعتمة حالكة، والوقت قد تأخر، ولا يؤمن حدث مفاجيء يذهب بحياتهما، لكن العاشق ألح راجياً، حتى فك أدهم عقال بهيمته، معيراً إياها ليحيى ليمتطيها وسط عتمة وترقب القاهرة إلى باب زويلة.

* * *

وصــــل يحيى باب البيت فجراً، والنور يسقط في النقوش الخشبية مجـــاوراً للظـــل، عصيت أنفاسه وذكرى نقش السوسنة على حواف الأواني النحاســـية يداهمــــه، ربط البهيمة بعمود خشبـــي في الجوار؛ أوشك على الارتداد عن الباب، ولكنه قرعه.

اعترت الدهشة الفتاة التي فتحت طرف الباب، إذ مضى زمن لم يطل فيه الشاب الكركي، لكنها أعلنت بحماسة:

- *ستي.. ستي.. هاذ قريبك..*

لم يكـــن استقبال هفوف على مثل حماسة الجارية الصغيرة، دعته للدخول بفتور ملحوظ، وتعمدت التظاهر بالنعاس، والتثاؤب بين كلمة وأخـــرى، وراحت تتمتم بارتخاء حول جهلها ما إذا كانت جمان نائمة أم اســـتيقظت، جلس وسط أثار سهر وقصف الليلة الماضية، الكؤوس المتناثرة، والأرائك المبعثرة، وبقايا أطباق الفاكهة، وقشور اللوز والجوز تعـــم صـــالة البـــيت، تـــوجس متذكراً جموع الجائعين العراة وأيدي الشحاذين التي تتوسل المارة في كل درب في المحروسة، شعر بإثم جلوسه في ذاك الموقع، وإثم سابق اقترفه عندما تمكن الهوى من فؤاده، فما سعى لتـــصويب ما بينه وبين المحبوبة في زواج شرعي يبعدها عن تلك الحياة الماجـــنة، تـــشظت نفسه حيرة، وحين أطلت جمان بمنامة قطنية ناعمة انـــسدلت حـــول جسدها الرشيق، وشعرها الجعد مبعثر فوق كتفيها، ووجههـــا نظـــيف من كل زواق، فزت روحه إليها، لم يعد متردداً، ونـــسيت وهـــي العاتبة المجروحة قرارها بمقاطعة الحبيب، رأت عينيه المتعبتين في غبش الفجر وعتمة الحجرة، وهمست بعتب كالبكاء:

- *اشمعنى يا نور العين.. دمعي رخيص، ودمعك أنت اللي غالي؟*

اندفـــع كلاهما كما شلال ينهمر إلى عناق محموم، انسحبت هفـــوف دامعـــة، وخلا المكان لعتاب يسكته لمس، ويذيب قاسي كلامـــه همـــس، ما عاد التنصل من سؤال الإرتباط همّاً يخص يحيى وحده، وقد طرحه مستبشراً آملاً، لكن الفتاة أسبلت جفنين حزينين قائلة:

- *لا أريد.. لا يمكن..*

كـــادت الصدمة التي رافقت الوله والشوق تودي بروح الشاب الـــراكع على سجاد الصالة مسنداً ذراعاً على يد الأريكة، وذراعاً على فخدها، شرحت وصوتها ينخفض حد التلاشي:

- *لا يمكن.. لست حرة.. أنا جارية.. عبده.*

وقـــف زائعاً مرعوباً، ثم انهد جالساً جوارها، محاولاً تمالك نفسه؛ احتـــضن جسدها الراعش المضطرب، لم يكن على قدر ما يعرف من شـــؤون الحـــياة ومـــا خطته الكتب، يدرك أن جمان أمة لا تملك حق التصرف بنفسها، وبدا له أن الحديث مرعب يشل خطواته، وهي تدعي إنهـــا لا تلـــيق به إلا لو كانت حرة، هصر جسدها بين ذارعيه يخفي ارتعاشـــه ويخفف من انفراط رعشتها، ويمزج وجعه بوجعها مواسياً، دفـــن وجهه في شعرها ساتراً دمعه، بينما دمعها يبلل كتفه، وفي هدأة الفجر الحزين؛ كشف نواحهما الفاجعة التي أبكتهما.

لم تجـــزع هفوف وهي تستمع لشكوى العاشقين، ورجحت إن بعـــد المحروسة عن اسطنبول، وانقطاع الصلة بينها وأبناء زوجها الذين يمـــتلكون صك ملكية الجارية جمان، كفيل بجعل الصبية تشعر بالحرية والآمان في الإرتباط والإرتحال إلى حيث لا يمكن لكائن العثور بها، لكن جمـــان أبـــت، ووضـــعت أمر نيلها حريتها عثرة؛ لا بد من تجاوزها للارتباط بمن تحب.

بحـــثت الجاريـــتان بكد عن الثغرات والإمكانيات التي تتيح منح جمان حريتها، راسلتا أبناء القائمقام كارتال في اسطنبول، وراجعتا مفتي الأزهر في القاهرة، وجالستا الشيخ برهان تستمعان إلى موافقته على ما ذهـــبت إليه هفوف، إلا أن جمان تعنتت، وأعلنت أنها لا تحرك ساكناً في أمر مستقبلها حتى تصل الوثيقة التي تحررها؛ تحملها معها أينما حلت وارتحلـــت، وتكون صفتها وبرهانها إذا ما تزوجت أو باعت واشترت،

كـــأن تلك الوثيقة اعتراف بالحياة وبالوجود، بدت جمان واثقة من أن هـــذا هـــو الحل الوحيد الذي سيغير مجمل حياتها، ويجعلها كفؤاً ونداً للكركي الأزهري، ورضخ يحيى لتعنتها، واستسلمت سيدتها وهي تنتظر خبراً يقيناً، وإن كانت ضمنّت مراسلاتها مع أبناء زوجها عرضاً سخياً تـــشتري بموجبه الجارية لتنتقل ملكيتها لها، فتعتقها دون منة، وتتيح لها تحقيق زهوها بكرامة واعتداد.

دخـــل رمـــضان في الثامن من الألف الاولى للسنة الهجرية على القاهـــريين في صيف، وقد بدأوا يقبلون دون اعتياد أو نفور مصاحبة الـــتاريخ الهجري بالميلادي، يضعون شهر الصيام في عامه الستمائة بعد الألـــف متسائلين عن تلك الهوة الواسعة بين التاريخين، وما الذي كان فـــيها من أمور العباد وحكايا البلاد، لكنهم ينصرفون باهتمام احتفالي إلى طقوس رمضان.

انشغلوا بحلقات الذكر ومجالس الوعظ وصفوف الصلاة، ثم ببهيج اللـــيالي، وعادت زيارات الفتاتين إلى الربع تؤنس لياليه، وتحرض أهل الـــربع الـــذين يتجمعون حول طبق واحد لافطار رمضان، فيأتي كل واحـــد بمـــا قدر عليه، ينتظرون رفع الآذان، فيشربون ويأكلون البلح الجـــاف، ثم يقفون وراء يحيى في صلاة خاشعة، قبل أن يبدأوا مساءهم متحمسين في طلب المأكل والمشرب كما في مناقشة مستقبل العاشقين، حلموا وهم يأكلون حبات القطايف المحشوة بجوز العين جمل والزبيب التي أعدتها العروس، إذ باتوا يسمونها العروس، وقد أعدوا بخيالاتهم ليلة أنـــس لا ســـابق لهـــا؛ يزفون فيها الاستاذ وعروسه، لم يعد عجيباً في الدرب أن يظل باب الربع مفتوحاً حتى ساعات متأخرة من الليل، حتى حراس البوابة الخارجية للحارة الذين يحكمون اغلاقها بالمزاليج، صاروا يتـــركونها في رعاية أحدهم متناوبين الانضمام إلى أهل الربع، يسمعون

صـــوت الطـــرب ودق الوتر بعد ساعات من صلاة التراويح وترتيل القـــرآن، فيسكب حارس الدرب لنفسه كوباً من القهوة الشهية محافظاً علـــى يقظـــته، ريثما ينتهي نهار ويتصل بنهار جديد، في حين يتبادل العامـــة مـــنقوع السوس أو اليانسون، ويسردون ما تمنوه من حلم ليلة العرس الموعودة، ثم ينعسون تباعاً؛ مخلين الليل للعاشقين، تقطع هفوف أنسه بمزاحها الثقيل.

تخـــرج عربة السيدة وجاريتها فجراً من زقاق الدرب، فشير لها الـــسقائون وبائعـــات الحليب، إنها عربة حبيبة الكركي التي ستشتري حريتها قريباً، وسيكون لها كما في الأحلام، زفاف اسطوري ولا قطر الندى.

فارق يحيى جزعه، لا يؤرقه العشق إلا اشتياقاً، متوافقاً مع نفسه، لا يحمـــل الدنيا على ميزان الحلال والحرام، يقلب خيارات قلبه وعقله فـــلا يجد تناقضاً، وفي مجمل تفاصيل الحياة ما عاد معنياً بكثرة النقاش واحتدام الجدل وجفوة أستاذه، يشعر بخفة تطير روحه، وتغمره بسعادة ملونة يستطيع معها مزج العشق بجد التعلم كما يذوب في جمال التأمل، يجلس في كل زاوية وإن تباينت العلوم المطروحة فيها، يسمع بانتباه، ثم يفكـــر بانتباه أعظم؛ يختار ما وافق العقل، ورغم زخم جلسات القراءة والتفسير والحديث التي واكبت صيام رمضان، إلا أن ليل الأزهر المضاء بالأســـرجة والفوانيس يتيح هدأة للتأمل والخشوع والتعبد، يتفحص في منعزله كنه الكون وماهيته، يتحسس وحدته وارتباط أجزائه التي تبدو مـــن عناصـــر شـــتى متغيرة ومختلفة، كاشفاً عن ارتباط وثيق في كل عجيب، وقد ينادم برهان ويبوح بهواجسه الحائرة خالطاً العلم بالحدس:

نفـــسي تنشد التنوع وترتضيه؛ وهي النفورة صعبة الإرضاء، وما أظن التعدد فراقاً بين عناصر الكون الفسيح، بل تجل لوحدتها، كما في

الحـــساب، ليس هناك إلا رقمان اثنان، تقوم الحياة ما بينهما، الواحد والـــصفر، الفراغ وخالق الفراغ، ونحن حصيلة اندماجهما، وما الأرقام المجـــردة المتداولة التي نعرف، إلا نتاج علاقة بين الصفر والواحد، وكل يأخذ منـــزلته بمقدار ما ينطوي فيه منهما.

لا يـــناقش يحيى تلك الصور التي يتوصل إليها عقله أين ما جلس، مـــتأكداً إنه ما زال يقلب أفكاره ويمتحنها، لكنه في العشق أناخ روحه وعـــرف داره، حين تلتمع عينا جمان وهو مقبل إليها، يظن العالم فتح أبـــوابه، وكشف مداه، واستضاء بنور عظيم، يضع كف حبيبته على صدره هامساً:

- *هـــنا قلب يعشق عينيك، وما يفيض منهما من كون يتشكل، وكون يغيب، أساس المعرفة كلها ابتلاء القلب بوله صحيح، فتنكشف له الحياة، ويصل إلى عشق الحياة بمجملها، وتفاصيلها.*

تغـــني وقـــد تلقفت كفه وأودعتها فوق نهديها، وراقها استبقاؤه كفها على صدره:

- *حبيبـــــــي على الدنيا إذا غبت وحشة يا قمر، فقولي متى أنت طالع؟.*

لقد فنيت روحي عليك صبابة فما أنت يا روحي العزيزة صانع؟؟
وغيرك إذ يوافا فما أنا ناظر إليه وإن نادى فما أنا سامعه
تذللت حتى رق لي قلب حاسدي وصار عزولي لي في الهوى شافع
وإن تتفضل يا رسولي فقل له محبك في ضيق وعطفك واسع(1)

يهز العاشقان رأسيهما ويتأرجحان معاً مرددين:

- *يا ليل.. يا ليلى.. يا ليل... يا ليل..*

* * *

---

(1) قيس بن الملوح.

لم تكـــن مخاوف الاستاذ عبدالله الدسوقي حين راح يجادل طالبه محتداً من نسج أوهامه، فقد هيأ الوالي خضر باشا الوزير للازهر ضربة ناجعة تحوله إلى واحد من معاقل السلطان، عزل قاضيه مستجلباً قاضياً مرناً مطواعاً ينفذ مخططه الكبير الذي سيغير تاريخ الجامع بل والمحروسة كلها، وما جوار أو بعد من الأراضي والبلدان التي ينفرش في سمائها ظل آل عـــثمان، في لـــيل، كتب وقاضيه المولى عبد الوهاب أفندي فرماناً يرضى السلطان، ملغياً صلاحيات شيوخ الأئمة الأربعة بجرة قلم، مكتفياً بهيمنة المذهب الحنفي، مذهب السلاطين الأتراك، الذي يرجعون إليه في معاشـــهم، وعـــنه يصدرون الفرمانات، ويطلقون الفتاوي، ويحكمون بالتراسيم، ويتعاملون مع الناس، وزع الفرمان الحاسم الفصيح الذي لا يحتمل التباساً في مواقع الفتاوي وسن القوانين أولاً، بُديء الأمر في زوايا الجامـــع الأزهر، ومكاتب مالية البلاد، وفي كل دفتر رسمي يصدر في المحروسة، وضع الوالي خضر باشا الوزير خاتمه الذي يحمل اسمه وصفته كخادم للعرش، في خنصر يمناه، وحبّره، ثم دقه نقشاً على الفرمان.

دب الذعر في الجامع وبين العلماء والأئمة، وكثر اللغط بين الطلبة وعامـــة الناس الذين تفطنوا فجأة على تمايز المذاهب؛ وما كان هذا مما يتنـــبهون له في معاشهم، وتبلبل الشيوخ على مختلف مذاهبهم في فهم الاجـــراءات المتـــرتبة على الفرمان، وهل يحمل في طياته وقف دروس المـــذاهب الاخـــرى؟؟ وهـــل يدلل على انحسار زمان بعض الاساتذة والأئمة؟؟ انكفأ بعضهم متحسرين مهزومين، وتساءل أخرون مع يحيى، إذا مـــا كـــان هذا منعاً لكل اجتهاد قديم، ونهياً مبطناً عن كل اجتهاد جديد!!

اعـــتكف يحيى ونفر كثير في الأزهر في الليالي العشر من رمضان متوســـلين ليلة القدر، متقلبين بين الدعاء، مناقشين هول ما وقع وبلبل

علمـــاء البلاد، وشتتهم بين داعٍ إلى القبول والرضوح؛ خوفاً من انتقام دمـــوي يطال المحروسة كلها، وبين متنح عن الدرب حزيناً مستسلماً، وأخر يرفع صوته بالشكوى معترضاً، عدا عن طلبة علم اختاروا العودة إلى بلادهـــم، أو الـــتوجه إلى جامع القرويين في تونس، احتد خلاف المعـــتكفين مودياً بخشوع الانعزال والتعبد، دون أن يثمر حوارهم عن فعـــل يسوي أمورهم، اكتفى يحيى في الأيام الأخيرة من اعتكافه ببعض المـــاء والثمـــر، فنحل واسودت جلدته وغامت عينيه، وهو غارق في الكتاب يداوي بآيات الله حدس ينبأ بوجع آت إليه.

لم يكـــن جديـــداً أن ينظر أستاذه إليه شزراً إذا مر جواره، فمنذ تزايدت الاختلافات بينهما، ووقع الجفاء، والأستاذ يحمله وزر ما حل بالأزهـــر، ويصرح بامتناعه عن إجازة ذلك البدوي الحائر، الخارج عن المألـــوف، مؤكداً إن الرجل سيأتي بالفتن إلى من يحيط به، ولن يحقق خيراً أو نجاحاً يصبو إليه.

تجنب يحيى الاحتكاك باستاذه، لكنه لم يتمكن من الانغماس في خلوة بينما الأوضاع تموج بالغضب والحزن العام، تكدر وهو يشاهد رفاقـــه يحملون بقجهم وأطعمتهم، وما تيسر من خبز ونقد وقماش إلى زوايـــا الأولـــياء تـــبركاً، وفي جلسة قرب الفسقية؛ تجرأ على الفـــتوى، ساخراً من فكرة التقرب للأولياء في الزوايا والتكايا، بل منكـــراً ما يدعيه بعض الأولياء من الإطلاع على اللوح المحفوظ في رؤيا أو منام، مشيراً إلى أن الأنبياء أنفسهم لم يحظوا بتلك الحظوة، فما بالك بالأولياء وهم بشر عاديون انقطع عملهم من الدنيا، وزاد إن بـــناء القـــباب فوق أضرحة الأولياء، إنما هو بطر يبتز الناس في معاشهم، ويقتر عليهم قوتهم كفعل السلاطين وأشرار الأعيان، وإنه ليس من الإسلام في شيء.

للافكـــار أجنحة، تناقل التلاميذ أفكار يحيى وكلماته، فمنهم من أسماهـــا رأيـــاً، ومنهم من نقلها كفتوى، واشتعلت غيرة أستاذه الذي اندفـــع إليه جهراً يؤنبه، لم يمنع صوت الآذان الشجي المتعالي من مأذنة الجامـــع عصراً الاستاذ من الوقوف معنفاً، توقف الرجال المنشغلون في وضـــوء أو المنـــصاعون لصوت الآذان الذاهبون إلى الصلاة، وتبادلوا النظـــرات، كـــان جسد الدسوقي يهتز غيظاً وهو يحرك سبابته للمرة الثانية في وجه الكركي الساكن:

- عيونك فوق والا الحواجب!! من أنت لتفتي؟؟من أجازك؟؟ ألا يكفـــيك مـــا حـــل بالدين والبلاد والمذاهب من غم بسببك؟ مالك والأولياء؟ بكره تصحى يا ولد، لما يلطم السن راسك.

تسمر يحيى مأخوذاً بالمفاجأة وتواصل صوت الآذان، ولف الأستاذ جـــسده بقفطانـــه مستغفراً ربه في تمتمة راجفة، منصرفاً، فإذا ما عاد المتوضـــؤون إلى وضوئهم، ووقف المصلون في أماكنهم، سقطت دمعة علـــى وجـــنة يحيى، وبهت برهان، تنفس يحيى كأنما يستعيد روحه وهمس:

- نأكل بعضنا، والنار تأكل لحمنا!

ربت برهان كتفه مهوناً، قاده إلى الصلاة قائلاً:

- لا تعـــتب علـــى الاستاذ الدسوقي، موجوع يا ولداه مما حل بالأزهـــر، خلي قلبك كبير، هو مثل كل الناس، مش قادر ع الحمار، يتشطر ع البردعة.

لم يكـــن يحيى محتاجاً لنصيحة في الغفران، فما اعترى قلبه عتب أساساً، كما لم يكن منفرداً في مراجعته أمر انكفاء العامة على الأولياء وتمسحهم بأمل وهمي، فالفقراء وقد قرص الجوع بطونهم وما استجيبت دعواتهم، خرجوا في مجموعة قليلة، تكاثرت على الدرب إلى زاوية باب

زويلة الشهيرة، متسولين قوت يومهم، فصدوا بالهراوات والشوم؛ أنزل الجوع وفقدان الآمال والذل والقهر بهم هوساً جماعياً، غالوا في الصراخ والتخريب، ومزقوا ستائر الجوخ عن الزاوية بأيديهم، وردوا على الضرب بقذف الحجارة، وعلى الشوم بمثله، وكسروا بالحجارة أكر النوافذ والأبواب، وتداخلت صرخاتهم:

- *أين هم الأولياء الذين تدعون، هاتوهم.. هاتوهم.*

فقد مجذوب منطقه صائحاً:

- *هاتوهم ناكلهم، إحنا جيعانين.*

في الأزهر تمكن شيوخ الزوايا من السيطرة على طلابهم، خائفين من نتائج أكثر عنفاً قد يشهدها الجامع في أيام مبروكة من رمضان، تصرفوا بهبات المؤمنين المقتدرين الذين سارعوا في صدقاتهم وزكاتهم لنجدة الجياع، منحوا الفقراء المتجمعين عند المداخل طعاماً يسد جوعهم، وكساءً يلبسونه في العيد المنتظر؛ يخفف عنهم غضبتهم، ويمنع انضمامهم إلى العوام الذين شاغبوا وعاثوا فساداً عند القلعة أو زويلة، لكنهم حين اجتمعوا يتداولون في أسباب الفتنة، استبعدوا الجوع عاملاً أساسياً؛ فالمحروسه تعرفه منذ بدء الخليقة، يسير مع الحياة ما سارت، ولكن الناس لا يخرجون ثائرين دائماً، ما الذي حرضهم إذا!

تجمع الفقهاء والعلماء في الحجرة الخلفية مانعين الطلبة أو صغار الأساتذة أو العامة من الدخول إليهم، وقد أحكموا رتاج الحجرة، وأوقفوا ولداً يمنع كل من يقترب، تباحثوا وأشاروا بين كلمة وأخرى إلى تجاوزات يحيى على الأولياء، واستكثاره عليهم ما يحصلون من الناس من نقد ومأكل، وقالوا كلاماً كثيراً عن استحالة انقطاع كرامة الأولياء بالموت، وكم هو خطير أن يُكذبوا في مسألة اطلاعهم على اللوح، وتنزع عنهم كراماتهم التي تعين نفوس الناس على احتمال مشاق

الحـــياة، ويشيع عنهم بأنهم حشيشة[1] الأمراء والسلاطين لتنويم الناس وتثبيط همتهم، اتقاء لشرهم وثورتهم.

تجـــنب العلماء والأئمة في حذر التطرق إلى مسألة المذاهب التي عطلـــت كثيراً من الدروس، وأوقفت فعل فتاوى الشيوخ، وحصرت الهيمنة في يد قاضي الحنفية.

بقـــيت ثلاثة أيام لانقضاء رمضان، دخل يحيى فيها تهجداً منقطعاً عـــن العالم، متدبراً في آيات الكتاب، منكباً على الورق يقرأ خاشعاً، ويـــتأدب إذا ما عن للإستاذ برهان التطفل على خلوته، والجلوس ماداً قدميه مسترخياً متحدثاً كأنما يحدث نفسه:

- إيه.. الدنيا عجايب، ننشغل بالفتاوى عن الأولياء، والمحروسة قايمة قاعدة، ولا أحد تعجبه سحنة الآخر، ولا لونه، يا بخت الأعمى ما يشوف، وكل الناس عنده ناس، شايف البشر رموا وراء أكتافهم الخير والعـــدل، يأكل القوي الضعيف، ويسرق الكبير من كيس الصغير، لا تستثني أحداً إلا من رحم ربـــي، يمد الفقير يده في جراب الغني، ويمد الغني يده في فم الفقير، ويخون الرجل بيته، وتخون المرأة ولادها، ويبيع الخسيس شرف أمه، وينسي العاق والسفيه عرق أبيه، فساد في فساد، فما من درب تنشق إلا ملاها العامل حجر، وما من حيطة أو سقف إلا ســـرق البـــنا مؤونته، وما من ميزان إلا لعب البياع بموازينه، يتحاسد العلماء، ويتنابز الجهلاء، ويضرب السلاطين العامة ببعضهم بعضاً، ولا تحفظ أمانة، ولا يرتدع سافل، وإذا ما هيأ المقام للشريف نيل حظوة أو مـــالاً أو جاهاً، رمى وراءه ميثاق الشرف، إيه، يا بخت من حرم نعمة البصر فلا يرى، ما من شيء يسر لنراه.

ذئاب كلنا في خلق ناس... فسبحان الذي فيه يرانا

---

(1) نبتة مخدرة.

يعاف الذئب يأكل لحم ذئب.. ويأكل بعضنا بعضاً عيانا[1]

يتبادل الرجلان مساندة حزنهما واستنهاض معنوياتهما، إذا وقع برهان في جبة الحزن العميق وهو يتأمل الحال والأحوال؛ دفع يحيى إليه بكتاب الله قائلاً:

- *التجئ، يجيرك الله.*

وإذا ما خرج أستاذ زاوية العميان من كآبته وهو يتدبر القرآن، ضحك، وعاد اللطيف المتفائل، الساخر الذي يفلسف الأمر على محمل قدرة الإنسان في تناسي ما ابتلي به عبر النكتة والضحك، منتشلاً يحيى من عميق فزعه على الناس:

- *الناس الطيبون، أهل مصر المحروسة، فلافسة*[2]*، قالوا: اضحك على الهم يصغر، ومسخره يتمسخر، الضحك حيلة من لا حيلة له، تمسح الضحكة والنكتة صدور المحرومين، مثلما يمسح الآذان نفوس المؤمنين المقبلين على الصلاة، بالكلام الزين يقولوا وجعهم، ويحطوا ما بدا لهم، واللي في ضميرهم على لسان الهلالي يقول: إوعى تقول للنذل يا عم، ولو كان على السرج راكب، ولا حد خالي من الهم، حتى قلوع المراكب، ولا بد من يوم محتوم، ترد فيه المظالم، أبيض على كل مظلوم، أسود على كل ظالم.*

لم يقطع أي من الاساتذة والطلبة خلوة يحيى عدا برهان، فالأساتذة غاضبون يحملونه مسؤولية بعض الخراب، والطلبة معتكفون في المسجد يتوسلون ليلة القدر، والعامة موجوعون من تكاليف الحياة التي تضيق والعيد على الأبواب، يسقط السكون كما لو كان عازلاً بينه وبين الكون؛ لهذا لم يسمع يحيى حركة الفتى الذي دخل عليه وهزه مرات، رفع نظره عن الكتاب متعجباً، قال الفتى:

---

(1) ابن لنكك.

(2) فلاسفة.

- *عند الباب الشرقي رجل يسأل عنك، يقول اسمه مقبل.*

خُلع قلبه بهجة وخوفاً معاً، قدر أن السائل لا بد هو مقبل الراعي صاحبه في رحلة الفرار من ناسه وأرضه، فما عرف في عمره من يحمل هـــذا الإســـم عداه، وقف مرتعشاً مشوشاً، دس قدميه في حذائه على عجل، هرول يقطع صحن المسجد فاسترعى انتباه الجالسين متحلقين في الزوايا، أو القاعدين إلى مجادلة، أو المصلين الذاهبين في النجوى، أداروا أعـــناقهم يلاحقونه بنظرات التعجب، مر مسرعاً بين حلقة المتصوفين عـــند الباب، تعمد أمير المتصوفين اللائم يحيى على موقفه من الأولياء، رفـــع صوته متعجباً ساخراً ممن يقطع المسافات جرياً إلى عرض دنيوي زائل، كيف لا يهرع إلى مولى يجيره يوم الحساب!!

لم يستوقف تعليق الصوفي يحيى، فقد داخله جزع وترقب ولهفة على تقـــصى هوية مقبل، وقطع الحدس باليقين، اندفع إليه وقد رآه يقف عند الباب ذاهلاً فاتحاً شدقيه على دهشة وخشوع، شده يعانقه، فصاح مقبل:

- *يحيى... يحيى... حبيبـــي... يحيى.*

بكى الرجلان يتعانقان ويتباعدان؛ يتأملان بعضهما بعضاً، كانت أثـــار ما نعم به يحيى من مدنية المحروسة بادية على نظيف ثيابه وجسده دون نحـــول وجنتيه، في حين ارتدى مقبل ثوباً رثاً وحمل عصا ملوية، وبـــرز شـــعره منكوشـــاً من تحت عقال وكوفية مهترئة، اسّود وجهه وضاقت عيناه، وبدت ذراعاه كما لو أنهما فرعا حطب عتيق.

التف جمع من المصلين وصحب يحيى ومن شاركوه أمسيات الخلاف والاتفاق حول الزائر الذي بدا خاصاً للغاية، وهاماً للغاية، قال مقبل:

- *جـــئت القاهرة لملاقاتك، ذهبت إلى الربع، عمي الدواج صالح أخبرني بالمكان، خفت أن لا ألتقي بك، أن تكون ضعت بين السهول والجبال أو ناس البلد الكبير هذا.*

أمـــسك يحيى بكف الراعي ضاغطاً، تنوب اشاراته عن كلماته في نقـــل انفعالـــه، وتلجلـــج مقـــبل وهو يتمتم كمن مسه خوف وحيرة:

- عمي صالح صار عجوزاً متعباً، لم يعد يسافر، عاد قبل شهرين متعباً، فقلت أجئ أنا إليك.

هز يحيى كفيه وهاجت عبراته وهو يسأل عن مصير الحمل الذي كانـــت شهاوي تحمله في بطنها يوم خرج من سينا، وهل صار الراعي أبـــاً، طأطأ مقبل رأسه، هناك كلمات تتقدم على استحياء ووجل بين عبارات الترحيب والاستفسار عن الأهل، قال:

شهاوى جنية، صاروا أربعة، أربعة أرانب لا يشبعون، نتفوني مثل الدجاجة، نحمد الله، عمي صالح عاد من الكرك مريضاً بالحمى الصفرا، نجا باعجوبة.

ارتخت كف يحيى وهدر قلبه، هامساً:

- الكرك!

تغـــيب الكرك ردحاً ثم تعاود البزوغ كأنها دم يتفصد من جرح، تـــسقط بقلعـــتها ورجالها ونسائها وغاباتها فوق صدره، وتشق فؤاده، بكى مقبل مرتبكاً متأتأً:

- الله يـــصبرك، أقـــولك، سامحني، أقولك، عمي، أبوك، عمي، عيسى أبو بكر الطحان، النحال، رحمه الله، قابل وجه ربه الكريم.

الذين تجمعوا حوله ينتظرون مواساته عند الجزع، أصيبوا بالدهشة وهو يسأل ثابتاً كما لو كان الخبر لا يخصه:

- ومريم!! كيف حالها؟؟

- صعدت إلى الكرك، أهالي جلجول تفرعطوا في الحمى، لم يبق مـــنهم كثير، حمى ذبحت الكبير والصغير، حسرة على عمي، ما أمهلته

يــوم، جلجــول صـــارت خرابة، ينعق بها البوم، مريم بنت مبروكة، محروسة بحماية الله، هي الان في الكرك.

- وحيدة!!

لم يـــرد، خـــبرَ صمته ما حل بالعائلة المنكوبة، جرجر يحيى ثوبه خارجـــاً برفقة صاحبه الراعي من بين جموع المصلين الذين تدافعوا عند اقتراب صلاة المغرب، جذبه برهان من ردنه سائلاً بلهفة:

- ماذا ستفعل؟؟

لم يلـــتفت يحـــيى نحوه، علم أنه لو توقف لحديث أو وداع، فإن لحظات ضعف قد تعتري قراره، قال وهو ماض في إثر مقبل:

- حائر.. حائر.

صاح برهان:

- يا ولد، توقف، أنا رجل بدين لا أقوى على مطاردتك، يخرب بيتك، توقف واسمعني.

وقف الرجلان يتهامسان، ونقل برهان غضبة الأساتذة وتباحثهم في شأنه، وما نما إلى علمه بامتناع استاذه عن اجازته، ولعل الله أراد به خـــيراً رغـــم الفاجعـــة؛ ما حدث من وفاة والده، واضطراره السفر للالتحاق بشقيقته، ربما كان انقاداً من بهدلة ينالها على أيدي المتمرسين في النـــزاعات، فضها أو إثارتها، همس برهان:

- اخـــرج مـــن مـــصر قبل أن يخرجوك، رحم الله أباك، وعظم أجرك، عرف متى يموت، مات ليخرجك، وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم.

لم يـــشهد يحيى الهرج الذي ساد طلبة الازهر وقد غادرهم مكلوم الفـــؤاد، ولا استرعى انتباهه التجمع الاحتفالي تحت شجيرة الدفلى في الـــربع وهـــم ينتظرون ليلة القدر، وإن لمحوه يسرع إلى حجرته ويغلق

الـــباب دونهم، فإنهم مع ارتفاع الآذان صافياً.. الله أكبر.. الله أكبر.. سمعـــوا ما ظنوه همهمة بكاء مختنق وراء الباب، وشاهدوا دموع مقبل تنهمر قطرات تتلاشى في ثنايا لحيته الكثة المغبرة.

صـــلوا بـــصمت قبل خروج يحيى إليهم وقد بدا على وجهه رضا جديـــد، لم يفــه بكلمة متلقياً تعازي الجالسين، ولا حتى وميمون يضع رأســـه في بطـــنه معانقـــاً بألفة غريبة، اكتفى بابتسامات حزينة ذاهلة، وهـــزات رأس متفـــرقة، لكـــنه عندما سمع صوت سنابك حصان عربة هفـــوف، ارتبك وبهت لونه، ثم طفرت دمعته وهي تعانقه خالية البال، تتبعها جمان ضاحكة، انقطعت البهجة التي تنبثق عادة عند دخول المرأتين الـــربع، أدركت هفوف إن في الأجواء وجيعة ما، وحامت جمان حوله مؤكدة على حقها بمعرفة ما يحدث؛ قاد يحيى هفوف إلى حجرته مختلياً بها باكياً على صدرها، هي أيضاً اعتنقت زنده وبكت على الطحان العزيز، وإن أنكرت جزعها على أهلها وما أصاب البلاد من وباء، قالت:

- قلبـــــــي لا يكذب عليّ، أهلي بخير، الحلاق، عليم بالدواء لن يسمح للوباء بالوصول إلى باب بيته، أهلي بخير، أعرف ذلك.

اقترح يحيى على هفوف مرافقته والعودة بصحبته إلى أهلها، تيبس حلقها وفغرت فاهها، ثم استعادت توازنها وبكت في حلكة الليل تبوح بمخاوفها:

- تركتهم زمناً؛ اشتقت كل يوم لوجوههم، أخاف أن افجع بمن يقـــول أنهم كانوا هناك، أريدهم في ذاكرتي كما عهدتهم، ولأبقى في ذاكـــرتهم كمـــا يعرفون، فقد غيرتني الأيام وشوهتني الحياة وما عدت ابنتهم البريئة الطيبة.

يخجـــل يحيى حين يلتمس قوه نفسه فلا يشعر بصلابة، ويدرك إن عـــوده ما اشتد في مواجهة الخطوب بعد، وإن طموحه باجازة الأزهر

اندحر كما لو لم يكن يوماً، وإن الشوق الذي غالبه إلى الديار وأنكره على الأهل؛ يعصف به، فكر ملياً بمريم؛ وحيدة في أرض بعيدة لا سند لهـــا ولا ولـــيف، تمنعه ذكراها الرقاد، يسترجعها تنوح وتجوح تحت الـــشجرة وتـــذرو الماء والشعير، وتحرق البخور حوله؛ تبعد عنه جناً متخـــيلين يرقبونه على سطح الأرض التي وقع فوق ترابها، عاوده حنين جارف ولهفة للمكان الأول؛ ساعده على اتخاذ القرار في عزلة قصيرة.

أسر بقراره في مغادرة المحروسة إلى الحاج جعفر، الذي أشار عليه لتخفـــيف صعاب الطريق مصاحبة محمل الحج المغادر مع انقضاء شهر شوال القادم، يمتلك من وقته شهراً كاملاً لترتيب شؤونه وتوديع أحبته.

بدا الزمن شديد الوطأة، ثقيلاً حيناً، متعجلاً حيناً، وبدت مرافقة المحمل الطريقة الأنسب والأسرع لسفر آمن يمر به في قلعة نخل، ليمكن مقـــبل من زيارة عياله، والاطمئنان على حلاله، ومن ثم يفارقان قفيل الحجيج قاصدين الكرك.

خفـــف إعـــلان قراره السفر هوج الشيوخ والأئمة، كفاهم الله الدخـــول في صراعات جانبية؛ قدموا واجب العزاء كأن شيئاً لم يكن، وعرضـــوا خـــدماهم لتـــسهيل انضمام الرجل إلى المحمل، وما تمكنت هفـــوف من ثنيه عما أراده، بل كانت تذوب أسى كلما تلفظ باسم مريم، وتتوارى خجلاً لتملك الخوف من فؤادها، وتقصيرها عن العودة إلى الكـــرك ملتحقة بعائلتها، تكرر في كل آن أمامه، وأمام مرآها، إن أســـرة الحلاق بخير، ولا بد إنها نجت من المرض، وارتحلت مع مريم إلى الكـــرك؛ تطمئن نفسها لا المسافر، أما جمان، التي كبرت سنوات على حـــين غـــرة، أطرقت، واكتفت بالقول في همس حزين، إنها ترافقه إذا وصـــل كـــتاب حريتها قبل رحيل المحمل، وإلا؛ تنتظر وصول كتاب عتقها ولو تأخر أعواماً، وتلحق به إذا كان مقدراً لها أن تصير زوجته.

مـــزيج من وجع ولوعة وتأهب ولهفة عصفت في ذهن الرجل؛ ما شعر بالعيد يمر مروره الحزين على حارات مصر، وانشغل في اتمام أوراق ســـفره المأمول، قاصداً ويوسف صبـــي النحاس منطقة الجمالية، وصلا دار الكسوة في حي الحرنفش، كان جعفر بانتظارهم في بهو واسع يحتشد فـــيه الخـــياطون والخطاطون وحرفيون ينسلون خيوطاً ذهبية من صفائح رقيقة، يرصعون بخيوط الذهب والفضة مسبلاً من الديباج الأسود ليصير كـــسوة لبـــيت الله الحرام، وينسجون سجادة الكعبة الشريفة، وأخرون يطـــرزون حواشي حريرية بالمذهبات والزركشة كي تصير كسوة للمقام الابراهيمـــي، وســـتاراً لباب التوبة في مكة، وقر الآسى فؤاده على فقده العزيـــز، وعلى من سيفقد في مصر، لكنه بحث ورفيقه عن من يسهل له تـــسجيل اسمه في ديوان الحج مرافقاً لمحمل هذا العام، قال له الفتي الذي يعكف على تطريز كيس من الديباج لحفظ مفتاح الكعبة:

- *لا تصرح بأنك ستقطع السفر في منتصفه، فأمير الحج سيتردد إذا تـــيقن مـــن مفارقـــتك لهم في منتصف الدرب، يفضل اصطحاب الذاهبين إلى جدة فمكة.*

بـــدا أمـــير الحج أكثر ليونة مما توقعوه، وإن لم يخف يحيى وجهته كمـــا نُصح، فقد جاءته رسل أئمة الأزهر تؤكد ضرورة إيجاد مطرح للـــرجل المسافر، كما لم يغب عن باله إنه نصف أزهري، وقد يكون لوجـــوده فائدة إذا ما تقاعس دوداره[1] عن تأمين مكاتباته، فهو قارئ متمكن من الكتابة، كما إنه قد ينقذ إمام الحملة العجوز، إذا ما حل به التعب في مهامه من إمامة الصلاة، أو دروس الوعظ.

تسارع الزمن عند أهل الربع وهفوف وجاريتها كأنما العمر يطير بأجنحة إلى انقضاء، بينما مر بطيئاً غامضاً لدى يحيى، شهر كامل وهو

(1) كاتب محمل الحج.

أسير صور تأتيه من الماضي، وهواجس تتعلق بحاضره وقادم أيامه، لكنه دارى ما يعتريه من قلق، وأبدي وثوقاً وثباتاً، عندما مدت إليه هفوف المشخص الذي رافق حياته ضماناً لا يستخدمه بتاتاً، مؤكدة إن المشخص حق لمريم دون سواها، وإليها تعيده إليها، فاض حزنه، أوجعه أن يلمس المشخص بيده، ثم عاوده اليقين الأكيد من أن المشخص لا يفترق عنه وإن فارقه، قال:

- بل أتركه لجمان، يكون لها عوناً في الطريق إذا لزم، أو تعيده لي، إذا جاءتني.

هبت جمان بغضبة عاشقة، صاحت في وجهه:

- إذا جاءتني!! أنت لا تعرفني إذاً!! سأجيئك، ستراني في كركك البعيدة هذه، وسيكون المشخص معي.

قبل جبينها بهدوء هامساً:

- إذا وصل المشخص الكرك، فقد وصلت أرضاً، لكنك ما تبرحين الفؤاد أبداً.

في السابع والعشرين من شوال للعام الهجري السادس بعد الألف، حمل يحيى بين متاعه قطعة من جوخ لف بها كتبه الأثيرة بحرص، ومضى.

كانت كسوة الكعبة قد وزنت، وحُملت على جمل جهم رئيس، تعقبه قافلة لسبعين جملاً يرافقون دواباً كثيرة لحجيج مصر وأفريقيا، جاءوا على بعد المسافات، وانتظروا موعد مسير المحمل، تحركت المسيرة من ميدان رميلة قرب القلعة في مرتفع يطل على القاهرة، سار أمير المحمل خطوات داعياً الوالي لقيادة الموكب، وارتفعت صياحات التكبير والتهليل، والجمل يتبعهم مثقلاً بحمل الكسوة، في هودج زين بأقمشة خضراء وحمراء وسوداء، طرزت بخيوط الذهب آيات قرآنية وزخارف

بديعــة، حرك الجمل رأسه المحلى بالعقود والشراشيب الملونة ومضي، فتــبعه رهــط كثير من الشيوخ، لأول مرة منذ خرج المحمل من مصر المحروســة، لا يــرافق موكبه قضاة المذاهب الأربعة، ويكتفي بقاضي الحنفية، وأئمة المساجد، ورؤساء الطوائف، والحرفيين، ومجاذيب الطرق الــصوفية، والعامــة الــذين يتكاثرون بينما الموكب يطوف شوارع المحروســة، وحملة البيارق والرايات، وأساتذة الزوايا الذين تأكدوا من رحــيل يحــيى بين حجيج المحمل، خارجاً من رميلة قاصداً الفسطاط وجامعهــا العتيق حتى باب النصر، آلاف الناس تدفقوا يرقبون الموكب وبعضهم يلحق به، والنسوة يزغردن منشدات:

- يا جمل يا جمل يابو خف زيني..
أشرّق مشرّق والله وأنظره بعيني..
و ن مدحت النبــي ياما خايل مديحه..
إن عطاني ربــي لاصلي ف ضريحه..[1]

أحــيط يحــيى بجمــع من الحجيج الأفارقة السود غلاظ الشفاه، يــركبون بهــائمهم مبتهجين ومتقدين حماسةً وولهاً وراء كبار المحمل، الــدودار، ورئــيس الحرس، والقاضي، ومشرف الجمال، والطباخين، ومــسؤولي الــتموين، والبــيطار[2]، والطبــيب، والخباز، والسقائين ومــشرفهم، والــبيرقدارية يحملون أعلام المحمل المصري التي تميزه عن المحمل الشامي الذي سيلتقون به إذا ما وصلوا تيه سيناء، الرجال الذين جلــسوا علــى المصاطب وعند مداخل الحوانيت سمعوا النسوة يرددن ببهجة:

- رايحة فين يا حاجة يامّ الشال قطيفة؟

---

(1) مديح نبوي شعبي.
(2) البيطري.

رايحة أزور النبـــي محمد والكعبة الشريفة..

إللي عشق النبـــي يروح له ع الجريدة..[1]

والبخيل يقول: دا طريقه بعيدة..[2]

لم يـــتمكن مقبل من إبعاد المجذوب الذي تعلق بفخذ البهيمة التي يمتطي، وهو يصيح بشجن:

- من كان ضمينه النبـــي لم شق جسمه نار.

وصـــل الموكب باب النصر، وانفتحت الدروب أمامه، في حين أوقـــف الحـــرس عامة الناس عن الاستمرار في ملاحقة ركب المحمل، وأعـــادوا النسوة باكيات إلى الوراء، فرقوا المجاذيب وردوهم بالعصي، وشـــاهد يحيى بوابة النصر تنغلق وراءهم، وكان آخر ما سمعه نواح باك يتحشرج:

- ياللي زار النبـــي يجيب الأمارة..

دا المشاعل دهب.. وخضرا الستارة.[3]

---

(1) غصن النخيل.

(2) مديح نبوي شعبي.

(3) مديح نبوي شعبي.

الفَصْل الرَّابع

الكرك

1008 - 1014 هجرية

1600- 1606 ميلادية

وقف نبـــي الله سليمان على سرير ملكه، رفعته الريح عالياً فوق الكـــون، انحـــنى ينظر مملكته متمتعاً بطاعة وانقياد الإنس والجن لعظيم هيبته، وحكيم قوله وفعله؛ تأرجح نشواناً، فاضطرب السرير، وأوشك أن ينقلب، أمر سليمان السرير:

- *استقم.*

فنطق السرير شارطاً:

- *استقم أنت حتى نستقيم نحن.*[1]

* * *

أستيقظ يحيى قلقاً، حدس إن حلمه؛ اشارة لما هو قادم، أو رسالة عما يجد، ولعله مجرد خطاب يعبث بوجدانه ليس إلا!

أدرك والحـــراك حـــوله يقوم ويقعد، أن الجمع يتهيأ لمغادرة كاتدرائـــية القديسة كاترين في قلب قرية نخل حاضرة التيه العظيم، انهمك الحجيج في ربط ممتلكاتهم، وإحكام شد حصائرهم وربطات الطعـــام فوق الإبل، تدافعوا من بوابة مسجد الخليفة الفاطمي الآمر بأحكـــام الله، الملحق بالكاتدرائية، كان الرهبان قد هيأوا المقام منذ الفجـــر الـــندي؛ ملأوا جرن الماء الحجري بالماء المعطر بروح الورد وهيأوه للمتوضئين، وأقاموه بين الأشجار بانتظار الضيوف المسلمين المصلين.

(1) التبر المسبوك في نصيحة الملوك - بتصرف.

بـــسمل يحـــيى وغسل كفيه ثلاثا، ثم تمضمض، وتنشق، ومسح وجهه ثلاثاً بالماء القراح متخللاً شاربه ولحيته الصغيرة، ثم أسبغ الماء في كفيه حتى المرفقين ثلاثاً، ومسح رأسه وأذنيه بالبلل المنعش، رفع قدمه يغسل كعبه، ومن بين أطياف المتوضئين التي تتحرك مثل الخيالات، لمح يحـــيى وجـــه مـــسافر جليل باسم استرعى انتباهه أكثر من مرة خلال السفر، شاهد الأربعيني المهيب جالساً القرفصاء عند باب المسجد، يبلل حبر ريشته بريقه، ويخط في قرطاسه.

نفض يحيى ما علق من قطرات على كفيه وتمتم:

- *أشـــهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين.*

تم اختـــيار يحيى إماماً، تلفت مرتين إلى الجمع خلفه؛ قلقاً لتأخر عـــودة مقبل من واحة نخيلة، رجح أن شهاوي حكمّت رأيها، ومنعته من مغادرة الواحة كما فعلت منذ أعوام، استدار رافعاً ذراعيه مكبراً في صـــلاة الفجر، لم ير في التفاتته تلك صاحبه مقبل، ولا الوجه المهيب الذي لمحه عند باب المسجد.

حمّل لوازمه فوق رحله، وعرج لوداع كاهن الدير، في الممرالمعتم الـــرمادي الـــذي يفضي إلى حجرة المخطوطات حيث تفوح الرائحة الحـــريفة للجلـــد والورق المخزن، التقى بالرجل المهيب يتضاحك مع الكاهن الواقف بقفطانه الطويل وصليبه الخشبـــي، فإذا ما لمحاه، صمت الرجل، وصاح الكاهن:

- *يحـــيى.. صاحبنا من زمان الواحة، تعال.. ألم تلتقيا؟ تسافران معاً في قافلة الحجيج!.. ألا تعرفه؟.*

نقل الكاهن وجهه بينهما ملتقطاً اشارات النفي الودودة، ثم شد كف يحيى بيساره، وكف الرجل بيمنه هاتفاً بحماسة:

- هذا الصالحي... محمد نجم الدين الصالحي، وهذا يحيى... يحيى الكركي.

تحـــركت قافلة الحجيج عابرة وادي الراحة صاعدة طريق تراجان العظيم، تلفت يحيى مرات وراءه عل أثراً يبين للراعي، ثم استسلم لغيابه، ومـــضى يؤنس تأمله المرهف صمت الصالحي، وقد انكشفت أطراف قرطاسه الجلدي من خرج راحلته.

ثقُل الهواء برائحة الملح، فرجح يحيى اقتراب البحر، وغاص فؤاده متذكراً دمعة جمان العالقة في أهدابها، وضع كفه على صدره متوجعاً، حاول إرخاء جسده المشدود على رحله، نبض خفي حزين ينبؤه إنه لن يـــراها بتاتاً، كأنها وهم، حلم رملي تذروه رمضاء ترحاله، أشفق على نفـــسه ولامهـــا معـــاً، كيف ترك للحمقاء الغالية تقرير أمر انتظارها حريتها!! كيف استدار ومضى دون أن يدفع عن الحب مصير الفراق!! وهل حقاً إن ما يجري مقدر لا مفر منه؟ هل كان بمقدوره تغيير خطوه التائه الذي يقوده إلى مجهول؟

قارب الصالحي بين رحليهما، ومد ذراعه نحوه بلطف المسافر:

- تشكو من علة يا صاحبـــي؟

تنبه يحيى إلى انكشاف ضعف فؤاده ووجعه، فاستقام على رحله، واستعار ابتسامة الرجل الودودة هامساً:

- أبداً، أنا بخير؛ الطريق طويل، طويل.

- ما أقصر الطريق يا صاحبـــي، وما أسرع الخطى.

أيقن يحيى إنه لا يرافق عابراً، لان فؤاده، وانتظمت زفرات روحه المتعبة، وتنبه ذهنه على شغف المعرفة الماتع، قال:

- أحـــار في طريق طال أم قصر، لكن حيرتي لا تتعلق بالمقاييس، إنما في معنى وجودنا على الطريق، مسيرين نحن أم مخيرين!

ضـــاقت المسافة بين عيني الصالحي؛ يعالج شعاع الشمس الساقط بقسوة وهم يشرقون متتبعين رحيق البحر المالح، سأل عارفاً:

- *شافعي!*

هـــذه المـــرة الثانية التي يسمع فيها يحيى هذا السؤال، كانت المرة الأولى لغايات تسجيله في دفاتر الأزهر، أطرق مجيباً:

- *نعم.. ألسنا كذلك جميعاً؟*

- *العثمانيون حنفاء.. وأهل الديار في مصر والشام من الشافعة، أنـــا دمشقي من الصالحية، لكن خياري أن أكون حنفياً.. أليس حرياً بالإنسان اختيار مذهبه ومعتقده!*

امتـــنع يحيى عن التعليق، لكنه منح ذهنه الحق في تقبل الرجل وسماعه علـــى بـــياض تام، حابساً تساؤله عن أسباب المفاضلة بين الأئمة واتباع اجـــتهاداتهم، بـــدا له كل تسرع في حديث؛ غير لائق في موقعه وزمانه، تريث الصالحي مائلاً إلى يمين رحله، مخرجاً قرطاسه من خرجه، قائلاً:

- *علـــى كـــل حـــال، تلك اجتهادات لا تصيب جوهر الدين، يالـــسعدي برفيق قارئ، لدي ما أطلعك عليه فيما بعد، لكنك سألتني عـــن الجـــبر والاختيار، هذا سؤال الأطفال والشياب على حد سواء يا صاحبـــي، ولن تصل إلى جواب مهما جاهدت، لكن كل فرقة تبني ســـياجاً تحيط به اعتقادها، كأنه وحده الشرع اليقين، يرى الحنفة أن أفعال العبد مخلوقة لله عز وجل لا شريك له في الخلق، لكن تلك الفعال صـــادرة عن إرادة العبد، وإلا ما معنى الثواب والعقاب! انما أمر الحياة جلي، فلا جبر ولا تفويض، هو أمر بين أمرين.*

- *ومـــاذا تقـــول في رجل وضع الله بين يديه ما تمناه، ومد له في اقتـــنائه، فأضاعه في غفوة أو سهوة؟ أو استهان به في صحوة؟ انسكب بين أنامله مثل دفق الماء فما أمسكه! أتظن كان قادراً على تغير قدره؟.*

ضحك الصالحي برفق حان، وقال:

- أنت الأستاذ الأزهري في تلك القافلة على ما ظننت، لا أنا، ألست أزهرياً فقيهاً!! فما بك تبتليني؟ أنا مجرد رجل حنفي لا أعرف أكثر مما علمتني اياه كتب الأدب، ألا تراني لا أصلي خلفك استجابة لتحريم صلاة الحنفي وراء الشافعي، ماذا تنتظر مني وأنا على هذا الاستسلام والاذعان لما تعارف عليه علماء الديار؟ دعك مني، إني شاعر أو شويعر، معلم غارق في النحو وبليغ الكلام، علام تستفتيني؟ مع ذلك أفهم حيرتك، تلك والله هلوسات عاشق مبتلى بالهوى.

أدرك الصالحي إن الشاب حيّ؛ تضرج وجنتيه حمرة إذا ما رُفع النقاب عن قلبه الملتاع، شاهده متماسكاً ومجاذيب القافلة يقصدونه يطلبون تفسيراً لطقوس الحج المنتظرة، متأن، حلو الروح إذ يمارون ويحتالون في توسل تخفيف المشاق التي لا تستقيم مع منطقهم، لا متعنت، ولا مغلق للاجتهادات على تنافرها، قادر على قبول المختلف فيه، متمكن من الكلمات التي تمنح سامعه يقين الراضي وإقبال المختار، شاهده دامعاً وقد أطل مقبل تخب به الناقة ريا عند رأس العقبة على البحر الأحمر، محتضناً ولداً نحيلاً يافعاً بين ذراعيه، يكاد كلاهما يطيران فوق السنام، وصياحات مقبل تتردد:

- هوووه... هووووه... يحيى...

لم يبد الحجيج مثل لهفة يحيى لعودة الرجل الذي انضم مجدداً إلى القافلة مصطحباً بكره سيف، كان الصغير نحيلاً، حاد النظرات مثل أمه، يتمتع بضحكة بريئة، وذراع قوية العصب كما أبوه، فرح يحيى بطفل السابعة الذي سيرافقهم الرحلة، وتعجب كيف ارتضت شهاوي إطلاق صغيرها زائراً للكرك البعيدة، ضحك مقبل عن فجوة في فيه وقد

فقـــد أحـــد أسنانه، رفع كف الصغير كاشفاً عن خيوط صوفية رفيعة مربوطة مثلما الأساور حول معصمه، قال:

- الملعونة، الجندب، ربطت حول كف ولدها اثنتي عشرة ربطة بخيط من صوف، قالت: كلما ولد هلال شهر جديد في السماء، عليّ فك واحدة من خيطان الصوف، وهددتني، إذا لم أعد إلى الواحة لتفك هي بيدها الخيط الأخير، ستهج بالبنات، وتأتيني سيراً على الأقدام عبر التيه دون أن تصحب معها ماءً ولا زاداً، وإن هلكت وهلكن؛ تحملني وزر ما سيحل بهن في صحراء الله الواسعة.

هـــز يحيى رأسه، تلك شهاوي التي يعرف، مسد وبر ريا الذي ما عادت فتية، لكن صبورة، حمولة، تتعرف على صاحبها، فترمش أهدابها بـــوداعة مستشعرة لمساته الحانية، سمع المستريحون على شاطيء العقبة الرملي تهليل قافلة الشام تقترب، فهللوا، وتراكضوا إلى إبلهم وحميرهم وجيادهم، وهمس أمير المحمل لدوداره وهو ينظم صفوفهم:

- لا تـــبح لامـــير محمل الشام باجرتنا، قد لا يكونون أعطوه ما أعطـــونا، رحلتـــنا أشـــق وأوعـــر، يعبر مدناً وقرى ومزارع، ونعبر الـــصحاري؛ يعترضـــنا الضبع وقاطع الطريق، القبائل البدوية وحدها تكلفـــنا ستمائة ألف غرش خاوة لحماية الحجيج، وإياك أن تتبرع لمن أراد الانفصال عنا براحلة تنقله، بالكاد تكفينا دوابنا.

لم يـــشعر أمير المحمل بالأسف لانفصال الأستاذ الصغير والراعي والـــشاعر الصالحي الدمشقي عنهم، فقد اطمأن خاطره، وحملة الشام تـــنظم إلـــيهم يستكملون الرحلة إلى مكة الشريفة معاً، أئمة ومقرئين وعـــاملين، لا ينقصهم مدد بشري ولا مؤونة، مما جعله سخياً بتزويد المفارقين بالمؤن والشراب؛ وإن اقتربوا من مقصدهم، جلجول.

* * *

مضى الرجال الثلاثة والطفل متبادلين اعتلاء ظهر الناقة، وإن كان ثلاثـــتهم يتيحون للصغير أن يظل راكباً في المسافات الشاقة التي تصعد من الساحل إلى وعر الحميمة عبر جبال صخرية بركانية، لم يتعدوا عن طـــريق تـــراجان المعلـــومة طلباً للسلامة، اجتازوا الفرذوخ، فالبصة، فأذرح، فالشوبك، فيما كان مقبل وولده يتأرجحان فوق الناقة، يمشي يحـــيى والصالحي إلى جوارهما، وقد يجلسان في فيء الرمان المتنامي حول السواقي الصغيرة التي تخترق الهضاب مثل شرايين تمد الأرض بالماء.

يفـــرد الـــصالحي أوراق مدونته العجيبة، فيقرأ يحيى عنوانها الظريف "ســـفينة الدر" ويرى اسم كاتبها خط برشيق الرسم، محمد بن نجم الدين الصالحي الهلالي الدمشقي، يقرأ له الصالحي ما جمعه وحققه من در الشعر والنثر، وما خطه من هوامش حول طبائع الأمم التي رأها وشهد حياتها في الجزيـــرة العربية ومصر، وما استوقفه في أسرار الاهرامات المصرية، ويخرج يحـــيى بحـــرص كتاب "عيون الحكمة"، خبيئته الغالية، ومقتناه ودره، يمرر الصالحي كفه متحسساً الغلاف الجديد للكتاب باكبار قائلاً:

- لكـــل زمان فكره، لا تحاسبني بعظيم ما جاء به الأوائل، ولا تـــضعني في ميزانهم، فما أنا بعلم مفكر، إنما شويعر على باب الله يجمع الكـــلام الجميل، ويوثقه، قد يأتي زمان لا تبقى فيه الجسوم ولكن يخلد القـــرطاس، حينها سيعودون لكتابـــي المتواضع هذا ليتعرفوا على من أفـــنى الـــزمان أجـــسادهم؛ وما تركت زيارتي لمصر تنقضي إلا وقد خططـــت بـــيدي ما أسميته "سوانح الأفكار والقرائح في غرر الأشعار والمـــدائح"، أودعـــت فيه سوانحي وفيض النفس، وأمنت عليه تلميذي الخفاجي، ولو طال بنا الزمان وترافقنا؛ أودعك "سفينة الدر"، ولكن لا تقـــل لنفسك وأنت تتصفحه، أي كلام غر لا طائل تحته، ولا يأخذك غرور الأزهري الفقيه المفوه، ذلك أن لكل زمان سوانحه..

إذا أبصرت في لفظي فتوراً وحظي والبلاغة والبيان..

فلا ترتب بفهمي إن رقصي على مقدار ايقاع الزمان.

لطفـــت لطائـــف الأدب والشعر طريق المسافرين، عندما وصلوا وادي الحـــسا، سمـــع يحـــيى هدير شلالات المياه تنهمر فوق الصخور الصلبة، ولمح أعالي النخيل في مرمى ناظريه، قرع قلبه، تقهقرت سيناء والمحروســـه، وغابت وجوه أهل الربع، ورفاق سوق النحاس، وتلاميذ الأزهر المبصرون والعميان، وأساتذته بعماماتهم وأحذيتهم المصفوفة عند البوابة الكبيرة، غاصت روائح الياسمين والخزامى، وخضرة عيني جمان، وتلاشـــت صيحات الباعة والقرد ميمون وصغار الربع، وصوت الآذان الـــشجي من منبر الأزهر، غرُب زمن كامل بقضه وقضيضه، كأنه لم يـــرتحل إلـــيه يـــوماً، دخل يحيى حومة الروائح العابقة لأعشاب مريم، واســـتطعم العسل الذي كان والده يلقمه إياه، كما لو أن لسانه لحس حلاوته تلك اللحظة، انسلخ زمان، وارتد إليه أخر.

الرائحة النافذة لشلال نبع مياه عفرا الكبريتي في أعلى الوادي؛ أصابت الصالحي بالدوار، توقفوا برهة ريثما يستعيد لياقته، واندفع صـــغيرهم سيف بثيابه تحت دفق الشلال، وبدا يحيى غائباً وهو ينظر إلى غابـــات النخـــيل الطالعة من شقوق الصخر، يخفى عجلته رأفه بـــرفيق السفر الكهل، لاحق مقبل وولده الأحياء البحرية بأرجلها الـــرفيعة، وهي تهرب مسرعة بين الصخر والماء ضاحكين، وهبط في فؤاد يحـــيى آمـــان رائق، وما أن عاد الصغير يحمل سلطعوناً يحرك قوائمه المتعددة في الهواء، حتى أعلن الصالحي إنه تجاوز دوخة الدوار وبات قادراً على المسير.

انفتح الطريق؛ سهل يخترق الجبال، وعند نقطة بعينها، أدرك يحيى إنـــه في جلجـــول، اســـتطاع والظهيرة تشتد لهيباً تحت أشعة الشمس

المسلطة فوق الوهاد تمييز المنظر الذي يعرفه تماماً، والطريق الغربي الذي نزله مرات وشقيقته وأباه يقصدون القدس، كان يقينه إنه في جلجلول لا يقبل الشك، وإن أحاطت به أرض مزروعة بالكامل، ارتفع فيها نبات أخضر بأوراق عريضة سيفية متراً في الفضاء، غرست أشتالها على مسافات متقاربة في خطوط طولية منتظمة، تشي بزراعة محترفة، علق الصالحي وهو يحك أنفه بقسوة:

- *ما أمركم يا أهل الكرك؟؟ بلادكم عجيبة، ماؤكم يعبق بالرائحة النتنة، وزرعكم ينفث حمضاً مراً ويثير الدوار!.*

اندفع سيف شاداً شتلة من الورق الأخضر بعنف محاولاً قطعها، والتفت يحيى متوجساً؛ لم يأمن الورق المتماوج بالريح، هتف محذراً:

- *لا تأكلها.*

غياب فزاعة الحقل كان مؤشراً على أن زارعيه لا يخشون الطير ولا البهائم، ودلل ابتعاد العصافير والحمائم والغربان الصغيرة عن الحقل بخضرته البهية ورائحته الحريفة على سمية النبتة الغريبة التي ما شاهدها أيهم قبل يومهم هذا، وإن تعرف يحيى على الشجرة التي جلس تحتها سنوات طوال تلميذاً فضولياً، ثم أستاذاً أكثر فضولية، تضاءلت فروعها وبهت أخضر ورقها، وبدا جذعها أعجفَ غارت في خشبته الجافة أسماء الأولاد المحفورة عبر سنوات طويلة لأجيال تعاقبت على تلقي العلم تحت الشجرة، ظن إن تلك النباتات المزروعة برعاية ودقة في خطوط مستقيمة غيرت أمراً ما في تربة المكان، واعتدت على حق الشجرة بالنماء، لم يبح بمخاوفه، وتجول مقبل في المكان يضرب كفيه تعجباً.

- *هذه جلجول، لا تخفى عليّ ولو لم يكن هناك جدران وبيوت وخيام وأنام وأنعام، هذه جلجول ورب الكعبة، لست أحمقَ، أعرفها مثل كفي، ولكن..*

تركوا الحقول الخضر الخالية من الناس وراءهم، أكملوا خطاهم إلى الكرك حزانى، عصفت المخاوف بيحيى، تذكر، كأنه كان ناسياً إن والـــده النحال لن يكون بانتظاره، وإن موته هو السبب المباشر لعـــودته تلـــك، بدا له أفول جلجول المكان، وفقد الأب مأساوياً، يثرثـــر مقـــبل واصفاً لولده الحياة التي كانت في الخربة الغافية على ســـهل يقـــتطع الجبل، في حين اختار الصالحي الانحياز إلى صمت صاحبه الأزهري وقد استبد به التعب، وفي نفسه توق للوصول إلى دمشق.

توقـــع يحيى جدران قلعة الكرك التي ستظهر حتماً وهم يقتربون، بأسوارها الملساء المواجهة للغرب، واستبشر الصالحي حين برزت أعالي الجدران الصخرية عند قمة الجبل، تنفس الصعداء لوصولهم إلى حاضرة تمكـــنه مـــن إلقاء جسده المتعب فوق وساد وثير أو قاس، سيان إذا ما تمكـــن مـــن إرخاء عضلات قدميه الموجوعتين، فإذا ما ظهرت للعيان بـــيوتات الكـــرك المشيدة من حجر جيري أملس، ودبت الحياة بمرور الـــناس، استوقف مقبل المارة سائلاً عن منـــزل مريم ابنة النحال، ولم يفارق الأستاذ صمته الذاهل.

قـــادهم صبـــي إلى البيت الطيني في ضواحي المدينة، يعرف يحيى إنـــه ســـيجد خلف الجدران شقيقته، أمه، وجذره العتيق، مريم، رأى حصائرها منشورة في الشمس لم تستكمل النسيج، وشاهد عند الجدار نقـــرة الحطب التي تغلي عليها أعشابها، شاهدها تجتاز الباب الخشبـــي المـــنخفض نحيلة ذابلة، وجهها مكذب لمشهده يقف قرب الناقة ينتظر اطلالـــتها، ظـــن الـــصالحي إن زمن الصمت والريبة طال، فقد صبره صائحاً:

- *لا حول الله.. أهكذا يلتقي الأحبة والأهل في الكرك!*

وقفـــت مـــريم ذاهلة، ثم نبهتها صيحة الغريب القادم مع أخيها، جمعت الحروف في حنجرتها، وأطلقت مواالها خفيضاً يتصعد على مهل وهي تتقدم راجفة نحوه:

- نامـــت عيونك يا أمي وعين الله ما نامت.. وعمر شدّه على مخلـــوق مـــا دامـــت... ايش هالقلوب اللكم قسيت وما لانت!!... وقلوبـــنا الليـــنه بالعهد ما خانت... يا حادي العيس.. أنا اللي أتحمل الموت، ما لي طاقة على الفرقة.[1]

بكى الكركيون يتلمسون الأستاذ العائد ويهللون:

- يـــا مرحبا عشر التراحيب.. عدد ليالي غبت عني.. أهليك لي معازيب ياليت.. ثم اتهنى واتريح..

أصـــاب مـــريم مس طفيف يمازج بين البهجة والعتب والغضب والغفـــران، بدت حانقة ثم حانية، هرمت كما لم يتوقع، تجعد وجهها، أنـــبت شقيقها على سبع سنوات عجاف لم ينقضي منها عام ما قرح عينـــيها بالبكاء، أجهشت على كتفه مستسلمة لمشاعر فرح وأحاسيس مـــضطربة، بكـــت حتى خافوا أن تعدم النظر، وضحكت حتى قالوا جـــنت، لكـــنها سرعان ما تخلصت من وابل الحيرة والتقلب، وعادت صـــلبة منطقـــية، بل بدت له أكثر منه احتمالاً وطمأنينة، تحدثت عن مرض أبيها في موجة الحمى الصفراء التي حصدت أرواح أغلبية سكان جلجـــول، ودفعـــتهم إلى مغـــادرة المكـــان لجوءاً إلى الكرك، كانت ملامـــستها الحائرة للحية الشاب النامية أكثر جلباً لمدامعها من وصف لحظـــة مـــوت والدها، وشرح طقوس دفنه في المقبرة الجماعية التي أقـــيمت أسفل الحقل، علم يحيى ماهية النبتة التي غطت سهل جلجول، إنها التبغ.

---

(1) غناء شعبي.

تقاطـــر التلاميذ والنحالون والطحانون والرعاة والتجار والبنات النساجات إلى بيت مريم؛ يتفقدون الغائب كأنه عائد من العدم، وقف حائـــراً باسمـــاً بمقـــدار وهو يتلقى التعازي، فرح قلبه وهو يرى عائلة الحلاق الشلبـــي بأكملها أمام عينيه معافاة سليمة من كل سوء، ازداد عـــدد أنفارهـــا بصغار جعفر يركضون بين الرجال، ابتسم ملقياً بخبره المفرح المبكي عليهم، هتفوا معاً:

- *هفوف!*

في لـــيال طويلة طلع فجرها، شرح لهم ملابسات لقائه بهفوف، رتـــب تفاصيل الكلام مشيراً إلى زواجها كأنه بداية رحلتها؛ متجاهلاً واقعة بيعها جارية لكارتال باشا، منتقلاً في حكايته إلى ترملها، وأسباب امتناعها عن مرافقته لمصالح تجارية ملحة وقاهرة أرغمتها على البقاء في مـــصر، اخترع تفاصيل لم تكن، تجاوز عن وصف نمط عيشها، خشية خـــدش فـــرحهم وهـــم يسمعون بآذان صاغية وأعين دامعة، وأكف راعـــشة، وابـــتهالات غامضة، مضى نهاران قبل أن يلتفت إلى زائره الصالحي.

حـــاول يحـــيى إكرام وفادة الضيف؛ وإن فجعته الحياة المتقشفة المتواضـــعة التي تعيشها شقيقته والتي جعلت كل شقاء قديم يبدو كأنه النعـــيم قياساً لحالها الجديد، ما تزال مريم العنيدة، تحاول ايهامه بعيشها ترفاً مقبولاً، وإن ريع نسيجها يدر عليها ما يكفيها ويزيد، تتدبر حالها بطـــرائق فـــذة، فتعد لشقيقها وضيفه أطعمة مميزة، تجود بحشوة اللحم والبـــصل المقلـــي بالزيت في عجينة المكمورة، وتدسها في طابون آل الـــشلبـــي لتنـــضج، وتهيئ الرشوف من جريش القمح والعدس ولبن الجمـــيد الخاثر، يضحك الشلبـــي معلقاً بأن مريم عادت تمارس أحب مهامها إلى نفسها؛ تدليل يحيى.

مـــضت الأيـــام القلـــيلة في احتفال وتذكار وعتاب وفرح، وانقـــضت، وصار لزاماً على مريم وهي تقعي إلى جوار حفرة النار تتأمل وجه يحيى الصبوح بصورة جادة، أن تشرح له ما كان من أمر الأرض.

* * *

- *الأرض لله.*

قال يحيى لشقيقته.

وقالت:

- الأرض لمن سقاها بعرقه، وتشققت فيها كفاه.

عام مرير مضى منذ وفاة عيسى أبو بكر النحال، وهبوط اليباب علـــى جلجول، وهجيج الناس بأرواحهم، ثم وقوع من تبقى من أهالي الخـــربة بـــين أيدي القساة الغلاظ أولاد الشيخ صايل، الذين وضعوا أيديهم على الأرض المهجورة مانعين عودة الأحياء من أهل الخربة إليها تحـــت سطوة القوانين التي يتلاعب بها متعب المختار، وشقيقه الداهية العقيم منصور، وساعدهما التابع مصعب وأنجاله الكثر، صارت جلجول ملكـــاً للاخـــوة الـــثلاثة، بموجب ما ختموه من سندات سليمانية في اسطنبول، ووفق قانون نامة العثماني، إذ حملوا مذكرات خلو البلاد من العـــباد إلى المحـــاكم في الكرك وعجلون، فسجلوها اراضي أميرية، ثم نقلوها باعطيات قانونية وأوراق رسمية، ووزعوها فيما بينهم، فما رجع أي فقـــير مستـــضعف إلى دياره، ولا تمكن من اثبات حقه في بناء أو زرع، وتحـــولت السهول الممتدة في القطع الجبلي والتي اسمها جلجول بـــرمتها إلى ملكـــية خاصة، نـــزعت أشجارها الحمضية واللوزيات والـــزيتون، ومـــا عاد هناك مكان للخضار والحبوب، وتحولت بفضل حراك منصور وسفره وتعاقده مع جهات كثيرة إلى مزارع للتبغ الذي

بات يغزو العالم كتجارة رابحة، حتى أنه يحمل بضاعته إلى سفن هولندية ترســو في ميناء حيفا، وكان مما استقوى به الأخوة على نصيب مريم قانون دائرة الحشرية الرسمي، إذ وضع المختار يده على ما تركه النحال لابنته، بحجة إنها انثى وحيدة انقطع عنها الذكور المجتمعون معها برابط الــدم، وقــد يكــون غياب شقيقها لموت لحقه، وعليه فإن دارها في جلجــول صارت ملكاً للدائرة الحشرية، كما أرضها، وكافة ما تملك، مقابــل قروش يسيرة فرض عليها استلامها، فتمكنت بمساعدة الأهالي من رفع أربعة جدارن طينية، بباب وشباك، تقع على شفير الجبل المطل على الوادي عند خاصرة مدينة الكرك، بدت حزينة هرمة ملتاعة وهي تعــيب الموقــع الجديــد لبعده عن الناس، وكيف صار مثار متاعب للنــساجات اللــواتي انحسرن تدريجياً، وانقطعن عنها؛ فقل نتاجها من البسط، كما هجرها الباحثون عن الدواء والاستشفاء، وهم يستقربون بــيت الشلبــي، دوامة الصعاب التي عاشتها مريم تؤشر على دور بالغ القــسوة والعنت لرفقة الماضي البعيد، أبناء الشيخ صايل، بدا العالم في عيني يحيى ضيقاً يتآكل وينهار دون هوادة.

اصــطحب ضيفه الدمشقي يعودان المولى أمين الذي احتبس في داره وما عادت قدماه تحملانه تحت الشجرة لينقل علومه للصغار، كان الــرجل ممــدداً علــى فراش حقير، إلى جواره حق من لبن مترع بلبن المخــيض وقد بقبقت فقاعات صغيرة على وجه السائل تشي بحمضه وقدمــه، لم يــتحدث المولى كثيراً، لكنه قبض على كف يحيى وهزها مرتعــشاً، واســترخى الطالب والأستاذ يتبادلان النظر تحناناً واعتذاراً حبيــساً لا يقال، وبدا كما لو أن الحجرة الطينية العطنة تفوح برائحة الــصنان، لم يكــن حول الرجل مريد أو ذو رحم يمد له العون، كأنما صــار عبــئاً على الحياة، ضرب الكرب فؤاد يحيى وهو يستعيد صورة

المـــولى تحـــت الشجرة وهيبته ووقاره، وأصيب بعدوى الوجع واليأس الذي هد قامة شقيقته فهمس لزائره الدمشقي:

- ســـأغادر الـــديار، أصحب أختي إلى مصر، وأنسى جلجول والكرك ما حييت.

ابتسم الصالحي وقد هاله كم الحوادث التي تقع للمرء في سنوات سبع، قال مستنكراً تعاسة يحيى:

- كـــذاب، لا يمكنك نسيان مسقط رأسك، وإن حاولت، إذا تعـــبت، لا علـــيك، لا تسلم روحك للحزن يذبحك، فكر باستراحة تفـــارق فـــيها أسباب الوجع مؤقتاً، فتداوي الجراح، تعال إلى دمشق، تعال وشقيقتك، نحملكم بجفون العين، امكث بيننا ما تشاء.

اســـتعادت مريم روحها المقاتلة بمجرد انتباهها إلى صبغة الحزن في نـــبرات صـــوت شقيقها، لم ترقها دعوة الدمشقي، وهمسات البعض متـــصورين أن يحيى عاد برفقة رجل يهيئه زوجاً لها، سخرت من فكرة مغادرة الكرك وعدتها من المستحيل، اتهمت شقيقها بالجبن عن المطالبة بحقه في محاولة لتحريضه واستنهاض همته، وبدا ليحيى إن مجرد الاتصال بالمخـــتار الجلف لتعديل ما تمت مصادرته من شقيقته، مشقة لا يمكن المراهنة على نتائج ركوبها.

انـــشغل بترتيب حياة أستاذه البائسة، أرسل طلابة ليتناوبوا على اطعامه وغسل بدنه المشلول، وليرفعوا مخلفاته ويفتحوا النوافذ، ويجددوا الهـــواء، والفـــرش، والأغطية، كأنه لم يعد معنياً بأوجاع مريم الكثيرة، لاهياً متريثاً مستخفاً بحرقة فؤادها، يكظم الغيظ ويؤجل الحراك.

اخـــتار مقراً جديداً أسفل السور الشمالي للمدينة، قرب المكان الذي عثر فيه مقبل على عيون الحكمة بين الصخور؛ يستقطب تلاميذ صـــغاراً جـــدداً، ويجمع من كبر من طلبته وما زال راغباً في مزيد من

العلـــم، ومن يحب سماع الصالحي يلقي بالقصيد العذب ويحكي قصص من فرقتهم الحياة في البلدان والأمصار، وسط كل هذا الصخب الملتبس بعمـــاء كبير لما يمكن أن يكون، أيقن يحيى إن مصير الأرض مناط به، فكلمـــات الرجال والنساء تشي بآمالهم حول الأستاذ الذي عاد لحل مـــشاكلهم، وإن غمـــضت الوسائل والتوقيت؛ فإن أحداً لم يشك إن الأمور ستؤول إلى صدام علني، وإن أرجأ المطالبة بحقه وحقوق الناس.

تقصى يحيى التفاصيل حول تغول منصور على التجار الذين كانوا في بلـــدة القـــصر يطحنون ويبيعون، والمزارعين الذين هجروا جلجول والخرب المجاورة وتشتتوا متفرقين على أراضي الملاك في الكرك يعملون بقـــوت يـــومهم، وكـــيف باتت أموال الكرك بمجملها احتكاراً على الأخوة، فكيفما وقف على تجارة أو زراعة، قفز اسم أحد الثلاثة أمامه، سمساراً، أو وسيطاً، أو ممولاً، أو محتكراً، في حين إن من تبقى من عامة الـــناس بالكـــاد يسدون رمق عائلاتهم، تُحمل المحاصيل على الدواب وتـــباع في مـــناطق بعـــيدة بأثمان عالية، وما زال المحصلجي العثماني يزورهم، فيقتطع من الفقير الضعيف ضعف ما يقتطع من الثري القوي الذي يرشوه ويدلل وفادته، ويحمله الهبات والغنائم.

تحسر مقبل بأسى هامساً:

– يا ريت ما عدنا، سأصحب ابني ونرد سينا.

وقال الصالحي:

– أرد دمشق..

من للكرك؟ تأمل يحيى الأرض تمور ظلماً، وسمع الأصوات مختنقة، ورأى الضعف في السواعد المعروقة، والوجع في العيون الذابلة، وانحناء الهـــياكل على أرواح مضنية، فأيقن أن لا مكان يهج إليه، وأن الكرك صارت العالم.

جاملــه الصالحي بكلمات صادقة، دعاه إلى دمشق في أي وقت يــريد، أشار إلى الجامع الاموي كمكان محتمل للقاء المرتجى، وأكد إن بيــته في الــصالحية يتسع للضيوف، وكما تحملوه في بيتهم الطيني فإنه يفــسح لهــم في مدينته، وبيته الخالي من الزوج والولد، قال إنه ينتظر زيارتهم ديناً في عنقه، وتمنى لو منحوه شرف الانتماء إليهم أهلاً وأحبة، همــس مقــبل في إذن يحيى حول تلك المجاملات التي بالغ الصالحي في اسباغها على كلامه، قال:

- ربما كان يلمح، أو يجس نبضك، ويقصد الزواج من مريم.

اســتبعد يحــيى الأمــر، فالرجل الذي قضى شهراً يمتع الجالسين بالقــصيد ويتحاور حول مكائد اللغة وجمال الكلام؛ لم ينظر إلى المرأة الحــزينة بعــين، ربما قدر إنها امرأة هرمة وهي غارقة في أحزانها، وقد عــرف المــشيب طريقه إلى فوديها مبكراً، وجعدت الشمس والحزن جفنيها فبدت طاعنة، تذكر يحيى هفوف الفاتنة التي تحايلها؛ فزاد كربه، وعاهد نفسه على محو ما تركه الزمان من أثار قاسية في وجه شقيقته.

فــك مقبل الخيط الثاني من الخيوط الصوفية حول معصم سيف، واعتلى الصالحي ظهر أتان ابتاعها بثمن رخيص من راع نفقت أغنامه، تدثــر بالعباءة الصوفية الفخمة التي نسجتها وخاطتها مريم هدية كريمة للضيف، ووجه سيره شمالاً صاعداً طريق تراجان[1]، عائداً إلى دمشق.

* * *

واجــه يحيى قدره، عند باب القلعة صفرَ منصور مطلقاً الهواء بين لسانه ولثته في تعجب واستخفاف، وهتف:

- *صصصصوووووو.. معقول!! يحيى في الديار يا عيال!!*

تجاهل يحيى الاستقبال التهكمي، وأبدا رغبته في لقاء متعب.

---

(1) اسم طريق السفر التاريخي.

يـــشك يحيى فيما سردته شقيقته عن زمان بعيد كانت فيه مقربة لأولاد صايل، كانوا فيه صحاباً وأهلاً، بدا كما لو أن التنافر والصراع بيـــنهم وجد هكذا منذ بدأ الخليقة، جلس متعب وقد اكتنـــز جسده كـــتلاً دهنـــية توسطت قامته وجعلته يزفر بين الكلمات، ويرجع إلى الخلـــف مفسحاً لكرشه، رافعاً رأسه يلتقط الهواء على شيء من الكيد واستظهار الأهمية والسلطة.

قال بنفس سخرية شقيقه ولكن بدربة أعلى وتصنع أكثر إجادة:

- نـــورت الـــديار، واجبك علينا، كان علينا أن نأتيك معزين بـــوالدك على الاقل، أعذرنا فقد تباعد الحدث، والمشاغل أكثر من أن تحتمل.

لم يذكـــر أي مـــنهما واقعـــة خروجه هارباً في ليل من رجال الجندرمة الذين داهموا بيته يطلبونه لخدمة اسطنبول، مرر كلاهما الواقعة كـــأن لم تكن، وتحدثا بحذر حول الأحوال الجوية، والوباء الذي حصد أرواح أهالي جلجول، وكيف اكتشف المختار وأخوته إن أرض الخربة صـــالحة للمحصول الجديد، الذي يسمونه التتن، شرح منصور المشاق الـــتي يواجهها في إنماء النبتة الغامضة التي يجهل الأهالي طبيعتها وكيفية العناية بها، وسط تلك الأحاديث الباهتة، طالب يحيى بحقه الذي أُسقط عـــند غيابه؛ ظناً بموته، فرد متعب بوضوح وقح مؤكداً إن حقه وحق مريم وصلهما كاملاً وقد ابتنت دارها به، وأشار منصور بصلف إلى أن الدار العتيقة التي كانت في جلجول وصادرها المختار بنيت أساساً بجود والده صايل، بدا جلياً إن الأخوين لا يقيمان وزناً لحق عيسى الطحان في بيته الذي ابتناه من أجر عمله في الطاحون.

نغـــصت الجـــراح القديمة وجه الحياة، تذكر الأخوة المواقف التي أحـــرجتهم بهـــا مريم وهي ترفض الاقتران بمصعب، وتذكر يحيى فعلة

المختار في بيع هفوف جارية للعابر الذي قبض منه الثمن، كلما تحدثوا تقلبت الذكريات واتسعت الهوة، وأيقن يحيى إن الاخوة لن يعيدوا حقاً لصاحبه في جلسات حميمة خجلة مثل هذه، خرج صامتاً أسود الوجه مكفهراً، صارت القلعة خلف ظهره وهو ييمم صوب بيت الطين، لف كوفيـــته باحكام حول وجهه، فلم يظهر من الوجه الغاضب الملثم إلا عينان تقدحان شرراً.

يكـــره يحـــيى مـــشاعر الغضب والقهر التي تعتريه، حلم مطولاً بجلـــسات رائقـــة تحت شجرة التعليم العتيقة، ظن إن لديه أفكاراً يريد الافـــصاح عنها ومحاورتها مع أهالي جلجول والكرك، لكن جلجول لم تعد بقعة على وجه البسيطة، بل مزارع للتتن تمتد بلا انقطاع، والكرك تنوء تحت أوجاع أهلها.

تبخـــر حلمـــه بالسلام والآمان، وبينما الشمس تغوص عند قمة الجبل وتضرج جنبيه وامتداد السماء فوقه باحمرار قان؛ فك مقبل خيطاً إضافياً عن معصم الولد.

* * *

في البداية، لم تسترع التجمعات عند باب بيت يحيى أو تحت سور الكـــرك حيث يلتقى بتلاميذه انتباه متعب وأشقائه، قدروا إنها استمرار لطقـــوس استقبال الولد العائد، وتغاضوا عن الفتى الذي هج بليل وعاد رجـــلاً أزهـــرياً، وتبادلوا بينهم على عجل كيفية التعامل معه، مجمعين على إهمال أمره والتقليل من شأنه، والالتفات لشؤونهم، مقدرين إنه لن يعاود الكرة في مطالبتهم بنصيبه من الخربة، بل سيفعل مثلما فعل سواه مـــن انصراف إلى معاشه، ومتابعة للقمة العيش الصعبة المنال، ظنوا إن اســـتخفافهم به كفيل بإماتة مطالبه، فانصرفوا إلى ما هو أجدى وأهم من تحركات الأستاذ الصغير.

حل موعد وصول المخمن الذي ترسل به الجهة العثمانية المسؤولة عـــن رسوم التبغ، ورشا منصور المزارع الذي يرافق المخمن الموفد من الدولـــة العلية، ليضمن أن لا تتجاوز تقديرات جنى المحصول التقديرات الأولية التي سجلها المختار والزرع ما زال أخضر في سهل الخربة، مخفياً المنحدر الجبلي المجاور لها عن عيون العثماني، كان الأشقاء يعانون توتراً عالياً خائفين من وقوع فروق أساسية بين التخمين الأولي والوزن الحالي للمحصول الذي حمّله مصعب على الدواب بانتظار وزنه.

أعلـــن مـــتعب وصول مبعوث "أمانت جليلة رسومات"، وذبح منـــصور كبشاً أحاطه بالفريك واللبن الخاثر، يعرفان إن المبعوث يعاين المكـــان والأحوال بعين طامعة في فائدة جزيلة، لم يبخلا برشوته وإن كانا حريصين أن لا يزيد مقدار الرشوة والاحتفاء بالضيف عن مقدار ما هرباه من تبغ يبيعانه سراً في القدس، أو يتسللان به إلى حيفا، كانت المـــساجلة مع المبعوث العثماني مبطنة بالتهديد؛ تحدث بعفوية مصطنعة عن التاجر الحيفاوي الذي حوكم ودفع ربع محصوله وفاءً لما هرب منه في سنوات سابقة، تبادل الأخوان النظرات حذرين حين قال:

- *رزق افرحوا به الان، كل بخشيش عرب زنكيل لا ينفع بعدها، هولندا ستحتكر كل التتن في الأراضي العثمانية قريباً.*

تظاهرا بالجهل، وتصنعا الغباء:

- *من هو هولندا هذا؟؟ تاجر كبير في الدولة العلية؟؟*

ضـــحك المخمن وهو يدس في فيه لقمة ضخمة من لحم وفريك سال لبنها ملطخاً لحيته وياقة ثوبه.

تحـــركت قافلة الحمير المحملة بأوراق التبغ العريضة اليابسة صوب فلسطين، تمايلت الدواب المثقلة تعبر وادي الموجب شرقي الكرك محاذية لوادي سعيدة حيث اقتربت القافلة من بحيرة زغر المالحة، تسلى المبعوث

العــثماني في طريق رحلته بدس كفه في جرابه قابضاً كمشاً من زبيب، لاهــياً بملاحقــة حباته التي يلقيها في الفضاء، ويلتقطها بفمه المفتوح، فــرحاً باقتراب انقضاء الرحلة المجزية، وجراب الذهب والفضة المربوط إلى خاصرته.

لم يــصل المخمن العثماني إلى فلسطين، عوضاً عن ذلك، وصل بلــدة الشونة في الغور الجنوبــي مهرولاً حافياً، متعباً منهوباً عارياً، لا يحمل إلا خرجه وما تبقى فيه من حبات الزبيب.

طــارت أخــبار المــبعوث الذي تعرض للاعتداء على قافلته إلى الكــرك، فأقبل الأخوة وقد انضم إليهما شقيقهما منصورعلى خيلهم السريعة يستجلون الأمر، ولولا الهلع في وجوههم، والغضب في العيون، لــرجح المــبعوث شــكه وارتيابه بأن المختار نفسه كان وراء الرجال الملــثمين الــذين اعترضــوا قافلة الحمير وبعثروا التتن على الطرقات، وأفــرغوا الخراج إلا من قليل يقيم الأود؛ غايتهم نهب النقود والذهب والفــضة، أثاروا الهرج والفزع بين رجاله، فهربت الدواب متفرقة بين مــزارع القــصب، وإن تركوا له آتاناً تقوده إلى الشونة، حين لحق به متعب وأشقاؤه، عاين وجوههم بالشك؛ لم يتصور البدوان والمزارعون إن أحــداً ســوى الأخــوة ورجالهم قادر على اعتراض قافلة المبعوث العثماني وقد حصنت بشاويشين مسلحين، بينما توجس أبناء صايل من قــوة جديــدة تزاحمهم وتحاول اذلالهم، بدا لهم الأمر أكبر من رعونة قطاع الطرق، قال متعب بخبث:

- الأستاذ وحده يفعل هذا، لا يحرض الناس سواه، وهم وحدهم أهالي جلجول الغاضون على زراعة التتن.

لم الجــندرمة العثمانيون ما تبقى من رزم التتن وقد تناهبها الرعاة والجــند والــبدوان، فأعــادوا ربطها ودفعوا بها للمخمن كي يواصل

رحلته مع ما جمعوا له من الحمير الهاربة، وألبسوا الشاويش الذي عراه اللصوص المجهولون، ثم أعاد متعب كتابة تذكرة مرورية للقافلة لتعبر بحيرة الملح إلى فلسطين؛ منذراً بالوبال من سيثبت تورطه في تلك الفعلة الشنعاء.

كان حادث قافلة الحمير شرارة أعلنت قيام حرب شعواء بين أبناء الشيخ صايل واتباع يحيى، فالأستاذ الذي أدهشه ما حدث، كان أكثر هدوءاً واتزاناً من الوقوع في براثن الغضب، قال بهدأة حكيم:

- *هذه ليست طريقتنا.*

جن متعب واحمر أنفه المدبب، صائحاً:

- *طريقتكم! من أنتم؟ ما هي طريقتكم إذاً يا أستاذ الكتاب وفكاك الخط؟*

لم تخف مريم شماتتها بالأخوة الذين اسودت وجوههم، راحت تثرثر بفرح وهي تكمل نسج البساط بين صويحباتها، أو تدق حبة جوز الطيب الصلبة في الهاون النحاسي، مؤكدة إن غضبة الحق لا تُربط، وإن تأخرت إلا إنها تأتي، ولا يمكن معرفة طرق بطشها بالظالم، ورغم يقينها من براءة شقيقها مما وقع، إلا إنها رجحت إن أحاديثه أثارت حماسة بعض الذين اختاروا طريقه يعبّرون فيها عن غضبهم واحتجاجهم، لكن يحيى وقد خبر تلامذته ورجاله الذين يطلع فجرهم وهم يرهفون السمع لكلماته لم يوافقها الرأي، قال:

- *الكلمات نار ونور، وما وقع للمبعوث العثماني لا ينم عن حوار النور والنار، وإذا ما كان صبيان جلجول ورجال الكرك قد تأثروا بكلماتي فإنهم قد لمسوا الحكمة، ووقفوا على أبواب الانسانية النبيلة، ونبذوا العنف سبيلاً لانتزاع الحقوق، ولا يمكن أن يكون هذا*

فعلـــهم، وإن ارتأوا حقاً لهم في نتاج أراضيهم، لكن ما وقع؛ فعل من اضطربت أخلاقهم وحارت دروبهم.

أطفـــأت كلماتـــه نيران التشفي والهرج لدى العامة وأخجلتهم، وفترت حماسة مريم، إلا إن سؤالاً أرقه ليالي طوالا، ما هي طريقتنا إذا لم تكن هذه؟؟ وأي الدروب نسلك فلا نحيد عن الحق في طلب الحق؟ ولا نتجاوز على الحكمة؟

في عتمة القلعة وسكون الليل، مال منصور نحو شقيقه في وشوشة لئيمة:

- لا تـــتعامل مـــع البحث عن اللصوص كأمر جاد، ولا تضنِ جهـــدك فـــيه، تشبث بما تبادر إلى ذهنك أولاً، وأسرع بتوجيه اصبع الاتهـــام ليحيى، وابطش به قبل أن يقود العامة إلى التمرد علينا، صدقني إن ابن الطحان سيطر على عقول الناس في فترة وجيزة، ولنا ما يشغلنا ونفعله، لا أن نشتغل بشأنه، اقضِ عليه في المهد قبل استفحال أمره، أما اللصوص، فدع أمر عقابهم لربهم.

اعتـــرض متعب وقد حار في تفسير الابتسامة الماكرة على شفتي شقيقه:

- إذا كان سواه الفاعل، نتركه يفر بمالنا؟ أتهم يحيى علناً، ولكني خائف أن يكون غيره من يلعب بنا ونحن لا ندري، لقد خسرنا؛ دفعنا ضريبة التتن ورشونا المخمن الحقير، أنسكت على حقنا!!

فـــشخ منـــصور شدقيه موسعاً ابتسامته الجانبية، والتمعت عيناه حمراوين كما لو أن ذئباً يحدق في عتمة النفق، برزت أسنانه وهو يفح فحيح الأفاعي، ويخرج من جلبابه بقجة يخشخش بمحتوياتها من دنانير ذهب وفضة، شهق متعب شهقة المتفاجئ الغشيم.

* * *

تنـــسج مريم خيوطها الصوفية وتلون البساط بالسواد مكثرة من حبيـــبات السماق الملونة، ممتنعة عن مزج الألوان المشرقة، وينظر يحيى بطـــرف عيـــنه إلى شـــقيقته تمارس صمتاً محايداً، يخيل إليه أحياناً إنها تستخدم صمتها في ايذائه على نحو خاص، لومه وتقريعه دون كلمات، تعبيراً عن رفضها لتريثه، تبدو له وهي تدق في الهاون الخشبـــي أعواد القرفة فتفوح الرائحة العذبة منصرفة إلى تفكير من نوع مختلف، الدقات الرتيبة الثقيلة في قعر الهاون أجراس تدك هدأة روحه التي يحاول الوصول إلـــيها دون جـــدوى، لم تفهم أمه الصغيرة، شقيقته الوحيدة الغالية، دخـــوله في جـــدل طويل مضنٍ مع الجالسين تحت السور حول حادثة التعـــرض للمخمن ونهب نقوده، أزعجها إن يحيى يثني مريديه عن تلك الفعال، ويتحقق مما إذا كان لتلاميذه وجمهرة محبيه المعلنين انتسابهم إلى تفكيره، أية علاقة بالأمر، همست في أذن جعفر الحكيم، ابن الشلبـــي:

- مـــا الفرق؟ لماذا يجعل يحيى الأمر مهماً؟ ماذا يهم ما إذا كان هؤلاء المظلومون هم من انتقموا لانفسهم أم سواهم؟ يفعل الله ما ينتقم للمظلوم من فعل الظالم، سواء على يديه أم أيدي الآخرين.

ردد جعفر ما ذهبت إليه المرأة في همسها، طأطأ يحيى رأسه المعمم هنـــيهة، فأثقلـــته لفافة الصوف في العمامة، خلعها متريثاً، وقال بتأن نشف حلوق المستمعين من حوله:

- لا تقاس الأشياء بعضها ببعض، لأن جوهر الناس أجّل من كل جوهـــر، وانما زينت الدنيا جميعها بالناس، ولا ينسب الخطأ إلى الباري تعالى، فهو واهب الصلاح لمن يشاء، يؤتي كل عبدٍ ما يصلح له ويليق به، ولا يصير فعل النهب والضرب حلالاً إذا ما سلكه مظلوم، لا يمكن أن نرتضي الكون ساحة صراع بين مظلومين تحولوا إلى ظلمة، ونعاجاً تصير ذئاباً، فيتساوي التبر والتراب.

رد جعفر:

- ومـــاذا على المظلوم أن يفعل إذاً؟؟ هل نكظم الغيظ، ونسلم لطاعة أولى الأمر ولو جاروا؟

لا يملـــك يحـــيى رداً جاهزاً، ما زال يقلق ليله مقلباً السؤال على وجـــوه عديدة، يعرف في قرارة الروح إن الصمت والاستسلام ذهاب بالهمة ومرتع للظلم والظلام، لكنه لايجد وسيلة تليق باليد لتغير المنكر، يخـــاف علـــى صحبه الخائفين من خوفهم، يخاف على المتحمسين من حماستهم، ويخاف على المستسلمين من التعفن في حوض الهزيمة المفجعة، يتأمل حالات الحياة، ويستيقظ مبلل الثوب معترقاً وقد يسمع في المنام ترتيلاً شجياً فخيماً لآية تكرر مرات من سورة عمران: "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر".

يبكـــى في العـــتمة، وإذا ما تقدم نور الفجر مخترقاً نافذته، خيطاً رفيعاً حيياً، وانفلش مثلثاً مضيئاً في أرض حجرته، احمرت عيناه هلعاً، و لم يعرف أي خير يدعو له، وأي معروف يرتجيه، وأي منكر يحارب، ولا وجـــد طـــريقاً يتصدى فيه للظلم، وازداد هلعاً كلما عاين تكاثر المجـــتمعين تحت السور، وأعينهم الملهوفة، وذلك الوميض الراجي الذي يتوســـل مـــنه الجواب، يرى مريم المتلهية بشأنها لا تكف عن إمطاره بنظـــرات التأنـــيب وملامـــة الصمت، يوشك على شدها من زندها صارخاً، ارحميني رحمك الله.

لا يعـــرف الأتباع والمريدون ما يحل بجسد وروح يحيى في عتمة اللـــيل، يحاورونـــه نهـــاراً فلا يقطعون بإجابات حاسمة، يفكرون معه ويرهقون العقل بالاحتمالات.

يـــراقب أهـــالي الكرك وجلجول السماء بلهفة منتظرين غيمة عابـــرة، وقـــد دخل الشتاء جافاً بارداً، و لم تقطر على الزرع قطرة

رحمة، كما هزلت الدواب والأنعام، وتلاشى خرير الماء في الأودية والسيول، وراح مقبل يرصد تناقص الخيوط التي تحيط بمعصم ولده؛ يـــناديه خـــوفه، وهو مثبت مثل مسمار عصى الاقتلاع في مجالس الأســـتاذ، شارداً، يتنازعه شوق بعيد، وحياة استسلم إلى حلاوتها المغمسة بالمر.

انتبه مقبل للخيل تحيط بمجلسهم، انهمرت خيل الجندرمة من كل الجهـــات فجأة، وأحكمت احاطتها بهم، فزعوا وهبوا يستجلون الأمر متـــصايحين، ووقف يحيى بينهم وقد لامست كتفاه كتفي جعفر وزيد ابني الشلبـــي عن اليمين وعن اليسار، واقترب مقبل والشلبـــي ورعاة الـــنوق وطلـــبة الكتاب، كأنهم يسورون يحيى بأجسادهم، كفوا عن الصياح وهم يسمعون ما يتلو شاويش الدرك فوق ظهر حصانه، فارداً رقاقاً جلدياً مستطيلاً:

- مرسوم حاكم البلاد الأمير حمدان بن الأمير فارس بن مساعد الغـــزاوي، حـــول عبد الله، الآثم، يحيى بن عيسى بن ابو بكر المعروف بالطحـــان أو الـــنحال، الذي يعمل مؤدباً أستاذاً للصبيان أسفل سور القلعة، البالغ من العمر قرابة السادسة والعشرين عاماً، المعروف أساساً مـــن خـــربة جلجول من أعمال كرك الشوبك، مطلوب للمثول أمام ديـــوان الحـــرب العرفي في عجلون، أمام قاضي القضاة مولانا عبدالله المدلـــه، بموجب المحضر الثالث والثلاثين في اليوم الثاني عشر من كانون الـــثاني في السنة العاشرة بعد الألف هجرية، وعليه وجب تقييده وحمله إلى ســـجن القلعة بانتظار محاكمته، وعلى المتهم أن يمضي مخفوراً دون مقاومة، لسماع تهمته، وتلقى عدالة القانون بحق ما يجرم به.

ذيـــل المرسوم بتواقيع وأختام أعضاء محكمة ديوان الحرب العرفي، ورئيس ديوان الحرب العرفي في عجلون والكرك.

تـــرجل بعض الدرك عن خيولهم وشقوا الدائرة التي انفتحت فيها ثغـــراث لوصول الجندرمة وسط تدفيش ودفع بسيطين تراجعا وذراع يحـــيى تـــرتفع مانعة أي عنف مقاوم، مع انتهاء قراءه الشاويش، مُدّت ذراعـــا يحيى أمام صدره، وأغلق أحد الجندرمة حول معصميه كلبشات[1] حديديـــة كأنها سوار محكم، أطبق يحيى كفيه و لم تفارق ابتسامة الرضا شفتيه، وهو يخاطب من حوله مهدئاً:

- *لا بأس... هو اختبار.. شدة وتزول.. لا بأس.. لا بأس.*

للحظـــات، لم يعرف المحيطون به ما إذا عليهم أن يأتوا حراكاً، ولكـــنهم وحين تم رفع جسده مردفاً وراء الشاويش، ولمعت شفرات السيوف القصيرة التي شهرها الجندرمة حوله في الهواء، صاحوا، تشبث مقـــبل برســـن الحصان، فحمحم الحصان وقاوم، وعكس أحد الدرك مقـــبض سيفه دافعاً به كتف الراعي الهلوع، وكرر يحيى بصوت واضح حاسم:

- *لا بأس... لا بأس.. لا عليكم.. ساعات وأعود.. اطمئنوا..*

ابـــتعدت الخيل كأنها زوبعة رملية، وصلت مريم إلى الجموع التي تـــصطخب بالغـــضب وتتـــشاور عما حدث، صاحت تلوم خنوعهم والدرك يرتحلون بيحيى، جاحت باسم شقيقها، وشدت في هياج فتحة ثـــوبها، فانـــشق الثوب مصدراً صوت نشيج سريع كاشفاً لحم ثدييها المترهلين، زاد الهرج والاضطراب، وسمع تصايح وسباب ونصح باهت؛ أحـــاط ابنا الشلبـــي بالمرأة المفجوعة برفق وسرعة، يحتضنان جسدها ساترين عورتها بصدروهم أولاً، ثم بعباءة خلعها زيد ودثر بها المرأة التي بات جرها من بين الجموع عسيراً، وتدفق أهالي الكرك مستطلعين، في حـــين راح كـــل واحد يشرح ما حدث أو يتوقع ما هو آت، تعددت

---

(1) قيود.

الأســباب المحــتملة وراء هــذا الاعتقال؛ قلة ربطت بين حادث نهب المخمن واعتقال الأستاذ، البعض قالوا إن دروسه تزعج مفتي عجلون، والبعض تذكروا زيارته للمختار ومطالبته بحقه من إرث والده في أرض جلجــول، وآخرون لم يستبعدوا أن أمراً يتعلق بفراره القديم من خدمة استدعي إليها في اسطنبول، في غمرة الهرج، صاح الشلبــي:

- *المهم الان.. ماذا نفعل؟؟*

غــاب يحيى في القلعة ليلتين، وبسطاء الناس لا ينامون، يتجمعون أسفل القلعة نهاراً، ويتساهرون حول مريم المكلومة، وقد فجعتهم حين تــذرعت[1]، فمــسحت ســواد القــدر عن أسفله، وطلت ذراعيها بالسخام، وعلقت رديني ثوبها في رقبتها كاشفة السخام، محملة الرجال عارها ورفع أحزانها، دامعة مترنمة بين حين وحين:

- ألا يــا حمامتين فوق دوحه.. وراكن فرقتن[2] والحمام ربــوع[3]!حمامــتين جعل تبلن بنادر[4] قطوع[5]... وجاري له جــوع... وراكــن ما تبكن عليا؟؟.. لو كان ما يجري لكن دموع.[6]

سار خلق كثير وراء رتل الجندرمة الذين أخرجوا يحيى من القلعة علــى ظهــر ناقة حالكة السواد، وأحكموا الإحاطة حوله به بخيلهم وســيوفهم، تذرعت نساء جلجول كاشفات سواد أذرعهن أسوة بمريم الــتي تناوأت تنظر عن بعد شحوب وجهه، فيعتصر قلبها أسى ويموج

(1) طقوس تصبغ به النساء أذرعهن بالسخام معلنات عاراً لا بد من ازالته.
(2) تفرقت.ن
(3) أسراب.
(4) صقر.
(5) ظالم.
(6) قصيد شعبي.

بكاؤهـــا لـــوعة، وطأطأ رجالها الرؤوس وانحنت أكتافهم وهم يعبرون وراء المـــوكب جـــبال الكرك صاعدين إلى عجلون، وكلما انفلت من العسكر رجل نحوهم ولوح بسيفه في الهواء، تفرقوا واحتموا بالصخور ثم عـــادوا وتجمعـــوا وراء الموكب، وكلما تعثر المسير ووعرت الدرب وشهقت صعوداً، وضعفت الأقدام وهي تغد وراء الخيل، أكثرت النساء مـــن اللعنات، وصببن السباب على المختار والعسكر والقضاة والدولة العلـــية في اســـطنبول، وبـــصق الصغار بجرأة وراء العسكر، أما الفتى النـــزق سيف فقد حرض الأولاد على التقاط الحجارة وإمطار المسيرة بـــضربات متتالية تركز على أطرافها خشية اصابة يحيى، لكنهم عندما وصـــلوا عجلون وانحدروا إلى قلب القرية الصغيرة الواقعة في الانبعاج المنحدر بين الغابات، مُنعوا بحزم من إكمال طريقهم، وبعثرتهم السيوف اللامعات والسياط الملوحة التي نالت أكتاف بعضهم بضربات موجعة، تقافـــزوا مثل وعول مذعورين شاقين طرقاً متوزعة متفرقة بين أشجار الـــسنديان الكثيفة، والبطم الشائك، والقيقب التي احمرت جذوعها في غابات جبال عوف وجلعاد[1]، متسللين إلى القرية المحمية من ثغرات لا ترصدها عيون العسكر.

* * *

اســـتوى قاضي عجلون عبد الله بن المدله على مقعده في مجلس ديوان الحرب العرفي في فيء قلعة الربض التي تعتلي جبل عوف، هز رأسه ومصمص شفتيه مقطباً جبينه، وصورة المتهم تتـــراقص أمـــام ناظريه؛ لضعف بصره، وتعدد المرئيات أمامه، وزوغان التفاصيل، كان مصاباً بامساك معوي يؤلمه ويجعله يهز جذعـــه مضطرباً بين الحين والآخر، لم يدهش يحيى وهو يرى

(1) الاسم التاريخي لجبال عجلون العجلونية.

المختار متعب يجلس إلى يمين القاضي، وإن كان جاهلاً بما سيتهم به، محاولاً التماسك وبدنه يخونه وهناً، فقد قضى ليلتين في القلعة لم يتذكره أحدهم بطعام يقيم أوده، ما عدا رشفات شحيحة من جرة ماء صغيرة.

تنحنح القاضي، وأعلن بدء الجلسة لمحاكمة يحيى بن عيسى بن أبو بكر الكركي بتهمة قطع الطريق على الجابي والمخمن العثماني، وسلبه كل ما كان بحوزته من متاع ونقود تعود للدولة العلية كخراج عن زراعة حقول التبغ في جلجول، اضافة إلى تهمة تجميع الرعاع تحت سور قلعة الكرك وتحريضهم على التمرد والعصيان، ونشر أفكار تحرض على تفسير آيات الله بغير ما جاء به المفسرون الأوائل.

أعاد القاضي مصمصة شفتيه، وصر أجفانه مستنكراً وقد اتضحت أمامه صورة جسد يحيى لوهلة ثم غامت، قال متفجعاً:

- لا اله إلا الله، تسرق وتقطع الطريق، معقول!! ألست أزهرياً يا ولد؟ هذا كوم، وما تعلمه للصبيان كوم، أتجرؤ على كلام رب العباد؟؟ استغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم..

تمتم يحيى متحاملاً على ضعف جسده وتراجع أنفاسه:

- أعلم طالب العلم التفكر بالخلق للوصول إلى الإيمان، وما أنا بأعلم من أصغر طالب إذا ما تفكر وتدبر، لا أدارى عقله كما لو كان قاصراً أو عبداً مسيراً، إنما خلق الله على شاكلته روحاً حرة تختار فعالها، وتستزيد من علمه الذي أشاعه في الهواء والماء وكل عنصر كوني.

حدق القاضي منزعجاً ثم رمش على تلاحق وضيق، وتحرك متثاقلاً ومعدته تضغط أنفاسه، توشوش الأخوة معاً، ثم

تهامـــسوا مـــع القاضي، الذي لم يكف عن هز رأسه، أخيراً، تنحنح بجلافة وصاح بغلظة:

- تأدب إذا كنت مؤدبًا، إنما نأخذ ما أتانا الله مسلمين، لا نماري ولا نحاجج فيه.

وصل العامة جبل عوف بعد يومين من وصول يحيى، تجمعوا في سفحه متظاهرين إنهم من بعض عامة قرية عجلون، رافقهم محليون راقهم سماع الحكاية، جاءوا فضولاً، كما تعاطفوا مساندين ضعف المـــساكين المـــرتحلين بضعفهم، قدموا ما استطاعوا، اقتاتت النسوة ببعض ما جاد به فقراء عجلون، وشرب الصغار الماء، ووزع الرجال حصـــصهم علـــى الـــضعفاء منهم، ولكنهم لم يتوقفوا عن الحداء بأصـــوات جـــشه نافرة نخزت قلب القاضي في القلعة وهو يسمع الترداد:

- ظلـــيت أنادي وأضرب الباب بالسيف.. عيوا يا باب هلك ما يفـــتحونه... وتـــسالني يا صاحبـــي واشو وقفك بالباب... قلت أنا حيف.. حيفن ما تركته، تا ترفعونه.[1]

جـــزع القاضي وعامة عجلون يتكاثرون ويساهرون أهالي الكرك في السفح الوعر الصاعد وقد أضاءوا مشاعل الزيت والدهن، وأصواتهم تعلو تدريجياً، ونساؤهم ينقلن التين والخبز، يسندن جوع القادمين على أقدامهم قاطعين الغابات والجبال الوعرة.

تقاطـــر رجـــال مـــن عجلون يجتمعون بالقاضي فرادى وجماعـــات، يتدبرون شأن الكركي الذي ينذر بوبال، استشعر منـــصور الخطـــر إذا ما طال الأمر، خاف إفلات الزمام منهم وانقلاب الحال وبالاً عليهم، قال:

---

(1) غناء شعبي.

– لا تتـــركوه يمـــوت جوعاً حبيس القلعة، ولا تطلقوه منتـــصراً فيواقح العامة علينا، اجعلوه عبرة لهم ودرساً، صغروا شأنه وانتهوا منه، شوهوا صورته في أعين صغارهم وكبارهم، ولا يتم هذا إلا بتجريسه من هنا إلى الكرك وتوسيطه[1] *هناك.*

فزع القاضي، حتى أنه ارتفع عن مقعده رغم ثقله، ثم انهد محدثاً خبطاً عنيفاً، صائحاً:

– توســـيط!! يا رجل، أعوذ بالله، هل تراني وحشاً؟ لا تحملـــني دمـــه.. والله لا أرى إن مـــا تدعّون به عليه قد ثبت عندي، ثم؛ الله أعلم به مؤمناً أم كافراً، لا تبليني بذنبه، لا أقص جسد الرجل بالتوسيط، وأريق دمه، استغفر الله وإلا؛ لا أضع يدي في أيديكم في هذا الأمر أبداً.

نبه استنكار القاضي منصور وأخويه إلى صلف ما يطلبون، فتراجعوا سريعاً، هتف متعب:

– لا يقصد منصور الوصول إلى هذا الحد يا مولانا، معاذ الله، فقـــط يـــدلل على خطر الفتنة التي يحدثها الرجل بالمبالغة الكلامـــية، إنما؛ يكفيه التجريس[2] *وزف المغاني، وجلدات لا تميت؛ لينـــزل عن عرش غروره ويذعن لأولياء الأمر.*

تلا القاضي حكم التجريس والجلد على المتهم، وأُخرج يحيى بعد أن دُفـــع إلى تناول ثمرات قليلة تقيم أوده فوق الناقة السوداء التي جيء بهـــا حتى باب القلعة، خرج وجسده يتمايل وعينيه تزوغان فوق وجه نحـــيل شـــاحب؛ صاح الرجال في سفح الجبل وهللت النسوة واندفع الجـــندرمة يمنعون اقتراب العامة، ثم رُفع يحيى على ذراع عبد قوي إلى

(1) عقوبة تقتضي القتل بقطع الجسد إلى نصفين من خاصرته.

(2) عقوبة بالدوارن بالمتهم على دابة ووراءه المغنيات يعلن ذنبه ويشتمنه.

سنام الناقة، وربط فوقها، ووجهه عكس سيرها، وظهره لرأسها، واصطف مرتزقة من الزط[1] يدقون الدفوف خلفها، مهمهمين أصواتاً موحشة، خبت الناقة بالمتهم وسط حراسة مشددة، وتنفس القاضي الصعداء وهو يرى من فتحة الرماة الصخرية موكب التجريس يبتعد عن أسوار القلعة باتجاه الجنوب.

أعولت مريم؛ حرضت النسوة المذرعات حولها لنواح أليم، إلا أنها على حين غرة، استوت جسداً فارعاً، ومدت خطواتها في موازاة خطوات الشباب الذين يتقدمون المسير، ثم في صفاء غير مفاجيء، غنت كما لو أنها ترافق عازف الرباب.

- *أوصيك لا تقبل دروب التعدي...*

ولا ترافق الكبرى وتغيير الأحوال..

النبع نبع الما.. يحب التحدي...

يفلق قوي الصخر يا خوي بالحال...

ونت كما نبع يحب التصدي...

ولو كان صخر الأرض بحجام الجبال[2]

بعيداً في وسط الغابة، تأرجح رأس يحيى فوق نحره كأنه اقتطع، وانسدلت جفناه متعبتين فوق عينين تاه لونهما، هلوس سامعاً صدى الصوت، صوت مريم، مختلط ببديع ما تنشده هفوف، وشاهد في ضباب الغابة الكثيفة طيف والده محاطاً بنحل المنحلة يغترف العسل، وأحس بملمس كف جمان البعيدة، وفجأة؛ ركز تفكيره عليها بصورة محمومة، رائحة الياسمين، والملمس المترف الناعم، وخضرة العيون،

(1) الغجر.

(2) شعر بدوي.

وظلال ألوان ثوب قرمزي يخلع عن جسد مرمري، وبلل الرضاب على الـــشفاه النـــزقة المتعالقة، تقلبت عيناه، واهتز جسده، نظره الشاويش بـــريبة ووجل من أن يقضي الرجل نحبه على ظهر الناقة، شاهد أطرافه تـــرتعش، وسمع همهمة صوته وأنيناً خافتاً متصلاً، ولكنه لم يفكر ولو للحظة إن المُجرس سكران منتش حتى الثمالة، يتزلزل جسده فوق الناقة الـــسوداء كالذبـــيح، في حين أبرقت السماء وأرعدت، ثم انهمر الماء مستجيباً لعطش أشجار الغابة وظمأ البشر.

دبـــت الحماســـة في قلوب التابعين للموكب والمطر يبلل ثيابهم اليـــسيرة، هموا، وتراكضوا خلف مسيرة التجريس، ما أن نوخت الناقة في قلـــب القـــرية، واصطف رجال المختار وبعض المنتفعين والعثمانيين والدرك، حتى كان الناس قد وصلوا وأحاطوا بالمشهد صائحين زاعقين، احتبـــست أصواتهم والسوط الجلدي يرتفع في الهواء ثم يسحب محدثاً زعـــيقاً عالـــياً وشهقة هواء تتخلل سقوطه على ظهر يحيى عنيفاً تاركاً جـــرحاً غائـــراً في الجلد الواهن، وتبعته سياط أخرى مشققة ظهره في خطـــوط متوازيات متقاطعات؛ وتفصد دم كثير، سال مع سيلان ماء المطـــر إلى قدميه، وتجور في بقعة وردية غبتها الأرض العطشى من تحته تاركة احمراراً كأنه الشفق على التراب.

كـــلّ الـــضارب ومل، وارتمي الجسد المضروب متمرغاً بالوحل الأحمـــر، وسقطت عتمة المغيب على القرية المفجوعة، أُلقي يحيى على ظهـــره، ورفعت قدماه واستكمل السياط جلداته حتى عدها خمسمائة جلدة تركت خمسمائة أثر فوق اللحم الحي، لم تظن مريم الصامتة كأنها الميتة إن شقيقها ينجو وإن تمنت، وما فاه يحيى بآه.

أحاط به الرجال منكسرين خائفين غاضبين، وتوقفت النسوة عن الصراخ والعويل، ومع توقف المطر وارتفاع قرص البدر برتقالياً قانياً في

الأفــق، انــسحب العسكر وردت السيوف إلى أغمادها، وسمع نشيج مكــتوم لبكاء النسوة وهن يسندن جسد يحيى المحمول بين أذرع جعفر وزيد ومقبل الذين يجهشون ببكاء عال كأنه العويل، ويسجون الجسد كمــا لــو كان جثماناً مقطعاً في حجرة بيته، قرفصت مريم بصمت حقــود، رفعــوا مشعلاً خشبياً في أعلاه لفافة صوفية تشتعل؛ راحت تمــسح بردن ثوبها ما تجلط من كتل الدم، وما اقتطع من نتف اللحم، وعيــناها علــى صدر الشاب الذي يرتفع وينخفض بوداعة أقرب إلى التلاشي، انكشفت شقوق بدنه وجراحه، وانفرجت شفتاه على وهن، غائب الذهن، يهمس بين الفينة والأخرى.. ج.. ج... جمان.

لم يفــارق أهل جلجول الجسد المصاب الدامي لأيام، يعدون الطعام ويأتــون مريم الحزينة الصامتة، يرفعون جسد شقيقها بين أذرعهم فتغسله بمــاء بــارد من منقوع نخالة الشعير، مانعة تقيح الجروح، لا يتعبون وهم يتــناوبون على رفع الجسد عن ملامسة الفراش أو الأرض، ظل يحيى معلقاً بــين أذرعهم ليالي وأياماً طويلة، تغسله مريم في ماء اليانسون حتى أعلنت إن خطــر تقيح الجروح قد زال، وإن عليها وقاية الجسد من هجوم القمل والحشرات الباحثة عن وليمة آدمية، سافر بعضهم تحت المطر وعواء الرياح إلى عجلــون والــسلت باحثين عما طلبته من نبتة العنــزروت الفارسية الــشائكة، فــإذا ما جاوءا بها دقتها في هاون نظيف، ورفعت مسحوقها الأصــفر، وخلطــته ببــياض البــيض، رابطة حول جسده جبائر كثيرة متفــرقات، ولبخة عريضة تلف ظهره، عل تلك النبتة السحرية تربــي ما اقتطع من لحم، وتسد ما فتح من جراح عميقة في الجسد، لم يعييها إرسال المــتطوعين إلى الغــور الــدافيء يجلبون لها نبات الصبار المفلطح بأشواكه الدبابيسية، فتشق الورقة منه، وتلصق باطنها لبخة فوق الجراح، متفحصة، موازنة بدقة ما التئم من جراح، وما طال به أمد الشفاء.

انصرمت شهور قبل شفاء الأستاذ، ولكن الفوضى التي شاعت في القرية الصغيرة وما جاورها من خرائب لم تتوقف، اُقتلعت في ليل أشتال التتن القصيرة قبل نموها، وسُرق مخزون الطحين من طاحونة أولاد الشيخ صايل في سفح هضبة الذراع، وتم التعرض لكل مار أو محصل عثماني وتعريته ونهب ما يحمل من نقود رغم الرجال المسلحين المحيطين به، وشبت النار في أكياس الخيش التي رصها منصور في مخزن بعيد يقايض بها الجياع، دبت الفوضى بالمكان، وليس هناك من رجل واحد يمكن رفع أصابع الاتهام في وجهه؛ فالأستاذ المسجى موجوعاً صامتاً لا يقدر على تحريض الرجال على مثل هذه الفعال، والخراب اليومي لا يتوقف مهما تحرز أولاد صايل الذين أصيبوا بالفزع حد التفكير بالهروب بأملاكهم من البلاد، خاصة إن انحسار المطر وضياع موسم التتن لم ينبئ بموسم جديد، فقد فر المزارعون الذين اعتمدوا على سواعدهم في الماضي، وامتنع أخرون بحجج متناقضة، حتى الأجراء الذين جاءوا بهم من الطفيلة والشوبك لتغطية النقص، حملوا متاعهم وردوا قراهم بعد سماع حكايات الليل التي يديرها الرجال والنساء مجتمعين حول فراش أستاذهم كأنه أيقونة للصبر والعناد.

استهان العثمانيون بالتجار الثلاثة، أبناء صايل، الذين يأفل نجمهم في محيطهم، انصرفوا عنهم إلى مزارعين وتجار في عجلون والسلط، ولم يعد انضباط المختار يعجب موفدي الدولة العلية في اسطنبول، وصار لغط عما إذا كان المختار قد هرم وأطال المكوث في منصبه؛ وحان الوقت لإعفائه من منصبه وتعيين بديل عنه.

عندما تعافى يحيى تماماً، وتمكن من الحديث دون هذيان الحمى والنوم المتقطع، كان أول ما قاله مخاطباً مقبل:

- *أساور شهاوي الصوفية إلى نفاد، ارجع ديار أهلك يا مقبل.*

بكى الراعي وولده اليافع، وزغردت النسوة وهن يذرفن الدموع، وتعانق الرجال دامعين، وقد أيقنوا إن يحيى فارق مرضه وبرأت جراحه وتغلب على محنته.

يمم مقبل وولده نحو بحيرة زغر قاصدين الدرب المعروف إلى سينا بـــرفقة دواجين وتجار كثر عابرين، ونظر وولده يستودعان السلام قمة القلعة التي تلوح لهما وهما مفارقان، كأنما الحياة لم تكن قبل تلك الفترة الـــتي قضاها برفقة الأستاذ؛ ثقل صدره وغمره الأسى، ثم فجأة ضرب عنق حماره ونكص، لم يجرؤ للحظة على النظر في عيني ولده العامرتين بالأسئلة، فقد اختار الانقطاع عن عائلته وصحبة الأستاذ.

سيبكي مقبل فراق أهله أشهراً، ثم يتناسى، مكتفياً بالاقتراب من سيف، طالباً من الله مغفرة، ومن شهاوي مسامحته على ما فعل بها.

* * *

رافـــق خـــروج الأســـتاذ من بيته إلى موقعه عند السور وطلابه ومريديه هرج عام، واشتد قلق المختار، فأخبار اسطنبول تشغل باله، إذ وصـــلهم خبر وفاة السلطان محمد الثالث قبل أيام فقط من وصول خبر تنصيب ولده أحمد الأول على عرش الدولة العلية، وكان ذلك في عام أرقامه عجيبة، إذ اصطفت الأحاد في أربع خانات متتابعة، مدللة على العـــام الهجـــري الحادي عشر ومئة بعد الألف 1111 الموافق ستمائة وثلاثـــة بعـــد الألف ميلادي 1603، مما كان له أثر في تمجيد البعض، ومثلت الأرقام الأربع المتكررة عند الصوفيين ظاهرة تفضي إلى انحلال السلطة لدى سلاطين الأرض، وتأكيد هيمنة الواحد الأحد.

لم يكـــن أعيان الكرك على يقين مما يعنيه هذا الأمر، وهل ستتأثر مـــصالحهم بـــه، قال منصور إن صغر الفتى السلطان الذي لم يتجاوز الرابعة عشرة قمين ببقاء القوة في أيدي نفس المجموعة التي تقيم وتعزل

وتنصب الموظفين العموميين في الأراضي العثمانية، و لم يخفِ متعب خوفه من نزق السلطان الصغير، وتسلط أمه الجارية العجمية المجلوبة من البندقية، والتي ستختار حتماً مساعدين جداً يكونون طوع يدها، ويأتمرون بأمرها، وأن لهؤلاء مصالحهم في عموم المحكومية العثمانية، والتي لا شك ستطالهم، لم يضحك متعب لتعليق شقيقه الساخر منصوروهو يدب كفه في خاصرته ينخزه مقهقهاً:

- إلى أن يحدث أي شيء، ويكبر سلطاننا الولد الصغير، ويفضي بال العثمانيين لقريتنا البعيدة، ستكون أنت شخصياً قد لحقت بربك، وتوفاك الله، فلا تتخوف أن يقيلوك ويأتوا بمختار جديد، ستتخلل وتتعفن في موقعك.

لم يعد يحيى متردداً حول دور المرء في تحقيق العدالة، و لم يعد يلقي بنصائحه المتأنية إذا ما سمع عن هجمات الرجال على مراكب العثمانيين أو أولاد صايل على حد سواء.

عاد يُدرس طلابه عيون الحكمة وينهكهم في تدبر ما قاله ابن سينا، لم يكن من اليسير تفكيك الكلمات التي تبحث في دلالة الألفاظ، يقرأ يحيى بتؤدة:

"كل لفظ لا يمكن أن تدل به بمعناه الواحد على كثيرين يشتركون فيه فهو جزئي، الكلي الذاتي هو الذي توصف به ذات الشئ في ذاته، كما توصف النار بالحرارة واليبوسة اللتين في ذاتها، والكلي العرضي هو الذي توصف به ذات الشئ بعد ذاته، كالسواد والبياض في الإنسان، المقول في جواب ما هو: هو الكلي الذاتي الذي يميز شيئاً عما يشاركه في ذاتي له. المقول فى جواب ما هو بالشركة: ما يكون دالاً على كمال حقيقة أشياء يسأل عنها معاً، ولا يكون كذلك لأفرادها".

الظاهر المعلن لإستاذ معني ببطون الكتب، رسخ صورة عالم غارق بكل جوارحه في تفسير الحياة دون الانخراط فيها، إلا أنه مثل بحر رائق علـــى السطح يموج عنيفاً في الأعماق، كان أشد اهتماماً وولعاً بتبديل وجـــه الحياة، لم تعد أسئلة التردد تقف مطولاً عند بابه، بات مقتنعاً إن التخلص من المنغصات بإيداعها زوايا النسيان والتسامح والتعالي؛ ليس مـــن الحكمة في شيء، يتأمل رغبات العامة على دراية برسالته واختيار واع، فقـــد وضـــعت جروح جسده وروحه نصب عينيه فكرة محاربة الـــباطل بأشـــد ما يتمكن المؤمن على حمل نفسه عليه، نبذ اعتراضاته السابقة على غضب الغاضبين، ولم يعد يرتضي بأضعف الإيمان، وإن لم يعثر على مسلك عملي بعد.

وجد مقبل عملاً عند واحد من مالكي الحلال، يسرح وولده في الجـــبال بقطـــيعه، يهـــرع الـــصغير سيف مع الغنمة المرياع المشنشلة بالأجراس مقترباً من القلعة، متظاهراً بالتواجد في بقعة بعينها، ثم يتسلل إلى الجـــوار متلصصاً على الداخلين والخارجين من القلعة، ناقلاً إيقاع الحـــركة بتفاصيلها إلى يحيى، وتتحول مريم إلى مرسال خفيف الحركة نـــشطة دؤوبـــة متجولة في الأسواق تبيع وتشتري عطاراتها وبسطها الخفـــيفة، وتـــأتي بأخبار محصلي المكوس الذين يصلون من اسطنبول، والبذار الذي زرعه منصور في سفوح جلجول، والبضائع التي غمر بها الأخوة السوق، فتتسرب الأخبار إلى حلقة الدرس وتوزع المهام، يقلب الشباب ليلاً البذار من التربة، ويسكبون ماء الملح الحامض الذي يأتون بـــه مـــن شـــواطئ بحيرة زغر فوق النباتات التي أعدها أولاد صايل والمـــبعوث العثماني للتصدير إلى حيفا ويافا، لتصير رماداً، ويسطو نفر أخر على ما حصلته الدولة العلية بقطع الطريق؛ وإن وصل محصلها إلى حـــدود حوران، أو أسوار القدس، ويمتنع الناس عن شراء بوابير الكاز

التي يصنعها مصعب في حوران ويجلبها لتباع في الكرك، وقماش الصايا الـــذي يستورده منصور من حلب، وحبوب القهوة التي يدفعون ثمنها غالـــياً للبواخـــر القادمة من اليمن الراسية في ميناء جدة، تبور بضائع المخـــتار وعائلته دون مشترٍ؛ يضرب متعب صدغيه شاكياً الخسارة تلو الخسارة.

* * *

هب يحيى بين طلابه فالتفتوا ينظرون من أتاهم وأوقف أستاذهم؛ تهللـــت أساريره، وتراعش جفناه في دهشة وإجلال، كان مشهد المولى أمين محمولاً بين رجلين يقتربان نحو مجلس يحيى غريباً، فالرجل لم يغادر مرقده منذ أعوام، وقد خذلته قدماه، وفترت روحه، وضاع ألقه، وبات في موقـــع المسكين المستحق للرأفة، وتردى به الحال لولا تعهد تلميذه بالعـــناية بـــه مأكلاً ومشرباً، رؤيته يصل المتجمعين عند الجدار حدث يستحق وقوف يحيى إجلالاً.

هـــرع نحوه ملهوفاً، وشاهد التلاميذ والمريدون والرعاة والأعيان أســـتاذهم يـــنحني مقـــبلاً ظاهر الكف المعروقة، ولمحوا دموع العجوز تترقـــرق في جفنيه، فإذا ما وضع الرجال حملهم في وجه المجلس المقام بالعراء، تنفس المولى أمين وتبسم عن فم أدرد، وهمس بصوت مترجرج متهدج:

- *قالوا: اطلب العلم... من المهد إلى اللحد.. وقد جئتك طالباً.*

تـــبادل الـــشاب والعجوز دروس الحياة على مشهد السامعين، فكـــشف العجوز عن صدره مترهلاً مبقعاً بظلال بنية وأخرى صفراء، وكـــشف يحيى الأثلام التي تركتها ضربات السياط أخاديدَ محمرة ونتفاً جلديـــة، وتضاحكا من زمان يترك أثاره عميقة مؤثرة؛ مهما توخيت، قال المولى أمين:

- مــن لم يمت بالسيف مات بغيره، والله إن موت السيف هين رحــيم عــن مكابــدة الشيخوخة المقيتة، والتكفير عما دفعتنا الحياة والأطماع إلى اقترافه من آثام.

اعتــرف المــولى بغيرة الماضي، وأبدا يحيى خجلاً وتواضعاً وهو يحــاول منع معلمه أن يفيض في الاعتراف، مسامحاً مفسراً الخير الذي وقع له بالسفر، مرجعاً الفضل للأستاذ.

لم يكــن انضمام المولى أمين إلى مجلس يحيى وإقامته في عريش قرب موقــع الــدرس؛ مصدر إقلاق عميق لمتعب وأخويه، وإن لم يتمكنا من تفــسير تلــك الردة التي دفعت العجوز وهو على أعتاب الموت، للجلوس مستمعاً لفتى يفتقر إلى الوقار! كثيراً ما يخلع عقاله وكوفيته، أو يرميها على كتفــيه، غــير مراع لهيبته أو هيئته المعتادة والتي يلاقي المعلمون والمربون التبجــيل لوقارها والتزامها بالمتعارف عليه، فإذا ما ناقشه وجهاء القرية في مــثل هذا الفعل، أجاب بجدية تامة، مشيراً إلى الرأس، مرجعاً العلم والوقار والهيبة إلى ما تحتويه الجمجمة، لا إلى ما تغطى به من منسوج الخيوط.

نــصح المولى تلميذه النجيب، بالذهاب إلى دمشق إذا كان يبغي إغماض العين عنه، ومنع الجهلة من التعرض له؛ يستكتب علماءها على كلامــه، وينال إقرارهم إنه لا يخالف الإيمان في شيء، يجيزونه ويقرون بــشرعية مــنهجه؛ فإنــه لن يخشى فتاوي الشيوخ الصغار في القرى والــنجوع، ولا بطــش المخاتير، ذاكراً له أفضال مفتي الجامع الأموي الشيخ شمس الدين الميداني.

كــتب يحيى للمفتي الميداني كتاباً يصف ما حل بالبلاد، استقواء كــل من عمُر جيبه، أو شَرع سيفه، على كل من فكر واجتهد، طالباً مشورته، ومساندته، إلا أن بعد الديار، أو تجاهل الشيخ الميداني؛ ذهبتا بالكتب في مهب الريح.

مـــرر المخـــتار وأخـــوته تحالف المولى وتلميذه باستسهال، وإن عاودتهم الشكوك، إذا لم يكن يحيى وجماعته وراء أعمال الشغب، فهل يعني هذا مولد عدو خفي لئيم يحفر لهم في العتمة!

لم يعقلوا إن المولى يجرؤ على الإطلاع على ما يضر بهم من خطط وفعال؛ إن وجدت، دون موافاتهم بتفاصيل ما يدبر بالخفاء، ظنوا لفترة إنه ما زال رجلهم الأمين، فلم يراقبوا مجمل نشاطات مجلس يحيى، رجحوا إنـــه لا يزيد عن تحفيظ آيات القرآن وتجويده، وربما بعض تعاليم الفقه حـــول الشعائر وكيف تؤتى، خاصة إن جواسيسهم الصغار لم يمدوهم بأية معلومات تؤكد عكس تصورهم، وغاب عن إدراكهم إن الصغار الذين أرسلوا بهم يستطلعون كلمات الأستاذ، وقعوا في سحره، وافتتنوا بتعاليمه، وانساقوا إليه، وفروا من خندق الظالم إلى مناصرة المظلوم.

اســـتيقظ أهالي الكرك في صباح غائم على خبر وفاة المولى أمين، لفـــظ أنفاســـه فجراً وهو نائم في عريشته في هدوء، ولما حمل الرجال جثمانه ووسدوه مسجد الكرك يصلون عليه، تقدم متعب أصفر اللون، وشد لثامه تحت سقف المسجد بنظرات عدائية نحو يحيى ورهطه الذين زحموا المسجد فلم يبقوا موقعاً للاوطة العثماني وهو يترجل عن حصانه عند الباب، صاح مصعب:

- *افسحوا الطريق.*

تعمـــد منـــصور التحرك بعنف فارداً ذراعه، مرجعاً صفاً كاملاً من الرجال إلى الوراء، وتمتم متعب للاوطة الذي شق كتلة الواقفين للصلاة، قال:

- *يصلي على الجنازة الكبير.. هل تؤمنا يا سيدي؟*

همهـــم الـــرجال وتهامـــسوا وتحركوا بضيق في المساحة الصغيرة المحدودة، فقد كان ظنهم إن الأستاذ أولى الناس في إمامه صلاة الجنازة على المولى، وجهر جعفر:

- *يؤمنا من يقرأ العربية، يؤمنا الأستاذ.*

التفت منصور متنبهاً للرجل، ونظر متعب بحنق، وقال:

- *ما بقي إلا الولد!! مقام المولى أن يصلي عليه الأكبر مقاماً وسناً.*

نظر الأوطة بانزعاج إلى الجثمان المسجى إلى جوار المنبر، وتأفف من انحباس الهواء وسط الكثيرين، قال مستاءً:

- *أنت المختار، صلِ عليه إماماً، وخلصنا، لن نقف هنا طوال النهار نتشارع.*

لم ينسحب أي من المصلين والمختار يؤمهم، نظروا ما يفعل يحيى؛ ففعلوا فعله، وقفوا حريصين على الخشوع الذي يليق بالمولى، لكنهم انفضوا سراعاً بعد ذلك متهربين من دعوة الغذاء التي أعلن منصور عن اقامتها في القلعة لتذكر مناقب الفقيد.

لم يشعروا بالحاجة إلى من يذكرهم، وانقلبوا إلى درسهم تحت السور بصمت رائق يخفي غيظاً مكبوتاً، أدهشتهم الرسائل والإشارات التي يرسل بها المختار إليهم، الغذاء الكريم، ثم الموظف الخصوصي الذي عينه لرعاية العريش، موقع وفاة الرجل الجليل، أدرك يحيى الحراك الشيطاني الذي يقوده منصور لتحويل العريش إلى مزار، بغية ابتزاز العامة وخلق خيالات لولي كان يقيم بينهم، عله يصدهم عن دروس تنشط العقل وتصرف عن خزعبلات الغيبيات، في عراك صامت؛ كانت عقول الناس تباع وتشترى.

لكن المزار الذي ابتناه الأخوة عند العريش، وأوفدوا إليه العسس يتسقطون أخبار مجلس الأستاذ، لم يمنع استمرار الأعمال المعادية لمتعب والعثمانيين والتجار الأعيان، فما أن سمع الرعاة عن حفل يجهز له في القلعة احتفاءً بمرور ثلاثة أعوام على حكم الصبي الصغير، حتى قر قرارهم على إفساد بهجة الاحتفال الذي سيدعى له شيوخ وأعيان ومتنفدون وقضاة وتجار في قلب القلعة الشاهقة.

رسم يحيى بعود قصبي مغمس بالحبر تصوراً لكيفية حركة الرجال وحركتهم حول موقع الاحتفال.

أضيئت القلعة بالمشاعل وترددت أصداء المغاني والدفوف، وقهقهة العسكر الثملين بشراب البلح المعتق، وتجول متعب في الأرجاء كما لو كان أجيراً يوزع أسمطة السميد المطبوخ بالسمن البلدي وسكر القصب، حين صاح منصور:

- *هجوم.. أولاد الشياطين.. الله لا يكسبهم.. ادخلوا القلعة... ادخلوا... أوصدوا الابواب.*

تأخرت صرخته، فأهالي جلجول والكرك والقصر وخرب أخرى كانوا قد اجتازوا الأبواب ملثمين، وقفزوا على فتحات الرماة، وقلبوا أسمطة الطعام وأعملوا القناوي[1] في أجساد المحتفلين، ومزقوا البيارق الملونة للانكشارية والجندرمة، وخرقوا دفوف الغواني وطارقهن[2]، اختلطت الأجساد المتعاركة، وسحبت السيوف من أغمادها، وطالت أكتاف وأذرع الفلاحين على حذرهم وبراعتهم في الزوغان، وتبعثرت قطع السميد اللزجة ملطخة حيطان القلعة الداخلية، تلاها دم بقع الجدران الحجرية وسال على الأرض الصلبة، وصيحات وهتافات وتهليل وزعيق، اختلطت الكلمات عربية وتركية، نسي العسكر الثملين إيصاد أبواب القلعة أمام الأهالي المندفعين كأنهم يطلبون الموت، هرع المماليك والأعيان ورجال القاضي والتجار إلى فتحات الرماة وأزاحوا من يعيقهم متوخين الفرار من تلك المعركة، وسعوا لأنفسهم مذعورين ثغرات يفرون عبرها، تساقطوا من فتحات القلعة مهشمين على الصخر البركاني الصلب.

---

(1) عصى غليظة.

(2) دف يدوي مشنشل بالخشاخيش.

فسد احتفال متعب الذي أقامه منافقة للحكام الجدد، والتعبير عن ابتهاجه وولائه، ولفت انتباههم واهتمامهم، لكن أهالي جلجول والكرك كانوا يعرفون تماماً إن لجثت العسكر والأعيان التي تم جمعها فوق صخور السفح الوعر، ثمناً باهظاً سيدفعونه من أرواحهم، فر من تمكن منهم إلى جبال السلت، أو بيداء رم وكهوفها، وبقى القليل من الضعفاء والنسوة والأطفال، وفي موقع بعيد عن العيون أسرَ جعفر ابن الشلبي للاستاذ إنه وشقيقه سيخرجان إلى حوران مؤقتاً، قائلاً:

- رافقنا، بل تعدانا إلى دمشق، اهرب إليها، ابحث هناك عن صاحبك الصالحي، يعينك؛ فقد أعنته في سفره، وجرب أن تلتقي بشيخ الاسلام شمس الدين الميداني، الذي حدثتك عنه المولى عبدالله، عد منه بكتاب يعلي شأن كلامك، ويقيم النصاب على فعالك، لن نغيب إلا قليلاً، نعود نحن وأنت، وقد انجلت الغمة.

تذكر يحيى فراره الأول من جلجول، فتوجس وأوجعه فؤاده، كما لو أن جراح السياط التي شققت جسده تنزف مجدداً، قال:

- أحارب في مكاني لا أريم.

- هذا انتحار، لا تصد السهام بالصدور، ولكن بالدروع، أليس كذلك يا صاحبي؟.

قال جعفر.

زين الأخوان أولاد الشلبي الخروج له، وافقتهما مريم مضطربة خائفة متظاهرة بالثبات والاستهانة، قالت:

- اخرج وعد مدعوماً بكتاب يزيد من رصيدك عند الناس، ويمنع أشباه الرجال أولاد صايل من التعرض لك، اجعل صاحبك هذا العالم الجليل، الصالحي، أو العالم الميداني، يجيزانك على علمك في مواجهة جهلهم.

قال زيد:

- لا تتردد، نحن معك، لو شئت أكملنا سيرنا حتى دمشق.

وهمست مريم بوهن وشجن:

- عـــندما تعود؛ لن تكون الكرك كما تركتها، سيرفع الله غضبه ومقته عنا، ويذهب بهؤلاء وأسيادهم العثمانيين من ورائهم إلى الجحيم، أنفـــد الآن بجلدك، لو أمسكوك، لا أقوى على رؤيتك تجلد ثانية، أو يقطع جسدك متوسطاً، ارحم قلبـــي المتعب.

منع يحيى مقبل من مرافقته، ذكره بتهديد شهاوي التي قد تصلهم علـــى حين غرة، بل إنه حرضه على العودة إلى التيه برفقة ولده الذي تخطى الطفولة، كي تقر به عينا أمه شاباً.

اعتلـــى يحـــيى ظهـــر حمار منحه اياه راع محب، وهمس في أذن شقيقته:

- قد تصل الديار فتاة اسمها جمان، قولي لها إني أعود، فلتنتظرني، واكرميها؛ فإنها تؤام الروح.

شـــد ابنا الشلبـــي ويحيى العمامات ألثمة فوق الوجوه، وساروا محـــتمين بكثـــيف الغابـــة، فلم ير يحيى ابتسامة مريم المحبة، ولا دمعتها الجزوع تتدحرج على وجه تجعد وشاخ.

ابـــتعدوا كـــثيراً؛ فما شاهد وصاحبيه المسافرين برفقته، أجساد الرعاة الضعفاء تتطاير من أعلى القلعة إلى الجرف، ولا سمعوا صيحاتهم تعلو ثم تنخمد في صمت، انتقاماً لمن قضوا من عسكر العثمانيين.

الفصل الخامس

الفيحاء

1015 - 1018 هجرية

1608 - 1610 ميلادية

تنفس زيد الصعداء إذ لاحت مدارج سهل حوران، حوَّلَ الربيع التراب الأحمر إلى مهرجان ألوان فاقعة بهيجة تلعب في خضرة يانعة، لم يكـــن في الأفـــق الممتد تضاريس يمكن الاحتماء بها من عيون العسس والمخـــبرين العثمانـــيين، فالسهل فسيح مفتوح متماوج دون هضاب أومـــرتفعات، لكن الثلاثة الفارين تصرفوا بهوادة واسترخاء، سحرهم الهـــواء العليل وظلال الألوان في الزهر الطالع، وطمأنهم بعد السهل عن اهـــتمام الدولـــة العلـــية، رجحوا أن متعب ومن والاه؛ حتى منصور ورجالـــه؛ سيترددون في تقفي أثرهم بمجرد تجاوزهم سيل عمون الذي تـــضرب الملاريـــا المارين فيه من البدو الرحل، بكل هذا الآمان؛ ارتمى ثلاثهـــم فوق السهل الغزير بحشيشه المخضر النضر وزهره الملون، فرد يحـــيى جسده طلباً لرطوبة الأرض، وعلق عينيه في ما يعتليه من غيم يمر خفيفاً وسط زرقة فيروزية مشكلاً قبة سماوية منحنية الأطراف، ومرغ زيد جسده بحبور ملصقاً ندى العشب ورحيقه بقماش ثوبه القطني، في حين قرفص جعفر مرسلاً ناظريه في المدى الفتان، ونهق الحمار مستريحاً مـــن حمل الرجال على كاهله، ثم انطلق حاشاً ما تحت قدميه من زاد أطلعته الأرض طرياً ندياً.

- *أين نحن بالضبط؟*

ســـأل جعفـــر في أول إشارة للحيرة والارتباك، توقف زيد عن التدحرج بجسده البدين قاطعاً ضحكته، مجيباً:

- في الجنة، في بلاد الله الواسعة، المهم بعدنا عن العيون، ثلاثة أيام يا رجل!! مؤخرتي تسلخت على ظهر الحمار.

ضـــحكوا جماعـــة، ورفع يحيى ظهره مستنداً على كوعيه وجعفر يمازح أخاه:

- ظهـــر الحمـــار اشتكى من ثقل عجيزتك، ألا ترى إننا صرنا أشولة لحم.؟.. باستثناء الأستاذ طبعا، حاشاه الله.

قهقهوا، جال يحيى بناظريه في المكان معلقاً:

- مـــؤكد نحـــن في حوران، نهاية السهل وبداية جبل الريان، لم يتبعنا أحد، يمكن الوثوق بهذا الفضاء المتسع، المهم؛ أين نتجه؟ درعا أم السويداء؟

واصل الرجال مسيرهم يمضغون عشبة الحميض، ويعلكون زهور شـــقائق النعمان، تعرج السهل وبانت هضاب طفيفة ارتفعت تدريجياً، ركـــب اثـــنان على ظهر البهيمة، وسار زيد مترنماً بصفير متقطع، ثم ركـــض باتجاه ربوة نبت فيها الصبار المكتظ بالأشواك اللئيمة الناعمة، تـــتغاوى ثماره برتقالية مصفرة، قطع حبات الصبار العسلية بحذر مفرط وسكين صدئ، شق لحاءها عن عصيدة وبذور، ثم تذوق حلاوة الثمرة متلذذاً، وعاد يحمل لصاحبيه حبات مقشورة في عب ثوبه المرفوع، وهو يـــتأوه تـــوجعاً إثر وخز أشواك ناعمة خزقت كفيه ونفخت أصابعه، وتفصدت بقطرات دمه، ابتسم يحيى مازحاً:

- لا لذة دون ألم.

واصل الرفاق دربهم، رجحوا اقتراب العمران لدى مرورهم بطلع القمح المزروع في السهول المترامية بين الهضاب اليسيرة، هشوا الحمار الأرعن عن الزرع الأخضر، وقد هاج يطلب ما يلوكه، اجتازوا السهل إلى جـــبل الريان الذي يرتفع بتدرج لا يجهد الصاعدين، لطفت الريح

وتنــــشقوا صــــافي النسيم، بينما صبغت الصخور بسواد بركاني ناصع، ومن بعيد في أسفل السفح، وعبر فضاء صاف؛ شاهدوا رفعة قمة جبل حـــرمون مكللـــة بالثلوج كرأس شيخ جليل يحرس السهل الحوراني، انتشوا آمنين وهم يدخلون كرمة عنب مع هبوط الليل، استلقوا أرضاً مستمتعين بمص حبات الحصرم، وانتهوا إلى إغفاءة عميقة تحت شجرة تفاح مثقلة بثمار بغوة[1].

أسدل يحيى جفنيه على رجع أنغام سمعها يوماً على أوتار القانون، انبعث صوت جمان في خاطره فأذاب جوانحه، وخاتله طيفها حتى أغفى مطمئناً رائقاً.

لم يفــــزعهم ثغاء الأغنام وحركة الخرفان البيض التي تجمعت في شـــلية واحدة كبيرة حول كرمة العنب فجراً، ولا وجه الراعي الذي حدق في وجوههم، كما لو كان من معارفهم وارتحالهم حلماً استفاقوا منه، تبادلوا تحايا الصباح، وجاءهم بطاس فخاري يطفح بحليب دافئ، ارتكــــز عـــند جذع الشجرة يراقبهم يشربون بالتناوب كأي مضيف بدوي؛ لا يسألهم، لكن يجيب على أسئلتهم بإسهاب وتفصيل.

أعلمهـــم الراعي القادم من قرية ملح الصرار إنهم ينامون في حقل من حقـــول قـــرية عـــين عيشه، قادهم بأريحية إلى نبع الماء المتدفق، تقدمهم بـــشرواله العـــريض والفروة الصوفية فوق كتفه، فاغتسلوا وشربوا، وهم يـــسمعون تأكيداته في أن السويداء صارت على مسافة قصيرة لا تتجاوز الـــوقت الـــذي تحتاجه الشمس لتضحي بالنهار، ولأنه طفق يتحدث عن قـــريته ملـــح الصرار الواقعة على طريق قوافل الملح، فإنهم لم يضطروا إلى التحدث بأسباب ارتحالهم، ولم يفزعهم مرور عدد من الجندرمة العثمانيين يحملون مدفعاً على البغال، عابرين أسفل الوادي دون أن يلتفتوا نحوهم.

---

(1) لم تنضج بعد.

قال الراعي الصراري:

- في قرية الملح، تصر الأبواب الحجرية الضخمة بصوت مدو إذا ما انفتحت أو انغلقت، حتى ليبدو كل صوت أمامها صوتاً خفيضاً، نحن أحفاد أساقفة مؤمنين، نصارى، أسلمنا، فكسبنا الحسنتين، في بلدتنا، إلى جوار برج القصر القديم أقمنا مقام الولي الحداد، لا نقطعه ولا يقطعنا، نتبرك به في كل ضيقة، هو مجير الخائفين والهاربين والمساكين، هناك يمكنكم أن تلجأوا إلى بسطاء الناس، وتحتموا بهم من أي شر يترصدكم أو خوف يحيق بكم.

تبادل رجال الكرك النظرات، لم يعرفوا إذا ما كان الراعي يتذاكي لمعرفة أسباب ارتحالهم، أو إنه يجود بدعوة كريمة وحسب، وما إذا وجب عليهم تفسير خروجهم إلى السويداء، وحاجتهم إلى جهة تحميهم من خوف وشر يلحقان بهم، قال يحيى بامتنان:

- تشكر يا أخي، نحن نقصد دمشق، لنا فيها صاحب يقال له الصالحي.

هز الراعي رأسه مستسلماً:

- على هواكم، لكن الولي العابد الصوفي الحداد لا يرد أحداً، والناس هناك كرماء على فقرهم.

قادهم إلى السويداء، مستكملاً ما بدأه في وصف مكرمات وليه الحداد، صاحب الفضل في شفاء العليل، وإيجاد الضائع، ورد الغائب، تسلوا صامتين بحكاياته وأدلته التي لا تقبل التشكيك في بركات الحداد.

على أن الزمن الذي حدده لقطع المسافة إلى السويداء لم يكن دقيقاً؛ انقضى النهار وأوشكت السماء أن تعتم عند وصولهم، ارتد الراعي إلى أغنامه، عندما عبروا اللوزيات التي ازدانت بزهر أبيض بهيج،

انكشف لهم المسرح النبطي القديم في قلب القرية، ونفر من الناس يضربون الدفوف، ضربات يشيع صداها في الأرجاء باعثاً الأنس والطرب، وكلما اقتربوا بانت حركة الرجال الذين يرتدون مسوحاً من الخيش واللباد، يتحركون في دوران يتطوحون منشدين:

- *يا رسول الله.. مدد.. مدد.. يا حبيب الله.. مدد.. يا شفيع الله... مدد.. مدد.. مدد.*

انضموا إلى الجمع وقد عقلوا الحمار في شجرة بالجوار، غاب المنشدون والراقصون في النجوى، وما التفتوا لحضور الأغراب المبحلقين، أعجبتهم العباءات المتطايرة مع دوران الرجال في منتصف الحلبة، والنشوة التي أخذت بتلابيب الجمع الذاهل تحت وقع نقر الدفوف المتواتر المتعالي، والحجارة الضخمة تتوسط مشهداً بديعاً لمربعات من الفسيفساء الملون والمرصوص بعناية؛ مصوراً حسناءِ مرسلة الشعر تولد في الضياء، في غمرة انبهارهم باللوحة وما أضاف إليها جمع الدراويش من حراك، تبينوا كلمات الأناشيد وانسجام الأصوات التي ترددها:

- *يا نبي الله يا سيدي.. أنت باب الله معتمدي... بدنيايّ وأخرتي... يا رسول الله خذ بيدي... الله.. الله.. الله.. الله...*[1]÷

اشتد الدوران، وأسبلت الجفون على عيون زائغة، واستشرت النشوة في الجمع.

قال جعفر مرسلاً ناظريه هامساً:

- *لن أبرح هذه الأرض.*

لم يدرك أي منهم ما الذي فتنه على وجه التحديد في قلب القرية التي اسودت حجارة منازلها، والتي انشغل أهلوها بالذكر عن ملاقاة

---

(1) من أوراد الصوفية.

الأغراب، وقد انــزلق قمرها على مهل حتى حاذى الأفق مع ابتهالات الله الله، تاركــاً مــسحة من فتنة حمراء على ذراعي تمثال آلهة الجمال فينوس التي تمطت فوق الفسيفساء منذ عصور سحيقة، متسيدة المسرح العتيق، وعابقة بأريج حصرم العنب الحامض.

بات الثلاثة عند سفح درج المسرح الروماني العتيق، وزيد ممسك برســن حمــاره، ربطــه في معصمه في حرص، خوفاً من قطاع طرق محــتملين، بينما فرح جعفر واسترخى، انطرح أرضاً كما لو أنه دائخ، وفُتــنت عيــنا يحيى بخيالات الناس يتفرقون حول المدرج حتى غلبه النوم.

مــع بــزوغ شمس الربيع الحانية، وبرودة الندى المنتشر، استيقظ كمــن نام دهرا، شعر بحيوية عالية ونشاط تام، وبينما زيد يفك حبل الرســن عن معصمه، وقف الثلاثة يرقبون قدوم رجلين نحوهم، تعرف يحــيى على المنشد الشيخ الذي قاد نشوة الليلة الماضية، كان ربعاً على امــتلاء خفــيف، أبيض الوجنات، بلحية قصيرة وعمامة مهيبة ناصعة البــياض، وقفطان من الصوف الرمادي ينسدل فوق ثوب كتاني، قال المرافق بحماسة:

- *سيدي الشيخ، هؤلاء الضيوف.*

بش وجه الشيخ، وهز رأسه يعتذر:

- *نمتم بالعراء! يا عيب الشوم، سامحونا، سهونا عنكم.*

المهابــة والحضور الآسر أوحيا لزيد وجعفر مكانة الرجل، فتنحّيا جانباً يقدمان صاحبهما، سأل يحيى قبل تقديم نفسه وصاحبيه:

- *أنت زعيم سودا؟!*

ضحك الرجلان بافراط، وتبددت المهابة التي تحيط بعمامة الشيخ الصوفي، وهو يردد:

- زعـــيم!! أنا زعيم!... استغفر الله.. أنا خادم على باب الله.. قال... زعيم!!

مسح الرجل المهيب ما ترقرق من دمع عينيه معتذراً، ثم بحنو قال:

- يـــا بني أنا على باب الله، سودا قرية لا تعرف الزعماء، كما ترى، بعض الشركس والداغستان والتركمان والعرب، خليط أجناس، وأنـــا درويـــش من الشام، أمر بتلاميذي بين الحين والآخر، نحيي ذكر المصطفى في القلوب الناسية.

هتف يحيى:

- الشام!! دمشق!.

علت الابتسامة وجه الدرويش مجيباً:

- دمشق، شامة الدنيا، الفيحاء.

فيما كان زيد وجعفر يسمعان حديث المرافق عن السويداء، وما جاورها من عيون الماء وقصائل الزرع وكرمة العنب، والقرى الصغيرة المتناثـــرة بيـــنها وبين درعا، مستفسرين عن وسائل البقاء في حوران، وأبواب الرزق فيها، عارضين خبرات الطبابة وفن الأعشاب، انصرف يحيى للشيخ علان الدمشقي، ولشدة ما أبدى من تبسط وانفراد ودود، كاد يحيى ينسى أن الرجل درويش يقود طريقة صوفية، وله من المريدين ما يجعله زعيماً حقيقياً، تشابكت ذراعاهما، سارا يتبعهما الصحب نحو المعبد النبطي العتيق، مأوى الضيوف ريثما يجدون مكاناً يستقرون به.

دلـــف الشيخ وضيوفه بوابة المعبد التي انهار جانب منه، وارتفعت جـــدران في جـــوانب أخـــرى يلوذ بها الجالسون؛ وقف المريدون في جلابيبهم القصيرة البيضاء في هبة واحدة، تراجع الواقفون خطوات إلى الـــوراء، وانخفـــضت رؤوسهم الحليقة بدرجة خفيفة، فانكشف سماط الطعام بينهم عن خبز وماء.

أمــر الــشيخ، فهــرع مــريد صغير أمرد يحضر حمصاً مطبوخاً للضيوف، تذكر ثلاثتهم الجوع الذي توارى في غمرة فتنة الليل، فأكل زيد وجعفر بشراهة، غمسوا الخبز بمدمس الحمص، ولوثوا أفواههم ثم مــسحوها بالخبــز الساخن الشهي، في حين استحى يحيى أن يستزيد، مكتفــياً بلقيمات أشبعنه، وإن قرص جوع مختلف روحه، فيما راقبهم الشيخ علان بعين فاحصة.

- *الصالحي!! تقصد الهلالي الصالحي الدمشقي؟؟*

حــار يحيى أمام جمع الكنى التي لقب بها علان الدمشقي صاحبه، وخشي إن معلوماته عن الرجل الذي رافقه في رحلته من القاهرة وسينا وحــتى الكرك لم تكن وافية دقيقة؛ رغم إقامته بينهم شهراً، فهم علان تقلب نظراته الحائرة، فأسعفه:

- *هل صاحبك هذا شيخ كبير شابت لحيته؟*

- *هو رجل في أواسط العمر.. كهل.*

- *إذن.. لا تعــني الهــلالي، فقد توفاه الله، تقصد محمد بن نجم الدين!. الصالحي، أخشى إنه يقيم في طرابلس الان، ومن الجائز إنه عاد إلى دمشق في غيابــي لسبب ما، من يدري!، إذا نــزلنا دمشق أقودك إلى مــن يدلك عليه، ومن لا يعرف الصالحي؟ ريحانة الأدب المقتدى، والبليغ الذي لا تثمر أغصان القلام إلا في رياض أدبه.*

خجــل يحيى لجهله بصاحب رافقه وما علم حق قدره، وندم على معرفة ضاعت منه وهي في متناوله.

رجــح إن المخــتار وأخويه كفوا عن ملاحقته مؤقتاً، لكنهم قد يظهرون فجأة، وأشفق على صاحبيه زيد وجعفر وقد جرهما إلى قدره الغــامض المــريب، لهذا؛ وجد في وقوعهما في هوى السويداء ما أثلج فؤاده، ربما تمكنا من الاستقرار ومزاولة الطبابة في أرض جديدة، وربما

تمكنا من استجلاب ذويهما إلى هذه السهول الخضراء، فاستقامت لهما الحياة، أما هو؛ فما فكر لوهلة باستدعاء مريم، ولا باحتمال لقاء جمان، ظن لطرفة عين إن الماضي ابتلع غاليتيه إلى غير رجعة، وإن رؤيتهما لن تـــتأتي لـــه إلا في مـــناماته القصيرة القلقة المتوجعة، إلا إنه سرعان ما اســـتجمع شـــتات فكره ومضي يراقب علان ومريديه متأملاً متفكراً، التقت نظراته بنظرات الشيخ مراراً والأخير يحدث صحبه الذين تحلقوا في تبجيل قدسي حوله يسمعون كلمات متفرقات حول أسس الاقتراب من الخالق على جسر من محبة نبيه المصطفى محمد بن عبد الله.

جاء التركمان حاملين بيوهم المستديرة من اللباد، بعض الميسورين مـــنهم نقلوا بيوتاً من شعر الماعز وضربوا حلقة حول المعبد، انتشرت نساؤهم بملابسهن الفضفاضة الملونة وسراويلهن المكشكشة، وأطفالهن العراة، وهبط الشركس من الكهوف الجبلية المحيطة إلى ساحات الدرس في المعـــبد معتمرين القلبق فوق رؤوسهم، مزهوين بصديراهم الكتانية المزخرفة بالتطريز، يرقبون طقوس الذكر والنشيد والدوران في المسرح النبطـــي حائرين وقد استعصت عليهم اللغة، إلا أهم يهتزون إذا اهتز الجمع مرددين.. الله.. الله...

وصل السعديون أتباع سعد الدين الجباوي من أعلى جبل الشيخ وبلـــدة جبا القنيطرة، بعمائمهم الخضر الكبيرة، تتدلى جدائلهم الكثيفة خلـــف ظهـــورهم، وهفف ثيابهم الكتانية المتسعة وأكمامهم الطويلة، يـــبدون في خضرالثياب مثل جمع شجر في غاب، يحيون ذكر شيخهم الجـــباوي الـــذي كان شيخ قطاع الطرق، لكن نبله وفروسيته غلبت شـــقاوته، فتاب وتاب صحبه معه، يجيئون موزعين حبات الثمر على الفقـــراء والـــدراويش، مشاركين في طقوس الحضرة والنشيد في مدح المصطفى، يدورون ويهللون، حتى يتساقطوا تباعاً مغشياً عليهم.

أما عرب السويدا فيجنون الزرع، ويرفعون القفاف العامرة بالثمر علـــى أكـــتافهم، أو يـــشدونها بربطات كوفيات متدلية إلى الظهر، ويقـــصدون لـــيالي الذكر، يقشرون الفاكهة، ويتسامرون حول حلقة المتـــصوفيين، يضحكون إذا ما انفلت منهم واحد وقد أصابته عدوى الدراويش، فانخرط في الصفوف مازحاً، ودار مجذوباً بقوة الجمع الذي يـــرج فضاء السويداء، حتى زيد وجعفر؛ اندفعا إلى مشاركة المريدين طقوسهم وأناشيدهم رغم انشغال نهارهما في جمع النباتات الصغيرة ذات الفـــوائد العلاجية حول البيوت الحجرية السوداء، وقد استخدما هاوناً نحاسياً جادت به امرأة تركمانية لسحق نبات العليق وأشواك العكوب، وتحـــضير عجيـــنة تؤكل في مقاومة عسر البول الذي شكا منه مريدو الطـــريقه، كما تمكنا من تحويل جرار الماء الصغيرة إلى قوارير يحفظان فيها مساحيق يذيبانها فيشربها العليل مستشفياً، وبات انشغالهما العملي يحـــول دون انتظام لقائهما بيحيى الذي يجلس مطولاً إلى علان الدمشقي، يسمع كلماته الملتبسة، ثم يشهد طقوس الاحتفال المسائي مراقباً.

لم يخـــفَ على الشيخ علان إن الشاب الملتحي الوقور، القادم من الكـــرك، مختلف عن صاحبيه، قدر إنه أستاذ قبل سماعه، ورغم الشك الـــذي ساوره في أسباب خروج الكركيين الثلاثة إلى حوران، لكنه لم يسأل، بل بدا ودوداً متعاطفاً وهو يفسح لهم في مجلسه، ثم وهو يخصص ليحيى مكاناً إلى يمينه، كأنما يعلن دون جلبة انضمام مريد جديد خاص ومتميـــز، يستمتع بلعبة الفهم التي تدار بينهما دون كلمات، فكلما فاه بعبارة وجد لها صدى في عيني الشاب، والتقط اهتزازات أنامله عند بـــدأ الأذكار المسائية، وفطن إلى إن انفعاله الغامض مع الإيقاع يكاد يكـــون أعلـــى مـــن لحظات الشطح التي يعاني منها مريدون انصاعوا للحركة المعتادة.

تذكـــرعلان ابنته اليافعة خوله، طفلته الحبيبة، درته الغالية التي لم يجـــد بين مريديه من هو أكفأ للزواج منها، وحدس في قرارة نفسه إن الكركي يبدو لائقاً ومقنعاً، وإنه في غياب الأولاد من صلبه؛ سيتمكن من استدراج الرجل للانضمام إليهم، ومن ثم الاقتران بالصبية المليحة، وربمــا يورثه أسرار الطريقة ويمنحه شرف خلافته، تلك الأمنية الخفية باتـــت تشغل خاطر الشيخ، كلما تكلم يحيى حول مسألة في الدين أو الدنـــيا، تبدت علامات الإعجاب والتقدير في أسارير الرجل ونظراته، فـــسرها المـــريدون في أن للشاب شأناً مستقبلياً مع شيخهم، ازدادت الأمنـــية إلحاحـــاً في قلب الشيخ الذي أجل البوح بها ريثما يصطحب الـــشاب إلى دمـــشق، متمنياً؛ لو يبادره الشاب قي الاستجابة لأمانيه، دونما اضطرار إلى تلميح أو إشارة منه.

بيـــنما الرجل منشغل في ترتيبات متمناة لابنته، وفي إشعال فتيل الحماسة عند المريدين، وفي ترغيب يحيى بالانتماء إلى جمعهم، وقع يحيى تحـــت ســـطوة مشاعر متضاربة هزت جنانه، ونسفت كل ما تلقاه في كّـــتاب المولى، وما عاناه في تيه سيناء، وما عرفه من فقه وعلم الأزهر، أو حـــتى بـــين صحائف الوراق، وصفائح النحاس في سوق الحرفية في مصر المحروسة، بات يتقلب بين شك ويقين.

لم يـــزايله قلقه ولا فارقته طريقته في إلقاء الأسئلة دونما إجابات، لكن بساطته المذهلة في التعبير عما خبا من أسئلة لاقت هوى في قلوب الـــصبية والـــشباب المتحلقين حوله، حتى أن علان على محبته وإيثاره للفتى، أصيب بغيرة طفيفة وهو يرى توهج عيون المريدين إذ ينظرونه، واقبالهم كما لو كانوا عطاشاً، تجف حلوقهم ناسين الماء والزاد وأميرهم الدرويش؛ يسمعون أفكار الكركي حول الكون الذي لا نعرف منتهاه، والـــذي يقض مضاجعنا، ويبلبل معرفتنا بالحقائق دونما تفسير حقيقي

ناصـــع يـــذهب بالشك ويقودنا إلى اليقين، كأنما الفتى الشكاك أكثر بلاغة من الشيخ المفوه الذي يعرفونه ويمتلك حقائق اليقين، يسردها بين حضرة وأخرى.

في الحضرة، يغالي الرجال في غيبتهم، يتوسلون، ويتوصلون بالجهد إلى نـــشوة عالـــية، ينخرط يحيى في الجمع ويصل مبتغاه من النشوة، ثم يفـــتح عينـــيه ويحقـــق في الفراغ، كأنما أفاق، ينتحي وحيداً مثل سر مقـــدس، هادئاً، محاطاً بهالة تقديس جمعت إليه الصحب في الأماسي، وجعلـــتهم يتركون الذكر في الصباحات ليتسللوا مغتنمين لحظات مع الـــرجل الباســـم الثغر الذي يتأمل الدنيا ولا يحمل النفس على الخوف مـــنها، أو الطمع فيها، أو الزهد في مفاتنها، يبعث الخليط الغريب من أفكـــار الشاب المتعة في أوصالهم، ويتوافق مع أغوار عميقة في أعماقهم لا يفلحون بالتعبير عنها جهاراً، ولا يجدون فيما يحيط بهم من يتعهدها أو يعتـــرف بوجودها، بات تبجيلهم له يفوق سني عمره، ولولا حياء لقالوا إنهم وجدوا خلفاً لعلان المثقل بداء في قدميه.

أعـــد ابنا الشلبـــي الأعشاب والمراهم والمشروبات المداوية للشيخ، ولمن اشتكى من أهالي الديرة، وأهديا بعض ملح زعر الذي جلباه من بحيرة الملـــح إلى المتوجعين في عظامهم، فحظيا ببعض من الهالة التي شعت حول رفـــيقهما، كما لو كانا مباركين مبروكين، وصار العامة يقيسون الصحب الثلاثة بالتبجيل على اختلاف أسبابه، مما جعل المكان مأوى آمناً أثيراً.

ســـاير عـــلان غيرة نفسه من صهر مستقبلي محتمل، وسارع في تـــرتيب العـــودة، عل تلك المصاهرة تمهد لعلاقة متوازنة تضمن تبعية الفـــتى، فـــإذا ما أعلن الصوفي التأهب للرحيل، تعجب الأخوان ويحيى يـــؤكد إنه مرافقه إلى دمشق، فقد خيل لهما إنهما مقيمان في المكان إلى الأبد، نسيا أمر الرحيل بتاتاً، قال زيد:

- *ماذا جد؟ تبدو الحياة هنا رخية هانئة!*

حرر يحيى صاحبيه:

- *أيـــنما راقـــت لكما الدنيا، وطاب المقام، فأقيما، أما أنا؛ فإن الكون يناديني وأسمعه، أنا راحل برفقة علان.*

تـــبادل الـــشقيقان النظرات، ودونما جدل أو تردد، تبعاه، ارتحلا وراء يحـــيى، رفيقين مريدين، حملا أعشابهما والقوارير، وشدا جرابهما على ظهر الآتان ومضيا.

* * *

تهادى ركب المتصوفة محاذياً جريان نهر بردى متجاوزاً نبعه في مـــرتفعات الـــزبداني، والمريدون الذين اعتادوا تتبع علان، توزعت نظـــراتهم بيـــنه وبين رفيقه الكركي، وهو يهمس له كم اشتاق إلى وحـــيدته الشابة خولة، مادحاً صبرها على الفراق، وحفظها غيبته، وتحملـــها ظروف تصوفه وخياراته الصعبة، أطنب علان في وصف مزايا الصبية هامساً كأنه في حديث سري لا يريد للمرافقين سماعه، فـــيما كانـــوا منهمكين بتتبع تحركات يحيى، كيف يسير، وكيف يـــتحدث، ودلالة ابتسامته الودودة الغامضة، علق مريد لرفيقه وهو ينظر سير الكركي:

- *كأنه يمشي على غمام.*

ســـار يحـــيى علـــى قدميه حيناً، وعلى ظهر الآتان حيناً؛ يرافقه الـــصمت والتأمل على امتداد الرحلة الهينة، الحافلة بأطايب ما يحصلون علـــيه مـــن ثمر الفاكهة الناضجة في المزراع التي يلقونها على الدروب، توقفـــوا في مـــنحدر الربوة الباذخ الخضرة والظلال؛ يتأهبون لدخول دمشق، فتحوا صررهم يقتاتون، وغبوا ماء النهر العذب بفرح، تنشقوا النـــسيم ونعموا بجود الظل وأنسه، متحدثين عن القدماء الذين منحوا

النهـــر اســـم بـــراديوس ظانين إنه قطعة من فردوس الله؛ اقتطعت وسقطت أرضاً، وكيف أسماه الإغريق نهر الذهب، وصار عند العرب، بردى.

ابـــتعد يحيى خطوات وقد انطعج جيده وسقط رأسه على صدره؛ كاســـراً جـــسده انحناءً يبجل الكون، ثم اعتدل رافعاً ذراعيه، ووجهه مبتهل أسير بما يحيط به من جمال لا حدود لفتنته وبهائه، تكسر الضوء نصالاً اخترقت الفجوات بين أغصان الشجر المتشابكة، واحتضنه الظل رؤوفـــاً بتعـــبه، انبعثت خرير ماء النهر المنساب، فرش الرذاذ اللعوب المـــنفلت من حركة الماء السريعة صفحة وجهه، وضربته نشوة الجمال، ودخـــل في حضرة وحده، منتشياً، واصلاً كنه الحياة، وشفتاه ترتعشان وتبتهلان.. ال.. له.. الله.. الله.

أحـــس بالكـــون يدور؛ فدار معه، فتل رأسه مع دوران الجسد، وتلبسه الوجد، شفت روحه وعلت، توحد بالكون، وانبعث في إهابه الصوفي العتيق السهروردي، أنشد قصيده:

- أبـــداً تحـــن إلـــيكم الأرواح.. ووصالكم ريحانها والراح... وقلـــوبكم أهل ودادكم تشتاقكم.. وإلى لذيذ لقائكم ترتاح.. وارحمتا للعاشقين تكلفوا.. ستر المحبة والهوى فضاح.

علـــى مشارف دمشق في الربوة المارة بوادي ظليل، وكما تلبسه السهروردي، جاءه رفيق الروح المتصوف الأكبر ابن عربـــي؛ يعلمه، فيتعلم.

- أدين بدين الحب أنا توجهت ركائبه، فالحب ديني وايماني.

سمع الصحاب هتافات الفتى تتردد مع رجوع الصدى في الوادي.

- رحمـــاك يـــا رب العباد رجائي، ورضاك قصدي، فاستجب لدعائي، الله.. الله.. حي.. حي... حي.

وجـــد المتـــصوفون الـــشاب مغشياً عليه، مطروحاً فوق أغصان وأوراق الـــشجر الوطيئة المتشابكة أرضاً كمهد وثير، ينساب الزبد من شـــفتيه، وتنفـــتح جفناه بمقدار على بياض غائم، وفي الجسد بقايا من ارتعاش يهز أطرافه هزاً رحيماً.

* * *

أسرع علان بالركب متلهفاً للحاق أهله، وتلقى صامتاً الحالات العجيبة التي تصيب رفيق دربه الجديد الكركي، ووقر في قلبه إن الرجل وهو يقع في جبة الانجذاب الصوفي، سيجاهد النفس ويضعف ما تبقى مـــن حس يدفعه إلى الارتباط بامرأة، ستتقد روحه وتحلق وينفصم عن العـــالمين، عندها ستكون مغامرة قرانه بخولة محالة، سيخيب ظن علان وأمله، فقد تمنى في خفاء مصاهرة الرجل، إلى جانب استقطابه مريداً له، ورغـــم جلـــباب تصوفه وزهده المعلن إلا أنه لم يكن في أعماقه ينوي تيسير المشيخة للصوفي الجديد دون صفقة حياتية متكاملة، تملكته تلك الأفكار الخاصة بينما فرغ الآخرون لتأمل الكون، وأفزعه توحد الشاب وغموضـــه وهوســـه بفتنة غير ظاهرة، ولم يتمكن حتى من هزة رأسه الايجابـــية حـــين جلـــس إلى جواره معلقاً على فرح جعفر وزيد بفتنة الخضرة، وشذى الزهر، وسلسبيل الماء، قال زيد:

- هي جنة الله على الأرض، فيها سبل السعادة والخلود، كل ما حولنا جميل وخير.

دمعت عينا يحيى، وقال كأنه يقرأ في كتاب الكون الفسيح:

- اعلمـــا إن الكون لا يكون إلا بالقبح والجمال معاً، كما المرء السوي لا يستوي إلا بخير وشر، نقصنا دلالة انسانيتنا، وإن الجمال إذا فـــاض؛ أغرق، ماحقاً من وجهه ما عداه، موجعاً من فيه حد الفناء به، والله، إني لأرى مصرعي بين فتنة الكون ومحراب الشك.

اربـــدت وجوه الرجال الداخلين إلى دمشق وانتابهم شك خفيف في إنهم أهل الحقيقة الكاملة، وتنازع أفئدتهم مرير السؤال وهم يعبرون باب كيسان في الطرف الجنوبـــي الشرقي للمدينة محاذين لحارة اليهود، مارين تحت سور الباب الموسوم بنقش كوكب زحل، كما هو مألوف في أبواب دمشق التي حملت في أعلى تيجانها نقوش الكواكب منذ أول الـــزمان؛ توزعت كواكب المجرة أعالي الأبواب، فكانت الشمس على الـــباب الشرقي، والزهرة على باب توما، والقمر على الجنيق، وعطارد علـــى الفراديس، والمشتري على باب الجابية، أما الباب الصغير الذي عـــبروه بعد كيسان جنوب المدينة؛ تجلى في أعلى تاجه نقش حجري لكوكب المريخ.

استراح الجمع خلف مسجد قلوس، وأكمل الشيخ دربه إلى بيته المتواضـــع في مـــيدان الحصى القائم على أطراف بردى جنوب المدينة، تاركاً جماعته في رعاية قبضايات وزكرتية الميدان الذين يحرسون الزوايا، مـــصطحباً الضيوف الغرباء في دعوة كريمة، عند باب بيته، تنهد علان مفكـــراً؛ وضيعتاه لعيون خولة النجل إذا ما شغل الفتى بالكون وجماله، دون ســـحر العـــيون وفتـــنة الأنوثة، لم يدر في خلده بتاتاً إن حسناء أعجمـــية تتـــسيد خاطر الفتى وتُذهبُ لبه إذا ما تمازج طيفها بالنسيم والخضرة.

هـــرعت بـــنت الـــدرويش تعانقه بعد غياب، ارتبكت حياءً، وأسدلت نقابها تدعو الغرباء لدخول حجرة الضيافة، بينما توجه والدها نحـــو السلالم التي يتشعلقها الياسمين، إلى حجرة زوجته المقعدة، غض الـــرجال الثلاثة أبصارهم والصبية تتناول جلابيبهم التي تفوح بالتراب والعـــرق، أخجلهم فيض الود العائلي الرقيق، أعادت الصبية ثيابهم بعد غـــسلها وقـــد فاحت بأريج الخزامى والبيلسان، وفي حين كان يحيى

وجعفـــر يشكران باسمين، فإن زيداً تصنم، وجف ريقه؛ واقعاً في وله الصبية التي سرعان ما توارت بجلبابها الناعم يرفرف خلف خطواتها.

تلقى الضيوف اهتماماً عائلياً وتدللوا، تعامل علان معهم كما لو كانوا أمراء على درجة عالية من الأهمية، انقلبت صورة الدرويش الذي يعيش على كسرة الخبز اليابس في رحلاته، إلى رب العائلة الذي يفيض بيـــته بـــالخيرات، وتلك الأطايب التي خرجت من مطبخه، والطيف الرشـــيق الـــناعم الذي يروح ويجيء قبالتهم، ناقلاً اللبن طازجاً دسماً، واللحـــم محمـــراً مطبوخاً بالسمن والقلوبات من لوز وصنوبر مقلي، وكـــبب البرغل محشوة بالجوز والدهن، متوجة مائدتها العامرة بوربات القشطة المغمسة بالعسل.

لم ينقطع يحيى عن تأملاته وسط الأجواء المدنية المرفهة، ولا تلقى عـــلان اشارة توحي بأمل طفيف فيما يتمنى حدوثه، وغاب عنه الروع الذي أدخل زيد في صمت وغياب عن المحيط، فلا يُرى هاشاً باشاً إلا إذا حـــضرت الفتاة تنقل طعاماً أو شراباً، يهب؛ يعينها حاملاً الأقداح، أو مسرعاً إلى تعطير الشاي بنبتة عطرية خبأها في جرابه، فتشم وتبتسم له بود وعرفان ثم تنصرف، ليقع في صمت وخبل مؤقتين.

لم يعارض الأخوان رغبة يحيى في إيجاد سكن مستقل، والتخفيف عـــن المضيف الكريم الذي ساعدهم في العثور على حجرة رطبة بنافذة خشبية عالية في منحدر في حي القبيبات جنوب الميدان، قدم يحيى درساً مجانياً لابن مالكها، وخلط له أولاد الشلبـــي بعض الأعشاب للاوجاع العابرة، فاعتبر صاحب الحجرة ما ناله من تدريس ولده، وتزويد خزانة الأدوية في بيته بالأعشاب المفيدة والوصفات النادرة، أجراً مجزياً، فكر الأصـــحاب الـــثلاثة في ضرورة وقوعهم على مهنة يعتاشون بها، توفر احتـــياجاتهم وقـــوت يومهم، وبدت فكرة الالتحاق بالزوايا منفرة لا

تناسب يحيى وصاحبيه، حتى بعد حالات الشطح الوجداني التي زلزلت أنفسهم في رحلة القدوم إلى دمشق؛ تحولوا إلى رجال يرغبون في الكد لنيل القوت وتسيير أمور الحياة.

في رحلة البحث عن الصالحي؛ قادهم علان داخلين المدينة إلى قلب دمشق، عابراً بهم باب الله، أسفل الميدان بعد أن أودعوا آتانهم عند واحد من مكاري الدواب العكامة، لم يعد علان على ذات التودد واللطف، تراجع وهو يزن الأمور، أوجعه أن حسن ابنته الفتية لم يحرك سواكن يحيى، وانقضت فترة الضيافة دون توثيق عرى المصاهرة بينه وبين الكركي، جرحه الاحساس بانكشاف أمنيته الخفية للعيان، وفسر إقلال يحيى في المجيء إلى زاويته تهرباً، ولام نفسه على تمنياتها الغامضة، مع ذلك؛ قدم خدمات طفيفة من باب ترك الباب مواربا.

في الدرب الضيق لسوق جقمق، عاوده حدس حزين، رأى ترحيب العامة به ينتقل إلى الشاب؛ فيكثرون من التحيات الودودة والعروض السخية لخدمات متفرقة، أيقن إن صاحبه سيغلبه في استقطاب قلوب الناس عما قريب، وابتسم مقهوراً من صحة حدسه حين دلفوا الدهليز المسقوف لخان جقمق، استقبلهم صاحب الخان في الساحة الواسعة التي تتوسطها بركة عامرة بالماء، وإذا بالتاجر الحريص يجود بإقامة مجانية للضيوف لليلة واحدة، مُرحباً:

- *لأجل خاطر النور في وجه الكركي.*

لم يكن الجود من فعله أوعاداته، لا يتذكر علان شخصاً واحداً تم استثناؤه من كروة الخان دون مبرر، ولم يلمس مصلحة منظورة مفهومة لصاحب الخان في مثل هذا التبرع السخي، ثم إنه تجاهل وقفته بجلبابه وعمامة الدرويش، وتحدث عن النور في وجه الضيف الغريب!

سقطت كآبة شديدة ووحشة في فؤاد الدرويش في حين راح يحيى وصاحب الخان يتباحثان حول الصالحي.

جاء صاحب الخان بالخبر بعد أيام؛ نقل إليه صبيانه الذين أرسلهم يبحثون عن الصالحي خبر انتقاله إلى جوار ربه قبل شهور قليلة، وفشل يحيى في اخفاء فجيعته؛ انهمرت دموعه مفصحة عن ألم وخوف وغربة، مما رقق قلب صاحب الخان مضاعفاً، فبالغ في ضيافته ومواساته، مؤدياً دور الأب الحاني والعم الرحيم، والجواد الكريم، جود أذهل جعفر وزيد وشملهما، وزاد في وزنيهما وهما اللاحمان.

تجـــاوز يحيى صدمة الحزن وطوى صفحتها؛ مدركاً إنه أمام قدره في الـــشام وحيداً لا يحتمل التسويف، سرعان ما انصرف إلى الانشغال بالبحث عن حرفة تسهل حياته وحياة صاحبيه في دمشق.

قطن يحيى الخان فيما استقر الأخوان في حجرة الميدان، اكتشفا إن مـــسافة قـــصيرة تفصل سكنهما عن سوق الحبوب، وقادهما الروائح الحـــريفة واللاذعة والمخفزة إلى الميدان التحتاني، حيث مخازن الحبوب وبـــوايك البهارات، والخانات التي تأوي جموع الفلاحين القادمين إلى المدينة يحملون ما جادت به أراضيهم لبيعها، بداية؛ افترشا أرضاً خلاء وراء حجـــرة للحياكة وحانوت للنشاء، حاولا تصفيف ما يملكان من أعشاب وقوارير تلفت النظر، لم يكن دخول السوق بين حيتان التجار سهلاً، لا بد لهما من إبراز تميزهما، وقدراتهما العلاجية، أسوة بالعطارين المنتـــشرين في المكان، أما يحيى، فقد قاده تصوره عن المهنة التي يفلح بها إلى ســـوق النحاســـيين في درب جقمق، باعدته تصاريف الحياة عن رفيقيه، سكناً، وحرفة.

عبر الشارع الضيق المستقيم المرصوف بحجر اللبون، والمفتوح على الـــسماء، وتجاوز البيوتات التي عكست ثراء أصحابها في تحف معمارية

مـــزينة بالـــزجاج المعشق والزخارف الجصية والقباب، حاذى كنيسة بولس الرسول، وخان الحماصنة، دخل السوق المسقوف بالخشب، ماراً بحوانيت مزودة ببوابات عريضة وأغلاق خشبية ضخمة، حيث علقت العباءات والكوفيات ولفائف الأقمشة بصورة لافتة، وساد مهرجان من الألـــوان مغلـــباً اللون الصدفي العاجي على الأقمشة الحريرية المطرزة بخيوط الفضة والذهب، ثم إذ وصل سوق النحاسين، أعادته الأجواء إلى القاهرة البعيدة، وأوقعت أصوات الطرق والدق في صدره ذكرى حانية قاسية في آن، كان حرفيو النحاس الشوام يدقون على إيقاع دارج، أو مقام السيكا، متنقلين بين هوادة الحزن وانبثاق الفرح، عاودته أشجان العـــشاق مـــع النغم، وانفطر الفؤاد آسى، بدت تلك الدقات تفاصيل حياتـــيه مـــوجعة، لـــن يتمكن من استعادها دون هدج صدره وغلبة الدموع، ارتد في دربه فزعاً من وجع يلاحقه، وجد بوابة كنيسة بولس الرســـول مـــشرعة، فكر في الولوج إلى صحنها، عله يداوي جراحه العالقات، لكن قدماه توقفتا في الممر بين حوانيت النسيج والخياطة، رد سلام بعض من لفت انتباههم وقوفه المتأني، زفر يداري حيرته، وانسل في ممـــر ضيق بين الحوانيت، مر بالقباضيات أصحاب العضلات المفتولة والـــشوارب المعكوفة، الذين يمنعون كل غريب من عبور الحد الفاصل بين أسرار صناعة الحرير وحياكته وبين حوانيت بيعه المباحة للعامة، فلم يـــوقفه أحـــد، حتى انتهى إلى كرخانات[1] الحرير، وطغت الأصوات المنبعثة عن آلات الحياكة اليدوية على دقات سوق النحاسيين باختلاف أنغامها ورتابة تكرارها، في تلك اللحظة؛ فتن الجمال ذهنه وفؤاده.

عـــاوده شجن ذكرى شقيقته والخيوط تتابع في النول، وانساب قلـــبه فيـــضان حنان، سحرته شلالات الحرير المتداخلة بخيوط الفضة

---

(1) مشاغل.

والذهب، ورغم ضيق العاملين على أنوالهم الخشبية بكل غريب يدخل حـــارهم، أو يجرؤ على الإطلاع على تفاصيل وأسرار الصنعة المتوارثة، إلا إنهـــم لم يـــتوقفوا عن العمل والشاب ينظر، وعيناه تدمعان ابتهاجاً وتأثراً للجمال الذي يصنع، فيصير منسوجات من البروكار[1] الفاخرة الفاتنة، ومثلما اقترب يحيى طفلاً من الحبر، وغط أنامله في المحبرة ملوثاً رؤوس أصابعه بالسائل الدبق، مد يده في ذات الشغف، متلمساً رقاع الدامـــسكو[2] الخارجـــة من سنارات النول، غزلاناً برية تتراكض على رقعـــة عاجـــية تميل إلى اخضرار خفي، توقف الحائك الكهل عن دفع السنانير المتحركة أسفل الألواح الكرتونية، حيث تنهمر خيوط حريرية مـــن ثقوب متجاورات لتنتهي طباقاً من نسج باهر، حار النساج الذي يـــرتدي عمامـــته الزرقاء في فهم التوق الذي فاضت به العينان اللتان ترقبان الصنعة دامعتين.

توقـــف الحج زيدون عن سحب إبرة التطريز بين أنامله، فأشعر يحـــيى بالخجل لتطفله، وفي لحظة تعالق عجيبة، فكر يحيى بممارسة تلك الـــصنعة، وفكر الحج النصراني الأشيب إنه واجد ضالته بالغريب الذي يراقب بتحنان، لمح في عينيه الشغف الذي فارق وجوه الصناع البارعين لفـــرط التكرار والتعود على الجمال، ولما همس الفتى بدماثة إنه يبحث عن عمل يقتات برزقه، ويعينه على اقامته في دمشق، أفسح زيدون له، وزيـــن لـــه أمر التحاقه بمشغله في زقاقه الخفي في قلب سوق جقمق، خلافـــاً لحرص المهنيين في صنعة الحرير بعدم توريث صنعتهم لغريب، ونقـــل أسرارها إلى أبنائهم، تسامرا حول مهنة الشاب السابقة، وبرم الـــرجل شفتيه ازدراءً إذا ما ذكرت صنعة النحاس التي تذهب بالسمع

(1) نسيج حريري اشتهرت به دمشق.
(2) حرير دمشقي معروف عالمياً.

وتـــسمم الجسد، وإن حدس إن فتى أجاد قولبة النحاس قطعاً فنية، قد يـــضيف إلى ما يمكن للقماش احتماله من دروب الفن والبدع اللطيفة، وحين ذكر التدريس، قهقه زيدون مستنكراً أن يكون لغريب زاد على مائـــدة المعلمـــين والفقهـــاء والعلماء الشوام الذين يغص بهم المسجد الأمـــوي، ويفيـــضون في الـــزوايا والتكايا المنتشرة في أرجاء دمشق متنافـــسين مـــتدافعين بالمناكب، وإذا ألمح يحيى إلى توقه الصوفي، عدل زيـــدون عمامـــته الزرقاء، وانبرى يعدد هامساً قبائح ما تأتي به فرق المتصوفين، وغيبوبة ما يعتنقون من فكر وسلوك يباعد بين المرء والحياة، ولم يـــتوانَ عن التلميح إلى تذبذب أحوالهم بين رضا عنهم من الباب العـــالي في اسطنبول، حد منحهم كل مستلزمات حياتهم، إلى غضب علـــيهم، وملاحقة لهم، وتقتير يصل حد الحرمان، مما يجعل دروبهم غير آمنة، والانتساب لهم غير مستقر.

همس في حذر وهو يرفع كمه عن وشم الصليب في معصمه:

- علـــى كل الأحوال؛ أنا مسيحي، قد لا تقبل شهادتي في هذا الـــشأن، ولا تعجبك، ولكن صدقني، لقد حججت إلى القدس، مؤمن بحمـــد الله، وقد وضعوا وشماً مقدساً هنا، ولكني أراقب الحياة بفهمي، وأعـــرف كـــيف يقع المرء صريع حالة روحية تفصله عن الدنيا، سواء كـــنت علـــى دين محمد أو عيسى، لقد ضاع مني وحيدي على تلك الصورة.

عمـــرت الـــسكينة صدر النساج النصراني؛ تحدث بأريحية للشاب الغريب الذي يدرس الفقه، ويميل إلى التصوف، كأنه من ملته، غير هياب من رد قد يحرجه وهو المسيحي الذي خبأ صليبه الخشبـــي أسفل جبته، وإذا جرؤ في دكانه على خلع عمامته الزرقاء بلونها المفروض على من هم في ديـــنه لتفرزهم عن عامة الدمشقيين المسلمين، فإنه لا يغادر الحانوت،

أو يجلـــس في بابه مكشوفاً، ولا يمشي في الدروب إلا وقد اعتمر عمامة التمييز تلك، ودس في ثناياها كتاباً رسمياً مختوماً يفيد التزامه الدقيق بدفع الجـــزية المتـــرتبة علـــيه، فإذا ما تعرض للتفتيش المفاجيء الذي ينـــزل بالذمـــيين بين الحين والحين، فإن وضعه سليم وقانوني، وواجباته منجزة، هـــذا الحـــذر الـــذي علمه اياه واقعه، تبدد تماماً وهو يحادث الكركي؛ اســـتخف بمـــيله للتصوف، أو بحثه عمن يرتضي اكتراء براعته في طرق النحاس وتشكيله وزخرفته، في حين زين له أمر صنعة الحرير؛ يستبقيه.

لم يـــشكُ النساج الحذر أمر فقدانه الولد إلى أي من زملاء مهنته بتاتاً، ولكنه انفتح وتبسط مع الغريب بيسر، أخبره عن ولده حنا الذي لم يطاوعه في تعلم مهنة الأجداد، وهرب من عمل يحني الظهر، ويذهب بالعافية ويعلق الفؤاد دون أن يعمر الجيب، إلى رحاب الرهبنة، منقطعاً للمـــسيح وكنيسته، مترهبناً أو متصوفاً على الطريقة المسيحية، تاركاً والده وحيداً في السوق، يتأسى على مهنة ستموت بموته.

تردد يحيى إلى حانوت الحرير مراراً، وأعمل زيدون ذكاءه ولطفه لينـــــزع من قلب الشاب كل شك أو تخوف يبعده عن حرفة صناعة الحريـــر، أراد اصـــطفاءه رفيقاً وتلميذاً له بعد أن وهن ظهره، لم تكن حماســـة زيـــدون وتـــشجيعه وما ذهب إليه في التقليل من شأن المهن الأخـــرى المحتملة في دمشق، سبباً مباشراً لارتضاء الكركي بالعمل في زقـــاق الحرائـــر، وقبول تحدي المهنة الجديدة، لكن تلك النمنمة التي تكـــررت في تتابع فريد على سطح القماش الحريري بخيوط من ذهب وفضة، الغزلان في المروج، وعيون النرجس على الحواشي، وعصفوران فـــضيان يلمعـــان في رقعـــة عاجية، يعتليان فنناً بالكاد يرى، ويلتقي مـــنقاراهما في قـــبلة خاطفة توشك أن تنفلت، عاشق ومعشوق، يكاد الريش منهما أن يرف في النسيج محلقاً، قال يحيى في نفسه:

- سأصنع ثوباً من البروكار برسم العصافير العاشقة لجمان، فإذا ما انتهيت من ثوبها؛ حضرت.

غاب فؤاده في التمني، وهو يتعلم الصنعة على يد زيدون الدمشقي المحترف، فكأنما حل وجد جديد بدل الوجد الصوفي الذي ضربه وهو يـــدخل بوابة دمشق، وكأنما الأفكار العقلانية التي ترتب حياته، تجد لها حيـــزاً كلما غل إبرته في النسيج دافعاً بخيط الذهب أو الفضة، ليمتزج بالفـــراغ، فيولد على مسامات النسيج اللؤلؤي كل هذا الجمال المنمنم الأصيل.

السوق ضيق، خفي، هادئ، إلا من إيقاع أصوات المكائن، خلافاً لـــسوق النحاس، يتحدث العاملون في سوق الحرير همساً، يبالغون في الـــصمت وهـــم يكررون ما رسمه فنانو النسيج منذ زمن، ويتبادلون لفائـــف الدامسكو والأغباني[1] والبروكار المحلاة بزهور الطبيعة، والتي تسرد حكايات معارك صلاح الدين، أو تصور ليالي أنس عمر الخيام، زاخرة بالفراشات والورود وبتلات الزهور الملونة.

لم يـــستنكر أساطنة السوق على زيدون الذمي معاونه الجديد، فـــزميل المهـــنة العجوز الذي فرط شاباً في إلحاق ولده بصنعته مثلما فعلوا مع أبنائهم، وجد ضالته في عابر سبيل، وهو وإن خالفه في الملة، إلا إنـــه رصـــين، وغامض، غني الروح، يثبت حرفيته كل يوم؛ يتقن ســـريعاً إعداد ورق لا يتجاوز عرضه السنتميترات القلائل، وتنظيف سنانير النول الكبير، وتجهيز ألواح الجاكار الكرتونية، ورسم التصميم الجمالي المعتمد والمألوف، وما يبتدعه من إضافات خاصة فاتنة، كتلك السوسنة الليلكية التي تلمع ببريق فضي، يجاورها خط رفيع متعرج، لو دققوا فيه قرأوا كلمة الكركي، وإذا ما دار النول ونقل المكوك الخيوط

(1) نوع من نسيج فاخر.

مـــارة في طـــيقان مرصوصة بعناية، شاهدوا وجه الرجل يبتهج كأنه يحلق.

كلمـــا تقـــدم يحيى في صنعته، وطرح نوله نسجاً جديداً، تهامس رجـــالات الـــسوق في أن الحج زيدون وقع على كنـــز، صانع ماهر عبقري، أنامله ثابتة، وذوقه رفيع، وخلاقه تسر البال، ثم راحوا يفارقون دكاكيـــنهم المـــتقاربة عـــندما يلون الشفق السماء؛ يجالسون الشاب متفـــرجين على نتاجه، مستمعين إلى أحاديثه، حتى مجموعة القبضايات والزكرتية والجند التابعين لوالي دمشق، والذين يغلقون أبواب الحارات ويؤمـــنون سلامها وأمنها إذا ما انصرف أصحابها إلى دورهم، يلتفون حوله، يديرون مطلع الحديث بإماطة اللثام عن أسرار صنعتهم طواعية، فيقترحون ويناقشون المشاكل، يضحكون لنوادر الداخلين أو الخارجين إلى الحـــارة ومـــنها، ويفصلون في تفضيل أنواع الخيوط الواردة على الـــسوق، وطرائق التحقق من أصالة الحرير، وأساليب الغش التي بدأت تستشري، وأحوال سوق الحرير الدمشقي الذي عرف في أوروبا وراء حدود دولة العثمانيين، وطبقت شهرته الأفاق، ولكنه لم يثريهم ويعمر جيوبهم بالذهب، إذ يبتاعون رطل الحرير بعشرة قروش، ويعكفون عليه لـــتحويله إلى ملبس وفن، يخسرون وقتاً وجهداً ويقدمون فناً؛ لا ينالون إلا القلـــيل مـــن ريعه، ليصب الربح المجزي في جيوب التجار الموردين والمصدرين والسماسرة على درب طويل ينقل الحرير الدمشقي إلى العالم.

تتـــسع الحلقـــة عـــند انكسار الضوء، وتنتقل الجلسة من أبواب الحوانـــيت إلى دخلـــة السوق، ينضم إليها من خارج أبناء المهنة أفراد يأنـــسون بالإضـــاءة المعلقة في فانوس في قلب الدرب، يتفرع الحديث ويخـــتلف وتتـــشعب مواضـــيعه، بدءاً من تلك الأكداس التي يلقى بها أصـــحاب مصانع النسيج والخياطون والحلونجية والجزماتيه من مخلفات

تــسيح في نهــر بــردى، مفسدة على المتنــزهين متعتهم، وعلى الماء جــريانه، وانــتهاءً بما يدور في المسجد الأموي من خلاف فقهي بين الحنفــية؛ مــذهب السلاطين العثمانين، والشافعية؛ مذهب الشعوب والرعايا العرب في مصر والبلاد السورية.

ينضم الشقيقان جعفر وزيد وجمع العطارين إلى السامر على مشقة مــشوارهما اليومــي من حارة البزورية في الميدان التحتاني حتى سوق جقمــق، يسرهما سماع الاسطى دريد صاحب الصوت الجهور الصافي يطلــق مــواله مــشتكياً هم صنعته، بينما أنامله تداعب دفاً مشنشلاً بالــصناجات؛ يــصدر لحــناً مرحاً والكلمات شاكية، يطلقها ممتزجة بضحكات المتحلقين:

- المطواية يا ناس.. حطت بقلبــي علة.. والدف هدّ كتفاي.. وصــار فيهن علة.. والنير غز بايديّ.. ترك فيها علة... والدواس بحش رجليّ.. وحط فيها ألف جرح ودمله.. وعلة.. والمكوك رايح جاي.. مثل هبوب الريح... ولما بيمسي المسا... بقوول: هلق بستريح... ولما بيصبح الصباح... بترجع علتي.. علة...(1)

الــدرب المحتفظ بأسراره وهمسات عماله، والذي يسمح بالمرح بمقــدار بعد يوم عمل شاق.. انفتح على إضافة غير معتادة، فعدا عن أصحاب المهنة الذين يتجمعون على الدوام بعد اغلاق الدكاكين، فإن الأزقــة الواسعة نسبياً تحولت إلى تجمعات للسائلين والمستفسرين، بدا عجيباً إن أسئلة فقهية عصية يتم تحليلها والنقاش فيها والنصراني يراقب باهــتمام، بــل ويتطوع ببعض الأراء؛ فلا يجد صداً ولا استنكاراً من الجالــسين، وكأنما فسيح الفضاء ووداعة النفوس التي أشاعها الكركي؛ ألزمت الجميع بدماثة لطيفة، وتهذيب عال.

---

(1) من قصائد مهنة الحائك السورية القديمة.

قبل تقدم غلالات الفجر الشفيفة، يعود الشقيقان مصطحبين الكركي إلى الخان، يعينانه على حمل ما عاد به من مخطوطات جمعها وهو يمر بضريح صلاح الدين الأيوبي، حيث يليه درب الحبّارين والكتبة والوارقين، لم يفارقه اهتمامه بالكتاب، وإن كان كتابه الأثير عيون الحكمة، وقد حفظه في صندوق نحاسي، رفيقه الدائم إذا هبط الليل حالكاً، وكما اعتاد، يفتحه قارئاً منه كلمات يحفظها أساساً، خاتماً يومه مستعداً للنوم بقراءة آيات من القرآن يتدبرها على تمهل واستلذاذ ورهبة، قبل إطفاء شمعته في الحجرة الرطبة الصغيرة وتسليم رأسه للنوم.

يرى يحيى حلماً متكرراً، عرض له الحلم يقظاناً لأول مرة في القاهرة المحروسة في دكان النحاس عندما صرعه فوح الياسمين، وتجلى له في دمشق نائماً ويقظاً، بلبله احساس النشوة الغامر، حالة لا مثيل لها ولا متعة تفوقها، وحيرة مسكونة بعجز عن الجواب، ونفس تنقبض وتنفرد، فإذا به يسقط في لحظات من أسى لا تفسر، تخالطها رغبة عالية باسترجاع ذلك الشعور البعيد عن المنطق والواقع؛ تهتز أطرافه في رؤاه المدهشة، تخفق أصابع قدميه كما لو كانت زغباً في مخلبي طائر، ثم يرى ويشعر بكامل حواسه إن جسده الثقيل يخف ويعلو.. يرتفع رويداً رويداً.. يجوس فوق البقعة التي كان قابعاً فيها.. يرى ما يحيط به، وتتسع المسافة والمساحة، يحلق هويني وتتكثف دمشق مبتعدة مكشوفة، يرى المنائر والعمائر والقباب ورؤوس الأشجار وأسراب الطيور، يحاذي سفح قاسيون الشاهق، ويسمع حفيف أوراق الشجر، وأصوات البشر تهدر مختلطة بهدير ماء بردى، ثم يحط متأرجحاً معدلاً جناحيه، يستوي مجدداً مقترباً من السطح الترابي، فإذا به في ضريح ابن عربي، وإذا بابن سينا واقف في الفناء الخارجي، إلى جواره رابعة العدوية، يلوحان

له، وعند خوخة المدخل الصغير يقف ابن رشد والحلاج وابن عربي والسهروردي والجنيد وذو النون وابن الفارض والروذباري والششتري[1]، مخطوفي الوجوه في قفاطين بيضاء يطيرها ريح، ينتظرون بلهفة ملامسة قدميه الأرض بينهم، ثم، يقف؛ يتيقظ من منام أو شطح، فإذا العالم حوله كما كان منذ هنيهة، يشتاق حد البكاء إلى لحظة التحليق الممتعة الغامضة، والوجوة المتعبة الملهوفة إليه، ثم يجاهد ويحرص باكياً على مفارقتها رأفة بعقله.

* * *

فتح سوق الحرير أمسياته للمسامرات الممتعة، وضاق عن الحجيج المتزايد ليلة بعد أخرى، عندما جاء علان يستكشف حال الرفاق، انحنى عوده وهو يجلس لصيقاً بالكركي، جاهد لتناسي حسده، مغلباً الرضا بما قطع من أشواط في حياته وتصوفه، متهيئاً لتقبل الأجواء المحيطة، قال مجاملاً:

- *المكان ضيق، يليق بك ساحة تجمع الجموع، وتلم المريدين.*

لم يتوقف يحيى حول أسباب التفاف العامة حوله في مسامرات المساء، ولا عد هذا الجمع مريدين يخصونه، ولا تمناهم تابعين، قال:

- *إنما أرمي عصاي كيفما سرت.*

تجرع علان الرد متمهلاً كاتماً غيظه، خيل إليه إن العبارة تحمل زهو الأنبياء، ولعلها كثيرة على رجل! مع ذلك؛ واصل اقتراحاته يداري مرارة تعتريه.

رفض يحيى الدعوة الكريمة بتخصيص أيام له في زاوية علان، وأعرض عن تنبيهه الجاف وتعجبه من عقد مثل هذه الحلقات في دكان نصراني! كما لم يستجب لمقترح التدريس في صحن الأموي، تذكر

(1) مشاهير المتصوفيين تاريخياً.

بأســـى الأزهر، ورفاق الدرس، إبان كان طالب علم، وظن إنه فارق زمـــن العلم قاعداً، يُعلم ويتعلمُ، وأنه بات يطلب العلم ماشياً، كما لا يوافقه زهو يعيده إلى موقع المعلم، تواضعت النفس حتى صغر كل ثوب تلبسه، وما احتواها وعاء.

في زحام المتحلقين، اندس زيد إلى جواره يهمس في أذنه، وشاهد المجـــتمعون أسارير يحيى تنبسط سروراً، شاهدوه يهمس بدوره في أذني عـــلان الـــواجم وقد علت وجهه خيبة أمل حادة، ازدات حدتها كأن الخبر كان مفجعاً، همس علان في محاولة قدر فشلها مسبقاً:

- *وأنـــت؟ ألا تفكـــر بالـــزواج؟، والله إن كـــل رجل يطمح لمصاهرتك، وإني كذلك.*

- *كل شيء مرهون بارادة رب العباد، المهم الآن أن نفرح بزواج أخينا زيد، فهل لطلبه عندك مكان؟؟*

طعـــنت أماني الرجل الخفية، أصيب علان بذلة إثر تمتع الكركي بذلك الحضور والاقبال، ثم بإعراضه عن رغبة أفصح عنها ولمح بها، تمنى لـــو أن أحـــداً من أتباع الطريقة سبق وتقدم للاقتران بالحسناء خوله فأعفـــاه مـــن موقفه هذا، وغاظه إن زيداً لم يخاطبه مباشرة، ولم يمنحه فرصة رده ورفض طلبه، مفصحاً عن رغبته بالاقتران بخولة على لسان يحيى، جاهد الشيخ نفسه محارباً الشعور المرير، وتمنى لو أن خولة تعفيه مـــن ذلك التمزق بين القبول والرفض، فتتمنع، لو أن معجزة تحدث، فيمـــيل قلب الكركي للفتاة، هز رأسه وكل تلك الأفكار تعصف به، وقال منكسراً:

- *على بركة الله، إن وافقت الفتاة، على بركة الله.*

لم تـــستجب خوله لأماني الشيخ المتصوف، هتفت وهو ينقل لها الخبر باستخفاف لين ظاهر مرح:

- زيـــد؟؟ العطار!! أليس هو ذلك الرجل المضحك الذي يملك عشبة تعطر الشاي؟

بدت مستبشرة، داعبت خصلة شعرها، وانحنت قليلاً بدلال غير مسبوق أحنق والدها، ورجعت خطوة إلى الوراء هامسة:

- لا مانع يا أبـــي.. أوافق، إذا وافقت أمي، أوافق.

أحـــبط الأب، ولفت انتباه زوجته المقعدة إلى أن ابنتها لن تتمتع بعيـــشة هنية رغدة مع العطار الغريب لفقره، آملاً أن تهز رأسها رافضة إذا ما سؤلت، لكن المرأة المريضة المقعدة أحست بفرح الصبية ونبضها، فابتسمت في ايحاء موافقة وترحيب.

تجاهلـــت خـــولة اشارات والدها إلى قصر وامتلاء خاطبها وفقره ووضاعة حاله وغموض أسباب مجيئه إلى دمشق، لم يعجبها كل ما ساقه مـــن ســـخرية أو موانع تحول دون الزواج، وتعجبت منه وهو المتصوف المتقـــشف صاحب الرحلات الطويلة، التي يقطع بها البلاد مقتاتاً وصحبه على بعض القمح والعدس؛ يتحدث عن رغد العيش! لو أن الذي نبهها إلى تلك النقطة خالها، زارع الورد الدمشقي الميداني، لفهمت وتفهمت، فخالها أبو سندس، الذي لم يرزق بسندس، رجل منعم من أعيان دمشق، يـــسد احتـــياجات بيـــتهم في غياب صاحبه الطويل، ويحضر لها أقمشة الـــدمقس لتـــرتدي ثياباً زاهية، ويبتاع الأعشاب والأدوية لأمها العليلة، وكـــم مـــن مـــرة قام بترميم درج البيت المتكسر، ونقل في مطلع شهر رمضان سلال الفاكهة المجففة، وصفائح السمن والزبد والقشطة، وأشولة الطحـــين، وأشـــرف بنفسه على البئر التي حفروها في قاع الديار كي يـــضمن لها وأمها حياة كريمة، في حين انصرف الأب لطريقته وزاويته، مـــستبدلاً العائلة بأتباعه المريدين، توقعت الممانعة من خالها، وبدت طيعة وهي تضع مشورته في موقع حاسم لقبولها.

أطـــرق الخال أبو سندس وخولة تنقل له خبر الفتى العشاب الذي جـــاء من أقصى الجنوب من أعالي الكرك متقدماً لخطبتها، عدل عباءته الحريـــرية، فانـــــزلقت عن كتفيه مبرزة جاكيت الجوخ الفاخر فوق الـــسروال وشيء من الحزام الفضي الذي يرفع كرشه، انحشرت العباءة تحـــت فخذيه، سحبها ومسدها، تأكد من تعديل العمامة على رأسه؛ تـــشاغل بثيابه، يبدل في اتكاءته ومسنده، وخولة تتحدث، فلم تتمكن من قراءة وجهه، وقد اختلط فيه استبشار وخوف وتردد، فالصبية التي عوضته عن سندس الذي لم يأت، والتي يعلم إنها وريثته، ولها من المحبة في قلـــبه، وسداد الرأي في عقلها ما يجعله يأتمنها على المال الذي شقي عمره وهو يجمعه قرشاً قرشاً، تظل أنثى رهيفة الفؤاد، قد تنساق وراء ملاحـــة التقاســـيم، أوعذب الكلام، أو نظرات الإعجاب التي تصطاد قلوب العذارى، كما أن الأجواء الغامضة في بيت الدرويش تنبئ الخال إن والـــد البنت ليس فرحاً ولا متحمساً لهذا الزواج، ظن في البداية إنه يخشى ابتعاد البنت عن أمها المريضة، لكن البنت اشترطت اقامة زوجها معهـــا كـــي تتمكن من اكمال دورها المقدر في رعاية العجوز قعيدة الفراش، ما الذي يخفيه علان؟

أبـــو سندس فضولي بطبعه، يدور حول التفاصيل ليصل إلى اجابة مقـــنعة، ولقـــد صفن مطولاً في علان وهو يزيح الحجاب عن سره، ويفضي به بمرارة جعلته يبتلع ريقه، قال:

- *تمنيت لها زوجاً أخر.*

- *شاب تعرفه، من مريديك وتابعيك؟*

- *بل غريب، لا أظن إنه يصير مريداً لي أو لسواي، لكنه قادر علـــى ابـــتداع طريقته وجمع المريدين لو أراد، متصوف من طراز نسيج وحده.*

- متصوف!! اتق الله.. أتحبس البنت معك في حياة صعبة، لا انت ترحمها وترعاها، ولا مرض أمها يريحها من مشاق الدنيا، ثم تختار لها رجلاً يضيق عيشها، على مقاسك ومذاقك!!

حك علان رأسه الحاسرة بقوة، فخدش جلده أسفل الشعر القصير المحلوق، تمتم:

- ليس متصوفاً درويشاً متعطلاً، إنه رجل عامل، على كل حال، كان مجرد تمني لا طائل تحته لأنه غير مهتم، ثم، لا تنقصني التقوى يا صهري العزيز حتى تنبهني لرحمة ابنتي، لا أحبس فلذة كبدي على ضنك، لكني أخاف تصرف رجال الحشرية[1]، الذين سيضعون أيديهم على ميراثي بعد موتي.

- أية حشرية؟؟هذا كان في الماضي، اليوم؛ فرض العثمانيون المذهب الحنفي قانوناً، ترثك ابنتك وزوجك، في غياب الولد الذكر يتقاسم أهلك وأولاد عمك ميراثك، لم يعد هناك ما يسمى بالحشرية يا رجل.

اهتز علان نافياً:

- لا.. أنت لا تفهمني، أنا من علمت أتباعي ضرورة التشبث بمثل ذلك القانون، حرضتهم على ذلك، كنت أظن إني أرزق ولداً يرثني، ناديت طوال عمري بالشافعية، أوصيت أصحابي بتنفيذ ما تعارفوا عليه، وجعلتهم يشكلون فرقاً بينهم يكونون بديلاً عن الحشرية، هكذا تعاملنا مع الراحلين من فريقنا، هؤلاء أنفسهم من سيتصرفون بميراثي، سيعطون ابنتي وزوجتي نصيبهما الشرعي، ويضعون أيديهم على ما تبقى، وهم على هذا قادرون ما داموا يعلمون بأمر أموالي.

---

(1) نظام توريث شافعي يعطي نسبة لأولى الأمر.

نظر ابو سندس متعجباً:

- أموالك! تفضل إعطاء مالك لتلك الاورطة الهائمة على وجهها دون أقاربك! ثم!! ألست زاهداً متصوفاً على باب الله! من أين لك مالاً تورثه ويستحق منك كل هذا الخوف والتحسب؟ الأولى أن أحسبها أنا؛ ولي مال كثير، ولا وريث من صلبـــي يرثني، أم إنكم معشر الدراويش تكنـــــزون مالاً لا ننظره! ولا تمتعون به أقرب الناس إليكم في الحياة؟ ثم تحـــسبون الحسابات لبعد موتكم! وما علاقة هذا كله بزواج البنت؟ في كل الأحوال ليس لها إلا نصيبها الشرعي، أراك تتعلل بالحجج.

لم يقدم علان اجابات صريحة، تخبط في الكلام مناقضاً نفسه، تارة يقـــول إنه يفضل أن تكون البنت في رعاية رجل مؤثر قادر على منع مـــريديه من مشاركة البنت إرثها، وتارة إنه لا يملك ما يؤمن مستقبل البـــنت وابنتها فلا أقل من ربط مصيرها برجل ثقة، وإنه لا يميل للفتى العشاب السمين كثيراً، خاصة إنهم لا يعرفون شيئاً عن أهله وديرته، لم تقنع مقولاته الخال الذي جرؤ على توبيخه وتسخيف أقواله، ونصحه بالتسليم لما تريد الحياة، فأسقط في يده.

استـــسلم عـــلان لتوافق الجميع، أو تآمرهم كما أسماه، وشاهد منـــــزعجاً فرحة الشابين في نظرات العيون وهم يقرأون الفاتحة اعلاناً بالخطـــبة، دخلـــت الـــضحكات داره بعد طول وقار، مقهوراً؛ بات يتـــسامح أمام قضاء زيد وشقيقه فترة بعد الظهر في منـــزله، يتحدثان عـــن التـــرتيبات، ويحملان سرير الأم المريضة إلى أرض الديار، تحت شجرة النارنج التي تلقي تحتها ظلالاً واسعة في النهار، فتشاركهم وهي الحزينة الضحك، وتشد كف ابنتها مشجعة.

التقـــى زيـــد بصاحبات خولة اللواتي توافدن على الدار يسترقن النظـــر إلى العريس متضاحكات من وراء أغطية وجوههن الجورجيت

الـــشفافة، وجالس الشقيقان الخال الذي بدا مستبشراً وهو يرى فرحة الفـــتاة والـــتورد الذي داهم خديها، تلك الأجواء البهيجة التي داهمت البيت؛ طردت علان إلى زاويته، فلا يجالسهم إلا إذا جاء يحيى برفقتهم، تفـــزعه اللهفة التي تستبد به لمجالسة الكركي، ولكنه لا يملك ردها أو التنصل منها، ورغم صلواته التي لا تنقطع وجلسات الذكر، والحضرات الـــتي يعقـــدها؛ يدور مع الدائرين طالباً الإغماء، محاولاً إعادة الآمان والـــسلم إلى روحـــه، فإن مشاعراً متضاربة تنشب أظفارها في فؤاده، مـــزيج مـــن الإعجاب والغيرة، الحب والكره، النفور والإقبال، العتب والرضـــا، تمـــور كلها في صدره في آن واحد، كأنه ليس الشيخ الرائق صاحب المكرمات الطيبات.

طاشـــت سهام صبره حين التقى أبو سندس بالكركي، التقيا عند عقد الخطبة على عجل، ثم في مساء يبشر ببدايات ربيعية، والفتاة تقوم على خدمة زوار البيت بهمة، تسترق وزيد النظرات والبسمات.

أحـــضرت شـــالات صوفية من الكشمير الثقيل، أعطت خطيبها شالاً يدفئه، عطرته خلسة بقطرات من روح الياسمين التي جلبها خالها، وجلـــست ملـــتفة بـــشال أخر مطبوع بزهور ليلكية كبيرة وأغصان خـــضراء، خيم الأنس على الجلسة، وتوارت مشاعر الوجع التي تعاود عـــلان إذا ما انفرد بنفسه، فاحت كاسات الشاي بعطر الميرمية، حين دق الباب، وجف قلب صاحب البيت، وأصاب في حدسه إن الطارق يحـــيى، وسط الترحاب والاستبشار الذي عم الجميع، تقدم يحيى يسلم بود، وقال علان:

- *أراك تركت مجلسك المعتاد.*

أجاب الكركي:

- *لا مجلس أعتاده، أو يعتادني.*

لم يقـــصد يحـــيى دلالة عصية، لكن علان أخذ يقلب العبارة وكأنهـــا سر الأسرار، وانسحب من المجلس مضطرباً لاحقاً ابنته التي قامـــت تهيئ للضيف عصير الورد، انحنى لاطماً كتفها بكتفه، وهي تـــصب العـــصير الأحمر القاني في كوب زجاجية تتلألأ، همس بحدة وغضب:

- كفـــي وخطيـــبك عـــن الضحك الرقيع في حضرة الكركي وخالك، احتشمي وإخجلي من وجودي على أقل تقدير.

فوجـــئت الفتاة بالتأنيب الحاد والغضب الحبيس في صدر والدها، وقفت مكانها لثوان تحاول فهم ما أثار حفيظته فجأة، ولكنها لم تتمكن مـــن إدراك ما يقصده، إذ اكتفى بعبارته وعاد إلى المجلس أسفل شجرة النارنج، تلمست خولة غضب الأب تلك الليلة، راقبت بصمت احتقان وجنتـــيه، وتجمـــع تجاعيد العين في الجهة الجانبية لجفنيه، وتلك النظرة الغائمة وهو ينظر ويسمع الضحكات التي توحي كما لو أن أبو سندس صديق حميم قديم للكركي.

جلسا معاً منذ نصف ساعة فحسب، فإذا بهما يتحدثان بمرح عن زيـــد ونـــوادره، وبتفصيل عن الأعشاب والحرائر، وبعمق عن الدين والدنـــيا، طـــوفا بالقاهرة المحروسة والأزهر، والكتب النادرة في الطب والعلـــم والفقـــه، وحديقة الخال المشهورة باسم تل الورد، وكرخانة الفـــبريكة[1] الملحقة بالبساتين والتي يُقطرُ فيها الورد، وحين قال الخال بأريحـــية تعودها، إن الزفاف لن يكون إلا في التل وفي قلب البساتين، أطلقـــت البـــنت صـــيحة فرح عارم وصفقت، ففطرت قلب أبيها، وأضرمت ناره التي يحاول جاهداً إبقاءها رماداً.

* * *

(1) تعبيران تركيان يعنيان المصنع.

لم يقـــدر أبوسندس الدمشقي ماذا سيحل بالشاب الكركي وهو يقتـــرب من بستان الورد في صبيحة تلك الجمعة، مرا بسوق الخياطين، ثم حاذيـــا بـــوابة محكمة القسمة البلدية التي أغلقت رتاجها الخشبـــي بقفل فاخر، تنسم يحيى أريج الورد، وأصيب بخرس غامض، اعتقده أبو ســـندس هدوءاً في الطبع، فهو لكثرة ما تعودت حاسة الشم عنده على فـــضاء الورد وعبقه، لم يعد يندهش إذا اشتمه، ولكنه يفتقده سريعاً في الأماكن البعيدة عن البستان والفبريكة، أما الكركي؛ فقد التقط الأريج الـــذي يتكثف حوله كلما سار خطوات صاعداً التل؛ شيئاً من رجع مواد عطرية بعيدة، خزامى على ثوب هفوف، ياسمين على جيد جمان، بخار يتصعد في جرار مريم.

شقت الروائح الذكية صدره، وطغى رحيق الورد على كل رائحة قادمـــة من الذاكرة حين وقف الرجلان بباب البستان الشاسع، هرع صـــبية يفـــتحون الباب لصاحب عملهم، وأخرون يوافونه بتقارير عن حـــال الأحـــواض الـــشرقية التي تركت دون تقنيب وقص في الموسم الماضي، فلم يأت عطاؤها جيداً هذا العام، منهم من يحدثه عن احتياج الفـــبريكة إلى حطب نظيف لإضرام النار في المواقد، وإلى بعض السكر لإضافته إلى ماء التقطير، وبينما هو يستمع إلى متطلبات بستانه ومصنعه الصغير، استحوذ المكان على الكركي، أوشك أن يصاب بإغماءة مماثلة لتلك التي ضربته وهو يدخل دمشق عند بردى، لكنه تحامل مهتزاً برفق مثل أغصان الشجيرات البديعة التي أحاطت به، وتمكن من تنشق العبق الثقيل شاعراً بقيمة اللحظة الماثلة.

يمتد البستان فضاء أحمر، ويتفتح الورد في الهواء الربيعي تحت أشعة الـــشمس الدافـــئة الممتعة، وتصطف الشجيرات في خطوط مستقيمة، يـــتغاوى علـــى أغصانها الورد الأحمر القاني، باثاً رحيقه بكثافة، بينما

تلاعب مساقط الضوء الجوانب وأعلى الشجيرات حتى لتشكك الناظر بسلامة عينيه؛ توهمه بحراك ما يرى، بدت الصورة المتناغمة بألحان الريح المارة بين الغصون أبعد ما تكون عن مشهد حقيقي، فإذا ما أرسل يحيى بصره إلى نقطة أبعد، فاجأته الألوان المختلطات للزهور، تنوعت الألوان عـــن بعـــد، وشـــرح أبو سندس كيف ينتقي الورود الصفر والبيض والبرتقالية، ليرسلها إلى حجرة تصنيع الصابون، أما الحمر من فصيلة الورد العـــادي فتفـــرز، وتنقل إلى غربـــي الفبريكة حيث تحولها العاملات إلى شـــراب الورد وعسل الطعام، بينما يفرز الوردة الدمشقية المخملية الفارهة دون سواها لتصير عطراً، في عملية تقطير دقيقة يقوم بها الشبان.

تتداخل أوراق الوردة الدمشقية في امتزاج فريد، ويلتحم كأسها الأخـــضر بقاعدتها، فتنفر البتلات في اتجاهات متشعبة، وتستقيم على فـــروع مكـــتظة بمثيلاتها، ملساء، مخملية، داكنة مثل دم نقي، خطفت بصر يحيى وأدهشته، فيما الوراد العطار الدمشقي أبو سندس يختار موقع العـــرس المنتظـــر، فيفـــضل المصطبة التي تتوسط الطريق بين البستان والفـــبريكة، مقتـــرحاً أن تضرب للنسوة خيمة على اليمين، وأخرى للـــرجال شمـــالاً، منبهاً إلى ضرورة الاستعجال بالزفاف كي لا يلحق الشتاء بهم ويفسد حفل البستان، وكي يستمتع الضيوف بمشهد الورد ورائحـــة أريجـــه قـــبل أوان قطافه، واصل الرجل شرحه مفاضلاً بين الخيارات كما لو أن العرس لولده، رغم الذهول البادي على وجه يحيى.

ولجا بوابة مصنع عطر الورد، فغدت الرائحة كثيفة، ثقيلة، لزجة، تنـــشب عميقاً في صدور الداخلين، عبرا المكان وسط ترحاب الشبان العاملين، وانتبه يحيى.

أوقد الفتية نيران المراجل الكبيرة في الموقد تحت الآنية التي مزجوا فيها بعض السكر بورق الورد، وراحوا ينفخون بالكير كي لا تبرد النار

ولا تنطفـــئ، بينما حمل آخرون الملاقط يحركون أوراق الورد الحمراء القانية في الإناء، ويقلبون، وتصاعد بخار من أنية قطعت مرحلة متقدمة في الغلـــيان، حبس البخار في انبيق ينتهي إلى مقطرة، فبوتقة كبيرة يعبر فـــيها بانتظام بطيء مثل سحائب عالقة، واصلاً إلى ملف التبريد، وفي مـــساحة بدت كما لو أنها نهاية العملية التي تستمر لساعات طويلة ولا تكـــاد تنقطع دفعاتها، امتدت الأنابيب المبردة، وسال البخار مكثفاً إلى زيت عطري ثقيل بلون أصفر، انسكب فوق أحواض ماء بارد، وتخثر متحولاً إلى دهن الورد وزيته النادر.

أســـهب أبـــو سندس متذكراً كيف نقل شجر الورد من غوطة دمشق إلى التل خاصته، وتحدث مطولاً عن لون دهن الورد، مشيراً إلى تغـــيرات طفـــيفة في درجة اصفراره وميله إلى أخضر يوشك أن يصير زنجارياً، إذا ما استخلص من ورد الأحواض التي لم تسق لشح الساقي أو انقطـــاع المطر، أو طغيان الكلس على ترابها، كما شرح كيف يزيد عدد البتلات التي يقطف نتاجها كلما اعتنى بها وشذبها وتابع أمراضها، وسمدها بمخلفات الطير والحيوان، وكيف يصبره ولعه بتلك المهمة لجمع أطنان من الورد مستخرجاً منها كيلو واحد من الزيت العطري، وكيف يخـــتار القوارير الزجاجية الملونة والمذهبة بالنقوش، منها ما هو مناسب للبيع في السوق المحلية، ومنها ما كان خاصاً ثميناً يفرز للتصدير، تحدث ضاحكاً عن حسد وغيرة نسوة دمشق منه لاقتنائه الأدوات المتفوقة التي تمكـــنه مـــن منافـــسة شراب الورد الذي يعددنه في بيوتهن، فيلحق به التـــسكر أو العفن خلال فترة قصيرة، بينما يحافظ انتاجه على جودته لعـــام كامل، وبينما كان يعرض لمرافقه أكياس الزهورات التي أضافها مؤخـــراً إلى الفبريكة بغرض التصدير، عرج على الفوائد الطبية للوردة ودورها في تفتيت حصى الكلى العليلة، وطرد غازات البطن.

بـــدا زارع الـــورد عاشقاً لوردته في كل حالاتها؛ مجففة، وعطراً سائلاً، وطعاماً طيباً، وشراباً يروي، وفتنة للناظرين على الغصون، وفي لفـــتة حنونة منه، أكد إنه سيتكفل بتعليم صهر المستقبل هذه الحرفة، كان يعني زيداً.

تعرف يحيى على صنعة جديدة؛ حسد العاملين فيها على الأجواء المحيطة بهم، والروائح التي تخترق المسام إلى أعمق وأبعد نقطة في الجسد والـــروح، انـــشغل بالتفاصيل، ووثب إلى ذهنه القلق سؤالان لا إجابة عنهما.

ما ماهية الجمال الذي تبثه الأشياء حولنا، أهو منها أم منا؟.

ثم؛ مـــا هـــي الحقيقة؟ إذا ما ذهبنا إلى لم الحياة كما تلم أطنان الورد، أية نسبة ستخرج من فوهة المبرد مكثفة إلى جوهر؟

كل ما خبرنا، وما تمنينا، كل ما كان وما سيكون، كيف يتقطر معرفة نمسك بها، ليفوح العطر وندوخ ونرتمي... ونصل؟

* * *

شـــوهد يحيى برفقة أبو سندس مراراً، يمتطي الوجيه التاجر الزارع بغـــلاً يُدخلـــه أول حارة الحرير، فيربط رسن دابته إلى مقبض الدكان الأول في الحارة، ثم يترجل متوجهاً إلى دكان زيدون الذي يقف برهج مـــرحباً بالوراد أحد أبرز أعيان دمشق، وأغنى رجالات الصناعة فيها، فيجلس الرجل في مدخل دكان الحرير دقائق مجاملاً، يتناول حبة حلقوم تفـــوح بالمستكة، ثم يصطحب يحيى بموافقة معلمه؛ متجولين في السوق يعدان العدة لزفاف زيد.

يـــبدي الكركـــي خجـــلاً فيما يتعلق بالشراء شارحاً امكانيات صـــاحبه المتواضعة، فيضحك أبو سندس مؤكداً إن هذا العرس له؛ إذ كثيراً ما عدَّ خولة ابنته.

ابـــتاع لها جهازاً لائقاً، بيرو[1] صنع بدقة وإتقان، وزين بالنقوش وأصـــداف متراصـــة بعـــناية، تعلوه قطعة واحدة ثقيلة ومتماسكة من الـــرخام الـــوردي الزاهـــي، فوقها مرآة عريضة بيضاوية الأطراف، ودوشك[2] منجد بالقطيفة الخضراء الزاهية، وبساط من شرائط مجدلة، كما ابتاع لها الخلاخيل الفضية، ومكحلة نحاسية لحفظ الكحل الأثمد، وعلـــبة صدفية تحفظ مسحون الحجر الأحمر لغندرة الوجنات، وقوارير ملـــونة ومذهبة لحفظ العطور، وخاتماً بحجر عقيق يماني أصلي، وقطع أقمـــشة ناعمة، وقبقاب خشبـــي شبراوي عالي مشغول بخيوط الفضة وقطع الصدف.

يتصرف أبو سندس كأن الزفاف له حقاً، فيجود بالكثير في تجهيز ابنة أخته، ويسوغ مرافقة الكركي بإنه مستشاره فيما يبتاع من هدايا، يعرف يحيى إن الرجل الذي يفوقه معرفة بالبضائع الدمشقية، يصطحبه للحـــديث والمؤانسة، فأبو سندس لا يتوقف عن الكلام، ورغم كرمه وجـــوده؛ يميل إلى المفاصلة، ويخرج القرش الفضي مضروباً على وجهه بالعربية عبارة "سكه صاحب النضر وصاحب العزة السلطان العثماني"، فيفرطه إلى أربعين بارة، يشتري فيها أضعاف ما كان سيشتري لو ترك المساومة.

حكـــى أبـــو سندس ليحيى كيف قضى شبابه هائماً على وجهه فقـــيراً، بعـــثه والده إلى الاستانة ليتعلم اللغة التركية في مدارسها، فلم يطـــل، وعاد محزوناً لوفاة أبيه، فالتقى زوجته التركية في قافلة الحجيج؛ ووقعـــا في الهوى، فلم تكمل رحلتها إلى مكة، وقذفها نصيبها معه إلى دمـــشق، لا يتحرج أبو سندس في وصف مشاعره الفياضة نحو زوجته،

(1) خزانة قصيرة بأدراج.

(2) مقعد طويل.

تحـــدث عن جمالها، ورجاحة عقلها، والسكينة التي يشعرها تعمر بيته، وأفكارهـــا الخلاقـــة العبقرية التي قادته إلى رحلة نجاح عملية، وجعلته يفـــارق رقة الحال إلى أن أضحي مالكاً للتل الذي يعلو محكمة البلدية، فـــزرعه ورداً، وأضـــاف إلـــيه فبريكته الشهيرة التي غمر فيها أسواق دمـــشق، وصـــدر عطـــرها وشـــرابها وحلواها إلى بيروت وفلسطين والاستانة.

يجـــزم أبو سندس إن حياته كانت ستختلف وتتخلف؛ لولا تلك الـــصدفة الـــتي جمعته بشهناز، زوجته الغالية، التي لم يفكر أن يجرحها بزواج جديد حتى والعمر يمر دون رؤية خليفة وابن يقر به عيناً، يبتسم يحيى حين يقول الكهل الوقور بوله:

- أحبها.. يا أخي، ذكية؛ الرجل الحقيقي لا يمكن أن يحب امرأة غبـــية، ولـــو امتلكت حسن الدنيا، الحسن حسن الروح والعقل، ومع ذلـــك؛ لا تظـــن إن شهناز تفتقر إلى الجمال، إنها آية رائعة من اعجاز الخالق.

يفيض الكهل بعشقه، ثم يلتفت للوجه الذي شف هاتفاً:

- يا كركي، حالك لا يخفاني، أنت عاشق!! أنت عاشق.

يـــتمنى يحـــيى لـــو كان في مثل بساطة الرجل فيفيض مثله، ويتحدث عن رجع الموسيقى الذي ينبعث في وحدته فيزيده شجناً، عن الأســـى الـــذي يعمر قلبه والعمر يمر بطيئاً والسنوات تطوى بينما الأخـــبار مـــنقطعة، والأمل يتضاءل ويبتعد، عن انقباض صدره في الليالي الموحشة التي يكاشف نفسه فيها بيقين ينبئه إنه لن يطالع وجهها مجدداً.

يـــتحامل يحـــيى على لحظة الوهن المريرة ويتظاهر بالعافية التامة، ويـــرافق صـــاحب بـــستان الورد مستأنساً بقهقته البهيجة حين يضع

طربوشـــاً عثمانـــياً فـــوق حطته البيضاء داعياً إياه لتغيير زيه، وارتداء طـــربوش الجوخ الأحمر لمزيد من الوجاهة، ثم معتذراً متذكراً إنه يحدث رجلاً زاهداً أقرب إلى الفيلسوف منه إلى صانع حرير البروكار، يكف أبـــو سندس عن مزاحه، ويربت كتف الكركي بود، ويمضيان إلى تهيئة بستان الورد وإقامة العرس.

هلـــت الجموع تحيط بالحنطور الذي تركبه خولة وعريسها، وبدأ شباب العراضة يرقصون عند مدخل البستان على وقع ضربات الدفـــوف وشـــجن المـــزمار، يقفزون برشاقة وفي أيديهم السيوف الدمـــشقية الفارهة بأنصالها القاطعة، والتروس الكبيرة المدورة تتقى الاصابات الخاطئة، ويرددون الأهازيج، انتحى يحيى بعيداً، ومن وراء شـــجيرات الـــورد بدوا له خلفية مشهد متحرك، ولأن الريح هبت باتجاهـــه، فقد غابت عنه كلماتهم، وغمره أريج الورد وتكثف في رئتيه فغيبه.

أوحى غياب علان عن زفاف ابنته أن هناك غيماً في الجو، وتقلب وجـــه خولة بين أسى خفيف وفرح تواريه، فهي لم تقتنع بحجة والدها في الغـــياب؛ لم تـــتوقع رحيله في يوم كهذا مدعياً إنه مضطر للحاق بـــصحبه في السويدا مجدداً، ظنت إن إسراف الخال، والعرس بطقوسه المعهودة لم يناسب طريقة أبيها الصوفيه، لعله شعر بشيء من العار لمثل ذلـــك، أرادت ارضاء والدها باخلاص، ولكن حنينها للزفاف وطقوس العـــروس جعلـــها تتبع مخططات خالها، ولم يخطر ببالها ولو للحظة إن الـــرجل أراد اخفاء حنقه من زفاف لا يرغبه، ومشاعر الغيرة والحسد والخـــوف التي تعتريه كلما واجه يحيى الكركي؛ آثر الابتعاد لاستعادة صفاء روحه وسلام نفسه، فتحجج برفاق الطريقة الذين ينتظرون، وإن العرس على هذا النحو الصاحب لا يليق به.

تنقل أبو سندس بين خيمة النساء ومصطبة الرجال، ووزع صبيانه الشراب الملون في الكاسات، ورش الملبس والقظامة الناعمة والحمص المغبر، ولقمة الورد المتبل بالعسل على الضيوف، غازل العروس، ثم امتدح زوجته التي تعلمت طرائق الشاميات في إحياء الأعراس، فأسندت راحة كفها إلى خدها وأمالت رأسها، ومطت كلماتها منشدة:

- رحت على الحمام لتفرج على طولي.. لقيت أربع صبايا من الشباك نادولي.. لمن شفتهن قلبت على طولي... هاتو بنات العرب يبقوا يغنولي...[1]

زغردت النساء وضحكن، وتشجعت امرأة ثانية فصاحت منغمة الحروف:

- رحت على الحمام ولتفرج على لبسي.. لقيت أرضو منفسج، وحيطانه عنب دبسي.. وحياة من زين السلطان على الكرسي... إن كان غيرك عسل؛ ما تقبلو نفسي...[2]

كان الرجال يوقعون خطوات الدبكة متشابكي الأيدي يرددون:

- مربوع مربوع يا زين المرابيعي.. وحنيت ديي وما حنيت صابيعي.. وكل قعده حد زين المرابيعي.. أحلى من الشرب من روس المنابيعي.[3]

دمعت عينا جعفر متذكراً والديه وزوجه وابناءه وداره، وافتقد يحيى، فبحث عنه بين الوجوه مستفسراً، غادر المصطبة ميمماً إلى الناحية التي أشار إليها صبيان البستان، ثم وقف حائراً ما إذا كان عليه قطع

(1) من الزغاريد الشامية العتيقة.
(2) من الزغاريد الشامية العتيقة.
(3) غناء شعبي شامي.

خلـــوة رفـــيقه، وقد بدا نائماً متمدداً بكامل جسده إلى الأرض فاتحاً ذراعـــيه مـــرخياً ساقيه، عيناه مغمضتان وشفتاه تبتسمان، كأنه دائخ يحلـــم، نظـــر إليه بود واشفاق، فكر أن يقترب؛ فيقبل ظاهر كفه، لا لسبب، ولكن الابتسامة البريئة الوادعة على شفتيه تبث سلاماً حولها، لكنه أحجم، وارتد إلى صخب العرس تاركاً رفيقه لشطحته المحلقة.

* * *

انـــشغل العريس بعروسه، وانصرف أبو سندس لقطاف الورد في أكثر المواسم أهمية، وانغمس يحيى في تصفح كتبه ليلاً، ونسج البروكار نهـــاراً، فـــإذا مـــا أوشك شهر رجب على الانقضاء، أعلن المنادي في السوق إن اليوم السادس والعشرين منه قد حل.

لبـــست المديـــنة ثوباً قشيباً، فزينت واجهات الدكاكين بأقمشة ملـــونة وسعف النخيل، وأضيئت بالثريات والقناديل والمشكاة، ولبس الناس أجمل ثيابهم، وتدفقت فرق المتصوفة من كل صوب وحدب إلى ميدان الخيل، واعتلى الحكواتي مصطبته يحكي كيف أسرى بسيد الخلق إلى الجـــنات العلـــى، وكيف عرج به للقاء الأنبياء والصديقين، وسمع صـــوت تـــلاوة القرآن من التكايا والزوايا والمساجد وأبواب البيوت، حتى زيدون النصراني، حرص على تجميل دكانه.

انـــصرف الـــناس عن العمل للاحتفال، متزاحمين في سوق الخيل وعـــند بوابة المسجد الأموي وعلى امتداد سوق مدحت باشا، سُمعت الضربة الاولى لمدفع القلعة حين انقضى الثلث الأول من الليل، ورددت صداها ضربات عند كل باب من أبواب المدينة، وعندما انقضى الثلث الثاني، ضربت ضربتين، وكبرَ الناس، وعُلقت القناديل في منارة العروس في الجامـــع الأمـــوي، عند انقضاء الليل، سمع صوت الضربات الثلاث الأخيرة لطبل القلعة، تلاها تسبيح جماعي شجي استمر حتى مطلع الفجر.

ضرب المنشدون الدفوف مرددين:

- *بالاسراء والمعراج عمت أجواء الابهاج... فعلى الهادي صلينا.. والانوار عليه تاج.*

اختلطت أصواتهم بهتافات حي.. حي.. حي.. الله حي.. وترانيم انبعــثت من فضاء المدينة في أعلى المآذن وصحون المساجد والتكايا.. ســبحانه.. سبحانه.. والتقط سمع يحيى صوتاً شجياً لأعمى يذهب في الذوبان بالأحرف والكلمات، ويطيل وقفاته ومدهَ وترنيمه، صائحاً في صوت كالبكاء:

- ســرى مــن مكــة بــبراق عــز.. لأقــصى مسجد.. وأأأأعلا سما...

سرااااااااااااااى ببراق عز..أقصى مسجد... وأأعلا سما...

مفتحة له الأبواب منها.. يجاوزها إلى العرش ارتقاءً...

فسر به الملائكة به ابتهاجاً.. وصلى خلفة الرسل اقتداءً...

وكلم ربه... من قاب قوس... وعلم في تحيته الثناء...[1]

مــسح ضوء الفجر الشفيف المدينة التي لم تنم، وانسل يحيى من هــرج الدفوف والأناشيد والراقصين والآكلين والشاربين؛ ميمماً نحو سفح قاسيون، اختطفته الحالة، لم يسبق له أن حدث أحداً عن أحلامه ورؤاه الــتي تعــاوده بين يقظة ومنام، مقرها دائماً ضريح ابن عربــي الــذي ما وطئته قدماه بعد، لكنه في برد الفجر الندي، والناس يعودون إلى بــيوتهم، دخــل حــي الصالحية أسفل جبل قاسيون، اجتاز باب الفــراديس، ونظــر بــرهبة إلى غار ابراهيم الذي يتجمع عند مدخله المتسولون والمتصوفون ومرقعو الثياب والمنقطعون لرحمة ربهم، ممسكين عليهم فكرة إن النبــي ابراهيم اعتكف في ذلك الغار وقلب ناظريه في

(1) من أوراد الاحتفال بالاسراء والمعراج.

فـــضاء الكون باحثاً عن ربه، فخاتلته النجوم والقمر والشمس، إلى أن انكشف فؤاده عن وحدانية الرب وتفرده.

وصــــل يحــيى التكية السلمانية حيث تجمع الفقراء والمرضى عند مـــدخل مطبخها يطلبون مرقاً وخبزاً وتعطفاً واحساناً، ولاحت المئذنة العثمانية الفريدة للجامع السليمي، صارت الناعورة الخشبية القديمة على يميـــنه، تتحرك بكراتها رافعة الماء من فرع نهر يزيد، إلى الأعلى، حيث البيمارســـتان القيمري، اجتازه صاعداً، مع جهد الصعود ورجع خرير المـــاء ودقـــات الفؤاد؛ ثقلت خطى الكركي، إلى أن وقف بباب مقام ابن عربـــي، وقرأ في أعلاه "الحمد لله أمر بإنشاء هذا الجامع الشريف الإمام الأعظم ملك العرب والعجم، خادم الحرمين الشريفين، السلطان ســـليم بـــن الـــسلطان بايزيد، بإشارة محمد بدرخان خلد الله ملكه وسلطانه، كان ابتداء عمارته في التاسع من شوال، سنة ثلاث وعشرين وتـــسعمائة، والفـــراغ مـــنه في الرابع والعشرين من محرم، سنة أربع وعشرين وتسعمائة".

انـــــزاح الباب الحجري الثقيل، ولاحت أضواء الفوانيس المعلقة بفـــتائلها المشتعلة تتراقص فيها الأنوار، وظهر شيخ متربع على حصيرة يتلو القرآن خاشعاً بتمتمة متهدجة كأنه يحتضر.

رصـــع الفناء بالحجر الأبيض والأصفر مشكلاً نقشاً جميلاً حول بـــركة صـــغيرة، تـــناوبت في النقش أزهار القرنفل وعروق الريحان، وزخـــرفات هندســـية لنجمة ثمانيّة زرقاء، غرباً؛ قام رواق على أربع قناطر، والى الجنوب زادت القناطر واحدة، إضافة إلى أعمدة أربعة، إلى اليمين فاحت رائحة خبز يعد في مطبخ التكية، تعامد نظر يحيى نـــزولاً مـــع المـــئذنة الرفيعة المنقوشة، فلمح الدرج العريض في الزاوية الجنوبية الـــشرقية، علـــى قلة عدد درجاته؛ نـــزله لاهثاً جاهداً مشفقاً أن يميد

وكأنـــه يـــصعد جلجلة، فإذا ما صار تحت القبو، وقف بمدخل حجرة الضريح المقببة.

كـــان الأندلـــسي ابـــن عربـــي، خفياً، مغطىً تماماً بألواح من القيـــشاني الدمـــشقي تخلب الأنظار، وتلتمع قطع السيراميك فيها مثل نتف مرمرية، وقد اُحيط ضريحه بشبك الفضة، وقامت في أعلاه بلاطة رخـــام أبيض منقوشة بالبسملة وآية الكرسي، والى جانب الضريح قام قبر ولديه، سعد الدين، وعماد الدين.

لعـــبت الألـــوان والأضواء وأنوار القناديل على الجدران المحيطة، رســـومات لأشـــجار السرو، ولون فيروزي ناصع اللمعان، وبلاطات يتكـــرر فـــيها نقش الله أكبر، وزخارف أرضية لمزهريات، ويميناً على الحـــائط رسم دقيق أنيق لسروتين عاليتين، كتب تحتهما اسم عثمان، تكرر الرسم يساراً وكتب تحته اسم علي.

تردد صدى صوت المقرئ الجالس في مدخل الضريح، وخانت يحيى قـــدماه تاركاً الضريح إلى الفناء؛ فما عاد قادراً على الوقوف، ارتكى عند الحـــائط حيث فوقه الآية المنقوشة والمظللة باللون الأسود محفوفة بالبياض: "الـــرحمن، علـــم القـــرآن، خلق الانسان، علمه البيان، الشمس والقمر بحسبان، والنجم والشجر يسجدان، والسماء رفعها ووضع الميزان". [1]

تـــرنح يحـــيى، ورفع المقرئ ناظريه، رأه؛ فصمت، وارتجف عود الـــرجل المرتكي على الحائط المزخرف، وانـــزلق كتفاه ثم ارتج صوته يكمـــل ابـــتهالاً لم يفارقه منذ بدء الليلة وحتى طلوع فجرها، مسيطراً على خاطره، فإذا ما وهن جسده، جهر بابتهاله مترنحاً، مد الحروف واهتز صوته مختنقاً ثم انبعث، حُبس وانفرج، تقطع مختصراً، ومد مطولاً.

- مفتحة له الأبواب منها.. يجاوزها إلى العرش ارتقاءً...

---

(1) القرآن الكريم – سورة الرحمن.

وأكمل ذائباً غائباً:

- مــا في الوجود سواك رب يعبد... كلا... ولالالالالالالالالا مولى سواك فيقصد...

يا...

يــا يــا يا يا من... له رنت الوجوه بأسرها... وله جميع الكائنات توحد...

يا يا يا من له وجب الكمال... يا من له وجب الكمال بذاته... فلذلك تُشقي من تشاء وتسعد.[1]

* * *

تحــرك المقريء العجوز مشفقاً يحمل صحناً عامراً بالثريد واللحم خــرج لتوه من مطبخ التكية، اقترب من يحيى يتحسس الجدار بكتفه، قرفص إلى جواره، ووضع الصحن أرضاً قائلاً:

- كل يا بني.

لم يتحرك يحيى من جلسته، ظلت قدماه في تربيع، تاركاً ذراعيه علــى فخذيــه، مــسترخياً، هائماً، وإن نظر الصحن نظرة غافل، مستوعباً إن طعاماً يدفع إليه، فلا يتجاوب؛ نسى جوع أمعائه وهو الــذي لم يتــناول طعاماً أو شراباً منذ صباح الأمس، عفت نفسه وأحس بامتلاء يتمدد في أحشائه كأنه الرضا التام، لم يصل إلى تلك المــرحلة بسهولة، فقد انتصب جسده في البداية حتى أوجع ظهره، ورفــع كتفيه وشد عضلات بطنه وراح يشهق ويزفر، متلمساً هواءً يعمر رئتيه ثم يتركهما خواءً، ولما تمكن بعد جهد من حفظ الهواء في رئتيه، ثم الاستغناء عنه لدقائق تزايدت، استرخى جل جسده، وتركز

(1) أبــو مسلم البهلالي المتصوف العُماني الزنجباري – هذا المقطع وكل مقطع يبتهل باسم من أسماء الله الحسنى.

فكره في حقيقة الكون والاله الواحد، فما عاد عرض المقرئ للطعام مغرياً، ولا لشأن خارج عما أصابه أهمية؛ تلاشى الوهن، والرغبات، واحتـــياجات الجـــسد، وحلت بالروح سعادة مطلقة، صار خياله غـــذاءه، وإن ظلـــت في الـــنفس رهـــبة مما أتاح له الخيال كشفه وولوجه.

كـــان مـــن الممكـــن بقاء يحيى حبيس الضريح على حاله من الغياب، لولا إن يوماً كاملاً انقضى دون وقوع جعفر على خبر منه، فأثـــار الهرج والصخب باحثاً في بستان الورد عند أبو سندس، وفي حانـــوت زيدون وبيت علان، تذكر إن صاحبه قال شيئاً بخصوص زيارة الضريح.

وجـــدوه هناك يرتجف مبترداً مطروحاً إلى جوار المقرئ، لا يرد علـــى أســـئلتهم، حملوه متنازعين أين يوسدون الجسد المسترخي بين أيـــديهم كأنه بلا روح، وأمام اصرار أبو سندس المتعنت، نُقل يحيى إلى حجرة في طرف بستان الورد.

اخـــتلطت رائحـــة زهر البستان برحيق تراب رشه المطر، وورد تفتت بين أيدي قاطفيه، وصهد ثقيل يندفع من بوابة الفابريكة، وأبخرة طعام يعد على أفضل ما يكون، استمر يحيى في تمنعه عن الزاد حتى وقع في اغماءة طويلة أرعبت من حوله، ثم استفاق، نظر إلى وجوه الصحب الخائفين المبحلقين، وابتسم، عندها أيقنوا إنه رد إليهم خارجاً من حاله الملتبس، قال:

- وجـــدت الله في أعماقـــي، وفي الأشياء، هو الأول، والظاهر، والباطن.

صـــارت الحجرة الصغيرة في بستان الورد محجاً، حتى أن صاحب البستان مد المصطبة بتوسعات طينية، وساواها وغطاها ببلاط القيشاني

في مـــربعات عريضة رسم فوقها غزلاناً ترد الماء وأغصاناً تحمل الورد، فعلق يحيى وقد بات واعياً بما حوله تماماً، معجباً بجمال المصطبة:

- *ورد على ورد، وورد على بلاط حديقة الورد.*

ضحك الوراد مازحاً:

- *لا نعرف أستقول شعراً أم فقهاً! أم تذهب إلى غوامض ما يفوه به المتصوفة وقد صرعك ضريح ابن عربـــي.*

صار مكان يحيى موقعاً للجدل، وإن كان معظم المرتادين من صبية البستان، وبعض العطارين رفاق جعفر.

تعاطـــف الذين واكبوا اعتكاف يحيى لما حل به؛ نحل بدنه ونتأت عظمتا وجنتيه، وارتخى جفناه، لم يقدروا إن الرجل الذي ضربته النشوة وهـــو غائب يتقرب إلى خالقه حباً، ناسياً أمر شرابه وطعامه، سيشمر ســـاعديه للعمـــل، وقد خبروا المتصوفة متعطلين منصرفين إلى نجواهم، أدهـــشهم إصراره مجادلاً أبو سندس كي تكون اقامته في حجرة بستان الورد مأجورة عملاً، كأن يقطف الزهر، ويعبأ الأشولة، وينقل العربات المدولبة بين الأشجار إلى الفابريكة، وإلا فإنه عائد إلى سكنه وعمله في ســـوق الحريـــر، هـــاج صبية البستان يتوسلون بقاءه بينهم، ثم أذعنوا وكـــبيرهم الـــوراد إلى مشيئة الرجل العنيد في توكيله بالقطاف ونقل الـــورد، وصفقوا مهللين وهو يوافق بهزة من رأسه، باعثاً جعفراً لمعلمه صانع الحرير يعتذر.

واظب صاحب البستان على مرافقته إلى المسجد الأموي في كل صلاة منتشياً مزهواً، فكان كل التقاء بالآخرين أو احتكاك معهم في ســـلام أو كـــلام يشي بمعدن الرجل الذي نحل وبرزت عظام فكيه، ولمعـــت عيناه كأنه ناظر إلى نجم بعيد، سموه المغاير المنطوى، وأشاع صـــبية البـــستان حكاية الخلوة ونداءات يحيى؛ روجوا له شيخاً يحلو

الاقــتداء بــه، واتباعه أينما حل، والجلوس إليه ومحاورته فيما خفي والتــبس وحــير العقول، تكاثر المهتمون في صحن المسجد الأموي، واتخــذت الحــركة اتجاهاً مغايراً عن الماضي، المصلون الواقفون وراء الإمــام يــؤدون صلاتهم بخشوع، لا يتحرجون إذا ما انتهوا من ترك حلقــة الشيخ أو الفقيه الذي تعودوه تحت قبة النسر، مختارين اللحاق بــيحيى الذي لا يطيل مكوثاً، وما فاته ضيق الشيوخ به وهو يسحب تلامــذتهم يــوماً بعــد يوم، فيصعد إلى البستان، ويجلس في مصطبة العــرس، التي باتت تسمى زاوية يحيى، يلتف بفروة ثقيلة يتقي البرد، ويحــادث الأصــحاب بابتسامة عذبة وصوت رخيم، بات منشغلاً بدروس الفقه والفلسفة وخفايا العقيدة كثيراً، إذا ما شارك في قطاف الورد، وقف مذهولاً أمام الغصن المائل إلى الأسفل لثقل أزرار ورده، وتتبع ظلال الورد تهتز على تراب الأرض، قطف وردة، ثم ضم كفه يخفــيها في قبضته، وتأمل ظله على الأرض، وابتسم قائلاً فيما يشبه أحجية الوجود:

- أرى ظل كفي، وفي كفي وردة، فأين ظلها؟ ظل الوردة مخبوء في ظــل كفي، كما هي في خفي باطن يدي، أعجز أن أراها أو أدرك ظلها؛ لي وللوردة ظل واحد، ففي أي ظل عظيم ننطوي؟

تــدفقت المخطــوطات والكراريس من الوراقين إلى حجرة يحيى يقلــبها في خلوته حيناً وبين صحبه حيناً آخر، فيقرأ الجامع الصغير في الحــديث، وتفــسير الجلالــين، ويعيد ورفاقه قراءة الكتابين جهاراً، والوقــوف عــند التفاصيل بحثاً وكداً، ويعرضون لصحيح البخاري، ومسلم والشفا، والمواهب، والترغيب والترهيب، والتذكرة للقرطبــي، وشــرح الــبرأة، والمنفرجة، والشمائل، والأحياء، إضافة إلى الرسائل والمــؤلفات والمقــدمات في أغلــب العلوم، كالجزرية، والآجرومية،

وشروحهما المشهورة، والألفية لابن مالك، وما يتوفر من شروح الشاطبية كالجعبري، وأبي شامة، والهمداني، والفاسي، والأندلسي، وشعلة، وابن القاصح، ومقدمات الفقه، ودليل الطالب للشيخ مرعي الحنبلي، وزاد المتقنع للشيخ موسى الحجاوي، وكتاب منتهى الإرادات، وكتاب الإقناع، ومفردات الحنابلة، وغير ذلك من كتب الفقه للمتقدمين والمتأخرين، ومن كتب الحديث يروون ويقرأون ويحفظون ما جاء في صحيحي البخاري ومسلم.

حتى قال أبو سندس:

- *صارت مصطبتنا أشمل وأغزر من قبة النسر في مسجد بني أمية، حيث يقعد الشيوخ والمعلمون يفيضون على الطلبة بعلومهم.*

في غمرة الانغماس ببديع ما خط الفقهاء، وما دُبج في الصحف المزركشة بالحواشي والرسوم والهوامش، زالت مهنة نسج الحرير من بال يحيى، حتى وصل الحج زيدون بستان الورد بنفسه، لاهثاً مستطلعاً، جاراً ثوبه.

صاح صبي عند البوابة وهو يرى العمامة الزرقاء والثوب الأصفر مشدوداً بزنار الكتان الخشن مثل حبل غليظ:

- *عواني.. نصراني.*

تجمع الصبية وصغيرهم يأمر الرجل الذي دخل البستان بلا استئذان:

- *اشمل*[1] يا *نصراني.*

انزاح الحج زيدون شمالاً، شعر بالوجل كعادته إذا ابتعد عن متجره في سوق الحرير، أو مسكنه وحيه في القصاع، وإذا ما فارق الطريق القصيرة بين باب توما وباب الجنيق، قال بصوت متحشرج:

---

(1) سر على جهة اليسار، وفق قانون يطال الذميين.

- *جئت أسأل عن يحيى الكركي.*

وقع الاسم مثل كلمة السر، كما لو كان تصريحاً خفف عدوانية الصبية، وضاعف دهشتهم رؤية سيدهم أبي سندس يخف للقاء الرجل، تقديراً لاحتفائه به في متجره في قلب السوق، بعث استقبال صاحب المكان السكينة في قلب النصراني الذي يسأل عن عامله.

وقف يحيى يستقبل الرجل بإجلال، وتعانقا بلهفة، جعلت المحيطين يتراجعون خطوة، ويستمعون إلى عتاب صانع الحرير، الممنوع من لبس الحرير بالقانون، والذي خسر عامله، ولم يقنعه الاعتذار الذي حمله جعفر إليه، فتحمل عناء المجيء والاستطلاع بنفسه، وإذ رأى الشاب محاطاً بالأتباع، سيداً، يأسر لب كل من جلس إليه، فإنه لم يأمل إعادته إلى حرفته، واكتفى بالهمس في أذن الكركي متحسراً:

- *لا حظ لي، حنا تركني إلى الرهبنة، وأنت تتركني إلى تصوفك وكتبك.*

رغم الحسرة الظاهرة، داوم زيدون على زيارة المصطبة التي سورت بالجدران لتصير غرفة مع اشتداد البرد وسقوط المطر، ما من مجلس يتعامل معه لاغياً حواجز الملة التي تجلسه في أدنى المطارح خارج دكانه وربعه وملته، فلا تشفع له أنامله الخبيرة في غزل الحرير، لكنه في مجلس يحيى ينسى التصنيفات، وينسونها، يتحرر من القيود، ويجرؤ على رفع العمامة الزرقاء عن رأسه الأشيب، واحتضانها في حجره مسترخياً، بل إنه أكثر الجالسين جسارة على السؤال المنطوي على قلق عظيم، وحده استفسر عن طبيعة ذلك التصوف الذي يراه في يحيى، ولا يشبه ما يعرف عن دراويش يرتدون الثياب المرقعة والمسابح والخشاخيش، ويقيمون حضرات جماعية يروح فيها الناس في غيبوبة، استقبل يحيى السؤال بفرح وابتسامة ردعت الشكوك في نفوس الجالسين، فضمن له

حقه في المجادلة والاستفسار، وسمعوا معه صوت يحيى ينشد أبياتاً تفسر نهج تصوفه:

- لــيس التــصوف لبس الثوب ترقعه
ولا بكـــاؤك إن غـــنى المغـــنونا
ولا صـــياح ولا رقـــص ولا طـــرب
ولا تغـــاش كـــأن قـــد صـــرت مجنونا
بـــل التـــصوف أن تـــصفو بـــلا كدر
وتتـــبع الحـــق والقـــرآن والديـــنا[1]

صار للنصراني مكانة واحترام، وما عاد الصبية يسمونه بالعواني، أو يطلـــبون منه الإشمال إذا سار، بل تراهنوا سراً على امكانية إسلامه في فترة وجيزة، كذلك باتوا يتعودون انسلال عناصر غريبة متباينة من الـــناس، زط، وحـــرافيش، وشلق، وجند من فقراء السباه في الجيش العـــثماني يقطـــنون ديالات المزراع البعيدة، يجلس هؤلاء متساوين إلى جانب متعلمين من طريدي الأندلس ونازحي غرناطة، وعلماء يعملون في الكيمـــياء والفيـــزياء، وحرفيين في صناعة القطران، ودبغ الجلود، وعمـــال سوق الحرير، ونقاشي النحاس، والعطارين، والبزورية، وباعة الملـــح، ومحتـــرفي نقش الذهب والفضة، بل وبعض الصيارفة في بنك الـــيهود زلخـــا، وصبية كنيسة ماربولس الذين يأتون عبر باب كيسان مشياً على الأقدام، وعمال المطبعة المذهلة التي وصلت دمشق للتو لتطبع بالعبرية كتاب العهد القديم.

جمـــع مـــن الناس لا يجمعه جامع، ولا يلمه مهرجان، عود فتيان البـــستان قبول الآخرين، فلم يعد سهلاً الانسياق وراء استنكار علان

(1) لاحمد البرنسي الشهير بزروق الفاسي.

الذي جاء وقد اكتشف تسرب عدد من أتباعه إلى بستان الورد، كما استـــتنكف بعضهم عن رحلته الموسمية الشاقة إلى السويداء وحلب، في الأيـــام الأولى جلس علان صامتاً، يغالب غيرته القديمة، ويحدث نفسه كـــي تطمئن، فيحيى لا يبدي رغبة في التنقل والتجوال كما يفعل هو، ولا يقـــيم حـــضرة تهز جوانح المريدين وتمنحهم النشوة كما عود هو صحبه، ويكثر من التفلسف والتحليل والتفنيذ وتقليب كل مسألة على كافـــة الوجوه؛ كأنه يساوم لابتياع ثوب، مما قد لا يطيل صبر الناس علـــيه، ولعله يتعدى على اختصاص أئمة التفسير والفقهاء في الأموي، أكثر من تعديه على نصيب المتصوفة في استقطاب الناس.

تقلـــبت مـــشاعر علان بين استهانة ووجل، لكنها صارت عاتية كـــدرة؛ نغـــص عليه ترديد أتباعه حكايات الكركي إذا ما تسامروا، وتسويفهم واختراعهم الحجج كي يطيلوا اقامتهم في دمشق، ملتحقين بهـــزيع مـــن الـــسهر في البستان، كأنهم ينفرطون من قبضته، عدا عن انكـــشاف اضـــطرابه وضيق صدره لانضمام بعض الزط والشنكل[1] المنفوشي الرؤوس مغبري الثياب الذين يقطعون المسافة من حيهم البعيد مارين بباب الشاغور إلى أن يصلوا يحيى، يسمعون بخشية وتدبير، كأنهم ليـــسوا أرباب التساهل والتهتك والسخرية من كل جاد أو روحاني، وإذا مـــا جاء النصارى واليهود وانضموا إلى المجلس سواسية مقدرين، فأكثـــروا السؤال، وضيعوا الوقار، فقد علان أعصابه، وأعلن استنكاره في محاولة لتنبيه الجمع الغافل عن التجاوزات التي يحفل بها مجلسهم، فما أعاره أحد اهتماماً ويحيى يقول:

- لقد صار قلبـــي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لاوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن

---

(1) الغجر.

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني[1]

سمـــى علان ما يذهب إليه الرجل في تكراره لاقوال ابن عربـــي بسحر الكلام، وداری شحنة الحسد التي أوجعت فؤاده، ويحيى يشرح ما يبتغيه من وراء التأمل في عزلة.

قال يحيى:

- إنمـــا أسعى لمعرفة ربـــي، وأراه حقًا في كل ما خلق، هو عين الحقيقة، والكون يظهر على صفاته، ومن ذكره لا تكل القلوب.

ماذا عن الذكر الذي يشيع بعبارات عجباً مرقومة أو مصفوفة في أوراد رجال أشبه بالمجانين، دراويش لهم تشيعاتهم ومريدوهم واتباعهم؟

سال أبو سندس سؤاله هذا متجاوزاً عن حضور علان، متذكراً كتباً حـــول الغنوصـــية، وأخرى قرأ فيها ما ظنه من البدع التي لم توافق عقله، أجاب يحيى كمن يلج باباً ويسير درباً يعرف خطو قدمه فيه، قال:

- الذكر أن تقترب من الله، تتلمسه فيما خلق، تتوسله بصلاتك وتلاوتـــك ودعائـــك وعملك، لا يكبل كرقم أو لفظ مسحور كتبه سواك، تكتب لفظك وتقصد معناك، فلا تخطئ بك الدرب إذا غفلت عـــن عد الكلام كما تشترط فرق وطوائف وملل، إنما يقودك فهمك للمعنى، ولا تمنعك نفس أمارة بالسوء أن تتوب.

هـــو سحر الكلام، فكر علان، لكنه لم يجهر إلا باعتراض خجل وهو يرى أكابر الفقهاء يرتادون المجلس، احتج على جمع عوام الناس مع كـــبارهم، شقيهم مع سيدهم، جاهلهم مع فهيمهم، فيأتي الشاب محمد الخـــباز المشهور بالطنيني الشافعي، تاركاً صنعة إعداد الرغيف باحثاً عما يسد جوع العقل والروح، لما لم يشبعه ارتياده مجالس العلماء، يتبعه الفتى الحائر محمد بن أحمد الأسطواني الذي وجد أسلافه على مذهب الحنابله؛

---

(1) محيى الدين بن عرب.ي

فتحير، ثم اختار أن يصير حنفياً، ثم انقلب إلى شافعي، وأجيز ليدرس في زاويـــة في المسجد، ويأتي الشيخ نجم الدين محمد بن محمد الغزي حافظ كـــتاب الله، ربيب الأرملة وقد شاب منه شعر الرأس، وما استقر على مذهب، ولكنه يأخذ من كل توجه ما طابت له نفسه، وقبله عقله.

يفـــسح الـــشبان في المجلس، حين يدخل عليهم علي بن إبراهيم القبردي الدمشقي الصالحي الشافعي، الذي لا يغادر حجرته في العمرية في الصالحية حيث يعيش خشن الحياة ورقة الحال، يأتي مصحوباً برفيقه نقـــيب الشام، محمد بن السيد بن حمزة الثري، وطلبة وغرباء قصدوه فجاء بهم برفقته يحاورون الكركي في العلوم العقلية وأصول اللغة.

يدخل عليهم الملا الضرير محمود الكردي؛ يتحسس دربه بالعصا، فيناقـــشون بإســـهاب ما أملاه على خطاطه في كتابه "المشكلات على التفاســـير"، يتجادلون، بين موافق ومنكر، وإذا ما أطنب الشيخ أيوب بـــن أحمـــد الحنفي الخلوتي عن رؤياه في ملاقاة ابن عربـــي، أو تجلي رســـول الله في مـــنامه، ينبؤه أن "طوبى لعصر أنت فيه"، طالبه البعض بالمشاهدة العيان لكرامات يدعيها عن سفره في زمن خاطف من مكان إلى آخر بعيد، انقلب ممازحاً، قائلاً:

- انقـــذني يا كركي من فضوليك الغرر الأشقياء هؤلاء، الذين يبتغون لكل كلمة برهاناً.

يـــسألون كـــيف للكـــرامات وهي من خيال أن تكون في قلب الحقـــيقة، فـــيحاججهم بما خطه في صحيفة عنّونها ب"ذخيرة الفتح، وعقلية التغريد، وخميلة التوحيد"، يشرح ويفسر ويطنب.

يمـــتد الـــنقاش غالباً، ويُفسح فيه للاختلاف والتصادم، فيستمر ساعات حتى تغيب شمس النهار، وتوقد المشاعل والمصابيح، فإذا ما قال الشيخ الغزي خاشعاً:

- اللهم اجعلني من الصالحين، فإذا لم يكن، اجعلني من المخلطين، الذين خلطوا عملاً صالحًا بآخر سيئ.

تعجب الجلوس، وتبسم يحيى معقباً:

- أما الصالحون فمقامهم بعيد المنال، شاق المسعى، شديد على الانسان، وما يصله إلا قلة، أما أصحاب النار من المثقلين بالمعاصي، فبعيدون عن أصحاب العلم الذين يتفكرون بخلق الله، وما كان الصحابة الأخيار والتابعون والرهط الأكبر من المسلمين والمؤمنين، إلا من المخلطين، ولسنا بأحسن منهم.

فهم الجمع ما يذهب إليه من قياس مرن لا يلون العالم بلونين متناقضين وحسب، عقب أبو سندس:

- رضينا، إذا لم يصبنا وابل، فطل.

فزع علان أمام تلك العلوم الكثيرة المعقدة التي يتم تداولها كأنها جزء من الحقائق أو درب إليها، وظن فتنة وراء ما يقال، وما يرفض أو يقبل، لكنه لم يفلح في تعميم فزعه، ولا في استقطاب من ضاع من مريديه؛ وإن نبههم، ولا أفلح في تأليب آخرين على الرجل؛ وإن حرضهم.

ما يقال في المجلس كثير متنوع، يتقلب بين حديث في الدين واجتهاد في الفقه، وأخبار وحوادث في الدنيا والعصر وما يحيط بهم ويؤثر في معاشهم؛ يستقطب المجلس جمعاً من شبان يتلقون جل علمهم تحت قبة النسر في الأموي، ويتأهبون ليصيروا معلمي المسجد المنتظرين، فيتباحثون في علم اللغة والحديث والفقه، ويحكى الأندلسيون ما يتذكرون من معاناة رحيلهم الجماعي من الأندلس، ويصف الجند أحوال المزارع التي أوكلوا بزراعتها، ويروي سباة الجندرمة البسطاء ما كان من تشرذمهم، وتحول كبارهم إلى أعيان يتعالون عليهم، وما صار من تجبر الانكشارية وفساد فرقها، وتسلطها على الناس والولاة لجني

المـــال بلا حق، وإبطال فتاوي أئمة المسلمين حول الدخان وتعاطيه، لا عـــن تدبـــر للأمر، ولكن لصالح أمزجتهم، كونهم أكثر خلق الله فيه اســـتمتاعاً، ويتبادل المهنيون نتفاً من أسرار صنائعهم، ويضحك الزط والغجـــر من محبـــي الاستقرار الذين لا يعرفون متعة الحرية، فيفتحون بابـــاً لتقلـــيب فكـــرة الحـــرية على جوانبها، والحدود بين الواجب والمـــسؤولية، وحق المرء في الحرية بلا تبعية ولا قيود، ويناقش الجميع بعض ما جاء به ابن سينا في الطب أو علوم الأرض أو الفلسفة، ورحلة الانسان من الفطرة إلى المعرفة، وما يقوم به أصحاب الطرق والمتصوفة والمشايخ من نقلات حادة وتقلبات بين الركون إلى القادة والأمراء، أو الانسلاخ عنهم، وما يثيره كتاب الفقيه الشافعي الحصني من لغط، وهو يكفـــر اليهود والنصاري، ويلحق بهم إلى السعير وبئس المصير المتصوفة علـــى اخـــتلاف توجهاتهم، وعلى مثل ذلك الوثوق يُخرج ابن تيمية الفقيه الحصني من الإسلام.

يقول يحيى:

- والله لا يعـــرف مخلوق أين يكون موقع قدمه اللحظة، من منا يملـــك أسرار الكفر والإيمان؟ ليوزع الحسنات ويجازي بالسيئات ويمنع غفـــرانه، فيقـــيم قصور الجنة، أو مهاوي الجحيم، رب العباد وتدبيره وغايته، فوق كل ما يجادلون.

بدا كما لو أنه مجلس اجتهاد وتأمل، أكثر منه مجلس شيخ باتباع مسيرين لا مخيرين.

البـــسطاء الذين حضروا جلسات العلم في مصطبة بستان الورد، استمتعوا بتلك المعارف التي يجرى عرضها وتفسيرها، فلدى كل جليس تجربة عرف بها الحياة من زاوية مخالفة، يتجمعون تحت سقف المصطبة، يفتحون كتاب الكون الفسيح، والتجربة الإنسانية على اختلافها.

أكثــــرهم اثــــارة للدهشة؛ رجل يرتدي ثياباً غربية تضيق حول صــــدره النحـــيل، جاكيت بأزرار، وبنطال معلق إلى الكتف بحمالات دون حـــزام، يطلق لحيته وشعر رأسه الأشيب ويشذبهما ملطفاً منمقاً، يقدم نفسه باسم الوليد.

وصـــل الوليد قبل أعوام إلى دمشق من غرناطة، حيث كان يعلم الطـــب فيها، الرجل الستيني الشائب الذي لا يهتم لتهامس الجالسين حول طربوشه الغريب فوق رأسه منتهياً بشرشوبة خضراء، والذي جاء مرات واستمع صامتاً إلى ما يدور، ثم كشف عن معرفته وخبراته حين اشتكى زيدون من نفخة في معدته، فوصف له الدواء، وعرض مداوته، فظنوه عطاراً، ثم أكبروه، إذ علموا إنه طبيب جراح مارس علم اليد[1]، وعلـــم في شـــبابه في مدارس الأندلس في غرناطة، ثم انتقل إلى قرطبة، وأُرغـــم مـــثل كثير من العرب المورسيكيين على التنصر والامتناع عن الحـــديث باللغة العربية، أو اقتناء كتب بحروف عربية، غُيرت الأسماء، وبُـــدلت الأزيـــاء، وســـاد الفزع بين الناس وهم يتعرضون لحملات الإعتقال والتشكيك والتفتيش، فمن عاند منهم وفر بناسه إلى كهوف البـــشارات في جبال الألب، لقى مصرعه على يد الأمير دون جون في مذبحة جماعية، في تلك الآونة السوداء المريرة، تخلي الحكيم الجراح عن اسمه، ثابت بن محمود الأندلسي، وتنصر متظاهراً بمفارقة اسلامه، مخفياً هويته حتى شاب شعر رأسه، وهو يتنقل عازباً وحيداً تحت اسم سيرجو لابروتا، فيضع علمه في خدمة أول المشافي الغربية في مونبيليه الفرنسية، ثم يتنقل يعلم الطب في باريس ولندن ولشبونة وروما، يرى عجائب ما وقـــع في بـــلاد الفـــرنجة، ويدخل مشافيهم ليعالج الجراح ويستأصل الأوجـــاع، ويقدم للغرب وزنة دقيقة لسائل مخدر، تركيبة من المورفين

(1) الجراحة.

والـــزوان والـــسيكران، برع في تحضيرها منذ يفاعته، إبان دراسته في غـــرناطة، يلج بيوت الأوروبيين نديماً وصديقاً، يتحدث بلغاتهم، وقد أتقن منها الفرنسية والإسبانية والإنجليزية وبعض الايطالية، مما جعله في عـــداد الطـــبقة العليا، يسهر في قصورهم، ويراقص نساءهم، ويرتاد مسارحهم، حتى أن رجال لورد تشامبرلين[1] الفنانين، استضافوه بصفة شخصية لحضور عرض لشاعرهم وممثلهم الأول، شاب موهوب يدعى شكسبير، كان ذلك قبل وفاة ملكة بريطانيا العظيمة اليزابيت بعامين، وقـــبل أن يـــتولى الملك جيمس الأول المملكة الانجليزية، فألهب خياله عـــرض عطيل[2]، ورده إلى الليالي العربية؛ رابطاً بينه وبين العلج علي فارس البحار الأسود الذي طبقت شهرته الأفاق.

عاش سيرجيو حياته يخفي طقوس الحمام، واسمه وكنية والديه، يتمتع بمـــزايا الطبيب الفذ كيفما ارتحل، حتى نسي هو نفسه من يكون، فإذا ما اخـــتير في مهمـــة رسمية لمرافقة السبايا والعبيد من أولاد المسلمين من ميناء بلنـــسية، ووقـــف بين آلاف الصبية والبنات الأيتام الذين لم يبلغوا الحلم يـــبعدون عن الاندلس، راكبين سفينة البكانت إلى قشتالة، كي ما يصيروا عبـــيداً وخدماً وسرايا لكبارها وأساقفتها، ارتعدت فرائضه، وذلت روحه، كما لو كان هؤلاء أبناءه، دب فيه جزع وألم دفعاه إلى الهرب، فتسلل إلى شـــواطئ بعيدة وهام في البحر وصولاً إلى الاسكندرية، ومنها إلى صور، حـــتى أســـلمته الدروب البرية وقوافل الحجيج إلى فيحاء الدنيا؛ دمشق، فطـــاب لـــه العيش فيها، واختار حط رحاله، واستراح؛ مطلقاً على نفسه اســـم الوليد الأندلسي، فقد ولد في زمان جديد، وإن شاب شعر رأسه، ونسخ كل ما مضى من عمره، ليعيش في هدأة على ضفة بردى.

---

(1) فرقة شكسبير المسرحية.

(2) مسرحية شكسبير الشهيرة.

تكـــتظ حكايـــته الغـــريبة بالموانئ، والسفن، والقوافل، والمدن، والناس، والأوجاع، والمغامرات، كأنها طالعة من كتاب ألف ليلة وليلة، عـــندما يتذكر ململماً أشلاء حكايته الشائكة، تجف حلوقهم، وتدمع عـــيونهم، يـــرقون، ويحدبون على بعضهم البعض، فيجاملون ذمييهم، وزطهم وفقراءهم، مصابين بإحساس جماعي إن الناس كلهم على سفر.

المصطبة المسقوفة بالجريد والتراب الممزوج بالورد والعشب ورماد الحطـــب، صارت مساحة واسعة للتآلف الذي لم تعهده المدينة، كما صـــارت موقعاً يتبادلون فيه أخبار العلوم الحديثة، فبعدما ناقشوا جرأة الاندلـــسي عباس ابن فرناس الذي اخترع الميقات المائي، على الطيران بأجـــنحة من حرير، خبرهم الوليد عن رجل ايطالي موسيقار وعالم في الرياضـــيات والهندســـة والطب، يدعى جالليلو، يقطن مدينة البندقية البحرية، اهتز فؤاد يحيى عند ذكر البندقية مثل ورقة الشجر في النسيم، ولاح طيف جمان في خاطره؛ دامعة تنتظر صك حريتها.

تحـــدث الوليد عن مخترعات جالليلو العظيم، جهاز صغير يقيس درجـــة الحـــرارة، وأنبوب رصاصي ضخم في طرفه عدستان، يراقب عبرهما الفضاء، فإذا به يقول إن الشمس مركز الأرض، وليست الأرض مركز الكون الكبير كما هو معروف في كتب الكنيسة، وإن الكواكب هي التي تدور حول الشمس في نسق محسوب، والقمر كرة تلف حول الأرض في ميقات، وما من أجساد مسطحة في المجرة، بل آلاف النجوم وعـــدد من الكواكب، يمكنه رصدها عبر عدساته السحرية، فقد رأى عـــبر عدســـته العبقرية كوكب المشتري وله أربعة أقمار بديعة تدور حـــوله، شهق الجلوس تعجباً، واستنكروا فعل الكنيسة الكاثوليكية التي تـــرى في كـــشوفاته ما يتعارض مع الكتاب المقدس للعالم المسيحي، فتحاكمه وترغمه على إنكار أقواله، وتضيق عليه أبحاثه ورزقه.

عمـــرت الحكايـــات المصطبة، وتنوعت؛ أغنت كل صاحب سمع وعقل، وأمتعت كل جالس، وجمعت نفراً مختلفين كما لو كانوا أصدقاء، أبـــو ســـندس الـــوراد، وصانع الحرير زيدون الذمي، والطبيب الأندلسي الولـــيد، والفقهاء الشيوخ، وكهول المعلمين، وطالبـــي العلم من الشبان، وأشـــقياء الزط والحرافيش، وعوام الناس، وصبية الفابريكة، بدت المعارف الـــتي يسمعون، والحكايات التي يسردون، أشد فتنة من القصص المكرورة عن عنترة، والزير سالم، وأبو زيد الهلالي، التي يُسهر الحكواتي الرجال على حوادثها في المقاهي المنتشرة على سفح دمر الأخضر، وضفاف نهر بردى.

* * *

لم يكـــن المجـــتمعون في المصطبة غافلين عن الأيام السود التي تمر بها دمـــشق، فقد تعاقبت أيام ثقيلة الوطأة، عاث فيها الانكشاريون فساداً في الأســـواق، تعمدوا الظهور بكامل عتادهم وزيهم الثقيل وعمائمهم المزينة بالـــريش، وسياطهم الغليظة تتطوح في الهواء محدثة أزيراً مخيفاً، ينوعون في عـــرض التحدي الذي اختاروه للاعتراض على فتوى تحريم الدخان المنتشر بـــين العامة دون ضوابط، تحدى الانكشاريون أئمة الجامع الأموي، وعدداً مـــن الفقهاء والمفسرين الذي قاسوا على ما يفعله الدخان بالمرء من تضييع المـــال والـــوقت، وحبس الأنفاس وخفة الرأس، وتقليب المزاج بين حدة وانشراح، فوضعوا نبتة التبغ اللعينة في مصاف الخمر، أو يزيد.

اتخـــذ الانكـــشارية من مداخل الحوانيت أمكنة يستعرضون فيها تحـــديهم العنيف لفتوى قاضي القضاة الشهاب أحمد بن يونس العيثاوي الشافعي، وصار لغط في الأسواق بين الدمشقيين الشافعية الذين مالوا إلى فتوى قاضيهم، ونفر حنفيون من أصول عديدة استقروا في دمشق، مالوا إلى مراضاة الانكشارية الذين يتبعون الحنفية أسوة بالعثمانيين، لم يتوقف عسكر الانكشارية عن إزعاج العامة، وفرض سطوتهم، والتدخين جهاراً

بأراجيلهم النحاسية نافثين أنفاسهم في وجوه المارة، متناولين الأكل والشرب المجاني من الحوانيت والبيوت، حتى تراجع المفتي عن فتواه، وأصدر فتوى أكثر مرونة وليناً، تفيد إن تبغ الدخان أمر لم ينزل فيه نص ولا تحريم صريح، وإنه نوع من التلهي لا يضر ولا ينفع.

مع ذلك؛ لم يغادر الانكشاريون أسواق وزقاقات دمشق مباشرة، إلا وقد استوفوا الآتاوات، وحملوا الغنائم، وتحرشوا بالولدان، وغيروا دروب سير الحمارين والبغالين، وصادروا من الحوانيت ما يعجبهم من جميل الصنعة ولذيذ المأكل، عاودت الأسواق حراكها على حذر ومهل، وحزن في العيون والقلوب، لم تتبدد مخاوف الناس ويرفع عن كاهلهم عبء ما وقع، إلا ما قام به القاضي الشهاب العيثاوي.

أعاقت الأوحال المسير في الأزقة والميادين، مع ذلك؛ خرج القاضي الشهاب بموكبه صبيحة ذلك اليوم، يتفقد الأسواق والمصالح في إجراء غير مسبوق، لم يكن الموكب مزداناً كما هو أيام محمل الحج، كأنما لا يريد القاضي استفزاز وجع الناس وغيظهم، ولا رافقه كثرة من المرافقين والحرس، فالناس نفروا من مرأى الجندرمة بزيهم وخوذهم وسياطهم وعصيهم، ولكن جمع قليل من الفقهاء التفوا حوله ورافقوه كأنهم يؤكدون على مكانته، خاصة إن معاندة فتواه حول الدخان؛ أفسدت عليه كمال سطوته وهيمنته على العوام، وكان الانكشارية قد حرضوا الناس من قبل على بدعة تعاطي القهوة، فصارت توزع في الاستراحات، كما لو أن العيثاوي لم يفت بضررها وسلبها عقول الرجال.

كان القاضي بحاجة ماسة إلى استعادة مؤازرة الشارع الشامي، ريثما يرتفع عجاج المشاكل التي ورطه الانكشارية في التصدي لها، فهزموه وقللوا هيبته، لهذا؛ عندما رأى الشوام قاضيهم بردائه الواسع وعمامته العظيمة بينهم، يسلم على صغيرهم قبل كبيرهم، يواسي جراحهم

وجـــراحه، أبـــدوا الفرح، وتنحوا في الطرقات يفسحون له، وانحنوا وهم يسلمون ويتحلقون حوله، وزغرد الصبية الظرفاء، وأعد البعض عرائض في احتـــياجات لهـــم، وهجم المهنيون يقبلون كف القاضي فيسحبها خجلاً متواضـــعاً، ومـــن زقـــاق جقمق دخل علان وصحبه، ضاربين دفوفهم، مطلقـــين الأناشـــيد في حب رسول الله، ترحاباً بالقاضي، حامي العقيدة والـــدين، واحتشد الناس ينظرون، دار علان حول نفسه مطيراً عباءته في المساحة الضيقة التي يسمح بها احتشاد الفضوليين، والملاك، ورفاق القاضي وصبية المهنيين، صاح علان مرات متتالية: *الله.. الله.. الله...*

ظـــل القاضـــي مبتسماً رغم ضيقه، إذ استغرق عرض الدراويش وقـــتاً طـــويلاً، يفـــضل لـــو منحه لتجار السوق يعرضون شكواهم ومـــشاكلهم، فيعدهم، ويحل لهم ما تمكن من حله، ويناقش مطالبهم، فينال رضاهم وثقتهم، ويستعيد مكانته في نفوسهم.

أنهى الدراويش عرضهم في منتصف النهار، فتحرك ركب قاضي القـــضاة مغادراً، وتبعه شيخهم بدأب لحوح، إلى أن سنحت له فرصة الاقتراب من القاضي حد الكلام المباشر، همس علان:

- *أطال الله عمركم، في القلب غصة مما نرى، وعندنا أمر نشكوه لك.*

أطـــنب علان في همس كالفحيح بما يقع من تجاوزات في بستان الورد، وما يقال فيه، وما يكون من تنطح على العلم والفقهاء، فكأن لا فـــتوى تعجب الصحب المتجمعين من كل واد، فقراء وأغنياء، علماء وأشقياء، مسلمين وذميين، على كل مذهب، ومن كل طريقة، مما يجعل أمر الاجتماع مريباً ينذر بفتنة، فما الذي يأتي بالخباز الشافعي، ومحمد الأســـطواني، ليجالسا الشيخين الأشيبين، الغزي، والقبردي؟ عدا عن التحاق الملا الكردي الذي يضيع باب بيته إذا خرج إلى المسجد لضعف

بصره، لكنه باعجوبة يعرف درب بستان الورد جيداً! وكيف يتواضع شـيخ مـثل الخلوتي وهو يرى نفسه زينة عصره، صاحب الكرامات العظام، فيحضر مجلس الكركي كتلميذ، وقد بلغ من العمر أرذله!.

حاول علان زرع الشك في فؤاد القاضي الذي استمع بصبر وأَناة، وظن إن جل ما ورد من أسماء هي لنفر يعرفهم، ولا يسيئ بهم ظناً، لكن علان واصل فحيحه لافتاً نظر القاضي إلى انـزواء مكان اللقاء حيث لا يمكـن السيطرة عليه، لا من أعوان القاضي، ولا من درك المدينة، فكأنه بهذا أقام منبراً ينافس فيه قبة النسر، ويقلل من شأن منابر المساجد المعروفة التي تدعو الناس للخير، وتعلمهم ما احتاجوا من علوم.

نجح علان أخيراً في اقتناص اهتمام القاضي، وإن كانت عينا الأخير تـبرق بفهـم حذر، قدر إنه يسمع وشاية رجل حاسد غيران، يخشى منافـسة زاوية لزاويته، لم يسترع انتباه القاضي إلا خطورة انعزال الزاوية في مكان قصي يجري فيه اجتهاد على الفقه والدين، ثم وقد أصابه الملل، واسـتطال غيبـته عن مهامه، واستعجل الانصراف، وبحصافة ما تدرب علـيه عمـراً في إخفاء أفكاره وانفعالاته، والجهر بما أراد، وإبطان ما لا يـريد منها، همس مطمئناً الشاكي، إنه سيبحث الأمر، ويقطع دابره، ثم بقصدية، أضاف عبارة أقلقت علان وهو يعطيه ظهره سائراً:

- لا تـشغل بالـك فـيما لا يفيد، وانصرف لمصالح مريديك يا شيخ، ثم إنا لسنا في وقت مناسب لنكش أعشاش الدبابير.

لم يكن الوقت مناسباً لأشياء كثيرة تقع في الفيحاء، فالناس الذين وقفـوا في سـوق جمجق قامة لقامة مع القاضي عند نـزوله إليهم، فارقـوه، وانقطـع عنهم، ولم يعد بإمكانهم ملاقاته والأوامر تعمم في الأسـواق على الحرفيين، للدخول في اختبارات وتصفيات لمن سيرسل منهم إلى القسطنطينة ليعمر مسجد السلطان أحمد في استانبول، لم يكن

الأمر اختيارياً طوعياً، ولا كان مجزياً مغرياً لفقرائهم، وقد نـــزل رسل الـــسلطان الأسواق مزودين بقوائم لأسماء أبرز الحرفيين في النقش على الحجـــر والـــنحاس والمرمـــر، ومزخرفي الموزاييك، وطارقي النحاس، وخطاطي الحروف، والنجارين وصناع الجلد والورق والصباغين المهرة، بـــل ناســـجي الحرير والدمقس، والطباخين، والعطارين النبهاء؛ يُدفع هـــؤلاء إلى خـــيام ضربت عند قاسيون، يقلبون كما تقلب السائمة، وتُـــدرس امكاناهم الفنية، ووضعهم الصحي، وقدرهم على الإحتمال والمشقة، دون مراعاة لأحوالهم الأسرية ومسؤولياهم الحياتية وخياراهم؛ يمـــنحون وقتاً قصيراً لجمع حاجياهم، والالتحاق بمن جُمع من الحرفيين المـــصريين والأتـــراك، كي ما يكون المسجد، الأثر الخالد الذي يريده السلطان لنفسه، نتاج عبقريات الشعوب التي تدين للعثمانيين بالخلافة.

هامس صحب الكركي بما يحدث في الأسواق، ثم صاروا في قلب الحدث، عندما جاء حنا إليهم.

تـــوهجت جمـــرات المنقل النحاسي الأنيق المرفوع على ثوابت طـــويلة، والذي يتوسط المصطبة ناشراً الدفء بين الرجال، تخففوا من معاطفهم المبطنة بفراء الخرفان، وعباءاهم الوبرية الثقيلة على أكتافهم، وهم يسمعون مجادلة جعفر وزيد والوليد حول شراب الزنجبيل وفوائده في الـــبرد، ويضحكون لما يخالط العلم من جرأة العطارين والعلماء على التكلم بفوائد الزنجبيل للجماع ومواقعة النساء، حين دفع الباب صبـــي اتسعت حدقتا عينيه، لينقل تعجبه إلى الحاضرين، صائحاً:

- *هناك زائر.*

انـــشق الباب واسعاً وراءه، فداهمهم ريح بارد وضباب، واهتزت الـــنيران في المنقل، وكادت تخبو، ثم تبين في غبش الضباب، جسد نحيل ممشوق مسربل بالسواد، عاري الرأس تماماً، خالٍ من الشعر، وإذ تقدم

أكثر، دار الصبي يعيد غلق الباب خلفه، فانقطع الهواء والضباب البارد، وتأججت نار الموقد مجدداً، عندها؛ شاهدوا الصليب الخشبي على صدره بوضوح، وقدروا لالتصاق ثوبه بالجسد، إن مطراً لحقه في طريقه إليهم، كانت رؤية الراهب في مجلس يحيى مدهشة، وإن تعودوا حضور المسيحي واليهودي، إلا إن المجاهرة بالصليب على هذا النحو، وبمسوح الرهبان الرسمي ما كانت مسبوقة، الشاب المتعب الذي تكلف مهمة الطلوع ماشياً من كنيسة مار الياس في قلب السوق إلى مكانهم، مسح وجهه بكفه وتنهد، واقترب.

لم يكن الراهب حنا ابن زيدون يظن إن هناك فرقاً سيحدث في مجيئه إلى مجلس العلم الذي حدثه عنه أبوه كثيراً، كان يعلم إن اسم والده أدرج في سجلات المهندس محمد أغا الذي يجمع أهم الحرفيين من المدن العربية تمهيداً للبدء ببناء مسجد السلطان أحمد، إلا أن النساج اختفى، لم يعد زيدون يُرى في السوق ولا في البيت، كذلك في بستان الورد، أثار الراهب الشاب اهتمام الجالسين بمخاوفه وحيرته، وتردده في نشر فتيان الكنيسة للبحث عن أبيه بعيداً عن أحياء المسيحيين، أراد الاستعانة بصحب أبيه؛ سرعان ما نسوا رقة حاله، وصليبه الكبير المعلق على صدره الناحل، وتشاوروا في أمر العثور على رفيق جلساتهم ومؤنسهم ناسج الحرير الودود الذي رعى يحيى وعلمه في أول زمان إقامته في المدينة، وُزع الصبية على الحارات والأماكن التي يُحتمل تواجد الرجل فيها، وزار أبو سندس الكاتب المكلف بجمع الحرفيين، لمعرفة إذا ما كان النساج قد غادر إلى الحاضرة العثمانية حيث سيقام المسجد على مضيق البوسفور.

لم يكن اسم محمد أغا الصداف، مهندس السلطان، غريباً عن الدمشقيين، ولا اسم استاذه العظيم سنان، فقد زار كلاهما دمشق فيما

مضى، وبنى سنان جامع السلطان سليمان، وتكيته فيها، وحفظ الناس اسم أغا وهم يتحدثون عن تجنيد الحرفيين في بناء مسجد السلطان، فهو مـــن أراد منافسة كنيسة آيا صوفيا، بفن المعمار، وهو الذي بُعث إلى مكـــة، فكسا الكعبة بصفائح الذهب، وركب لسطحها مزراباً ذهبياً، وأحـــاط أعمدة الحرم بحلقات من المعدن الأصفر النفيس، ورمم قباب المـــسجد الحرام، وقدم للمسجد النبوي مأذنة إضافية، هدية السلطان، حتى لا يقال إن السلطان أحمد تطاول على مسجد النبـــي بزيادة عدد مآذنه، وقد أشيع إن مسجده على ضفاف البسفور سيزود بست مآذن رشـــيقة شـــاهقة مزخـــرفة، فلا يشبه أي مسجد سبقه، ويصير تحفة للناظرين في الجمال والتناسق.

لكـــن الكاتب الموكل من المهندس العبقري، والذي أشعل ناراً في خيمـــته، لم يثلج قلب الوراد؛ أكد إن جمهرة الحرفيين لم يغادروا بعد، وإنهم ما زالوا في فترة السماح التي تتيح لهم ترتيب أوضاعهم في بيوتهم وحوانيتهم، وإنه لم ير الذمي منذ أول مرة سجل فيها اسمه، وبلغه فيها بالاســـتعداد للـــرحيل، كما هدد بإشارات مبطنة تفيد في ما إذا كان الذمي يحتال تهرباً من الرحيل؛ فإنه ملاق عقاباً صارماً، إذ لا يستحسن التلاعب بتكليفات السلطان الأعظم.

عـــاد الرجال صفر الأيدي مخذولين دون خبر، ولم تسفر أبحاث الفتـــيان عن أثر لزيدون، لكنها لم تتوقف، ازداد قلق حنا، بعث غياب أبـــيه على هذا النحو أفكاراً سوداوية لا تنجح تأملاته وهو الراهب في التخفـــيف مـــن وقعها على النفس، فإذا ما غابت خمس شموس، وحل اليوم السادس، ظهرالراهب مجدداً في المجلس رث الهيئة كسيراً، مخبراً عن العـــثور علـــى والـــده، جـــثة جرفها ماء النهر البارد في الغوطة حتى اصـــطدمت بفـــرع تدلى من شجرة جوز ضخمة عتيقة تعارض المياه،

وتعلـــق ما يمر عليها من أعشاب ومخلفات، لم يكن من السهل التعرف على الجسد وقد لحقه خراب سريع بسبب الماء الذي حمله إلى اليابسة، والطحالب والحشائش التي غطت جسده، والأسماك التي نقرت وجهه، وضـــياع صليبه وعمامته، وإن تم العثور عليهما فيما بعد مرميين تحت أكمـــة أشجار الرمان، وقد كُسر الصليب الخشبـــي، ونُثرت محتويات الجـــيب مـــن العمامة، وقطعت شهادة الجباة التي يحرص زيدون على اصطحابها كيفما سار دلالة على دفعه جزية الذمي دون تأخير.

تجمع الصحب في البقعة التي عثر فيها على الرجل، ونظروا علهم يعثـــرون على أثر لقاطع طريق، أو سارق، أو عدو، فقد ضُرب زيدون ضرباً مبرحاً، وفُج رأسه بآلة غليظة صلبة، وسُرق جرابه الجلدي المعلق في زناره، كان من الأكيد استحالة أن يكون المعتدي فرداً، أو نفراً قليلاً من قطاع الطرق المتاعيس، إذ تركت حوافر الخيل الكثيرة في المكـــان دلالة واضحة على جمع كبير، وما كان للبسطاء امتطاء الخيل علـــى تلك الصورة الكثيفة قرب ضفة بردى، ولكن تلك الآثار تماثل الآثـــار الـــتي تتركها حوافر خيل الانكشارية الثقيلة والمحملة بالرجال والعتاد.

ســـاد الأسى قلوب الرجال؛ يقلبون الأمر فلا يجدون منفذاً، لمن الـــشكوى ولـــيس هناك من دليل! وكيف يكون للذمي حق والناس منـــصرفون إلى حقـــوق لا يحصلونها! خرس يحيى ذاهلاً، حزن لخسارة الـــرجل الـــذي رعـــاه واصطفاه، واستعاد كلمات برهان شيخ زاوية العميان في الأزهر عن دنيا يسود فيها الجور، ويفتري فيها القادر على من لا يقدر، فلا يقام عدل، ولا ينصف مظلوم، أصابته لوعة شككت بكـــل مـــا يعيشه من فكر وتعبد وخلوات وتعلم، لم يكن غريباً سماع بكائه في الليل وصوته يتهدج منشداً:

- إلهـــي... تعطف يا رؤوف بموقفي.. عند بابك العالي مقامي ووقفـــتي... إلهي يا من لا يجاوزه الرجاء، ولا تتعداه ظنون الخليقة... إلهي... يا منتهي خوفي وغاية خشيتي.. ارفع طمعي إلا منك... وافرغ منه روعي وروعتي.. أبثك من سري ضميراً علمته.. خشوعاً.. فأمن يا رؤوف مخافتي..

اختنقت آهات حنا وهو يسمع إجهاش الرجال بالبكاء متواصلين مـــع نشيد يحيى، وتذكر مكلوماً ما سمعه يوماً من والده حول الكركي الذي اصطفاه مثل ابن، وأحب لو يورثه صنعته، فيبقى على حانوته في حارة الحرير.

أراد الـــراهب مخلـــصاً ترك أمر الحانوت ليحيى ينظر فيه، ويديره كما يـــشاء، عمـــلاً برغبة والده ونيته، لكن الكركي رفض بكياسة، أشار عليه الصحب بالقبول لغاية وقف الحانوت على فقراء المسلمين، لكنه أثار حيرتهم، وهو يرد عطاء حنا ويساعده في تدبر أمره، ويدله على أسماء صبية نابغين في النسج ليتولوا تشغيل أنوال زيدون، على أن يمنح ريع نتاجهم للولد ينظر فيه، فـــيأخذ حاجته، ويعطي ما تبقى لمدرسة الأيتام الملحقة بكنيسة مار بولس، اختلفوا فيما إذا كان يحيى محقاً بمنع الوقف عن المسلمين وإعادته للنصارى، ثم تبينوا الحق في فعلته، وعدالة نقل إرث زيدون الذمي لملته وطائفته.

طـــال أمـــد الكدر والحزن في المصطبة، وتعددت الحكايات عن بطش وجور أعوان السلطان وجنده، ومظالمهم في عرض البلاد وطولها، وســـيرة الـــسلطان الصغير في استانبول وهو يحاول جاهداً إطالة قامته أسوة بالسلاطين الأوائل، فيعظم من العمران، مخفياً ضعف دولته بجود يصل حد الإسراف.

لم يـــتم الـــسلطان العثماني أحمد الأول التاسعة عشرة من عمره، محـــاط بـــأم عنيدة، وجدة في مقتبل الكهولة قوية الشكيمة، تشد كل

واحـــدة ذراعـــه في اتجـــاه، اضـــافة إلى مستـــشارين قصيري النظر، وانكشاريين شرهين لا يشبعون من مال ولا سلطان، وحروب طاحنة في الشمال والشرق.

حـــتى معاهدة الصلح "ستفاتوروك" التي أبرمها مع النمساويين لم تتـــرك صـــدى يذكـــر في دمشق، فأن يحكم العثمانيون قبضتهم على البوسنة وغرب الدنيا، أمر لا يعني بسطاء الشام، ولا يواسي وجع حنا الـــذي قُـــتل أبـــوه ومـــا أنصفه أحد، ولا يقدم حلاً للحرفيين الذين سيُهجرون إلى استانبول تاركين ديارهم وعيالهم، ولن تعفيهم المعاهدة مـــن هجمـــات رجال المكوس والوكر والانكشاريين الطماعين الذين يتلاعبون بقوت الناس، أما معاهدة "استانبول" للصلح مع الصفويين في فـــارس، وإن تـــسببت في هدنة، فإنها لم تكن ذات بال، فالناس شكوا باســـتمرارها لكثرة ما تقلبت من معاهدات مزقت وتجاوزتها الحروب، في حـــين رمى البسطاء وراء ظهورهم سنوات العداء مع الشيعة، تلك الـــتي كـــان أوجها في عهد بعيد إبان حكم صلاح الدين الايوبـــي، ولكـــنها ظلـــت تجر ذيولها في حرب طاحنة ممتدة زمناً طويلاً في شرق آســـيا، بدا المجتمعون في المصطبة أكثر تخوفاً وخشية مما يجري من فتن داخلية، في حلب أو لبنان، وما يصل أخباره من بطش ومطاردة ومظالم لا تنتهي، ليس آخرها الحملة التي هزت جبل لبنان حين حوصر الأمير الدرزي فخر الدين المعني وأنصاره من مسيحين ودروز.

شـــعر يحيى بمخاض الدنيا الصعب لولادة الأفكار، وبرغم اشتداد عـــوده، وإحـــساسه بقدرته على مناكفة المفكرين وجدالهم، وامتلاكه رؤية رحبة سمحة للحياة، عكس حاله حين فر من المحروسة إثر مأزق لم يتـــسلح لـــه، ولا كان بمقدوره الثبات فيه، إلا إنه خاف كسر أرواح جفت وهو يحرض الناس ويحملهم ما لا طاقة لهم به.

بكـــل الخـــوف الذي وقر قلبه راح يحيى يسمع أكثر مما يقول، ويقلب شؤون المظلومين أكثر مما يفعل لنصرهم، وهو الغريب.

فكلمـــا ضاقت به سبل الإحاطة بما يدور، وسقط قلبه في مهوى الألم، ردد قول ابن الفارض:

- وجهٌ تعدّد في المرائي وبه تحّير كلّ رائي..

فالكائنات بأمره موج على صفحات ماء..

والأمر أمر واحد فيه التقارب والتنائي.

صـــار قطـــرة في الموج العظيم، يهرع إلى عزلته، يجلس في خلوة منتصباً وقد دلى ذراعيه، وشهق حابساً الهواء في صدره، ثم شد جسده واســـترخى وزفـــر الهواء.. بعد صمت طويل، يعلو صوته متمهلاً في ترجيع خفيف:

- يـــا مـــن له رنت الوجوه بأسرها، وله جميع الكائنات توحد، يـــا من له وجب الكمال.. وجب الكمال بذاته، إنك تشقي من تشاء وتسعد، ربنا.. رب القلوب، ربنا إليك أنبنا، أجرنا من نار دنيانا، ومن حر السعير...

تبعث حلاوة الصوت الخشوع في قلوب الجالسين على المصطبه، يأتـــيهم صدى الكلمات متناغماً مع صوت الريح التي تمر بين الحجرة المغلقـــة وموقع جلوسهم صامتين؛ يذرفون الدمع في دعة، ثم يعاودون حمى المجادلة حول واقع ثقيل وخوف جاثم.

* * *

انتشر الانكشارية بهراواتهم الثقيلة على طول الممر الذي يقود إلى ساحة مسجد أمية، فظن المارون إنهم خارجون من صلاة الفجر، إلا أن أحذيـــتهم الثقيلة تشي بتحفز أمني، لا مشوار عبادة، و لم تكن الشمس قـــد صـــعدت في الأفق بعد، حين راقب الانكشاريون صبية الكنيسة

يماشـــون الـــراهب حنا، وفي لحظة مثل خطف البصر، رفعوا عصيهم وضربوا الصبيان، ففر من فر، وعلق الصغار منهم، وجُر حنا مسحولاً خارج السوق، أما التجار الذين فوجئوا بالواقعة، فقد ران عليهم حذر وخـــوف، تبادلوا النظرات زائغة، ثم حلوا أقفال حوانيتهم متعوذين من الـــشيطان متحـــسرين، ودلفوا إلى مأمنهم والجند ينصرفون دافعين أو جارين من قُبض عليه من الصبية أمامهم.

وصـــلت تفاصيل الحادثة إلى أبو سندس أولاً، فقد بكر بالمجئ إلى الساحة برفقة زيد قبل رفع البيع، يقصدان اختيار مسبل حريري لخولة الـــتي أعلنت إنها حبلى، وإذ هُمس لهما بالخبر المفجع، نسيا أمر شراء هديـــة الخال، ووقفا في غيظ ينتظران وصول يحيى الذي وافاهما خالي الـــبال عما جرى، علم؛ فاربد وجهه، لكنه لم يرافق أبا سندس الذي اعتـــزم الآتـــيان بنقـــيب دمشق والذهاب إلى القاضي شاكياً ما حل بالـــراهب دون جريرة وهو المكلوم أساساً، أكمل يحيى صامتاً سعيه إلى المسجد الذي بدأت فيه استعدادات صلاة الجمعة.

مـــر المصلون به مقبوض الفؤاد، لم يعد في نفسه متسع للصبر علـــى المظـــالم، اتخذ له ولزيد وجعفر وآخرين تبعوه مكاناً في نهاية صـــفوف المـــصلين الذين احتشدوا في صحن المسجد تحت السماء الزرقاء التي يلعب فيها غيم قليل لا يعد بالمطر، لاذ بعضهم بالظلال تمددها الواجهة المحلاة بالفسيفساء، بينما تمكن الذين جاءوا مبكراً، أو مـــن كانوا من الأعوان والأغوات من احتلال الصفوف الأمامية خلف الإمام، تحت السقف الخشبـــي المزخرف، وقد سقطت على وجـــوههم لطخات ظلال أضواء هندسية كأوراق الشجر، مخرمة، ملـــونة، تنعكس من النوافذ الزجاجية الملونة والمثبتة على الجص في نوافذ الحرم.

اتخذ المصلون أماكنهم وسووا صفوفهم، رفع يحيى رأسه من سجدة تحية المسجد الأخيرة، والدموع تغمر وجهه، وعيناه مسبلتان على وجع، سلم يميناً وشمالاً، فمد جعفر ساعده يعينه على النهوض وقد أعياه ألمه، واتخذ الإمام موقعه في المنبر يستعد لخطبة الجمعة، لم تفارق عيون جعفر وزيد وجه صاحبهما الذي بهت لونه وارتعشت شفتاه، إلا إنه لم يكن غافلاً عن تدبر كلمات الإمام وقد شرع بعد حمد الله، والصلاة على نبيه بالحث على التقوى، والطاعة، والزجر عن المعصية، حتى قال:

- عن ابن يحيى بن أسعد قال: قال رسول الله: من سمع النداء يوم الجمعة فلم يأتها، ثم سمعه، فلم يأتها، ثم سمعه فلم يأتها، طبع الله على قلبه، وجعل قلبه قلب منافق.

وجفت قلوب المصلين، وارتعدت فرائضهم، ورفع يحيى كفيه المكتفتين فمسح دمعه، وفتح عينيه مستذكراً حديث البخاري ومسلم حول صلاة الجمعة، عن رسول الحق، قال:

- فيها ساعة لا يوافقها مسلم وهو قائم يصلي، يسأل الله شيئاً إلا أعطاه.

بحث يحيى عما يسأله من كثير كثير يبتغيه ويرغب في نواله، ثم استحى أن يقف بين يدي الله متسولاً وقد غمره بكرم ونعيم الحياة، رفع انتهاء الخطبة السكينة المرة عن قلب الرجل، وأعاد له غضبه، كان الإمام يختم خطبته بالدعاء المعتاد للسلطان:

- ربنا انصر سلطاننا، الحضرة المقدسة، والسدة التي على الجهاد والدين مؤسسة، سدة مولانا السلطان الأعظم، والخاقان الأفخم، مالك ممالك العرب والعجم، ومجتبى الخلافة العظمى، والحصن الحصين الأحمى، المؤيد للدين الحنيف، الذي علا نجمه على الملوك، وأضاء بدره

الحلوك، ونام في ظله الغني والصعلوك، سلطان البرين، وخاقان البحرين، صاحب الممالك الرومية، ومصر والشام والعراق والحرمين، السلطان ابن السلطان.[1]

وقف يحيى وانفلت من المسجد مخترقاً الصفوف، لافتاً الانتباه، تبعه صاحباه في عجب، فما رد على سؤالهما، هرول مجتازاً صحن الشام وأسواقها متوجهاً إلى حجرته، وقد كف صاحباه عن الإلحاح بالسؤال وتكرار الاستفسار عند منتصف الدرب، لكن القلق لم يفارقهما، دخل يحيى حجرته وأغلقها وراءه، بينما وقفا حائرين مقطوعي الأنفاس لطول المسافة وشدة المشقة التي تكلفاها.

لا توجد أسباب تفسر فعل يحيى في مغادرة الصلاة فور انتهاء الخطبة، لم يكن هو نفسه معنياً بتوضيح أسبابه لصحبه، لكنه انثنى إلى قرطاسه الكتاني، وأخرج ريشته الحبيسة في جيب من الجوخ، غطها في دواة الحبر، وكتب:

- بسم الله الرحمن الرحيم، إلى قاضي القضاة، حامي حمى شريعة المسلمين في معاشهم وعبادتهم، في دمشق الفيحاء، مولانا الشيخ شهاب الدين أحمد بن يونس العيثاوي الشافعي؛ وقد سمعنا عن حدبكم على الناس، وتجوالكم بينهم تتفقدون فقيرهم، وتواسون مصابهم، وعلمنا بوافرعلمكم، وميزان عدلكم، فإننا يقض منامنا سؤال لو تجيبون عنه، لما كان حال المسلمين كهذا الحال، ضعفاء أذلة، وقد وقفت على ظلم أولى الأمر لمن لا يملكون الأمر، الذين يدخلون بيت الله في المسجد الأموي، يصلون، ويدعونه رجاءً وأملاً، يبتغون فرجاً ومرضاة على صبرهم وبؤس حالهم؛ فما غيَر مولانا الإمام وهو يخطب في صلاة الجمعة قوله وما اعتاده من مرصوص العبارات، وقام يدعو كما هي

---

(1) ختام خطبة الجمعة في الزمن العثماني الأول.

الحـــال دائماً لسلطان البلاد العثماني، ويهبه صفات المؤمنين العارفين، وينــــــزهه، ويرفع مقامه، ويقدم له الولاء الخالص دون شرط! فكيف هـــذا الحال يا مولانا يرضي الله ورسوله؟ وهل تصح الدعوة للسلطان الجائرعلى منابر الهدى؟ وفي موقع الدعاء والتقرب إلى رب العباد؟ وهل تجدد بيعة المسلمين لمن ظلم، وأفقر، وبطش؟ هل لأفواه الأئمة أن تبايع دون إجماع العامة المظلومين وموافقتهم؟ إنه السؤال الذي يمزق الروح ويدمى الفؤاد، فكيف بنا فاعلون؟

"يحيى أبو بكر عيسى الكركي"

* * *

مـــثل جعفر بين يد القاضي يرتعش، كان الحرس قد أطالوا وقوفه عـــند باب المحكمة النورية، ودخل متخاصمون كثر، وخرج مكبلون بالأصفاد يصيحون مدعين البراءة، وتبعهم مفرج عنهم يغنون ويعلنون عدالة القاضي في حقهم، وتتابع دخول وخروج قضاة وولاة، وفقهاء، وعسكر، وأصحاب حاجات، وهو واقف نهار كامل يحمل رسالة يحيى، لا يـــرده عن تسليمها طول تجاهل لوقفته عند الباب؛ لم ينتبه إلى صبره أحـــد حتى قارب الوقت غروب الشمس، وانفض الناس تباعاً، وسأل قاضـــي القضاة عن الرسول بالباب، ثم قلب عينيه محاولاً تذكر المكان الـــذي سمـــع فيه اسم يحيى الكركي، فتمثلت صورة الدرويش علان يهمـــس لـــه في السوق بعد فتنة الانكشارية، راجع نفسه في تلك الوشاية التي بدت صادرة عن حسد وضغينة، ودفعه فضوله لإدخال الرجل عليه، ولكنه ما أن انتهى من قراءة الكتاب، حتى داهمه الغضب، ورجـــح أهمية الشكوى التي تجاهلها في الماضي، وأكدت له الكلمات المطلوبة إنه يتعامل مع رجل يفتعل المشاكل، ولا يتواني عن الخوض بما لا يعنيه ولا يخصه.

فكـــر القاضـــي بحبس جعفر، ظن إن مثل هذا الاجراء كفيل باقراء الكركي رسالة موجزة وحاسمة تعلمه عدم التطاول على ما لا يتعلق بشأنه الخاص، لكنه عاد عن تفكيره بسرعة، ورجح إن تحجيم الرجل يتم ببساطة ودون إحداث ضوضاء لا مبرر لها، قال لجعفر بحسم واضح:

- ارجع لصاحبك، وأخبره إني أنتظره ولو دخل علينا الليل، دعه يأتي إليّ هذا المساء، ليحضر وحده، تفهمني؟ لا أريد مرافقين، لسنا في يوم عيد.

أســـرع جعفـــر يوصل الرسالة للكركي، وحرص القاضي على اســـتكمال معلـــوماته عن الرجل، قالوا له: إنه يُكفر الفقيه تقي الدين الحـــصني الـــشافعي، ويعيب على اقامة زاوية له في حي الشاغور، وإن كان ينفر من أفكار ابن تيميه، فإنه يجادل في أحقية الحصني الذي يحمل علـــى ابن تيمية، كما يحمل على الصوفيين، وإن الكركي المذكور لا ملامـــح واضـــحة لـــه تضعه في مقام الصوفيين المتعطلين، ولا أولئك الورعين، لكنه يجمع حوله طوائف ونحلاً وبشراً لا يجمعهم جامع، ويلم معهم فقهاء وطلبة علم ولغة ودين يعتنقون منهجه في الشك، يراجعون كل ما توارث عن الأسلاف، وما لحق به الناس وأقروه؛ يصير تلامذته على شاكلته، وهو الذي لا يعجبه العجب في شؤون البلاد، رغم كونه غـــريباً قادمـــاً مـــن حوران أو عجلون، تسري الشائعات بخلافه مع شـــيوخها، وفـــراره من أحكام استحقت عليه، كل ذلك التناقض في التصور؛ جعل القاضي العيثاوي يحمل عليه قبل ملاقاته، وينتظره بهدف قياسه وضبطه.

لم يـــرض صحب يحيى عن رسالة القاضي، خاصة طلبه بذهاب يحـــيى إليه فرداً، تخوفوا؛ ونـــزلوا من بستان الورد برفقته، ثم اختاروا مكانـــاً آمناً عند باب المدرسة النورية مقدمين قارورة من شراب الورد

للحـــارس الـــذي وافق على مسامرتهم، وصاحبهم يقطع الدرب إلى المحكمة للقاء قاضي القضاة.

تأمل العيثاوي الرجل الذي دخل عليه بتحية الإسلام، أسمر، نحيل، مـــربوع في ميل إلى طول، ملتح، في وجهه لطف، وفي عينيه انصراف عمـــا يحيط به من أبهة المكان وفرش وعتاد القاضي وحرسه، في مشيته ثبات وتواضع، لا يرتعش مثل صاحبه حامل الرسالة، مستكين كأنه ندٌ للقاضـــي، لا يـــشعر بهيبة لقاء الرجل، الأمر الذي يحبذه العيثاوي في العلمـــاء؛ إذا ما خدم أهدافه في ضمان سكون الناس وانسياقهم معه، ويكرهه في خصومه؛ إذا عنى إخلالاً في طاعه نواهيه وأوامره.

في ذلك المساء لم يشعر العيثاوي إن ندية الرجل تريحه، بل تعيب سلطته، وتقلل هيبته، قال على نحو ساخر:

- *مـــرحبًا، مـــرحبًا بمن أعطى نفسه الحق في مطاولة السلطان، وحكم عليه بصفات البطش، وتمنى حرمانه من دعوة المؤمنين.*

عندها أيقن يحيى إن استدعاء القاضي لم يكن للسماع أو التشاور، لكنه لم يتراجع عما انعكس في وجهه من ثبات، قال:

- *إنما مارست حقي في السؤال، واستنكار ما نحن عليه.*

دار الحـــوار بين الرجلين كراً وفراً، وتراجع القاضي عن سخريته كأنـــه يـــشاور ويناور، سأله عمن يجتمع في مجلسه من شيوخ وأعيان ومـــساطيل وذميين، فلم ينكر أحداً، تعجب القاضي من التقاء الطنيني والاســـطواني، والغـــزي، والقبردي، والكردي، والخلوتي، في مجلسه، ورأى الكركـــي فـــيهم خير فقهاء الأمة علماً وأوسعهم اجتهاداً، لا يعيبون ولا يعابون.

فـــإذا لامـــه في ما يقال في مجلسه من تكفير الشيوخ والعيب في الـــزوايا، والإشـــادة بالتصوف، رد بإعلاء شأن العمل، دون تصوف

مـــتعطل، مـــع الوصـــول إلى نشوة المتصوفة في معرفة الذات الآلهية، وتواضـــع الفكـــرة حـــتى لا يحق لامرئ تكفير سواه، ولو اختلف في المـــذهب أو الطائفة أو الرسالة، دافع عن حق كل عاقل على اختلاف مقامـــه وثرائه، وعلمه وذمته، في حضور مجلس العلم، أسوة بمن يعلوه ويـــتقدم علـــيه، دون تفرقة ولا طبقات ولا مراتب، وجادل في قدرة قاضـــي القضاة على محاسبة الانكشارية في مقتل ذمي، أو القبض على راهب أعزل.

قـــارب يحيى بعض ما قال الشيوخ من الأئمة الأربعة، أو السلف، أو الذين حصلوا على إجازات تفيد بعلمهم وتكرسهم فقهاء، وجادل فيما لا يخاطب العقل، فلم يأخذ منهجاً كاملاً مسلما بجل أمره، محيلاً كـــل شأن إلى عقله ليختار ويفاضل، مستخدماً حقه في الاجتهاد، فإذا مـــا ناقـــشه القاضـــي بمسألة الفتنة التي تنجم عن مشارعة أهل العلم، ومقارعة أهل السلطان، فإنه لا يلين.

لم يكـــن العيثاوي صبوراً مثل تلك الليلة، وإن ظن إن عليه حشد ما يحفظ من معارف لمواجهة الرجل العنيد في دقة حفظه، وسعة خياله، واقـــتداره على المنطق وإعمال الفكر، والذي يحلو له تفنيد كل رأي، قال القاضي مقطباً جفنيه كما لو كانت الرؤية عسيرة أمام ناظريه:

- ألم تسمع حديث ابن عمر رضي الله عنهما: إن الرسول صلى الله علـــيه وسلم قال: على المسلم السمع والطاعة فيما أحب وما كره، إلا أن يؤمر بمعصية؟.

قال يحيى:

- إنما نجاهد النفس لتصل إلى الحق، وليس الحق ما تعلق بتلك النفس الفانـــية فحـــسب، ولكـــني نريد العالم فاضلاً، هو انعكاس وجه الحق في مرآته، فكيف لنا إذاً أن نشوهه أو نسكت على من يعيث فيه إفساداً؟

قال العيثاوي:

- ليست هذه مهمتنا، نحن نتحدث تحديداً في عدم جواز التطاول على السلطان، إن نفسه منــــزهة معصومة.

عندها، نظر يحيى في عينيّ العيثاوي نظرة تشكيك طويلة، صامتاً، فانقطع الهواء في صدر القاضي، وأشاح بناظريه عن مواجهة الكركي، وتــــنفس نافد الصبر كمن أصابه الملل، قال ملوحاً كفه اليمنى مقبوضة إلا من الإبهام:

- اسمع يا هذا، كأنك تلومني وتشكك في ما إذا كنت أصدق ما أقـــوله لك، الرجل منا عقل يعي ما يدور حوله، فلا تغلو علينا بمنطق، كأنـــك تعرف ما لا نعرفه، وترى ما لا نراه، اختصاراً لكل أمر أقول: والله إنـــه ليس في صالح الأمة مقارعة ولاة الأمور باسم الحق والعدل، ذلـــك إن الحـــق والعدل والخير قيم نسبية، وصالح الإنسان فوق كل إعتـــبار، وصـــالحه؛ سلامة روحه، وقوت يومه، وأمن معاشه، تذكر حـــديث سلمة الجعقي قال: إن رسول الله قال: يا نبـــي الله أرأيت إن قامـــت علينا أمراء يسألوننا حقهم، ويمنعونا حقنا، فما تأمرنا؟ فأعرض عـــنه، ثم سأله فأعرض عنه، وفي الثالثة، جذبه الأشعت بن قيس وقال: اسمعوا وأطيعوا، فإنما عليهم ما حملوا، وعليكم ما حملتم، من خرج من الطاعة، أو فارق الجماعة، مات ميتة الجاهلية.

أرخـــى القاضي يمناه في حجره، وصمت، تمتم يحيى بالعبارة التي يثبت فيها جنانه كلما أصابه فرق:

- يا مقلب القلوب ثبت قلبـــي على دينك.

ثم ابتسم بدماثة سائلاً:

- أما كانوا يعرفون ذلك؟ أقصد الخلفاء، أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، الذين فاقونا علماً، وصاحبوا أعلم البشر قاطبة، كيف

إذا تفسر ما قاله أبو بكر في مطلع خلافته: إن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسددوني، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لي عليكم، أو قول عمر: أيها الناس، من رأى منكم في اعوجاجاً فليقومني؟.

اخترق نور الفجر كوة نافذة المحكمة الشرقية، فتراجع نور المصباحين الزيتيين المعلقين أعلى العمودين المحيطين بمجلس القاضي، وزهق صبر الرجل، فمط ظهره وثنى جذعه يمنه ويسرة مطرقعاً فقراته، ثم وقف ساحباً عباءته عن كرسيه، ملتفاً بها، معدلاً عمامته، وتقدم خطوات من يحيى الذي لم يتعبه الوقوف الطويل، همس كما لو كان يفضي بسر خطير:

- اسمع يا رجل، تعرف، وأعرف، إننا سنظل نجادل دون جدوى، ولو مرت بنا أيام أو سنين، فلا أنا راجع عما أعتقد، ولا أنت تنوي على حل وسط نلتقي عنده، لهذا اسمعني وأنا أخاطب منك العقل، لا يفوتك إن الشافعية يملكون زمام أمورهم في دمشق، وإننا ما وصلنا إلى هذا الحال بيسر، فسلطاننا العثماني حنفي، ولكنه فتى صغير يريد لنفسه الاستقرار واطالة زمان حكمه وأمان صولجانه، لا يحتاج إلى مقارعة البلاد الواقعة تحت حكمه، وليس من العدل له، أو لنا، كمسلمين نتبع المذهب السني فتح معسكر نقتتل فيه، فيراق دم كثير، بينما هو يحارب الصفويين الشيعة في فارس، والنصارى في النمسا، ولو ذهبنا إلى شد وجذب وتعنت، تقطعت البلاد، وما أفلحنا في نيل ما نسعى إليه، وخسرنا سلطاننا على الأرض والعباد، ترى بعينيك، كان أبي رحمة الله عليه القاضي يونس يصدر فتواه بشأن ضريبة الوكر أو اليسق مثلاً، وهما شأن كبير، فلا يُناقش بفتواه ولا يُراجع، وتسير فتواه على العباد كحد السيف، اليوم اختلف الأمر، تراهم يعارضون، ولو

كـــان مـــا نقـــوله يخص الدخان أو القهوة، وهو شأن حقير، ليس في صالحنا ونحن في موقع الضعيف، تنبه المتربصين بنا في مركز السلطان في القسطنطينية المسماة استانبول، خاصة إننا نحظى بحكم مركزي، للقضاة والفقهـــاء الشافعية فيه اليد الطولى، لماذا إذاً نجر على أنفسنا الوبال؟ ألا تعرف ما حل بفقهاء مصر؟ سنُمنع حقنا في الهيمنة إذا ما تركنا الحبال علـــى الغارب لكل مجتهد أو مخالف، لهذا دعك من البلاد الفاضلة التي تحلـــم بهـــا، وأغمد سيف منطقك المنقوص وانساه، وفكر على حجم واقعك، ولا تسمح لعقلك أن يشطح بك حد الوقوف في غير موقعك، فلست المهدي المنتظر، ولا حلال العُقد، وأعلم إنه لا يضير الناس بطش قليل، أو فقر قليل، أو دعوة خير على المنابر لإمام جائر، ولكن يضيرهم ضياع سلطة فقهائهم عليهم، وبطش أكبر قد ينـــزل بهم فيسحقهم.

- هذه مصالحكم إذا لا مصالح الناس.

جـــاء رد يحيى القصير على مطولة القاضي ثقيلاً قاسياً، أصاب العيـــثاوي في الصميم، فندم على ما أفاض به من تفسير للكركي، وتنبه إنه أخطأ في المجادلة، وما كان يحتاجها أساساً، فقد فترت همته، ولم يـــصل إلى منطق أو وفاق، بل اتهام وقح اللهجة مقيت، ثم إنه تذكـــر موقع الرجل منه وهو قاضي القضاة، بينما الرجل غريب لا قبـــيل له تنصره، فلام نفسه على استقباله ومناقشته الطويلة وصبره عليه، وقدر إن الرجل محرض الناس على فتنة لا محالة، وتذكر ما نقل إليه عن الرجل، وما أثير حوله من خزعبلات تتعلق بتصوف يجترح الاختلاف.

ثم، في لحظـــة، والقاضي يشاهد أول شعاع صباحي يدخل القاعة الواسعة بوهن، وقع على إلهام؛ وصل إلى قراره الأفضل الذي يزيح من طريقه رجلاً عنيداً مشاكساً، قال ساخراً:

- والله، إني أظن كل الذين يعتقدون باستمداد جبروتهم ومنطقهم من أنوار تنير دروبهم إذا ما جلسوا في خلوة، وادعوا معرفة الحق وحدهم، فوصلوا الجنان بمنامهم، وزارتهم الرسل والأنبياء، وتقافزوا بين البلاد إثر تعاطي حشيشة خسيسة، ثم راحوا يتطاولون على الفقهاء والعلماء، والسلاطين، ظناً إنهم في حمى التصوف وأنوار الله لا يأتيهم شر أبداً، هؤلاء هم المجانين، وأنت، وإن أبديت نهجاً تدارى بالمنطق، وتقنع بحفظ الكتاب والحديث، وتلاعبت بالكلمات في براعة، فما أنت إلا أحدهم، بل أميرهم، مجنونهم الأكبر.

قبل بدء أعمال اليوم التالي في المحكمة النورية، وقبل انصراف قاضي القضاة إلى بيته في ذلك الصباح مرهقاً، أناب الشيخ القاضي الحسن البوريني ليجلس إلى مصالح الناس بديلاً عنه وقد أضناه الجهد والسهر والمجادلة، ووقع كتاباً موجهاً إلى الطبيب منصور بن رسلان حكيم المجانين، ساعور[1] البيمارستان[2] القميري، والقائم على شؤونه، لتحويل المعتوه يحيى الكركي للعلاج والإقامة في مشفاه، وفحصه وعلاجه من مس أصابه، فخلط ذهنه، وضيع صوابه، على أن يحبس فلا يغادر مكانه أبداً.

دفع الحرس يحيى مصفداً، والكتاب مدموغاً بختم قاضي القضاة، قاطعين الطريق إلى البيمارستان القميري أمام سمع ونظر رفاقه المنتظرين ليلهم مع الحارس على باب المدرسة النورية في الشارع المقابل.

---

(1) كبير الأطباء.

(2) المشفى.

الفصل السادس

الزلزلة

1018 هجرية

1610 ميلادية

نشط إيقاع النهار في الصالحية، وأزيلت أثار الليلة المنصرمة لسوق جوال انتهى توقيت إقامته؛ مخلّفاً ساحة متسخة بالبقايا والخضار العفنة؛ والفاكهة التي هرستها الأقدام، إضافة إلى قطع صناديق مكّسرة، وحبال مقطّعة وخيش ممزّق.

حين خرج الركب من المحكمة ماراً بالميدان الواسع، أعمل الزبالون مكانسهم في الأرض تحت نظر شرطة الجندرمة المنزعجين الذين يستعجلونهم، وقد أحاط بيحيى الكركي أربعة رجال أجلاف بشوارب مبرومة، عنفوا زيداً وجعفر وهما يلحقان بهم يتبينان وجهة صاحبهما، فوقف أحد الحرس يمنع تقدم الشقيقين؛ ساحباً سيفه من غمده ملوحاً به.

اندفع الشقيقان بنزق، وسأل زيد:

- *أين تأخذونه؟*

استدار رافع السيف زاجراً متوعداً:

- *إلى حيث ينتمي، مشفى المجانين؛ البيمارستان القميري، وإن تبعنا أي منكما، شققنا جسده نصفين بسيوفنا، قد أعذر من أنذر.*

نكص الرجلان أدراجهما مفزوعين يصعدان التل، وقد عزما على نقل الخبر إلى الوجيه أبو سندس، فهو وحده قادر على حل المشكلة، فيما قطع ركب الجندرمة ساحات الصالحية وحبيسهم مغلول الذراعين بالأصفاد الحديدية، حاذوا ضريح ابن عربي جنب التكية السليمانية، ثم توقفوا هنيهة أمام بوابة مبنى البيمارستان القميري الموصدة.

على تعبه ونعاسه؛ وشعوره بالاستهانة بما حل به، تمكن يحيى من قراءة حروف الخط النسخي المتقن الجميل على اللوحة الحجرية في أعلى المدخل الرئيسي للمبنى: "نحن، الأمير الكردي، سيف الدين علي بن يوسف القميري، أقمنا بإذن الله هذا البناء وقفاً لمسلمي دمشق، وبيمرستاناً للعلاج، في زمن الملك الصالح نجم الدين أيوب، ووقفنا مزارعنا والبساتين المحيطة والقرية القريبة لخدمة هذا المكان، وفاءً لذكرى زوجتنا الشريفة ابنة الأمير عز الدين بن المحلي، وبما ورثنا من صداقها ومصاغها، نشيد هذا الوقف وندعو لها بالرحمة".

شرعت البوابة للواصلين، دلف يحيى مدفوعاً إلى حوش البيمارستان، أوجعته قبضة الشرطي التي وقعت في منتصف ظهره، أغمض عينيه وفؤاده يهتف:

- *يا مثبت القلوب.*

سار ثابتاً على حجر ممر مزروع جانباه بالريحان يفوح بعطر شذي، رقت نفسه فأغمض عينيه مجدداً، وترنم في خاطره خاشعاً:

- *يا من لا يجاوزه الرجاء، إلهي سدد خطوتي؛ وأرفع روعي وروعتي، آمن يا رؤوف مخافتي.*

لم يكن دخول الجندرمة ساحة المشفى أمراً معتاداً؛ فغر المرضى الجالسون عند أحواض الريحان وتحت أشجار اللوز المزهرة أفواههم دهشة لسماع أصوات المشي الثقيل، وصليل الحديد في أحزمة الجندرمة وأغماد سيوفهم والخناجر، وإن ظل عازف القانون الجالس على عريش معتلٍ غافلاً عن مقاطعة عزفه، منصرفاً إلى صندوقه الموسيقى المرفوع على ركبتيه، محركاً في يسراه سبابته المنتهية بالكستبان والريشة مداعباً الوتر.

توقف الركب متبادلاً نظرات دهشة وفضول مع جمع المرضى، فالجندرمة الذين وقر ببالهم إنهم يقودون المذنب المعتوه إلى عقاب

يتناسب وجرمه؛ وإن لم يقعوا على طبيعة ذلك الجرم، لم يتصوروا رفاه المكـــان؛ وهم شرطة المدينة القادمون من ثكنات عفنة يساكنهم فيها فئـــران النهر، كأنما دخلوا حديقة للتسري والأنس، تنتشر فيها الأرياح الطيبة من عبق الياسمين وفوح الرياحين، وتختلط فيها نغمات الموسيقى وخرير البحرة ودفق ماء النافورة التي تتوسطها، والمشغولة بالفسيفساء الأزرق.

لولا الحجر عند البوابة، ووجوه المرضى التي حملت إشارات الفزع والريبة؛ وبلهاً زائغاً في العيون يعكس حزناً وغضباً وفرحاً وخوفاً وغياباً للإدراك، لظنوا إنهم تاهوا عن مقصدهم.

تجمد يحيى وقد عاودته ليالي القاهرة في الأزبكية، إذ لم تقع عينيه على جمع يوقع لحناً على تلك الصورة منذ فارق الجو المترف هناك، في حـــين تقدم ساعور البيمارستان منصور بن رسلان مسدلاً فوق قفطانه رداءً أبـــيض، يلحـــق به الطبيب الشاب سيف الدين السلتي[1] بردائه الكـــتاني وصندله المجدول الذي لا يناسب برد الهواء في ذلك الفصل، وقد خلع غطاء رأسه وسار حاسراً كما لو أنه في بيته.

تنحـــنح الساعور لما أمسك بكتاب القاضي، وحدسه يلهمه إن أخـــر مرض يظن بالرجل المصفد أمامه هو الجنون، لكن الأمر الصارم الصريح باستبقائه نـــزيلاً في البيمرستان، عنى الكثير لمتمرس في استقبال المرضـــى عن طريق ذويهم أو جيرانهم، أو المتعطفين على حالهم، ختم قاضـــي القضاة على كتاب يأمر بإيواء المريض إلى الأبد؛ شأن مختلف! مـــع هذا، تصرف الساعور بحرفية عالية، أصدر أوامره لحكيمه سيف الـــدين بتهيئة المريض وتقييد اسمه وتعيين مرافقين لخدمته كما درجت العادة، وبآلية تامة؛ أشار إلى التعجيل بكتابة تقرير يصف حالة المريض

(1) نسبة إلى مدينة السلط.

ويصنف مرضه ويوصي بطرق علاجه، ثم هز الساعور رأسه للجندرمة وهم ينصرفون، كما لوح لعازف القانون الذي توقف هنيهة وقد انتبه لمـــا ســـاد من لغط، انحنى الأخير إلى قانونه هازاً أوتاره مستعيداً انتباه وأسماع المرضى.

كـــأن لم يحـــدث جديـــد؛ يمـــم الساعور صوب المطابخ يتفقد الطباخين، وسار الحكيم ويحيى في اتجاه مختلف نحو الحمامات.

أزال الحمـــام الدافئ المعطر بزهر الخزامى تعب يحيى، حتى أوشك علـــى الـــنوم في الجرن الحجري الكبير، انتعش تماماً وهو يغادر برفقة الحكـــيم إلى مهجعه، تبادلا حديثاً؛ كان بالنسبة للطبيب الحكيم تقديراً أولياً يراقب مستوى الحالة، وما إذا كانت أميل إلى العنف أو السكون، وبالنسبة ليحيى؛ دردشة يقطع فيها الوقت؛ مطمئناً لسماحة وجه السلتي وألفـــته، ومـــا بـــين الحمام والمهجع ووجبة الطعام الشهية الطازجة، انفرجت أسارير الحكيم وهو يسجل في أوراقه معلومات تخص المريض، فكتب في خانة البلد، - كرك الشوبك من أعمال الأردن -، مسترجعاً أطـــياف طفولته في جبال السلت المشرفة على واد ينحدر قبل الصعود مجدداً إلى الكرك.

هـــشت أسارير المشافي الطبيب الحكيم في وجه مواطنه الغريب، رجـــح إنه بما سمع منه عن واقعة وصوله إلى المكان، بعيد كل البعد عن المرض العقلي، أو؛ هكذا تمنى.

* * *

ينقـــسم مـــبنى البيمارستان القميري إلى جناحين رئيسين، تشغل العـــيادة الخارجـــية شمال المشفى، هناك تعالج أمراض الجسد وأوبئته في أقسام متخصصة، يداوي الكحالون أمراض العيون، والطبائعية أمراض البطون والجسد، والجرائحية ما يصيب العظام من كسر ووجع ووهن،

ملحق بالقسم الرئيس عنبر للجراحة، وآخر للمنامة إذا ما طال العلاج، مفـــصول مطبخه وحماماته وحجرات أطبائه عن سائر المشفى، ولكنها تـــصل جنوب المبنى عبر ممر باذخ البناء بأعمدته ونقوشه، حيث جناح عـــلاج المـمـــرورين من مرضى النفس والعقل، ينفتح الممر على إيوان داخلـــي زود بثلاثة نوافذ تسمح لنور شمس النهار بالمروروعبرها، يغلق مساءً، فاصلاً غرف المرضى المحيطة بالإيوان عن الحديقة وأقسام المشفى المخـــتلفة، هناك، خصصت ليحيى حجيرة متواضعة بشباك داخلي يطل على الإيوان.

لم يكن عسيراً على يحيى الحافظ لقرآن الله كحروف اسمه، إرجاع الآيات في الشريط الأزرق المحيط بالإيوان، والمكتوبة بماء الذهب وخط النـــسخ إلى ســـورها في القرآن، "يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُـــمْ وَشِــفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ"، من سورة يـــونس، وعلى الحائط المقابل، "وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِـــنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا" من سورة الإسراء، ثم سورة الشعراء تمنح الجدار المزخرف واسطة آيات الشفاء، "وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ".

رغـــم سماكة جدران الحجرة، إلا أن الفتحات الداخلية في النوافذ والأبـــواب وانفتاح الإيوان على الممر الطويل؛ يردد رجع الصدى، في اللـــيل تـــتعالى آنـــات الموجوعين، وصراخات آخرين من المهلوسين والممـــرورين، فـــإذا مـــا بدأ الترتيل الشجي للمقرئ الجالس في قلب الإيـــوان، همدت الصيحات وتناقصت تباعاً، كانت الأجواء تمهد لليلة نـــوم عادية، وساد صمت بانصراف المقرئ عند منتصف الليل، لم يعد هـــناك إلا صـــدى خافت، مسح خفيف على الأرض يسببه المطمنون والمشافون بأحذيتهم القماشية السميكة وخطوهم الهادئ، ليلتها؛ تصّعْد

مــــن حجرة يحيى رجاءٌ وكلماتٌ ملتاعة، اتضحت على مهل، وغمرت الإيوان بالخشوع:

- يـــا نــــور.. نــــور النور... بنورك نورني... وهب لي مراتب الـــيقين.. ومـــزق حجب طبعي وظلمتي... بنورك أوقفني على غيب باطني.. فمعرفتي إياك عرفان رتبتي... يا نور..

رويـــداً، انسحب الصوت، وعلا من ذات الحجرة صوت مغاير عميق كأنه قادم من غياهب بعيدة، ترنم بكلمات الحلاج:

- قلوب العارفين لها عيون ترى ما لا يراه الناظرونا..

وأجنحة تطير بغير ريش إلى ملكوت رب العالمينا..

فجـــراً، لاحـــظ المشافون الوجوه مرتاحة زايلها الغم والكرب، وتـــوهجت بالرضا والدعة، وانتبهوا إلى التفاف المرضى حول النـــزيل الجديـــد، وسمعوا بعضاً من الكلام المتناثر، ورجع الضحكات، شوهد المرضى يصطفون للصلاة تحت الأشجار، بينما عازف القانون يبدأ نهاره بلحـــن طـــروب استدعى العصافير التي تنفض أجنحتها من بلل نداوة الفجر، لتقف على الأغصان المزهرة مشاركة بالتغريد والزقزقة، عمت الحديقـــة هزجة خفيفة، وانبعث في الكون فرح جديد، وارتفع صوت الآذان.

في تـــل بـــستان الورد، نشط الحراك، وفارق العاملون مساكب الـــتقطير وكـــرخانة التعبئة، فلم تتسع حجرة المصطبة لجمعهم، وقفوا يـــستطلعون أمـــام الباب المفتوح وتحت رذاذ مطر خفيف، مفسحين لكـــبارهم الدخـــول، وعلى كثرة ما سرد زيد وجعفر وصف تفاصيل المـــشهد الـــذي شهدوه بخروج يحيى مع الجندرمة من باب المحكمة إلى المشفى، فإن الجمع يطلب تفسيراً أكثر، اضطر الشقيقان للتكرار كلما وصـــل إلى البـــستان أحد الجلساء الذين طارت إليهم الأنباء في بيوتهم

وحوانيـــتهم، شـــرحا لأبـــــي سندس، ثم الوليد الأندلسي، ثم الخباز والاســـطواني والمــــلا الكــــردي الضرير، والقبردي، ونساجي الحرير والعطـــارين وبعـــض الـــوراقين، وكثرة من الحرافيش والزط والسابلة والـــدراويش، وصـــبية الكنيسة، في منتصف النهار تنبه أبو سندس إلى توقف العمل تماماً في البستان، فأعاد ترتيب الأوضاع؛ طالباً من صبيانه العـــودة إلى مهـــامهم، صارفاً بصبر كبير المتجمعين على وعود بنهاية ملائمـــة لما وقع، مغلقاً باب الحجرة على صفوة من الجلساء يتدارسون الوضع وما يمكنهم عمله.

أحـــبطت مساعي طلبة الأموي الذين طمحوا للقاء قاضي القضاة الشهاب أحمد العيثاوي، وأسفر دأب الخباز والاسطواني ونقيب الشام عن لقاء الأستاذ الشمس الميداني في صحن الأموي، تذكر الرجل رسالة الكركـــي القديمة التي وصلته قبل أعوام تستنجد به، فسكت عنها وما أفصح بشأنها للسائلين، مرجحاً إن في الرجل لوثة ستورثه المشاكل التي يتفاداها، غمغم وتمتم وما وعد بحل، بينما رد الشيخ تاج الدين التاجي زميلـــيه القبرديني والغزي، معتذراً عن التدخل، مشيراً إلى ضرورة عدم الخلـــط عـــندما يـــتعلق الأمر بإجراء قام به قاضي القضاة؛ وإلا تبلبل التـــشريع وضـــاعت مرجعياته، وفسدت على الشيوخ صلاحياتهم في الفتوى وإصدار الأحكام.

ســـعى أبـــو ســـندس والوليد لترتيب زيارة خاصة إلى المشفى يـــستطلعان فيها حال الكركي، ويتأكدان من إكرامه وتقديره وحسن التعامل معه، ماطلهما القائمون على المشفى في وعود متكررة، رغم ما لقيه اسم الوليد الأندلسي صاحب الصيت في مجال الطب والحكمة من تقديـــر وإجـــلال، لكن موعد تلك الزيارة المأمولة ظل يتغير ويتباعد باستمرار، دون تفسير.

مـــع تقـــدم الشتاء، ساد البستان حزن وانتظار مبهم، وتوقعات متـــضاربة، وتنامى غضب دفين لقلة الحيلة وتراجع الأمل في إيجاد منفذ أو حـــل، في حين غيرت الفترة اللاحقة يوميات المشفى بصورة يمكن تبيـــنها لكل العاملين والمعالجين المشافيّن والمرضى؛ فالإقبال على الدواء يتم ببساطة ودون نوبات غضب تصيب الممرورين والممسوسين، كما إن المـــنطوين علـــى أنفسهم تشجعوا، ساروا على حذر في البداية، ثم اطمئـــنوا، وانـــضموا إلى الجمع، نطق الصامتون منهم مدلين بدلوهم، وعمر الإيوان جو من الحميمية ليلاً، فخرج المرضى من حجرهم وهم أقـــل استجابة لأدوية الترقيد، جلسوا مع الجمع الذي انضم إليه السلتي وعدد من الشيوخ المطمنين الذين يحفظون الأدعية، وإذا ما نمى إلى علم الـــساعور مـــا يحدث في المشفى، وتأمل الوقائع كما وصفها الناقلون ومعاونه ضاحكاً:

- *والله صـــار القميري جنة تفوق بجمالها جحيم الدنيا خارجها، أتمنى لو كنت نـــزيلاً فيه.*

لم يـــشعر الـــساعور بالاطمئنان، فمثل ذاك السلام لا منطق فيه لمـــشفى يعـــالج المصابين بعلل الجسم والنفس والعقل، مما أحوجه إلى تقـــصي مـــا يحدث، أغلق بابه على السلتي مستفسراً؛ مذكراً بالتقرير المعـــتاد الذي طال انتظاره حول حالة الكركي، مرتاباً في أمر تساهل الحكـــيم، موحياً له باقتراحات تفسر حالة المريض، وهو يشرح أنواع الوساوس التي تصيب المتعبدين، الذين يكثرون من العبادات، فتصرفهم عن شؤون الدنيا في وسواس هو أحد طرائق الشيطان للتسلط على عقل الإنسان، إلا إن الطبيب الشاب ناقش بندية أزعجت الساعور؛ وإن لم يبح بانـــزعاجه، دافع الطبيب عن مريضه مستبعداً معاناته من وسواس شـــيطاني، فلـــم يره من المغالين في العبادة حد الوسواس، ووجده يهتم

بـــشؤون الدنـــيا كما شؤون الآخرة، ودلل على ذلك بالإفصاح عن اعتقاده بأن أفكاره حول الدنيا لم تعجب القاضي، وتسببت له بالإيداع في المشفى، ولو كان حقاً رجلاً متوسوساً منصرفاً إلى عبادة يغالي بها، تفـــني جسده وتغيب عقله، ما كان للقاضي أن يسمع به، ولا لحججه وقوانينه أن تطاله.

* * *

يعالج الساعور قضايا المشفى بحصافة شديدة، ويعلم علم اليقين إن مصلحة البيمرستان الذي يشرف على كل صغيرة وكبيرة فيه؛ تقتضي تهمـــيش كل ما من شأنه إثارة الخلافات، والإبقاء على عناصر التهدئة والـــسلام، خاصـــة إن جرايات المشفى وجامكيات العاملين فيه، تأتي مباشـــرة من وقف خصصه السلطان لهم، مما يعني ضرورة إبعاد المشفى عن كل فوضى أو تقصير، كان يمكن للسلام الذي أشاعه الكركي بين أوساط المرضى على اختلاف عللهم أن يصب في صالح المشفى، ولكن مسألة القاضي وموقعه من الأمر، شأن وجب معالجته على وجهين، في وجهـــه الأول؛ لابـــد مـــن إقصاء سلطة القاضي وبطانته عن شؤون المـــشفي، إقصاء لطيفاً حكيماً، وقد يتطلب هذا إجراءً يرضيه ويكف أذاه، ربما مجرد تقرير بسيط حول حالة مجنونه هذا تكفي العيثاوي.

علـــى الـــوجه الثاني؛ لا بد من علاج زهو حكيمه الذي ينفرد بالـــرأي دون الرجوع له، متناسياً إنه الأعلى رتبة، والأكثر خبرة، عدا عـــن مجادلته وغمزه وتلميحه إلى غياب مصداقية القاضي، وتسفيه ما يقـــوله رئيس مشفاه جهاراً، فإذا ما كان الحكيم المشافي يعتقد بكفاءته التي لا تمارى، فإن المريض النـــزيل حالة يمكن من خلالها إثبات السلطة لمن تكون، وقد يستلزم الأمر إعطاءه دواءً يخفف من نشاطه الدائب بين المرضى والعاملين في المشفى، ويشكك طبيبه في تشخيصه السابق.

كــتب الــساعور تقريــر المريض بنفسه، شارحاً للقاضي؛ "إن النــزيل المدعو يحيى الكركي والذي وصلهم بناءً على تحويل ذكي من قــبل المحكمة يعاني من - مانيا- الجنون السبعي-، وهو مرض يصيب مقدمة الدماغ، وإذا لم يعالج فإنه يورث - المناخوليا-، يحسب صاحبه نفــسه مــن العُبّاد، وهو بعيد عن منازلهم، قاصر عن إدراكهم، مضيع نهاره فيما لا يجدي من كلام، يلوم نفسه عن التسويف في شأن حياته، لكــنه عاجــز عن استنهاضها للعمل، مصاب بفتور وغفلة لا حيلة له بهمــا، وهــذه كلها من أعراض - مانيا-، وعليه؛ فإن أطباء المشفى عاكفون على تركيب دواء يساعده على تجاوز اضطرابه وعبثه، وتغيير نظره الذي لا يشبه نظر الناس".

في خــتام كــتابه، وضع الساعور نفسه وعلمه وخبرته في خدمة القــضاء، منــصاعاً لمــا يراه القاضي في خير الناس وصالحهم، داعياً للسلطان العثماني في ولاء تام لا شروط فيه.

احــتفظ الــساعور لنفــسه بسرية التقرير، وما أعلم به أي من الحكمــاء أو المطمنين الذين خفت مهامهم بعد أن أشاع الكركي تلك الــروح الايجابية بين المرضى، لكن استدعاء شيخ شرباخانا[1] المشفى، أمر لم يكن من السهل إخفاؤه، فالصيدلي الجالس بين مساحيقه ومراهمه ومعاجينه وقوارير الدواء ولفافات التجبير، لا يغادر عادة مكانه لعلاج، ويمــر طلــب الدواء من شرباخانته عبر الحكيم المشافي، لكن الساعور بنفسه طلبه هذه المرة، وأمره بإعداد خلطة الأفيون والبنج والخشخاش، والحرص على دسها في طعام الكركي.

غضب السلتي معتبراً هذا الإجراء تدخلاً في صلاحياته، وتعارضاً واضحاً مع ما يتطلبه العلاج، فإذا كان الأمر مجرد إجراء علاجي يتوافق

(1) صيدلية.

مـــع الحالة التي تشبه حالة كل إنسان عادي، فإن بعضاً من المفرحات كالعطـــور وجوقات الموسيقى وشم الرياحين، والجلوس إلى الصحب، وسماع القرآن سيكون كافياً.

أصـــر الساعور على إجرائه، وتمسك به؛ يمتحن استجابة عامليه لأوامـــره، خاصة الطبيب، فقد تيقن إن تمرد حكيمه سيذهب بهيبته في إدارة المشفى، ويشكك بقدراته التشخيصية والعلاجية، والإدارية، فإذا مـــا ارتفعـــت حـــدة مجادلة الأمر؛ انقسم العاملون إلى فريقين، وقال الساعور غاضباً متحدياً:

- *قاضينا على حق، أينما حل هذا الرجل ستكون فتنة، وليس من مكان يمكن فيه السيطرة على توثبه مثل المشفى، وعلى يدي أنا تحديداً.*

اســـتجاب الطباخ لأوامر إدارة المشفى، كذلك شيخ الصيدلية، وتذوق يحيى الطعام بإحساس مختلف، استطعم مرارة الخشاش، وحلاوة الأفيون في لسانه، واجتاح الخدر جسده، فارتخى في الفراش دامعاً.

انتظـــر الجمع في الإيوان إطلالة صاحبهم المعتادة، فإذا ما تأخر، شق المطمن باب حجرته مستطلعاً، وأدرك إنه أمام جسد انهدمت طاقته بفعـــل عقـــار، عاد هامساً للحكيم الذي قام غاضباً، فأوقع كرسيه، واشتد تحديق المرضى.

تـــيقن الساعور من أن الطبيب سيراجعه في حاله مريضه، لم يكن في نيـــته إطالة أمد العلاج الذي أوصى به، واعتبره مجرد شوكة صغيرة حـــادة ينغز بها كف طبيبه، أو قرصة تلوي أذنه، فيؤدبه ويوجهه ويعيد الـــسيطرة علـــيه وإلجامه، ثم ترك مريضه له؛ لهذا طيب خاطر السلتي وتـــساهل أمـــام غـــضبه، ورفع أوامره عن استكمال ما أوصى به من عـــلاج، لكنه كان بحاجة ماسة إلى تقعيد الطبيب الحكيم الشاب أمامه تلمـــيذا يـــتعلم، وإسماعه كلاماً حول انتظام العمل بالنظام والترتيب،

والتوثيق والرجوع إلى المرجعيات الأكثر خبرة، هدأ السلتي واستكان لوعد الساعور بوقف العلاج، واستمع راضياً لكل تفصيل سواء تعلق في سير أعمال المشفى، أو ناقش حالات بعينها، لم ينكر الحكيم إنه وقد رجح وقوع يحيى بشطح خاص؛ شعر بمتعة كبيرة في مناقشة كبير الأطباء الساعور حول الشطح؛ وإذا ما صح تصنيفه من ضروب الجنون، أم هو طريق للاقتراب من الحقيقة؟

أفسح في سؤاله للساعور منصور بن ارسلان الذي نفخ صدره شارحاً بأستاذية يستعيد فيها موقعه:

- إن الحس يورث الشطح ويقصي الفكر، وإن ثقل الفكر يذهب بالحس، والإنسان المتزن الطبيعي يأخذ بمقدار من هذا وذاك، ولا يجنح لطبيعة دون أخرى، مما يمكنه من عيش حياته وفق الطبيعة البشرية، فلا يحسب على جانب دون أخر، ولا يسلم جسده وروحه وعقله لثقل أحد الجانبين، أما إذا حاد عن الصواب، واختار الذهاب بعيداً في هذا أو ذاك؛ فسمى ذاته عقلاً، أو شطح بروحه، وادعى كشفاً؛ فاصلاً الرأس عن الروح؛ فإنه من المجانين لا محالة.

تدبر الطبيب أمر الكركي، فما حسبه في أي من المراتب التي ذكرها الساعور في ثقة عالية، وقطع لا يداخله شك؛ فلا هو منكر عقله، ولا مُقصٍ حسه وإحساسه، ولا عاكف على موازنة دقيقة يصير معها مثلما كل الناس، لكنه رجح عند طبيبه؛ كقلب مُسلمٍ كامل إحساسه للشطح، كما هو مفُتح دروب عقله جميعها للفكر، فما ذهب هذا بذاك، ولا أضعف جانب الآخر.

ابتسم الساعور لاجتراحات وملاحظات طبيبه المتحمس، وأنهى جلستهما، دون اخباره بأمر مكاتبات صاحب الفابريكة والطبيب الأندلسي التي ما انقطعت ليفوزا بزيارة الكركي، وإذ مضي السلتي

لطمأنة صحبه إلى إيقاف العلاج المهدئ المثبط، فإن الساعور نفض يده مـــن المـــسألة، واثقاً إنه أوصد باب الريح بحنكة وبراعة يحسد عليها، شاعراً بإعجاب غامر بنفسه الذكية وخبرته الحكيمة.

* * *

بكـــى أصـــحاب القلوب الواهنة تأثراً عندما تمكن يحيى من رفع جفنـــيه علـــى ناظرين صافيين، وبما لديهم من فهم بسيط، علموا أن الرجل استفاق؛ سقاه الطبيب محلول الليمون بالعسل والزنجبيل، وأحاط فراشـــه بالرياحين العابقة بالشذى، وسهر عازف الربابة عند بابه ليلتين متتاليـــتين، يوقع على الوتر إيقاعاً رقيقاً بترجيع وتنغيم حنون، دون أن ينقطع قارئ القرآن عن ترتيله.

طمأنـــت ومـــضة عينـــيه جزعهم، وسمعوا فرحين شجي صوته هازجاً:

- عـــسى نفحـــات اســـم الرحيم وروحه.. تهب على ضري.. فتورث رحمتي.. عسى نفحات اسم الرحيم.. حنانها قريب.. على قدر البلا والبلية.

عـــاد يحـــيى إلى الإيوان محاطاً برعاية الجميع، وإن لم يتمكنوا من قضاء فترات النهار في الحديقة لتقطع المطر، فإنهم يتحركون على صورة مدهـــشة، كمـــا لو كانوا تروساً في عجلة ذات إيقاع منتظم، فعازف القانـــون، وجـــار الربابة، وضارب الدف، يجلسون في مقدمة الإيوان، والمرضـــى يحـــيطون بهم، يتناغم العازفون في أداء واحد متسق، ويردد المرضى الكلمات التي حفظوها لطول ترديد الكركي لها:

- عـــسى نفحـــات اســـم الرحيم وروحه... تهب على ضري، فتورث رحمتي.. عسى نفحات اسم الرحيم.. حنانها قريب.. على قدر الـــبلا والبلية، عسى نفحات اسم الرحيم.. وشيكة... تعالج بالتفريج

همي وظلمتي.. عسى نفحات اسم الرحيم.. تمدني بضم وغفران ولطف وعـــصمة.. عسى نفحات اسم الرحيم... تواردت بعارفة الحسنى على حل عقدتي.. عسى نفحات اسم الرحيم تعيليني.. فوالله ما ضاقت بأية فطـــرة... عـــسى نفحـــات اسم الرحيم تعينني.. فوالله ما ضنت بأية قطرة... يا رحيم.. يا رحيم.

تـــردد الـــصدى يستجدي الرحمة، مُوزعاً ترجيع الغناء بين الإيوان والممـــر، مُنفلتاً في الحديقة، واصلاً حجر التمريض والمنامة، وتوافد مرضى من أقسام أمراض الجسد يطلعون على ما توهموه في البداية حضرة صوفية، فـــإذا بهـــم أمـــام جمع يتمايلون بمقدار طفيف، ولا يتطوحون في المكان، وعـــازفين مجيدين كما لو أنهم في تخت موسيقى محترف يعزف في حضرة السلطان، لم تنحصر رغبات الجمع في الطقس الإنشادي الذي أحب كل المرضى المشاركة فيه، بل انفتحت على الاستفسار والجدل، ويحيى يتواضع في الاحتكام إلى معرفته، حتى أمام أسئلة من ضيع رشاده، وفقد عقله؛ فما ظن، ولو لوهلة إن العقول تلغي ما للقلوب من طاقات وكشف، وما كان معنـــياً بعلـــة مـــا وقع له، وإن سألوه، ظن إنه في اختبار لقدرات العقل والرشـــاد، لا أكثـــر، دائم الترديد أن القلب موقع الفكر والهوى، والعقل يسير الجسد، ولكن العمى عن الحق، يصيب القلوب التي في الصدور، وإنه اجتاز خطوات مجهولة في مسافة ظلماء عمياء من زمانه.

وحـــده لم يكن ينظر للمحيطين به على أنهم مجانين، وبدورهم؛ تمكنوا من كشف سريرته، وشاهدوا في عينيه كرامتهم، وهو يعلو فوق تجربته وآلامه، فمالوا إليه، واصطفوه، فإذا لم يجلس إليهم محاوراً، تبعوه مـــثل أفـــراخ زغب لم ينبت ريشها، حتى إذا دخل بيت الراحة وأغلق بابه، ضحكوا مستأنسين، وانتظروا خروجه صابرين.

* * *

طـــال انـــتظار خولة لعودة والدها، وساءها نظرات الأم المريضة والخـــال؛ تشكك بيقينها حين تعد الجميع بفك أسر يحيى على يد والدها، فهـــو قـــريب من قاضي القضاة؛ ألم يقف معه في سوق جمجق لساعة منفردين يتهامسان في شؤون الدين والدنيا عند وقوع فتنة الانكشارية!

إيمـــان خولة وآمالها لم تجد صدى عند الآخرين، واستقبل زوجها نبأ حملها بفتور حزين وكآبة، تمنى لو كان الكركي من يكبر باسم الله في آذان ولـــيده إذا مـــا جـــاء إلى الدنيا، وبدت عودة الدرويش قريباً احتمالاً بعيداً، خاصة إن سفره إلى السويداء هذه المرة أحيط بالغموض، لم يكـــن توقـــيت ارتحاله معتاداً، فقد غادرهم كمن يفر ممن يلاحقه، وســـط أحـــوال الهواء والمطر المضطربة التي لا تناسب المبيت في قلعة مهجورة، أو تحت الأشجار في العراء، وكان من الأولى لو أقام وأسرته في بيته في الميدان حتى ينصرم الشتاء.

لجأ علان ونفر من المريدين الصغار إلى الكهوف في جبل العرب، لم يتمكـــنوا من عقد حلقات الذكر المعهودة، كما قلت مؤونتهم مع وعورة الدروب إليهم، تقلبت السماء، وترك عنف الريح والمطر الأرض طيناً، والأفق ملبداً بغيم أسود يتحرك متثاقلاً بين الجبال، مما جعل رؤية القافلة الصغيرة التي تصعد الجبل أمراً مستهجناً، بدا من الجنون أن يقطع أحدهم الطريق المخيف متوجهاً إلى الكهوف في الأعالي، وقد تراكمت حجارة سحبتها السيول المتتابعة فسدت الدروب السالكة، كلما تقدم المجهولـــون وســـط غبش الضباب، كشف المشهد عن بغل وحمارين، وأجـــساد بـــشرية ثلاثة تركب البهائم مترنحة تحت دفع الهواء، فإذا ما وصـــلوا، تدافع الدراويش وفي أعينهم دهشة واستفسار، كان راكب الـــبغل واحـــداً من أبناء السويدا تطوع للمهمة العسيرة، فاصطحب الحمارين إلى كهوف الدراويش، أما الراكبان الغريبان، فلا شك أنهما

مغامران أحمقان، رجل أشعث ضعيف الحال، قليل الثياب، يرتجف، لا يحمـــل قنوة ولا سوطاً ولا سيفاً ولا خنجراً، يخاطر في طقس مكفهر، وبلقـــع منعـــزل لا يخلو من قطاع الطرق واللصوص، مصطحباً وراءه صـــبية حسناء شحب وجهها وارتعش جسدها من صقيع الهواء، تعصر بلـــل قفطانهـــا دون جـــدوى، في حوزتهما جراب لم يتبق فيه سوى كـــسرات من خبز تفتت، وحبات من قطين التين الممعس، أثار منظر الفتاة الدهشة، وانعقدت ألسنة المتصوفة عندما سألت بصوت واهن عن الـــشيخ عـــلان، كأنها كانت تعرف بوجوده في تلك النواحي، سارع الدلـــيل موضحاً إنه مد المسافرين بمعلوماتهما عن علان وصحبه، كما أخبرهما إنه قادر على مساعدتهما فيما يقصدان.

خـــرج علان من الكهف، وترجلت الصبية عن حمارها المتعب، أسندت ظهرها في خاصرة البهيم موشكة على الوقوع.

تـــوهج الجمـــر في قلب الكهف، والتفت الصبية ترتجف في فروة جافة منحها إياها الدراويش، شربت نقيع الزهورات الساخن، رشفت حساء العدس وقد نقع فيه رغيف من شعير بلهفة جائعة، وهتف الرجل الذي يرافقها:

- أدعى مقبل، من صحراء التيه، ولكني جئت من الكرك، أصلاً جئت من التيه، الفتاة جاءت من المحروسة، جئنا معاً من الكرك.

اســـتوقفه عـــلان طالباً إيضاحاً لا تختلط فيه الأماكن والأزمنة، فـــضحك مقـــبل منتبهاً إلى الارتباك الذي أحدثته كلماته، اعتذر عن خلطـــه، محملاً شاق الرحلة خطيئة فرار العقل منه، مظهراً امتنانه لتلك الجلسة الدافئة، ثم محاولاً الإيجاز والإيضاح، قال:

- اسمـــي مقبل، وهذه جمان، جئنا من الكرك لملاقاة صاحبنا يحيى الكركي، وقيل لنا، إنكم تعرفون مكانه في الشام.

وقـــع علان على سبب مباشر يبرر عودته بصحبه إلى الشام، ففي الفتـــرة الـــتي عانوا فيها من سوء الأجواء ونقص الغذاء، سهر متفكراً بالأسباب الخفية التي تمنعه من الالتحاق بأهله، وخيل له إن هناك مرارة تعتـــريه إذا ما تذكر رفقة أهله وصهره، وأدرك في أعماقه إن الامتناع عن حلقات الذكر وإن بدت بسبب المطر، إلا إنها ترتبط بالعكر الذي أصاب نفسه، والكرب الذي يعصف بقلبه، حتى أن مناجاته في الليل لم تعد تجدي نفعاً، كما أزعجه الشعور بأنه عرض صحبه للمشقة بسبب مـــرارة تعتريه، وفاقم أوجاعاً يحسها في برد الكهف هروباً من مواجهة مـــشاعره، ولكـــن الـــصبية ذات الملامح المليحة، والشعر الكستنائي الغريب، وصاحبها الأسود النحيل، يعيدانه عنوة إلى ذكرى من يحسد، فالفـــتاة لحقـــت به من قاهرة المعز، مجتازةً التيه، ثم مقيمة بين أهله في الكرك زمناً، لا تصبر لانقضاء الشتاء، جاءت دون حرس ولا حماية ولا زاد كـــاف، قاطعة سهل حوران الطيني، ثم مرتفع جبل العرب، جاءته هـــو تحديـــداً دون البشر؛ ترجوه أن يقودها إلى درب وليفها، فزادت حنقه، لا بد أنها سر الكركي الدفين الذي منعه عن التجاوب مع أماني الـــشيخ وتلمـــيحاته حول المصاهرة، ورغم انكشاف ذلك الجانب من حياة الكركي، وانبعاث الغضب مجدداً في قلب علان، إلا إنه إطمأن إلى أن وجـــود الفتاة يساعد على تصوير الرجل كبشري مثل الآخرين، له أســـراره ونـــساؤه، وربما خطاياه؛ ليس ملاكاً متطهراً سقط سهواً من الـــسماوات العلـــى، وما يستحق كل ذلك التبجيل والانصياع الذي يحصل عليه من الأتباع والمتأثرين بسحر كلامه.

مـــزقت الحيرة فؤاد علان، لكنه أعلن في قرار مغامر بطولي، إنهم عائـــدون إلى دمـــشق لاصطحاب الفتاة إلى رجلها قبل اشتداد عنف المطـــر، لم يناقش المريدون التابعون الأمر، وإن كانوا لا يتوقعون زمناً

يكـــون المطـــر فيه أعنف مما هو عليه، لكنهم بما تعودوا من انصياع، وافقوه، وأظهروا امتناناً وحماسة فائقة وهم يتزودون ببعض المؤونة من السويداء، ويكثرون من خبز الشعير وجمر النار في زكائبهم، ثم يصلون صـــلاة المـــسافر، ويسيرون وراء حماري المسافرين والبغل الذي أعاره الدليل للشيخ.

المخاطـــر ماثلة، والصعوبات جمة، إلا أن الركب يتقدم كما لو كـــان شـــراع مركب في الريح، مدفوعاً بالوجل من سوء المصير، أو غضبة لا تحتمل للطبيعة، يعض علان على شفاهه كاتماً الألم المتزايد مع اشتداد البرد والريح، بينما يسلّي تابعيه أنفسهم بأوراد المتصوفة.

أنحـــل العناء جمان، وقد سارت في درب صعب منذ شهور طويلة لا تحصيها، فكلما طلع هلال أقنعت عقلها إنه الهلال الأول الذي يرافق رحلـــتها منذ خرجت من المحروسة، أو إنه سيكون الهلال الأخير قبل لقائها به، ربطت في طيات ثوبها عند البطن صك عتقها والذي ما فكته إلا لاغتـــسال، أو لتراه عيون مريم في الكرك، فتشاركها البكاء وسهر الليالي.

وصـــل الـــركب باب كيسان المفتوح، مر بين عسكر ينظرونه، توقـــف الدراويش، وانبطحوا أرضاً يقبلون الطين باكين، كأنهم ناجون مـــن بلاء محقق، أيقنت جمان إنها حطت رحالها أخيراً، فدمعت عيناها، وشهقت، وإن مرت سنوات لم تغنِ فيها وتطرب، إلا إنها ترنمت على ترجيع خافت:

- *وحرمة عهد بيننا، عنه لم أحل.. وعقد بأيد بيننا، ما له حل.*(1)

سُـــمع صـــوتها على تعبه صافياً رقراقاً، ورفع المريدون رؤوسهم ينظرون، وقد اكتشفوا إن لها صوتاً شجياً مطرباً.

---

(1) ابن الفارض.

باتــت الرحلة إلى حي الميدان قاب قوسين، ونسي المغامرون فيها مــشقة ما مضى، وكما يفترقون كل مرة، ودع علان صحبه الذاهبين إلى الــزاوية، أوصــاهم بمقبل على وعد اللقاء، ثم قصد بيته في الميدان ترافقه جمان.

مهما كانت الأفكار التي قفزت إلى ذهن خولة حول هوية الصبية الــتي دخلــت البيت وراء والدها، فإنها لم تتصور بتاتاً إن الفتاة امرأة للكركــي، أو أنهــا ستكون كذلك، لكنها وقد سمعت نتفاً عما جاء بالملــيحة إلى دمــشق، اشتعل فضولها؛ استعجلت خدمة أبيها وإطعامه وتهيــئة الــدار لعــودته، وأخبرته على عجل وحياء بحبلها، وأرسلت تــستدعي خالها من بستانه، وزيداً من سوق العطارين، فعلت ما يتوقع مــنها والابتــسامة غائبة عن محياها كأن شراً وقع، ثم سحبت الضيفة الغريبة من كفها وقد استحمت وانكشف حسنها، فصعدت بها مسرعة درج العلــية، وغلقت الباب تسمع لتفاصيل عشق الكركي، والرحلة المخيفة لمحبوبته.

أرجأت خولة إنباءهم بترحيل الكركي إلى البيمرستان، فقد حدست بحــس الأنثــى إن الفتاة مستبشرة ومتعبة في آن واحد،؛ لا تحتمل أخباراً تعكر صفوها، كما لم ترغب بالارتباط بخبر السوء، تاركة أمر النبأ الموجع لــزوجها أو شــقيقه أو الخال، معتقدة تماماً إن والدها يملك مفتاح الباب الموصــد، بيــنما كــان علان متعجلاً الإطلاع على ما وقع في غيابه من أحــداث، متوقعاً زيادة مريدي خصمه ومنافسه، حانقاً على رحلة الشتاء المريــرة الــتي تــبرع بها طوعاً لإيصال الصبية الغامضة إليه، فقد احتدت أوجاع عظامه التي شعر بها أثناء إقامته في الكهف أعلى الجبل، واشتد النغز الــذي رافق رحلته في ربلتّي قدميه فمنعه الراحة، مع ذلك، ما أن هرعت الصبيتان إلى العلية، حتى تحامل على وجعه، وغادر البيت إلى الأموي.

ارتفـــع آذان العصر، وعلان يجالس بعض المشايخ الذين وجدهم تحـــت قـــبة النسر ملتفين بفروات تقيهم برد الريح، و لم يكن الأموي مكـــتظاً كمـــا هو عادة، انفض الناس سريعاً بعد صلاة الظهر لاحقين بدفء بيوتهم، ورغم إن الشيخ الحسن البوريني اقترح الدخول من لسع البرد في صحن المسجد إلى منعزل في القاعة الصغيرة الملحقة بقاعة علي بـــن أبـــي طالب، حيث يكون المقام الصغير الذي يضم رأس الحسين أكثر دفئاً لانعزاله، إلا إن الشمس الميداني استحسن فكرة علان بزيارة قاضي القضاة الشهاب أحمد العيثاوي، سار الشيوخ ومعهم التاجي، لم يكن أمر الكركي في بال أحدهم؛ عدا الدوريش الذي ما غالب أوجاع قدمـــيه وغادر منـــزله في تلك الظهيرة مهملاً ألمه وتعب السفر، إلا؛ ليـــسأل عن الكركي ويستقصي أخباره، مما جعله مضطرب الحركات في مجلس القاضي في المحكمة، ساهي البال عن شراب اليانسون الساخن الذي وزع عليهم، منشغلاً بتجميع شجاعته ليسأل على حذر:

- مـــولانا العيثاوي، أعزك الله وأيدك، هل جد جديد مع ذلك الكركي الذي أخبرتك عنه؟

راح الـــشيوخ المـــتجمعون حـــول أكواب اليانسون الفخارية يتذكـــرون من جاءهم من أعيان ورجال يتواسطون في شأن الكركي، فلم يعطوا فرصة لقاضي القضاة ليجيب، وبدا كما لو أنهم أجمعوا على أن الـــرجل استحق أكثر من حقه من اهتمام العامة، و لم يخفوا تخوفهم مـــن ذلـــك الالتفاف الغريب حوله، والمصطبة التي تدبج فيها الفتاوي ويجـــرؤ أصـــحابها على الفقه، ويختلط فيها كبارات المدينة بأشقيائها، ومـــسلميها بذميها، وكلما أوشكوا على الانتهاء من أخبار الكركي، اندفـــع علان يؤجج ذكره مشيراً إلى ارتحال الرجل من بلاده في ظرف مريب، بعد أن تعرض لعقاب "يستحقه في الأغلب" من قاضي عجلون.

تذكر قاضي القضاة الليلة التي أشغله فيها الكركي بحوار سقيم، وكيف تمكن الرجل النكرة من استجلاب غضبه وتحديه، وعاوده الوجل من فتنة يمكن للرجل إيقاعها بين شيوخ الشام والسلطان الذي تجرأ عليه في مكتوب مستنكراً الدعاء له في مساجد الله.

اختار قاضي القضاة الاحتفاظ لنفسه بالكلمة الأخيرة، والخبر المؤكد، باتراً الحديث، وهو يرتشف كوبه الذي برد تماماً، قائلاً:

- "والله لقد أزلتم عني كربة بت فيها، وشبهة قامت عندي، أسأت الظن بها في علماء هذه البلد، لأني تأملت كفريات هذا الملعون وإعلانه بها، وقد قبضت عليه واستودعته البيمرستان دون السجن، خوفاً من أن تغلب العامة علينا وتستخرجه، خصوصاً وقد بلغني أن بعض أكابر الجند وأشقاهم يعتقده"[(1)]

استحسن الجالسون إجراء القاضي وقطعوا الحديث حول الرجل، ونزل الخبر برداً على نفس علان، لكنه إذا ما دخل الليل وهو في فراشه، يسمع بكاء جمان في العلية، وهمسات زيد وخولة في الحجرة المجاورة، فإن النوم جافاه تماماً، واشتد نغز قدميه، كما لو أن عظامه تتفتت، تحرك الألم يجوس جسده، ثم يضربه في منتصف نافوخه، لم ينجح في مدارة أوجاعه حتى الصباح، فصاح بآخ وجيعة عالية وآهات متتالية شقت سكون الليل، وأيقظت أهل البيت وأفزعتهم قبل دخول الفجر.

انشغلت عائلة الدرويش علان بمرضه، وامتلئ ساح البيت بالمريدين، وراحت خولة تستجيب لتعليمات جعفر، فتعد لبخات العرعر الدافئة، تذيب فيها بعض ما جاء به زوجها وشقيقه من ملح

(1) النص كما هو ورد في "خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحبي".

بحيرة زغر، فتضعه على قدمي والدها وتدفئه بالأغطية، فينام الرجل وقد تلاشـــت آلامه لساعات، ثم يصيح مجدداً إذا ما تجدد الوجع، لم تكن الفرصـــة مواتية لجعفر وزيد للجلوس إلى الضيفة المليحة مطولاً يسألون عن أخبار أهليهم، وباتت هي نفسها قليلة الكلام ساهمة النظرات كئيبة بعـــد معرفتها بمصير يحيى، أخبرتهم باقتضاب أخبار ذويهم في الكرك، وأنـــباء ولادات نفل المتتالية، والمرض الذي أصاب عينيّ مريم فأضعف بصرها، كما أربكتهم فرحاً واشتياقاً بخبر عودة هفوف إلى البيت، سيل مـــن الأخـــبار جعـــل الواحد منهم يحس كما لو أن الدنيا شطرتهما وغيبتهما في بئر بعيدة، وفككت عرى حياة كاملة إلى شظايا لا تربطها رابط، إلا أن الفجيعة الأكبر كانت من نصيب جمان.

تنظـــر إلى مـــرآة خولة المدورة فتطل عليها امرأة لا تعرفها، ترى شحوب وجنتيها، وسواد يميل إلى ظلال بنية تحت جفنيها، والحسن قد ولى، وحـــل خـــوف في العيون، وعمر يفيض بالذكريات، مذ كانت جاريـــة هيفاء تجيد الغناء وتكثر الضحك في استانبول أو مصر، إلى أن ســـرقت عواطفها عصريات حديقة الصفصاف، وأمنيات ليالي الربع، وزهرة الليلك المنقوشة على الآنية النحاسية، إلى لحظتها تلك، وما عاد فيها أهمية للقلق الذي عاشته في المحروسة وهي تنتظر وثيقة عتقها.

خـــبلت الفـــرحة عقلها وقد وصلتها الوثيقة وصارت طي ثيابها، عاودتهـــا ذكرى الأيام الهائلة المفزعة التي تلت سفر وليفها، وتشقلب فـــيها حال مصر فبطش الوالي بالمماليك، وانتشر الانكشارية يقضون على ثورة السباه، يحرقون ويقتلون، ويغنمون أملاكاً هجرها أصحابها، وهُج العوام من حوانيتهم والساحات العامة، مختبئين في بيوتهم، وعلقت رأس الوزيـــر علـــى باب زويلة فما عاد لقانون قيمة، ثم انضم غضب الـــسماء إلى غـــضب الإنسان، انتشر الطاعون وحصد أرواح الناس،

مستهدفاً الشبان والأطفال، هرب البعض إلى الجبال، أو الصحاري الجافة بحثاً عن ملاذ من القشعريرة التي تقتل في أيام، فكانت وسيدتها هفوف تركبان أخر عربة خرجت مسرعة من الازبكية قبل وصد الأبواب وعزل الحارات عن بعضها، لا تزال تذكر الروع الذي هزها وهي ترى جماعات يحملون الجنازات المتوالية ويدفنون الموتى في ساحات خلاء، ودموعها حين لم تستطع ولوج الربع للاطمئنان على أهله، وكيف سارعت وسيدتها ترتديان ثياب الرجال في مغادرة المحروسة مع الهاربين، واكبت رحلتهما وصول الوالي الجديد محمد كرجي الخادم الذي قطع رؤوس الفتنة، وقاضيه قول قران محطم العبيد.

لم تكن الرحلة نزهة أو تسلية خالية من المتاعب وقد استغرقت ما يقارب العامين، بين حر سينا وبرد الشام، ومرافقة القوافل وأطماع الرجال وسلب ونهب قطاع الطرق، والجوع والعطش، وفيض المشاعر الموجع الذي ما فارقها في الكرك وهي تستقر لزمن تواسي آلام مريم متسترة على آلامها، وكم من ليال سهرت يخامرها الشك وتعبث بها الظنون فيما إذا كان عشقها يستحق رحلة العذاب الطويلة هذه، بل إذا ما كان الرجل الذي تكبدت من أجله المشقة يتذكرها، ويحفظ عهدها؛ وهو الذي اختار درباً صعباً، ربما لم يعد للنساء فيه مكان أو موضع!

واهنة، سمعت أسئلة الفضول التي حاصرتها بها مضيفتها الشابة، وهي تستنكر تحمل امرأة لكل تلك العذابات باسم العشق والهوى، ابتسمت جمان بسمة حزينة تقنع نفسها، وتغنت:

- *هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل... فما اختاره مضنى به وله عقل.*

ضحكت خولة غير هازئة بوجع العاشقة، ولكن التقاطها قصيدة ابن الفارض التي حفظتها كاملة في كتاب خالها، جعلها شريكة حوار

لطيف، أكملت القصيدة في أداء متواضع تحاول فيه محاكاة التنغيم الذي أبدعته الفتاة:

- *عش خالياً فالحب راحته عنا... وأوله سقم وآخره قتل.*

أعجــبت لعبة مناوشة المعاني المغنية التي سهت عن الشدو زمناً، فرفعت عقيرتها وحركت عُرب صوتها المنسية، وشَدت بانسجام:

- *ولكــن لــديّ المــوت فيه صبابة... حياة لمن أهوى علي بها الفضل.*

طــوقت خولة جيد الصبية من خلف بود، وهي تجرؤ على رفع صوتها، وإن افتقرت لطلاوة الصوت:

- *نصحتك علماً بالهوى والذي أرى... مخالفتي فاختر لنفسك ما يحلو.*

جاراتهــا الصبية ضحكاً، وعاد لصوتها جلاؤه، ورهافة التقطيع، وعذوبة الاسترسال، فانطلق صادحاً:

- *إن شئت أن تحيا به سعيداً، فمت به... شهيداً؛ وإلا فالغرام له أهل.*

فمن لم يمت في حبه لم يعش به... ودون اجتناء النحل، ما جنت النحل.

وقــل لقتيل الحب وفيت حقه... وللمدعي هيهات هيهات.. ما الكَحَلُ الكُحْلُ.

شــهقت خــولة وزفرت؛ فما سبق لها سماع صوت كهذا ندي رائــق، وبكــى زيــد وجعفر في الخارج مستعيدين رجع صدى غناء هفــوف الــتي عادت إلى قريتها وما تمكنا من ملاقاتها، إلا إن الشجن الذي عمر بيت الدرويش شقته صرخته المتألمة مجدداً وهو ينادي غاضباً ابنته الملتفتة للغناء دون مراعاة واجبه، لم يغب عن بال الأخوين وخوله

إن الـــرجل يخلـــط بـــين غضبه وألمه، لكن حيلتهما في العطارة بدت محدودة، استشارا الطبيب الأندلسي الذي قلب جسد المريض، متحسساً بأصـــابعه الخبيرة مواقع الألم، مدلكاً، ورغم استحسانه لبخات العرعر علاجاً، إلا إنه فوجئ بالملح الذي يخبئه جعفر العطار على هيئة أحجار كريـــستالية بيضاء لامعة؛ على علو علمه ومعرفته إلا أنه لم يسمع في الأنـــدلس أو أوروبا بمعجزات ماء زغر، ورجح إن ارتفاع المعادن في الملـــح المجفف قد تساهم في العلاج، فجأة، والجمع متحلق حول سرير علان؛ خطرت ببال الأندلسي فكرة أثارت الصخب، كأنما هي كوة في العتمة وفرج بعد ضيق، قال الأندلسي:

- *لـــنحمله إلى البيمرســـتان القيمـــري، هناك يتكفلون بعلاج صـــحيح، وإذا لزم كيٌّ أو حجامة، تهيأت لها ظروف مواتية وصحية، عدا عن توفير سبب لا يثير الانتباه لنا لدخول البيمرستان، فقد تعبنا من تـــسويف الـــساعور ومماطلته، قد تكون تلك طريقة نلتقي فيها يحيى ويطمئن بالنا.*

في معمعة الفرح الذي أصابهم للفكرة، والوجع الذي نغص على علان نشوته، أسرعوا إلى اكتراء حصان للاندلسي، وبغل لجعفر، وآخر حملوا عليه المريض، مستبعدين النساء بقسوة، وقصدوا القميري والأمل رفيقهم.

كانت الحديقة خالية تماماً حين ولجوا البوابة الكبيرة، ساروا وراء المرشد الذي لاقاهم بحذر ممتنعين عن أي سؤال يفضح نواياهم، ناظرين في كـــل جهة كأنهم يستطلعون المكان المبلل بمطر سابق، قادهم المرشد شمـــال القميري، وأدخلهم في صالة متسعة تعددت فيها الأسرة وانتشر المـــشافون يرتدون مراييل من الكتان الأبيض، ومرضى على الأسرة أو الطـــراحات يعالجـــون من كسر أو التواء أو وجع دفين، عاين الطبيب

الـــشاب حالة علان باهتمام، دلك صدره وجس عضلاته الموجوعة في نفـــس الخطوات التي سبقه إليها الأندلسي، ثم استدعى فتي يحمل دفتراً وريـــشة، وراح يسأل والفتى يسجل، متى بدأت الأوجاع، متى تشتد؟ وعلـــى أي صـــورة تكون؟ ماذا تناول من دواء وأي علاج خضع له؟ وعندما ذُكر ملح زغر، قفز حاجبا الطبيب الحكيم دهشة، وهتف:

- *من أين جئتم بملح زغر؟*

انتبه جعفر للاهتمام الذي يثيره دواؤه، وكأي عطار تاجر، أحاط دواءه بالغموض مشيراً لصعوبة تحصيله؛ لعل الطبيب يقصد بالشراء.

انتقل الاهتمام من المريض إلى الدواء إلى أشخاص المرافقين، إذ إن ذكر اسم الوليد الاندلسي أحدث تغييراً غريباً في تصرف الحكيم، مد يده بحفاوة وفي عينيه بريق إعجاب، انحنى بنصف جسده وهو يعرف نفسه:

- *تلميذكم المتواضع هاشم الحموي.*[1]

يمكـــن للاندلـــسي التباهـــى بسمعته التي سبقته، وتصنع تذكره للطبيب الذي يقول فخوراً بأنه تلقى على يديه درسين في مدينة البندقية ابـــان كانـــوا ينادونه باسم سيرجو لابروتا، تضرجت وجنتاه خجلاً، فذاكـــرته لا تـــسعفه بزمن اللقاء؛ لكثرة من مر تحت يديه من طلاب وأسمـــاء ومـــدن، هـــرباً من حرجه، لفت انتباه الطبيب برقة إلى حال المـــريض، تراجع هذا خطوة، وفرد ذراعه كأنه يدعو الأندلسي ليحل مكانه، وهو يقول:

- *لا يفتى ومالك في المدينة.*

شـــاعت أجواء الترحيب والاهتمام، ولقي المريض عناية كبيرة؛ تمـــت إحالته للعلاج سريعاً، بينما انصرف الرجال الثلاثة وقد تعارفوا وتداولـــوا في غاياتهم الجانبية، تاركين المريض يُتمم علاجه على أيدي

---

(1) نسبة إلى مدينة حماه.

المـــشافين، فاجـــتازوا الممر الواصل بين الجناح الشمالي والجنوبـــي في المشفى، دون أن يثير فضول الطبيب الحموي السبب وراء رغبة أستاذه في زيارة جناح الممرورين بعلة النفس والعقل، بل إنه قطع بهما الدرب ملهوفاً لتحديد ميعاد يجمعه بأستاذه مجدداً، وإبرام صفقة يبتاع فيها ملح زغر من العطار الذي يرافقه.

في ذلـــك الـــيوم، وعلان يتلقى حماماً دافئاً، وتجهز له إبر لوخز ركبتـــيه وكاحلـــيه، وتلف قدميه بعجينة من الزنجبيل والكركم وحبة الـــبركة المسحونة، أسهب المشفى في الحديث عن صحب يحيى الذين عادوه ناقلين له أخبار وصول محبوبته إلى دمشق.

تطايـــر رماد النسيان، كما لو أنه ما نسيها لحظة، ووقعت رحلة الـــصبية العـــسيرة موقع الألم في فؤاده، لم يعد من السهل قراءة عينيه، وخلجات وجنتيه المرتعشتين، وهو يغالب البكاء أمام الصحب والمرضى الملـــتفين حـــوله، ما ظن يحيى لوهلة إنه يستحق الحجيج والسعي الذي تكبدت المحبوبة عناءه لملاقاته، وعاتب الروح لانغماسها أعواماً في دنيا خلت من جمان حتى جفت ينابيع التذكر، كأنها ما كانت أنسه ومبتغاه وتـــوأم روحـــه ولون جلده، هزه عشق المرأة مجدداً، وقال وهو يسلم جوانحه للشوق ويذوب وجداً:

- *أبلغوها سلامي، وإني على العهد، وما شئت لها تكبد ثقل وعد يضني ويميت.*

شاع أمر الزيارة بين النـــزلاء والمشافيين، ووصل أسماع الساعور بـــسبب حماســـة الطبيب الحموي لاقتناء أملاح زغر، إذ اقترح على الـــساعور شـــراء تلـــك الأمـــلاح الناجعة في علاج أمراض العظام والعـــضلات، مفصحاً عن الرجال الذين جاؤوا المشفى، وبينهم أستاذه الأندلسي الذي رغب بزيارة مريض فسهل له الأمر.

وقـــع الخــــبر موقعاً سيئاً عند الساعور، وأفقده صبره، خاصة إن ميعاد استيفاء جامكية الحكماء قد اقترب، وإنه موعود بصفة شخصية برفع جامكيته من خمسة عشر إلى عشرين ديناراً، أحس بالاختناق، وإن عـــودة الفوضـــى إلى المشفى ستزيد اللغط، وقد توقف الجرايات؛ وقد يراقَبُ هو شخصياً، ويحرمُ من حقوقه، وإن أفنى عمره يجد بين المرضى وتعلـــيم الحكمة، ظن إنه لا يستحق أن يفسد امرؤ عليه هناءة نجاحه، ويؤخر قطاف غنائمه.

اســـتدعى منصور الساعور كل من السلتي والحموي معاً، مصدراً قـــرارات عقابية توقفهما عن العمل لثلاثة أيام؛ إذ تجاوزا في تصرفاتهما أوامره التي تمنع الزيارة إلا بالرجوع إليه، وبتصريح مدموغ بختمه.

تحـــدث منصور بن رسلان بعصبية عما يلمسه من تسيب وتجاوز لا يرضـــاه، كما أصدر أمراً بالتعجيل في علاج الدرويش الذي احتل حجـــرة في الجـــناح الـــشمالي، والتسريع في إخراجه من المشفى دون الـــسماح لـــه بالتنقل كما فعل أصحابه، معتقداً إن تهاونه السابق مع الطبـــيب الـــسلتي جر عليه تطاول الحموي، وإن الحل يكمن في وخزة قـــوية توقف العبث الذي يطيح بأنظمته، كما تحجم المشافيين الصغار الـــذين يـــسمحون لأنفسهم بتجاوزات تعيث فساداً في المشفى، وفي إجراء علني اتضح فيه التحدي، أعلن الساعور اشرافه بنفسه على علاج المريض.

عـــزله في حجرة جانبية في نهاية الممر الجنوبـــي، أوقف على بابها حارســـين غلـــيظين عوضاً عن الرفيقين المطمنين اللذين كانا يرافقان النـــــزيل، وشطب من ملفه الذي يسجل فيه ملاحظاته على المرضى عبارة، "الكركي، مصاب بمس طارئ"، وخط بريشة راجفة بدلاً منها عـــبارة "الكركي، مصاب بمانيا حادة أورثته مانخوليا خطيرة، أفسدت

ظنونه وفكره، فصار غاضباً على كرب ووحشة، نقوم بعلاجه في معزل وفق خطوات تضمن تثبط نـــزواته والتحكم بجنونه".

دبـــت الفوضى في الجناح الشمالي إثر إيقاف الحموي، وتهامس الأطباء المشافون والمطمنون والمرضى في الاجراءات الجديدة، متواصلين مـــع الغضب الواقع جنوب المشفى عبر الممر والحديقة المفتوحة، فالذين أغضبهم اقتياد يحيى إلى حجرته المنعزلة أوقفوا أشغالهم، وتباحثوا سراً، وفي الإيـــوان افتعل المرضى المجانين ورديات صراخ وعويل متكررة، لم يعلمـــوا كيف سيكون العلاج الجديد المقترح للكركي، وحده مشرف الشرباخانة حمل أدواته وأخلاطه، وتبع الساعور والحارسين إلى الحجرة متلفتاً بجزع، وإذ أُغلق الباب بمفتاحه الحديدي الكبير من الداخل، فإنه فـــتح جعبته وأخرج قواريره وأخلاطه، وراح يمزج تحت نظر الساعور نقـــيع الـــبابونج والخشخاش، ثم اقترب متهيباً من يحيى الذي راقب ما يدور حوله صامتاً هادئاً جالساً في سريره، وقد غمر وجهه سلام عاشق نال ما أحب؛ غارقاً في النشوة متذكراً إن المحبوبة قريبة منه وراء السور، بإمكانه تنشق شذا عطرها، وإن كان يقينه باللقاء محتاراً قلقاً مترقباً.

غمس الصيدلي كفيه في المنقوع السائل ثم مسح رأس المريض به، ونظـــر بطـــرف عينه إلى أحد الحارسين، فوقف كجدار خلف جسد المـــريض الذي أُجلس في سريره، رفع الحارس ذراعين لاحمتين وكفين خـــشنتين يثبت كتفي المريض، ظل يحيى ساكناً كأن ما يجري لا يخص جـــسده؛ وإن رأى الصيدلي المعالج يخرج موساً حاداً من لفة الكتان، ثم يقطـــع جديلة شعره به، ويمرره بين ما نفر من خصلات تبقت، يحلقها بسرعة وحرفية، فيتطاير الشعر الأسود متناثراً.

مـــا ظـــن الساعور إن يحيى يحافظ على سكونه، ويظل مستسلماً صـــامتاً لا يـــسأل عما يفعلون به، وأزعجه لوهلة إن المريض لا يبدى

دلائل الجنون المطبق، ليتأكد؛ رفع بنفسه الكوب الطافح بالملح والشحم ومغلي بزور الفجل، مراهناً على تحفيز رفض المريض، دفع الكوب إلى شفاه الرجل مرجعاً رأسه إلى الخلف بشدة عنيفة تنم عن غيظه، وصب الـــسائل بجـــرعة وافرة في حلق المريض الذي غرغر متفاجئاً، ثم كرع الـــسائل دون أن يعترى وجهه امتعاض أو إشارة لتقزز أو نفور، تبادل الـــرجال النظـــرات، وعـــاد الـــصيدلي إلى ترطيب الرأس المحلوقة بماء الخـــشخاش مضيفاً الحليب الساخن، سال الخليط على وجه الكركي محـــدثاً حرقة في العينين، ارتعش جفناه في اهتزازات متسارعة، فاطمأن الـــساعور منتـــشياً لأول اســـتجابة جسدية، وأحكم الحارس إمساكه بكتفـــي الـــرجل وساعديه، بينما أكمل الصيدلي صنيعه فاتحاً قارورة فاحت برائحة زنخة منفرة، سكب منها ماء غلي الكراعين فوق الرأس الحلـــيقة، التي اهتزت هزة لا يمكن تفسير فحواها، إذا ما كانت رضا مستـــسلماً، أم اســـتنكاراً حزيناً؛ في تلك اللحظة تجمعت كل أخلاط المحفـــزات الـــتي تكرعها يحيى والتي أحاطت به، شعر بانقلاب يضرب أحـــشاءه، وتقلصات لا يتمكن من ضبطها، حاول ضم جسده وهدل كتفـــيه فـــوق بطنه، فلم يوفق، والحارس يشد ظهره بقوة إلى الخلف، اجتاح الغثيان كل حسه، فتأرجح راجفاً بين يدي الحارس، ثم فغر فاه قاذفـــاً بكـــل مـــا حـــوته أحشاءه، عند أول اهتزازة، ابتعد الصيدلي والـــساعور، ومد الحارس الآخر سطلاً أمامه؛ كأنما الاستعدادت مهيئة للقيء الذي لم يفاجئهم، بل إنهم استجلبوه قصراً، وواصل الحارس شد جسد المريض الذي اسود لونه وشحب، همس الساعور منصور منتصراً:

- *خرج الخبيث من الجسد.*

لم تكـــن تلك الاجراءات إلا بدايات المداوة الأساسية، إذ مُسح الموس الذي حلق الرأس بالملح، وجفف بخرقة قطنية، وربطت ساعديّ

يحـــيى بحــــبل غليظ، وأحكم شد ظهره إلى صدر الحارس مجدداً؛ رغم تمالكه إثر ماء غريب تجرعه يفوح برائحة منعشة، وطعم حراق حذق.

تحـــسس المعـــالج جبهة المريض بضربات خفيفة من إبهامه، مثيراً شــــراايينه والأوردة، وبيمناه مرر الموس سريعاً على الجبهة، فتفصد دم غزيــــر، لم يمـــسك يحيى صرخة الألم، خرجت متحشرجة واهنة، وقد تخدرت أطرافه لفرط ما كرع من شراب الخشخاش المثبط.

رُمـــي يحيى للفراش مشدوداً بالحبال، غائب الوعي، متسخ الرأس والجـــسد بعفـــونة ماء الكراعين وما تفصد من دمه، وما علق من قيء علـــى شـــعر صدره وعند فتحة جلبابه الكتاني، واندلق السطل الطافح بالقـــيء أرضاً، والمعالجان يسرعان في مغادرة الحجرة كأنما يفران من ســـواد يلاحقهما، لم يتبادلا الحديث، وافترقا ووجهاهما ممتقعان بخوف خفي، بينما انتاب الحارسان حزن مفاجئ مجهول، تجاهلاه كما تعودا، وخرجا سريعاً ليقفا وراء الباب الموصد مثل صنمين.

عـــبر الحديقة، مرت أطياف ثلاثة تتحرك حذرة، تسللت وراء أشجار عراها الشتاء، انتقل المتسللون من شمال البيمرستان إلى جنوبه، في الأحـــوال العاديـــة؛ مـــا كان للطبيبين الحموي والسلتي التصرف كدخيلين، ولكن ما أحاط بهما من غضبة الساعور واجراءاته دفعتهما لدخول مقر عملهما تلصصاً، حريصين على السرية، وقد رافقهما في تـــسللهما السري مريض جناح العظام وهو يعرج، أفلحت اللبخات الساخنة في تنشيطه، ورغم علمه اليقيني إن الساعور جَمَلَهُ بتعليماته، وحـــرم علـــيه الانـــتقال إلى الجناح الجنوبـــي، إلا إنه يشعر بتحد ظـــريف، وفضول واسع للقاء يحيى؛ والتأكد عياناً إن منافسه الذي أيقظ في فؤاده كراهية ينوء بحملها، ولا يستطيع فهمها، سيبتعد عن ساحته أخيراً.

لمعت في ذهن علان فكرة عبقرية؛ سيقنع الكركي بمغادرة الشام كلــها، والعودة إلى الكرك، سيقول له إن من حق البنت الشجاعة التي قطعـــت البر والبحر للقياه الاقتران به بين أهله، سيزين له حياة رخية بعيدة عـــن دمشق، حياة يكون له فيها زوج وولد وخلان، سيفلح هذه المرة في إبعـــاده بطريقته الفذة تلك، ويسدي له خدمة حقيقية، فيريحه ويرتاح، فقد شقي الرجل بينهم، وشقوا به، ولا بد إنه باحث عن الخلاص.

تلجلـــج الحارســـان عند الباب، وتبادلا النظرات كأنما يستشير الواحد صاحبه في ما إذا كانت تصرفاً سليماً استجابتهما لرغبة الطبيبين ومـــرافقهما الـــدرويش في الدخول إلى يحيى، فالحزن الذي تجرعاه إثر حـــضورهما جلسة علاج حبيسهما ما زال ماثلاً، لمعت قطعتان فضيتان دسهما السلتي في كفيهما، تمنعا وجلاً في البداية ثم تلفتا بفزع، وهمس أحدهما:

- *دقائق فقط، دقائق، لا تتسببوا في أذيتنا.*

دخـــل الـــرجال الثلاثة على الكركي، شهق الحموي وجحظت عيـــناه قبل أن يسد أنفه ويرتد خطوة، بينما اندفع السلتي في لهفة نحو الجـــسد الممـــدد يفك وثاقه ويعدله، ويتأكد من تجلط الدم في الجرح المتـــشقق في مقدمة الجبهة، وهو يلعن ويهذر بكلمات غاضبة، ووقف علان متصلباً.

تبادر الموت إلى أذهانهم، إلا أن الحركة الضعيفة التي لمحها الطبيبان المتمرســـان في صـــدر الرجل، دلت على الحياة، وقف علان في رعبه صـــامتاً، وهما يعدلان السطل، خلع الحموي عمامته، مسحا بها ما علق في الـــوجه مـــن دم وقيء، و لم يمسك السلتي لسانه عن السباب، بينما تمالـــك الحموي نفسه، واقترب يساعد في مسح وجه الرجل، وإسقاط كـــتل القـــيء المتخشبة عن صدره وجلبابه، دون أن ينقطع عن ذكر

الـــرحمن الرحيم والتضرع إلى رب العالمين، مضت دقيقتان كأنهما دهر قـــبل أن يتحـــرك علان بخطوات قصيرة ثقيلة مقترباً من مرقد الرجل، طأطـــأ رأســـه ينظر الوجه الغارق في الغياب، وغالب نفسه هنيهة؛ ثم انحدرت دموعه.

لـــيس من السهل فهم ما وقع لعلان، لم يكن مشهد جسد يحيى ممدداً كما الجثمان المقتول في ساح الوغى، وحده الذي استدعى ملاكاً قـــادراً على البكاء على عدوه في تلك اللحظة، لكن الملاك الذي أتعبته حـــبائل الشيطان في الدرويش، وتوارى عندما كان علان يقسو على الزوجة المريضة، أو يتنصل من مسؤوليات البنت، أو ينافق الانكشارية ومبعوثي السلطان، أو يحيك المكائد في همساته وشراكه الصغيرة ينشرها هـــنا وهـــناك، هذا الملاك المتواري الغائب، نفض جناحيه واستجمع شجاعته، وبسط نوره فوق الظل الأسود المنتشر في ضمير الرجل؛ فقد تجـــاوزت خطاياه المشاعر والأفكار والشكوك، إلى الحيلة والتحريض وإيقـــاع الشر بالمحيطين، وإيقاظ الأذى، تمكن ملاكه من اختراق ظلام يكـــبل الـــروح، وحضر؛ قوياً لا يقبل الهزيمة، في لحظة عابقة بروائح الـــدواء وعفن القيء وانتصار الخبث الأسود، حضرت ملائكة الرجل؛ أيقظت فيه المؤمن المداوم على ذكر الله في حضراته، وفي السر والعلن، فانتشلته من غيه، وبعثت ضميره، وقدحت زناد الندم.

انهمـــرت الدمـــوع سخية على صمت أولاً، ثم خر الرجل النادم على ركبتيه ناسياً وجعهما، تشبث بكفيه في سرير المريض الذي أخذته الغيبوبة، وأجهش بالبكاء عالياً، فبات هم الطبيبين قبل العناية بالكركي إخفات صوت بكاء علان منعاً لتنبه من في الخارج، سحباه عنوة وهو يمد ذراعيه متوسلاً طالباً الصفح والغفران من رجل مسجى في غيبوبة، لا يسمع، ولا يرد.

انقلب حال البيمرستان تماماً، تصرف العاقل والمجنون بغضبة رجل واحد، وتدفق المعالجون والمشافون من كل جناح إلى جنوب المشفى، وتبعثر الحرس عند البوابة الخارجية أو في الممرات وعلى أبواب الحجر، حتى الخدم والطباخون غادروا مواقعهم يستجلون الخبر، في معمعة الفوضى وانكشاف تسلل الطبيبين، اسقط في أيديهم وما عادا يخشيان ملامة، بل إنهما ظهرا بين الجموع التي احتشدت في الإيوان، ووقفا على صندوق خشبي كي يتمكنا من مخاطبة الآخرين وهما ظاهران للعيون، وعلا صوتهما يشرحان تباعاً ما شاهداه، ولم يتردد السلتي في تفسير واستنكار ما قام به الساعور من باب مجاملة قاض ظلوم؛ لا من منطق حكيم حلف قسماً مقدساً تجاه الانسانية، وجأر المجانين ملوحين بقبضاتهم، من يعرف منهم ذلك النوع من العلاج، قدر رغم جنونه انتفاء العدالة في تطبيق ذات الألم على رجل عاقل، جروا الصيدلي عنوة، فوجد نفسه في حالة دفاع مريرة حين أكد على إنه ليس مسؤولاً عن تشخيص، ولكنه تلقى أوامره من كبير الأطباء، وأُوهم إن الحالة تستحق مثل هذا العلاج، وفي سبيل اتقاء الغضب الجماعي؛ راح يخلط أخلاطاً جديدة تخلص الجسد مما وقع له، وتنقيه من سموم أصابته بالإعياء، وتركت العقل ذاهلاً أسيراً لهلوسات تخلط الحاضر بالماضي، وخيالات تخلع الرجل من مكانه إلى فراغ.

عاد علان إلى الصياح مدعياً ألماً لا يقوى على تحمله، مثيراً شكوك الأطباء الذين تهيئوا لإخراجه من المشفى، ثم أحجموا متفحصين حالته بعجب ودهشة، دبت الفوضى في المكان وأتت أوكلها، ذعر الساعور وتسلل من باب أفرد لدخول المؤن خلف المبنى، فر الرجل من هلاك محتمل على أيدي المرضى الغاضبين، ساعياً إلى لقاء قاضي القضاة، والاعتذار عن استكمال علاج الكركي.

* * *

وقف الساعور أمام قاضي القضاة العيثاوي باحترام كبير، لكنه لم يتـــردد في إظهار جزعه واصفاً حال البيمرستان، فرك كفيه خائر العزم راجـــياً القاضـــي إخـــراج الرجل من مشفاه طلباً للسلام بين الأطباء والمرضى، مدللاً على ولائه في الإجراءات التي تطوع بأدائها كي يحجم ثـــورة الأطـــباء، ويحفظ سير العمل في آمان، ولعله أستجدى مقهوراً لإرســـال المريض إلى الحبس، فإنه لو حول إلى البيمرستان النوري مثلاً لأوقـــع ذات الفوضى وأثار أشد الفتن، لكن مكانه؛ حبس يسجن فيه وراء القضبان، ويحيط به حراس أشداء، لا حكماء ومطمنون ينصاعون للعواطف.

تأمـــل قاضـــي القـــضاة الرجل أمامه، ورأى في وجهه صورته، وومضات من نفسه في خوفه وجزعه، فالرجل فزع من اختلال قبضته علـــى أتباعه، وضياع سطوته في إدارة مشفاه، وربما حريص على رزقه وعملـــه، تعاطف القاضي مرجحاً الاستجابة لطلب الساعور والانتهاء من أمر هذا الرجل الذي سقط عليهم فجأة من العدم، لكنه بما أوتي من تدبـــر وحكمـــة؛ لم يستعجل الأمر، تخيل الخطوات السليمة لمثل هذا الإجـــراء، ونـــصح الساعور الخائف بالعودة إلى مشفاه رابط الجأش، واعداً الغاضبين بتنفيذ مبتغاهم، مسترضياً أطباءه ومجانينه إن لزم الأمر، كمـــا أمره بالتوقف عن علاج الرجل على نحو يذهب بعافية جسده، فـــإذا ما تعافى واسترد زهوه في المجادلة والحوار، اُستدعي لمحكمة يشهد عليها علماء دمشق، فيبثون في شأنه جماعة، إن شاءوا نفوه عن البلاد، وإن شاءوا حبسوه، ولا يكون لأحد الاعتراض إذا صار الحكم عليه في جمع.

لم تكـــن عودة الساعور ولا جلسته مع العاملين في المشفى هينة عليه، فما تعود الاعتذار، أو ترك الشأن لسواه وقد أخذ به أولاً، لكنه

أراد مخلصاً تنفيذ اتفاقه مع القاضي، فأفلح في تبريد نار الغضب، ورصد تـــصديق عيونهم لوعوده، بل إنه في الأيام اللاحقة ترك المشفى لإدارة العـــاملين فـــيه كيفما اتفق، والمداواة لكل طبيب واجتهاده، جالساً في حجـــرته يـــراجع أوراقه ودفاتره كأنه لا يعلم ما يدور، يسمع عودة الموسيقى في الإيوان، ويرى المطمنين يقطعون الحديقة مسرعين متدثرين من البرد القارص الذي رافق انقطاع المطر.

حـــرص كـــل من الطباخ والصيدلي على عيادة الكركي مرات في اليوم، أما السلتي الذي يشعر بنشوة الانتصار لدى عودته للعمل وتمكينه مـــن أداء مهامه دون تدخل، فقد راقب حالة مريضه على مدار الساعة، جالـــساً على كرسي في حجرته، فاتحاً بابها للزائرين من نـــزلاء المشفى، ولـــصوت القانون الذي نقله العازف إلى الممر الأكثر دفئاً، فما أن بدأت اســـتجابات يحـــيى تميل إلى أوضاع طبيعية، حتى زف الطبيب النبأ إلى صـــاحبه نـــزيل جناح العظام؛ فجاء علان جاراً قدمه بعض الشيء في حـــركة خفـــيفة تلمحها عين المتمعن بسيره، مخطوف الوجه وقد جف ريقـــه، ألفى يحيى جالساً في سريره يبتسم بدعة ويهز رأسه مرحباً، خر علان على ركبتيه كما فعل سابقاً، متعمداً نخز جسده بألم كبير، واحتقن وجهـــه متلوناً بحلكة، واغرورقت عيناه بالدموع، ثم أجهش أنيناً متقطعاً ويحـــيى يمسك كفيه في دهشة، تصاغر الدرويش الذي عاش شيخ جماعته ورأس حكمـــتها، ومرجعها العالم بكل شيء، وهو يبوح بشنيع وشايته، وحـــسده الدفين؛ لكنه منذ انتصرت ملائكته على شياطينه حصن النفس من كل شر، واختار درباً تقود إلى الجنة ولا تحرقه بنيران الضمير ولا نار الآخرة؛ مثل رجل يختلي بربه، اعترف علان بذنوبه، وتوسل الصفح.

صمت يحيى هنيهة، وما حمل وجهه دهشة ولا استنكاراً ولا عتباً، وظلـــت الابتـــسامة تعلو شفتيه في حنان بالغ، ووقف الطبيب حائراً

مـــستنداً إلى الباب مكتف الذراعين، وأطل الحارسان ينظران في عجب موقـــف الظالم يستجدي عفو المظلوم، وتقطعت نغمات الموسيقى التي يوقعها العازف على الأوتار، بينما تزايد عدد الواقفين فضولاً، وكست اللـــوعة وجوههم، حتى رفع يحيى رأسه وأرجحه قليلاً مغمضاً عينيه، وخرج صوته رائقاً حانياً منخفضا، يعلو كلما تقدم في ورده:

- *يا غفار.. إلهي.. أظهرت الجميل تفضلاً، ومحوت يا غفار كل قبـيحة... إلهـــي.. يعـــيش العـــبد ما عاش عاصياً، وأنت إلهي ستار للخطـــية... يبارز بالعصيان مولاه عالمًا، بأنك محصى ظهره والخفية... إلهـــي.. كمـــا أرسلت فضلك سابقًا، فجد لي بمحو السيئات، قليلها وعظيمها.. يا إلهي... يا غفار.*

لم يفلـــت يحـــيى كفي علان اللتين اهتزتا كما لو أن برقاً ضرب الجـــسد، دخل الرجلان في ارتعاشات متتالية، ومشيئة الغفران بينهما تحـــولهما إلى حضرة كاملة، وتمايل الواقفون عند الباب، ودمعت عينا السلتي وعازف القانون يوازن بين ترجيع دعاء يحيى وأنغام الوتر.

تُـــرك علان برفقة صاحبه لحظات، وقاد الحكيم المرضى الذين دخلـــوا الحجـــرة إلى الخارج برفق هامساً في أذني الحارس، فأكمل تفـــريق من تبقى، وأغلق الباب على الرجال الثلاثة، فإذا ما انتهى عـــلان من نحيبه، وصمت يحيى وما فارقته الابتسامة، جلس الحكيم هامساً بجدية:

- *جـــاءني مـــن حـــارس استأمنني على اسمه، إنه عثر بين أوراق الـــساعور علـــى فرمان أصدره قاضي القضاة، يطلب ترحيل يحيى إلى المحكمـــة، الـــذي أثار انتباهي؛ إن الترحيل سيتم غداً يوم الاثنين، وقد حدد ساعة غروب الشمس، كأنه أمر سري لا يريدون للعامة أن تكون طـــرفًا فيه، فالأسواق المحيطة بالمحكمة توصد حوانيتها في تلك الساعة؛*

والمحكمـــة تنهي أعمالها، ولا يجتمع القاضي مساءً بآخرين، أو ينظر في قضاياه إلا لغرض مريب!.

لم ينتظر علان رؤية حكيمه الحموي، أو أوراقاً تمنحه الحق في مغادرة البيمرستان، خرج من بابه الرئيسي قاطعاً الطريق إلى أقرب تجمـــع يعثـــر بـــه على كرائي البغال، امتطى بهيمة، إذ إن الوجع يبطئ من خطوته، ودربه طويل متعدد، كما أن صعود هضبة بستان الـــورد ســـيكون أمـــراً شاقاً، ولن تتيسر عودته إلى بيته في الميدان راجلاً.

أحـــدث وصوله البستان تجمعاً منع كثيرين من الانصراف ريثما يجلون الخبر، وأسرع الفتيان يستدعون صاحب عملهم أبـــي سندس، وتطايـــرت أنـــباء خروج يحيى المحتمل في كل صوب، وصلت أسماع الـــدراويش، وناســـجي الحرير، وعطاري سوق البزورية، والشيوخ، الخـــباز، والغـــزي، والكـــردي، والاسطواني، كما الوليد الأندلسي، وتجمعات الزط، وأسباه الجند، ورهبان الكنيسة.

عند المساء وصل الخبر جمان.

لم تنم المرأة ليلها الطويل كله، تقلبت تجر غطاءها وترخيه، ما بين حمـــى تعـــصف بها وبرد يبعث على قشعريرة تهزها، مشت في ظلام البـــيت، وجلـــست تحت سماء حالكة غاب نجمها بغيوم سود كثيفة، والـــصقيع يرش الموجودات بالندى، وعلى كثرة ما ألحت خولة عليها كـــي تنعم ببعض النوم، إلا أن النعاس جافاها، كانت متيقنة أخيراً من لقـــاء الحبـــيب، مزمعة على انتظار مروره عند باب المحكمة ومناداته، والتـــنعم باشراقة جبينه، شغلت ليلها بتمشيط شعرها وتجميله، وفرك ساعديها برحيق الورد والزعفران، ورش قطرات الياسمين الشحيحة التي حفظتها في حق صغير بين ثيابها من أيام القاهرة، كأنما تتغندر لعرسها،

منتظـــرة دخـــول الفجر كي تقف مع خولة وشهناز ونسوة أخر جئن يشددن أزرها، صلت النسوة ركعتي الفرض، ولأول مرة وقفت جمان بـــين المـــصليات، تركع وتسجد وتترك جبهتها تلامس بارد الأرض، تتـــضرع لـــرب السماء، ولا تمنع دموعها من تبليل صدرها، وقد ابتل شـــعرها برطوبة الحناء وندى الليلة الطويلة التي قضتها في ساحة البيت الخارجـــية، وهي تقبض بفرح يخالطه جزع على مشخصها الذي لا بد أوصلها للقاء.

مع أول شعاع لشمس النهار تحرك جمع كبير من البستان قاصدين المحكمـــة في أسفل الهضبة، كما تجمعت النسوة مغادرات الميدان يحف بهن رجال من أبنائهن وأخوتهن، وقاد جعفر جمعاً من العطارين، وتبعهم نساجو الحرير الذين تواعدوا في درب جمجق مع الخياطين والدراويش وأســـباه الجند، لم تفتح الحوانيت أبوابها كما لو كان يوم عبادة لا يوم بـــيع وشراء، بينما خرج المصلون والأئمة من صحن الأموي مسرعين في دفعـــات متتابعة، فإذا ما صعدت الشمس يخالطها غيم أسود كثير؛ اكتظ الدرب بالناس.

الهابطون من بستان الورد، والدالفون من زقاق جمجق، والقادمون من الميدان، احتشدوا جميعاً بعباءاتهم ودوامرهم، عمامات بيض بشاشها الأخـــضر فوق رؤوس المسلمين الوجهاء، والقاووق اليهودي بشريطه الأحمر لوجهاء اليهود، والقبعات الحمر دون حواف لعوامهم، وعمائم الأسباه المماليك، وربطات الزط الملونة، وعمائم النصارى الزرقاء، جاء تـــركمان مـــن الميدان، وأكراد من الصالحية، وزط من محلة الخراب، وعسكر من الميدان وساروجا.

اكـــتظت معابر سوق الخياطين المفضي إلى بوابة محكمة القسمة الـــبلدية، حـــيث تـــوارى حراســـها من شرطة الجندرمة أو عسكر

الانكشارية، مخلوعي الأفئدة أمام الجمع الكبير الذي سبقهم إلى السوق، فربطوا بين الحشد والأوامر التي وصلتهم قبل الفجر بتعليق منشورات إغلاق الحوانيت، وفتح باب المحكمة قبل الغروب بقليل، وزيادة عدد الحراس، والتأكد من حملهم سيوفهم في أغمادها، وخناجرهم في أحزمتهم الجلدية، اتخذت النسوة موقعاً متقدماً قرب درجات المحكمة يتفادين فيه الاختلاط بالحشد؛ وإن قصدت جمان الاقتراب من البوابة للتأكد من رؤية الحبيب عن كثب، وجلب أبو سندس سلال الثمر وخبزاً في الأشولة، فوزع صبيانه الأرغفة وحبات الثمر على الجمع مرتين، وجاء الرعاة بزكائب من الحليب الخاثر، فطعم الناس وشربوا حتى العصر، وما دخل المحكمة كاتب أو قاض أو صاحب حاجة، كأنما عطلت القضايا في ذلك اليوم، وإذا دارت الشمس دورتها وافية من مشرقها حتى قرب المغيب، أطل موكب القاضي.

تقدم الموكب الوقور محاطاً بالحرس، وعند رأس الحارة التي تقود إلى المحكمة، ترجل رجال الركب عن ظهور الخيل، شق لهم الدرب انكشاريان يلوحان بعصيهما المزخرفة فينزاح الرجال إلى الجانبين، سارا وقاضي القضاة الشهاب العيثاوي يتوارى خلفهما، يخب في خطوة سريعة، بينما لحق به متأخراً بخطوة الشيوخ؛ الشمس الميداني، ثم تاج الدين التاجي، والحسن البوريني، فتحت بوابة المحكمة على قدر دخول رجل واحد، وهرول رجال الموكب داخلين، وما أن دلفوا جميعاً حتى صك الباب، وسمع الناس صوت الرتاج يحكم إغلاقه، فتصايحوا.

أنيرت القناديل في داخل المحكمة وخارجها تباعاً، مودية بالحلكة التي هبطت مبكراً في ذلك اليوم الشتوي الغائم، وقد تباحث القضاة والجند في شأن تكوين ما يشبه السد البشري، يفتح درباً إلى المحكمة

مـــن الـــرجال المسلحين توقعاً لوصول ركب الساعور ومجنونه، وندم القاضـــي وهو يرى الحشد، إذ فاته منذ الصباح إصدار فرمان يمنع فيه التجول بعد المغيب، اصطف الجند وتكاثروا، دافعين بالناس إلى الخلف، عـــندما خط اللون الأحمر زوايا الغيمات في الأفق، ظهر الركب محصناً بمـــزيد من الحرس، يمكن رؤية الساعور يتقدمه، بينما يصعب لمح يحيى الـــذي يدفعـــه حراسه بينهم، اخترق الركب مسرعاً الدرب وسيوف الحراس مشرعة، وسط ضوضاء وصياح وتهليل وتكبير.

شُـــقت الخوخة[1] الصغيرة التي تتوسط بوابة المحكمة، كان أول المـــندفعين إلى الـــداخل حارس مد ذراعه يُسهل للساعور اجتياز فتحة الـــباب، دُفع يحيى دفعاً، في غفلة، وعلى مستوى منخفض، بين أجساد الرجال والحرس المتدافعة، امتدت يد ناحلة راجفة تائقة، ولامست كما بـــرق خاطف كف يحيى المغلولة خلف ظهره؛ فتحت الأنامل النحيلة الـــباردة أصـــابعه التي تكورت في قبضة يمينه؛ ودست فيها شيئاً بارداً مـــدوراً، قـــبل أن ترتد اليد منسحبة بين أجساد الحرس، تحسس يحيى الاســـتدارة الفضية الباردة، وتمكن من تمييز الخطوط المتقطعة الممسوحة قليلاً لرسم العذراء، فأغمض عينيه منتشياً، متيقناً إن المشخص وقع في كفـــه، وإن اللحم الحي المترف الذي لامس خشونة أصابعه كان أنامل الحبيـــبة، ورائحـــة الياسمين التي دهمت شمه؛ عبقت من طيات ثوبها، لم تـــرها عيناه؛ لكنه امتلأ بوجودها، فعب من الهواء تنشقاً وسع صدره، وولج باب المحكمة باسماً، مستبشراً، محلقاً، كأنما يطير.

- *ها نحن أخيراً نلتقي.*

قالها قاضي القضاة، ليبدأ جلسته التي أضفى عليها ضياء القناديل سحراً غامضاً، وجلس فيها الشيوخ متراصين حول القاضي على أرائك

---

(1) بوابة صغيرة منخفضة.

الجلـــوس الخفيـــضة، بينما جلس كاتب المحكمة إلى كرسي عال أمام طاولـــة مـــربعة، وقـــف الساعور يبدي احتراماً للمقامات حتى دعوه للجلوس، أحاط الحرس بالحجرة الواسعة التي طقطق في وسطها حطب منقل[1] مشتعل بجمرات كبار، ومع كل تلك الإحاطة العجيبة فإن يحيى الواقف بين أيديهم، بدا منسخلاً في نشوته الخاصة.

تغاضـــي القاضي عن استيفاء يسق[2] المحكمة، إذ لم يتكلف عناء تعـــيين مـــن يمثل المذنب؛ وكان مستغنياً عن نقود يمكنه تحصيلها من المـــتهم، ومـــستعجلاً انقـــضاء محكمته لهذا النهار الغائم، التفت إلى الساعور؛ وبإشارة من كفه دعاه لتقديم تقريره، فانتبه الشيوخ.

حمـــل الـــساعور ورقته مرتبكاً، فلم يتعود -على حصافة شأنه في مـــشفاه- الوقـــوف مثل هذه الموقف المهيب، ولم يسبق له قراءة تقاريره جهراً، وإن أحسن ديباجتها، ابتلع ريقه مرتين؛ واعتذر عن ارتباكه مرتين، بيـــنما كاتـــب المحكمة العارف بالعربية والتركية والفارسية يهيئ السجل المـــربع الـــصغير، ويغط ريشته في محبرته؛ خاطاً عبارة "فتح السجل مولانا قاضـــي القـــضاة الشهاب أحمد العيثاوي في محاسبة يحيى الكركي الأردني القـــادم مـــن - كرك الشوبك"، مناولاً سجله للحضور يختمون أختامهم أسفل الصفحة شهوداً، ثم؛ بصوت خفيض؛ قرأ الساعور ورقته واقفاً:

- السلام على من اتبع الهدى.

تمتم الشيوخ يسلمون ذاكرين الله والرسول، وأكمل الساعور هياباً:

- هـــذا خطابـــي لكم، أضعه أمانة في أعناقكم؛ للنظر في شأن مريضنا الذي أحلتموه إلينا، فقلب حالنا في البيمرستان القميري؛ وساد عبث لا طائل له، وفوضى لا قبل لنا بها، وألب قلوب الرجال بعضهم

---

(1) وعاء نحاسي لاشعال الحطب.

(2) رسوم القضية المالية.

على بعض، وحرض على العصيان، وأفشى أفكاراً ملحدة والعياذ بالله، وهذا عن علة أصابت يافوخه، وبدلته بين فتور وهلوسات عديدة، فما نفــع فيه دواء، وإلا ما كان يقف بين أيديكم وقد بدت عليه علامات العافــية، أحيله إليكم؛ عسى أن تكشفوا عن ضر عقله وشياطينه، فما عاد بالإمكان أن يقدم له البيمرستان أكثر مما قدم، من فضلكم أن تمنوا علينا بانتقال شأنه إلى حكمكم السديد؛ وتقديركم الرشيد.

خط الكاتب التركي ما التقطه من المعاني بلغته وبحرف عربــي – خــط الرقعة، فيما ختم الساعور كتابه بالصلوات والدعاء، فما نسى شــيخاً حاضــراً ولا خلط بين المراتب، تاركاً الدعاء الأكثر لسلطان البلاد وسدة الحكم؛ السلطان العثماني.

سمع الشيوخ بوضوح تمتمة يحيى:

– تجليت في جمالك فانبسط بساط الرحمة.. أنت راحة الأرواح.. أناديــك.. أناجيك عبداً كسيراً.. واقف ببابك أسألك ما تفيض به.. أجعل حظي منك إشراقاً يجلو لي كل خفي..

نظــر الشهاب العيثاوي بعينين يسكنهما الشك، وتبادل الشيوخ النظرات، تنحنح الشمس الميداني؛ يستأذن فتح الكلام، موجهاً خطابه ليحيى:

– نفهــم من كلماتك إنك من المتصوفة يا رجل؟! هؤلاء الذين يدّعون صلة بالله دون البشر، ويشاهدون ما لا تراه العيون!

قال يحيى:

– من يقيم معراجه؛ لا يشاهد إلا الحق بعين القلب والبصيرة.

سأل الميداني بفضول:

– ألم تراســلني يا رجل فيما مضى؟ ثم أتيت إلى دمشق من بلدك الكــرك كــي تلقاني وتنال إجازتي فيما تقول! فعلام تفاديت الحديث

معي؛ وقد التقينا مراراً في الأموي؟ وكيف رحت تروج لفتاويك دون إجازة من شيخ؟

جـــاء صوت يحيى أشد ثقة مما توقع الشيوخ، فما أنكر إنه كان يقـــصد الميداني، لكن الوقائع بدلت رحلته إلى مهنة وأصحاب انشغل معهم في مجالس حوار وتفكر؛ لكنه ما أقر بتجرئه على الفتوى، وسمى ما كانوا يتداولون من أفكار؛ اجتهادات تقبل الصواب أو الخطأ.

حـــاول العيثاوي تصويب مسار الحديث لافتاً إلى أن القضية التي يجـــتمعون علـــيها اليوم، تتعلق تحديداً بتطاول الكركي على السلطان، فماذا هو قائل؟.

قـــبل أن يجيب، ردد الكركي في سره: *إلهي العليم... أزل جهل نفسي يا عليم.*

ثم نظر إلى العيثاوي مجيباً بأناة:

- لـــسنا والله أعلم من الخليفة أبو بكر إذ قال: إن رأيتموني على حـــق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسددوني. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله؛ فلا طاعة لي عليكم.

زفـــر العيـــثاوي الهواء من فيه، وعادت إليه ذكرى ليلة المجادلة العقيمة، إذ بدآه الرجل بذات الحجة والكلمات، لكنه وبحضور الشيوخ تريث مبدياً صبراً وتلطفاً:

- ليس لدي شك بأنك حافظ لكتاب الله وسيرته وأحاديثه، وقد تلقمني الحجة وراء الحجة، ولكني أقولها لك صريحة واضحة، إذا ذكرت سيرة أبو بكر أو عمر؛ أو سواهما من الأوائل، فإن السلف الصالح كان ذا همة عالية؛ تبين لهم الحلال من الحرام، ونجوا من الفتن، ونالوا المراتب العلـــية، لكنـــنا في زمن؛ لا ترخى فيه المرس للعامة؛ ولمن أحب التقول علـــى أولي الأمـــر، دون ذلك مخاطر كثيرة، كان رسول الله عالم بما

ســـيحل بنا، لهذا قال صلى الله عليه وسلم: "لا تنابذوهم بالسيف ما أقامـــوا فيكم الصلاة، وإذا رأيتم من ولاتكم شيئاً تكرهونه؛ فاكرهوا عمله، ولا تنـــزعوا يداً من طاعة".

كان يمكن للحديث النبوي أن يصير حجة دامغة تنتهي إلى تسليم يحيى بما أرادوا، لكنه وقد غفل عن ما أعد من ترتيب، وانقاد إلى طبائعه في تقلـــيب الأمور، والبحث عن الخفي وراء الكلمات، راح يتلو على مـــسامعهم أحاديث موثوقة لا تحتمل الريبة أيضاً، فيذكر بحديث عن علـــي قـــال فيه ينصح عثمان: "تعلم يا عثمان أن أضل عباد الله إمام جائر، "سمعت رسول الله صلعم يقول: "يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر ولـــيس معـــه نصير ولا عاذر، فيلقى في جهنم، فيدور فيها كما يدور الرحى، ثم يرتطم في غمرة جهنم".

تأمل العيثاوي المجادل الذي جربه، وارتخى في مجلسه تاركاً تبادل الكلام يجري دون تدخله، كعادته حين يقرر الاستماع والالمام بالصورة كاملـــة، واعطـــاء نفسه الفرصة لتبدو متريثة حكيمة، في حين أدرك التاجـــي إن الـــرجل سيدخلهم في متاهات لا قبل لهم بها، وقف هاتفاً بغلظة:

- يا هذا، حساب السلطان وعقابه وتقويمه، إنما شأن من شؤون الله، ولا بـــرهان لنا على حقنا في انتزاع ما أراده الله بتحكيم أحدهم علـــى الـــبلاد والعـــباد، وجل ما هو مقبول؛ الدعاء للامام بالهداية؛ والانـــصراف لشأن هداية ذاتك من الوقوع في الخربطات والهلوسات، واعلـــم، إن نفـــس ذات الحـــضرة السلطانية؛ مقدسة؛ وغير مسؤولة أمامك، أو أمامي، وإذا ما ذهبنا إلى التقريع واستعداء العامة، فإننا نقود الناس إلى فتنة، ونسمح بظهور البدع والخزعبلات.

أمن الحسن البوريني على مقولة صاحبه وزاد:

- مـــا نصب الله الأئمة إلا واصطفاهم واختارهم لقضاء حوائج الـــناس، وهو يرث الأرض وما عليها، فإن فسدوا - وهم بشر- ندعو لهـــم بالهدايـــة؛ وإلا كان هرج ومرج ومضرة، وأن تكون الناس تحت حـــاكم فاســـد لزمان طال أو قصر، لخير من فراغ يوم بلا قائد، فيقع نـــزاع وتراق دماء.

تخفـــف العيـــشاوي وانشرح صدره؛ والشيوخ يكفونه ثقل جدل الـــرجل العنـــيد، فما أراد وهو في موقع شيخ الإسلام؛ امتهان حجته جهاراً مع صوفي أرعن مثل الكركي، ولا ابتغى فقدان حلمه وحكمته، ومـــا عرف عنه من صبر؛ وهو في مرتبة توازي الصدر الأعظم، كان حريـــصاً علـــى صورته المهيبة، فلم يكثر من المحاجحة، رغم إن الأسير المـــدان لم يتورع عن الغمز من قناة الأئمة والفقهاء، معرضاً بالفتاوي الـــتي تـــناقض العقـــل، ولا تتوافق وقيم الخير والعدل التي شاءها الله للبشرية، لخنوع أو جهالة أو مطمع في منصب أو أعطيات، حتى جعلوا الدين سيفاً في غمد السلطان، وخيمة تحجب شمس الحقيقة.

أظهـــر الميداني صبراً ورزانة فائقة في مقابل نـــزق التاجي، بينما تحدث الحسن البوريني كمن ينصح غراً؛ لا يأخذه مأخذاً جاداً، فأنبرى يقول بأبوية متكلفة:

- لـــو جاءنـــا في التو عدو، كافر، أو صليبـــي، أو خارج عن المـــسلمين، لكنت أنت أول من نستدعي للجهاد، فهل تفر من فرض فرضه الله؟؟ يا ولد، اعلم إن الجهاد ماض مع الإمام، براً كان أو فاجراً، فإذا كان الجهاد بالنفس، وهي أغلى ما يملك الإنسان، واجباً؛ لا يبطله جـــور ولا يحتمه عدل، إنما هو قرار أصحاب الحل والعقد، كيف إذن تـــرفع عليهم سيفك؟ والله لا يحل لك؛ حتى لو غلبوك بالسيف، فمن صـــار خلـــيفة بإرادة الله، حلت طاعته؛ وحرمت مطاولته، فلا تكن

يـــا هذا من أهل البدع، ولا تمنح صكوك الإيمان والكفر كيفما اتفق، فتحلل وتحرم.

استمرأ يحيى النقاش، وذهب في حواره إلى التفسير، وإن رد على الشيوخ تصنيفهم لكلامه على أنه من باب التحليل والتحريم، قال بذلة مشفوعة بثقة العارف:

- أنـــا العبد القليل الجهول، أكفر أو أمنح صك الإيمان! معاذ الله، ما يريد المؤمن العابد من وراء الكلمات، أكثر مما وقر في وجدانه مـــن شغف وتوسل للخالق، لكن التأويل المغلوط الخطير في أثره، يقع من إمام ظن أن سيف الله وقع بيده دون سواه، أو سلطان تسلط على المعاني يسوقها أينما وجه رسن خيله ونصل سيفه، فإذا بالعامة يتبعون دروب هـــوى ســـلاطين الـــدين، وسلاطين الحكم، فيفسرون على مـــنوالهم؛ مضيعين لحظات الوجد والكشف والنور والحقيقة والمعرفة، ضـــاربين حـــول عقـــولهم وقلوبهم أسيجة من تحريم وتحليل، وتكفير وتـــسليم، كمـــا شـــاء لهم سلاطينهم، وربما أكثر مما يراد منهم، في ســـعيهم المحمـــوم في ســـباق إرضاء السلاطين ونيل اعطياتهم بالحق والباطل.

صفق التاجي واقفاً، وخلط حديثه بقهقهات خفيفة ساخرة:

- أحـــسنت يا ولد، هه، أحسنت، عافاك، لك من زمام الكلام كـــثير، لكنـــنا لسنا من العوام السذج الذين تنطلي عليهم أحابيلك، أعـــرف إن تلـــك ألاعيب المتصوفة، وأنت منهم؛ تظنون الحقيقة من نـــصيبكم دون الناس، وتلعبون بالبيضة والحجر، تألهون أنفسكم بكلام حـــول الاتحاد بخالقكم، ومن ثم تعتدون على أأئمة المسلمين وأصحاب الـــشأن الذين يعدمون النظر وهم يدرسون كتاب الله وكتب السلف، فترفعون كلامكم سيوفاً في وجوههم مستهينين بهم.

حـــدق يحيى مندهشاً والشيخ يكيل اتهاماته، راجع ما صدر عن لـــسانه موحياً بتلك المعاني الملتبسة، واطمأن إلى براءة عقله ولسانه مما أورده الشيخ، فرد بنفس الدعة السابقة:

- الذين يقولون بالاتحاد يا شيخنا، هم نفر صغرت اللغة عندهم وأعجـــزتهم عن تصوير وجدهم، فاختاروا أشدها إيحاءً ووقعاً، أرادوا قـــولاً تفني به نفوسهم، وينكرون بكلماته أنفسهم، هي طرائق لغوية مثلما يقول المسيحيون بعيسى ابن مريم؛ "اتحد ناسوته[1] بلاهوته" [2]، وإن التـــبس الأمر على العامة، فإن هذا لا يذنبهم، لقد رافقت عيون الحكمـــة لابن سينا في عمري كله، أتلمس كلماته ونفحاته، وعلمت إن الكـــلام لم يحمـــل وجد قلبه كما أراد واشتهى، وتتبعت أسرار ابـــن عربـــــي المخـــبأة في الحروف، فما وجدت الكلمات إلا لغة الألـــسن، بيـــنما الإيمان لغة القلوب، ما من امرئ لا يدرك عبوديته، ولكـــن المرء يشتهي الفناء بالكلمات أو الوجد، كما يفنى الوهم في عين الحقيقة.

أشـــار الميداني لصحبه بكفه كأنما يطلب الرد على المتهم دونهم، صمتوا، وتنحنح الميداني قائلاً:

- لـــو اخـــتار الإسلام الصوفية طريقاً؛ لوافقناك، إنما نتبع درب إمامنا الشافعي الذي لم يجد لدى المتصوفة منطقاً يقارع به، فقال رحمة الله علـــيه: "صحبت الصوفية فلم أستفد منهم سوى حرفين، أو ثلاث كلمات، قولهم: الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك، وقولهم: نفسك إن لم تشغلها بالحق، شغلتك بالباطل، وقولهم: العدم عصمة". وكلها كما ترى، إذا كنت لبيباً، ليست إلا أمثالاً وأقوالاً تفتقت عبقريات الشعراء

---

(1) انسانيته.

(2) كتاب رب المجد.

وهوام الناس عما هو أهم منها وأبلغ، فلا تشغلنا بكلام لا يفيد، وليس كثيراً أن تتواضع نفسك تلك التي تدعي إنك سقتها إلى الكمال.

قاطع يحيى كلمات الشيخ متعوذاً:

- معاذ الله أن ادعيت لنفسي كمالاً.

أراد الميداني بتر المجادلة العقيمة، والوصول إلى حل عملي لا يريق ماء وجوه الشيوخ، وينهي تلك الليلة الباردة الطويلة، قال بضيق:

- لا تقاطع يا رجل، كنت أقول؛ ليس كثيراً أن تتواضع بين أيدي العلماء، فتعتذر عما بدر في رسالتك، وفي كلامك، وتكف عن إشغال العامة ومطاولة السلاطين، وتنصرف إلى عيشك عارفاً بموقعك، ممسكاً عليك كلاماً؛ لم يُجزّك عليه فقيه، ولا أنت أهل له، وليس من ورائه إلا الفتنة، وقدّر صبرنا عليك، وضياع وقتنا في مجادلتك، دع إلهامك أو خيالك الفذ يقودك، تصور؛ ماذا يكون مصير من يعارض السلطان؟ أو من يعبث بآمن الناس، وينبه المتربصين، ويعيث فساداً وإفساداً؟ وإلا فإننا نرفع شأنك إلى الوالي الحافظ، لا تمنعنا عنك رحمة، ولا تصيبنا بك رأفة، ونخرج من كل ملامة قد تصيبنا بسببك، ونمنع فتنة قد تندلع بسبب أفكارك.

عقب يحيى بما حضر ضميره من تفنيدات أستاذه ابن عربي، قال:

- الفتنة في السكوت على الأذى، وأكبر الأذى ما يوقعه سلطان جائر، الله عادل؛ لا يعطي الظالمين حق المساكين، وقديماً قال ابن عربي: الحكم نتاج الحكمة، والعلم نتاج المعرفة، فمن لا حكمة له؛ لا حكم له، ومن لا معرفة له؛ لا علم له.

ظن التاجي أن إصرار الرجل على الجدل والتعريض بالسلطان، وقاحة لا يجدر قبولها، وعلى الرغم من غضبه، فإنه حاول السيطرة على الجلسة بهدوء متشبهاً بقاضي القضاة، مكتفياً بهذر خفيف قائلاً:

-هـــه.. ستبدأ الآن في سرد خزعبلات المتصوفة، قلنا لك إننا لا نتبعهم، نعلم تلاعبهم باللفظ، وسقوطهم في الهيام والإلهام المنسلخ عن الواقع.

تصدى يحيى للفكرة ثابتاً:

- خـــير مـــن أعلى من شأن الواقع إمامنا الغزالي رحمه الله، لكنه أراده يقيـــناً نـــصله بعد تجاوز رحلة الشك، أما قال: "من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر يبقى في العمى والضلال"، والله مـــا شاء ولا تشاؤون أن نقيم في العمى والضلال، وإن رحنا أولاً نتصور العالم عبر الإلهام والخيال، فالغزالي الذي يحكم العقل ويحتكم إليه لا ينكـــر الإلهـــام ويقول: "الإلهام ضوء من سراج الغيب، يسقط على قلب صاف لطيف فارغ"..

ضحك البوريني معقباً:

- مـــاذا تفعـــل يا هذا إذا سقط إلهامك المزعوم هذا على قلب فـــاحش شرير!! فالقلب لا يكون فارغاً، فإما يعمره ذكر الرحمن، فلا يقـــع فـــيه الهـــام، ولكن تسليم لما جاء في الكتاب، وإما تسيطر عليه وسوســـة الشيطان فيكفر أو يدعي، أما القلب الذي تحدث عن فراغه؛ فليس عندي إلا صنف من الجنون.

هـــز يحيى رأسه ممتنعاً عن الموافقة على ما يقال، مستعيناً بما تذكر مـــن كشوفات تراءت له في أنصع لحظات صفاء وبراءة قلبه، مذ راح يتتـــبع الـــنور ينغمد سيوفاً في حلكة فضاء الخيمة الأولى إبان طفولته، موضحاً ما يفسر له تلك الحالة على قدر معرفته وحدسه:

- القلـــب قلـــبان، قلب تقلبت فيه الشهوات واستحكم الغي، وعمـــيت نواظره عن العسف والتجبر، فهو قلب لم يولد بعد، وقلب خـــرج إلى فضاء المعرفة، وعلم أن الجسد حبس الروح، غالب شهواته

وانتـــصر للخـــير، لا سبيل للشيطان عليه، هو قلب أحيا صاحبه بعد الموت، قال تعالى في محكم آياته: "أو من كان ميتاً فأحييناه، وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس". [1]

ظن الميداني إن خيط الحوار صار في يده، قاطع يحيى، هاتفاً:

- *رويدك، ولو كنت لا أحب أن أقطع حديثاً يتلى فيه كلام الله، وإن خـــرج من فمك المدعي، نـــزلت هذه الأية في عمر الفاروق وقد تـــبين له النور من الضلال، وأسلم وجهه لله، ولم تنـــزل في متصوف يدعّـــي ويتوهم، رويدك، أما ترى تناقضاً في كلماتك على عادة أهل الدروشـــة والتـــصوف الـــذين لا يعرف عقلهم من جنونهم؟ تستعين بمقـــولات الغـــزالي وهو الذي أرجع التحكيم إلى ما جاء به السلف! ورجـــح أن الحق الصريح الذي لا مراء فيه، لكل ذي بصيرة، إنما هو مذهب الصحابة والتابعين، وهو من كان عنده العقل الميزان الذي قيضه الله للانـــسان محـــدوداً بارادته وحده لا شريك له، والله؛ لا أذكر أن الغزالي أو نبـــي من الأنبياء بشرَ بك وبأمثالك تأتون بدين جديد.*

ضحك الشيوخ معاً باقتضاب، وابتسم يحيى بمقدار وقد نال منه الـــتعب، وتمايـــل جسده واقفاً، فما وجد له متكئاً، حاول موازنة تمايلـــه؛ وتذكر بخشوع مقولة رسول الله وهو يمتنع عن رياش الدنيا ونعيمها: "ما أنا في الدنيا إلا كراكب، استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها".

مع انقطاع ضحكهم واعتدال وقفته استنشق نفساً وقال:

- *لا يـــأتي أحدنا بدين جديد، والاسلام طوى ما قبله وما بعده، لكنه ليس مغاراً ضيقاً مغلقاً، كلما حاد فيه المرء أنملة خرج عنه.*

عاجله البوريني بالرد:

---

(1) القرآن الكريم- سورة الأنعام.

- وهـــو لـــيس عباءة تضم كل رداء يثير الشقاق ويأتي بالوبال، ويدعـــي صاحبه الاسلام فيغض الطرف عنه، ليس من الحكمة التفريط بثوابت في الدين باسم اختبار كل جديد.

تنحنح الشيوخ مستعيدين وقارهم وهيبتهم، وأقسم التاجي:

- والله، لـــو طـــار رجـــل في الهواء، وتربع على الماء، وأتى من الكـــرامات ما لا يصدقه عقل، وما رأته عين، لما سلبني تفكيري، وما مـــنعني مـــن تقويمه بما شرع الله من ثواب وعقاب، فليست كرامات المتصوفة حجة على الشرع.

كأنما دارت الحجة ووقعت مجدداً في لسان يحيى، رد مستبشراً:

- ما اختلفنا يا شيخنا، فما نظرت لطريق البشر إلا رحلة تطهير مـــن الشر والفسق والمظالم، وسالك الطريق عبد تاب عن هوى نفسه وشـــهواتها، واستقام في مجاهدة وطاعة وإخلاص، إنما نفطم النفس عن عاداتهـــا، ونعرف أن لا ظفر لمن لا صبر له، وما كانت الكرامات التي تُحـــدث بها غايتنا، بل إننا ننكرها، وننكر تمتع الأولياء بها، فمن خرق عوائد نفسه لا حاجة له بخوارق العادات، صغرت دنياه واكتفى بأعظم الكـــرامات، وهي الاستقامة على شرع الله والإمساك بالدين، إمساك الكف بجمر متقد في قبضة اليد، ولنا أن نستشهد بالغزالي مرة أخرى، فهو من قال إن من لا تكون بصيرته ثاقبة، وباطنه على نور، لن يعلق به من الدين إلا القشور.

تنبه قاضي القاضي إلى أن الرجل بات يستخدم صيغة الجمع كأنه مـــا عـــاد فـــرداً، وأن كلماته تفخم من معتقده، متناسياً مخاطبته لنفر يفوقونه في العلم والمقامات، تنهد العيثاوي، وعب قدراً وافراً من الهواء، وعـــدل مـــتكأه، كما لو أنه يوعز للشيوخ بإحكام قبضة الكلام على الـــرجل، الـــتقط الشمس الميداني دلالة تنهد القاضي واتكائته البليغة،

تفحـــصه بطـــرف عينه ثم وجه نظرة حادة نحو يحيى، وتبادل كليهما الحديث سجالاً:

- لا تخلـــو مـــن خبث يا كركي، تنتقي وتختار ما يحلو لك من شرع الله، تستنبط الدلالة التي توافقك، كأنك صاحب الشأن، تتبسط حيـــناً وتجـــدل كلماتـــك حيناً حتى تضيع المعنى، وأنا أقول لك، نحن أصـــحاب الأمانـــة الموكلون بالعلم والشرع، لا يخفى علينا ما قال به الغـــزالي الـــشافعي عن العقل يا رجل، لقد حكمه في الأشياء، لكنه لم يملـــك جرأة لسانك، وهو العالم الجليل، عندما وصل الأمر إلى الإله، علـــم أن لا دور للعقل إلا القبول والتسليم، فلا تدخلنا في سفسطة لا طائل منها، وتعلم كيف تخاطب من هم أغزر منك علماً، فتأدب، ومن هـــم أدنى معرفة، فأقصر، فقد أُمرنا، ونحن العلماء، بمخاطبة الناس بما يفقهـــون، ليس كل خفي يوضع بين أيدي العوام، وليس كل ما يقال يصل إلى العقل الغافل.

- خطابـــــي للعقل والقلب معاً، فإذا تعقد المعنى وحار العقل في الوصول إلى دلالة الكلمة، فهم القلب، وتلذذ واستكان.

- أليس الجنيد المحسوب عليكم معشر المتصوفة من قال: أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم؟

- قـــدر العقول يزيد أو ينقص بما يتدبره، وكلما جلوت العقل بالمجادلـــة وأمعنت في مرانه فكراً ومعرفة، شكاً وأسئلة، كبر واتسعت آفاقـــه، واســـتدل على الطريق، كمن يتعهد طفلاً؛ ينقله من الحبو إلى المشي، إلى أن يطير.

- يطـــير! إذا ســـلمنا إنه تعبير مجازي، مثل ذلك التدرج والتفقه يكـــون مع نفر قليل، أما ترى تحريم كتب التوحيد والفلسفة إلا على الخاصة، ممن حباهم الله فطنة ومعرفة، وزودهم بإيمان يقيني يقيهم خطو

الــزلل؟ فحجــبت معارف العارفين وما خطوه عن هوام الناس؛ توقياً للخلــط وتضييع المعاني عند من لا فطنة له، وأنت؛ وما أجازك عالم أو فقــيه تتحدث في مجالس اختلط علماؤها برعاعها، يظنونك ولياً أو ما شــابه، وإلا أية حماقة جاءت بحشد غريب عند باب المحكمة اليوم! إذا كــنت مؤمــناً حقاً كما تدعى، ازجر النفس عن غيها، وأعلن توبتك صــادقة نــصوح في مجلسنا هذا فقد نعفو عنك، وعما أتيت من فعال تطالها حدود الشرع الشريف، أما تتوب؟.

وقــع صمت لهنيهة، تحرك خلالها التاجي ملولاً، وانحبس نفس الــبوريني، وتلمظ العيثاوي باحثاً بناظريه عن كوب الماء وقد جف ريقــه، عندها شاهد الساعور الذي داخ واسترخى في مجلسه طيف دمــع يجوس عيني يحيى ولا ينهمر، لم يكن من الممكن تمييز السبب الــذي غشت الدموع فيها عينيه في تلك اللحظة، لكنه تنفس بعمق ممــسكاً انهمارها، وأسدل جفنيه في ضعف وذلة وهمس، ناجي ربه بكلمات ترتعش:

- أتــوب.. أتوب.. أنا العبد الذليل في المسير والمقيل، أتوب عن كــل ما يشغل قلبــي عن الله، أتوب عن كل ما يصم آذاني عن آنات عبــيده المستضعفين، وكل ما يعمي ناظري عن عسف متجبريه، وظلم الذين ظلموا أنفسهم والناس.

نهــض التاجــي مــن مجلسه متثاقلاً وقد تيبست عضلاته لطول الجلوس المهيب، تمطى قليلاً إلى حد لا يحقر فيه هيبة الشيوخ الجالسين، وقال ضجراً:

- قــد أفــريت أكبادنا يا رجل، إن المرء ليقول بلسانه كلمات تخــسف به الأرض، تنقله من المشرق إلى المغرب، وتطيح به من الجنان إلى قــاع الجحــيم، أولئك هم المتنطعون، هلك المتنطعون، الأصل أن

يكـــون لك سند في قرآن أو حديث، وأنت تقفز بنا مثل الجندب بين أقوال الغزالي وابن عربـــي ومن شاكلهم، وإن تمايزوا أو اختلفوا.

- ســـالك الدرب يصاحب في مسيره كل من مشى يقصد غاية الحقيقة، فيأخذ منه غرضاً، ثم يمضي، ليلقى سواه.

استشاط التاجي غضباً، وعلا صوته دون حساب للقاضي الأكبر، فشوح بذراعيه ملعباً أصابعه صارخاً:

- هـــا!! مثل الحواة والبهلوانات، يجمع سالكك هذا في جرابه ما وافـــق نفسه وغيه وهواه!! ما كان لنا أن نفسح لك في الكلام، كأنك صـــنو لنا في علمنا أو مقامنا! وإن أنت إلا واحد من عوام الخلق، وما ظنـــنت أن الاجتهاد حق لمن نقص علمه، وأنت تحدث كلاماً يتعامل معـــه العامة كما الفتاوي بشؤون دينهم ودنياهم، ومثلك يعرف أن لا فتوى لمن لم يكتمل علمه، ولا اجتهاد لمن لم يحط بعلوم الدين كافة عن عوضـــاً عـــن اطلاعـــه على علوم الدنيا، واتقانه اللغة وأساليبها وفهم الحقائق وحسن التقدير، فهل تراك أهل لذلك؟؟ وكما جاء في مذهب الـــسلف، لـــيس لـــك إلا ما وجب على سواك من العوام، التقديس، والتـــصديق، والاعتـــراف بالعجز، ثم السكوت، والإمساك، والكف، والتسليم لأهل المعرفة.

تمتم يحيى ذاهلاً:

- والله؛ إنه سيف يرفع.

نهره التاجي معنفاً:

- أية قحة يا ولد!!

بنفس الهدوء والتبسط أجاب يحيى:

- الإجتهاد سلم ترقاه الخلائق، لا ينقطع عند صحابـــي أو فقيه أو شيخ دون سواه، وهو حق لكل مجتهد له عقل فيرى.

صفق التاجي كفيه مقلباً صائحاً:

- الرجل يوزع الحقوق ونحن جلوس!!

نهض العيثاوي من مجلسه بعد ملازمة صمته منذ بدأ الجدل، عدل عـــباءته وســـار خطوتين، وقف إلى جوار التاجي، لامساً كتفه برفق يهدهـــد غضبته، أرجع البقية رؤوسهم وسووا قعدهم ينتظرون كلمته، ارتجـــف الساعور زائغ العينين، طقطق الحطب المشتعل وتوهج الشرر يحـــول أســـوده إلى رماد، واعتدل الحرس في وقفتهم المتراخية، وغط الكاتب ريشته في المحبرة ونفضها برفق مستعداً لكتابه ترجمة ما يفوه به قاضي القضاة، بدت لحظات الانتظار الصامتة، طويلة مبهمة.

خرج صوته وقوراً وهو يتعمد خفيض النطق وبطيئه قائلاً:

- بـــسم الله، قال إمامنا الشافعي، رضي الله عنه وأرضاه: "الذي يطلب الحديث بلا إسناد، كحاطب ليل يطلب الحطب وفيه أفعى؛ وهو لا يدري"، وأقول؛ الذي يتجرأ على الفقه، يضع كفيه في جحر الأفعى وهو مدرك لها، وليس خفياً إن ما كتب علماؤنا حتى المبجلون العظماء منهم قابل للمقارنة، ولا نذهب في اختيارنا إلا إلى ما اتفق عليه جلهم دون الفـــروقات الصغيرة، ولهذا نحتمي بشرع القرآن مرجعاً، ونرفض اجـــتهادات ممن لا صفة له، وقد ذهبت بعيداً يا كركي وأنت ترتدي مـــسوح العالم؛ وما أنت بعالم، وما أرى تلك الجلسة إلا ضياع وقت، وتفلسف في غير موقع، لهذا؛ كفانا تسويفاً، نمهلك حتى الصباح، تفكر بخالقـــك، وصـــوابك وخطـــئك، وتعتذر عما بدر منك، وتتوب عن تماديك، سنتداول في أمرك هنا، ولو قضينا ليلنا كله، فلا يقول قائل إنا تعجلنا مصيرك.

أُمـــر الحـــرس فاقتادوا يحيى مكبلاً بأغلاله إلى حجرة جانبية، وقف بعـــضهم عند بابها وآخرون قرب نافذها نعسين، بينما تخفف الشيوخ من

جلـــستهم الطويلة المتعبة، مددوا أكتافهم على الوسائد مسترخين، وفردوا أقدامهم على طولها كما لو أنهم يستعدون للنوم، وأُخرج كل من الساعور والكاتب إلى حجرة أخرى فرشت لهما ليناما قبل طلوع الفجر بقليل.

حـــرك الحـــارس الهواءَ فوق الجمر المتقد، وزاده حطباً عله يغلب شدة البرد في صالة المحكمة الرئيسة.

* * *

الناظر إلى الجموع المكدسة على باب المحكمة يحسب موتاً جماعياً حـــل بالقـــوم، لولا حركات طفيفة توزعت هنا وهناك، فقد تدثروا بدوامـــرهم وعـــباءاتهم متقين أية حركة تمكن الهواء من قرص أبدانهم بـــصقيعه، تلاصقوا باحثين عن دفء دماء بعضهم البعض، اصطكت أســـنانهم، واشتد الصقيع يسفح وجنات كل رأس يرتفع، كما لو أن المكان وقع في فجوة كونية باردة.

تحامـــل أبو سندس على نفسه، التفت يتفقد النسوة اللواتي تعانقن ملتويات كما الأجنة، وفك صدارته الجوخية مدثراً بها قدم علان التي لم يعـــد يشعر بها، ووقر في نفسه أن قدمه ما عادت منه، لعلها قطعة لحم ميت تلتصق بجسده بغشاء جلدي واحد، فقد اصفر وجهه، وأطلق أنيناً كالمواء متألماً في البداية ثم أمسك خجلاً، شُل منه الوجع؛ فسكت عن الـــشكوى والأنين تماماً، فكر لو أن تلك الليلة المشؤومة انتهت بموت رجلـــه وبترها، فإنه لن يشعر بالظلم والإجحاف، لعله يسدد حساب خطايـــاه وذنـــوبه؛ فيتطهر؛ ويعود كما ولدته أمه ناصعاً لا آثام تثقل كاهله. سأل الوليد الاندلسي محتاراً:

- *ماذا تظنهم فاعلين به؟*

طغـــى على أبـــي سندس حدس غريب بحتمية انتصار يحيى مهما وقع، أجاب بهدوء:

- ما عرفت يحيى إلا سيد عقله وقلبه، كيف يكون لسواه حكم عليه إذاً؟ لا ينالون منه وإن أرادوا؛ فما ملكوا نفسه الحرة أبداً، إنما هو في اختبار، إذا خرج بجسده سليماً من ذلك الباب؛ فقد غلبهم وأعجزهم، وإذا انتقموا من جسده وعاقبوه كيفما كان العقاب؛ صار فكرة حية لا تموت، وانتصر.

تنهد الأندلسي نافثاً الهواء، فتشكلت من حر أنفاسه غيمة ضبابية في مواجهة وجهه، دعك كفيه في دفء بخارها، وسرح بناظريه متأملاً الأجساد التي أحكم البرد هدأها، تمتم بخشية عميقة:

قال الفيلسوف اليوناني سقراط وهو يتجرع سم اعدامه: "اللعنة على كل من يعلم الناس أسرع مما يمكنهم أن يتعلموا"، أخشى أن الناس لم يفهموا فحوى ما يذهب إليه يحيى من قدح شرر التفكر والتدبر في شؤون الدنيا والدين، إنها لعنة متصلة، تصيب كل من يفكر أو يجتهد، إنه اختبار عسير يا صاحبي.

ذو العقل يشقي في النعيم بعقله... واخو الجهالة في الشقاوة ينعم.[1]

تيقن يحيى أيضاً إنه أمام اختبار عسير، لم يعتقد إنه يجتازه بكلماته وجدله العنيد، لكن برحمة تنزل على فؤاده، وتدله على السبيل، كان في برد الحجرة الجانبية القارص عالماً بذلك الحشد في الخارج، سامعاً هسيس النار في قاعة المحكمة المجاورة، يرى في حالك فضاء غرفته خيالات الحرس يتمايلون عند الباب، ويسمع لمرور الهواء بين الحجرتين صريراً خافتاً ينذر بالوبال، مع ذلك وقف وركبتاه تثقلان عن رفعه، اتخذ وضع الصلاة، ورفع كفيه إلى أذنيه مكبراً، ثم صلى صلاة الاستخارة.

---

(1) المتنبي.

صـــوته خافت، إلا أن صفاءً لف فضاء المحكمة منح حروفه نقاءً مـــسموعاً؛ أسكت الشيوخ في القاعة، والحرس المتوزعين في المداخل، وهو يترنم بالدعاء:

- *اللـــهم إني أستخيرك بعلمك، واستقدرك بقدرك، وأسألك من فـــضلك العظـــيم؛ فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، أنت علام الغـــيوب، اللـــهم إن كنت تعلم أن جميع ما أفعله من هذه الساعة إلى مثلها؛ في حقي، وحق غيري، في ديني ودنياي ومعاشي ومعادي وعاقبة أمري، عاجلهُ وآجله، هو خير، فاقدرهُ ويسرهُ لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن جميع ما أنويه، في حقيقي، وحق غيري، من هذه الساعة إلى مـــثلها، شـــرٌ لي، في ديني ودنياي ومعاشي ومعادي وعاقبة أمري، عاجلـــه وآجلهُ، فاصرفه عني واصرفني عنهُ، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضّني به، إنك على كل شيء قدير.*[1]

تبادل الشيوخ النظر، وهمس البوريني آملاً:

سيعتذر، سيعتذر.

انـــبعث صـــوت الريح فجأة كما جبل دك في الجوار، ينبه قلب يحـــيى؛ فمـــا وجد في ضميره خطيئة يعتذر عنها، ولا ظن أن اجتهاده وأفكـــاره تـــنقص من الخير والحق، لكنه تحسس إرادة مسعورة تسعى بإصـــرار لامتهان عقله وحدسه؛ ساعية لنيل رضا الأئمة والسلاطين، وحماية الكراسي والعروش والمكتسبات، تعرف في إيهاب نفسه الوادعة علـــى محارب شرس، ظل يعالج حنقه بحلم المؤمن، وحلو الدعاء، بلغت ترانيمه الساحة في الخارج، مخترقة صفير الريح:

- *العليم.. العليم... أزل جهل نفسي يا عليم وزكها.. بسلطان سر اسم العليم... وثبت.. أفضني علماً يا عليم.. مقرباً إليك.. بك..*

---

(1) صلاة الاستخارة.

وقدس يا عليم أنيتي... وهب لي نوراً يا عليم.. مبصراً بأنوار سر العليم بـــصيرتي... بأنوار ما أودعت من سر اسمك العليم... بأسرار النفوس الـــزكية... بينـــبوع سر اسم العليم.. أمدني.. واجعل لعقلي كنه كل حقـــيقتي... إلهي.. عبقني بأثير اسمك العليم... إلهي حققني وقو رباطتي وطويتي.. يا عليم.

* * *

هـــت انعكـــاس النار الأحمر وقد خبت الشعلة في الجمر، واتقد والحـــارس يهشها مطيراً شررها، رسمت النار خيوطاً ملونة على ملامح الرجال الجالسين على الأرائك في القاعة الرئيسية، وكشفت عن رهقهم وضجرهم، وباحت بالوجوم الذي اعتلى وجوههم، قال البوريني:

– *لعل الساعور منصور نام، اسمع شخيره، أو أنه شخير الكاتب.*

هز الميداني رأسه معلقاً:

– *محظـــوظ مـــن ينام، والله قد أطار الرجل النوم من العيون، لم أعرف عنيداً كعنده، ولا بارداً يفقع القلب والمرارة مثله.*

فحج التاجي محركاً حبات مسبحة كبيرة بين كفيه، وقال بضيق:

– *مثل هذا الرجل لا يؤخذ على حسن النوايا، عندما قال لنا قاضي القـــضاة أطـــال الله عمــــره بعض التفاصيل، لم أتوقع كل تلك الوقاحة والفجاجـــة، مثله لا يترك شأنه في ليلة تنتهي بمزيد من شغبه وعبثه فيقض مـــضاجعنا كل ليلة، ولا أظنه يراجع نفسه ويتوب، ما دام قد احتكم إلى المتصوفة على كل مشرب ولون، مساوياً بين كتبهم وتلفيقاتهم وكتاب الله وحديث نبيه، يتحامى وراء ابن سينا، وفكر الغزالي أو ابن عربـــي، رفاق قابلـــهم على الدرب ومضوا عنه!هه! كأنه يريد أن يخط لنفسه درباً وحده يمـــزج فيه كل ما عثر به على الطريق، وإني أرى أن نطبق فيه ما أقره أمامه الغزالي؛ حين دعا إلى إلجام العوام عن علم الكلام، وإلا؛ فهي فتنة.*

دار حارس على الشيوخ بكؤوس زهورات الورد المحلى بالعسل، فانتعشوا قليلاً وهم يرشفون ما يعيد لهم حيويتهم وقد ذهب بها الليل، وإن ظلوا يتداولون في شأن الأفكار التي ألقاها الرجل المجنون دون الانتباه إلى صمت قاضي القضاة يتجدد، مكتفياً بالاستماع، فإذا ما عاب البوريني ما يدعيه المتصوفة من اتحاد وحلول، وعده كفراً صريحاً وزندقة معلنة، نبهه الميداني إلى التراجع عن استسهال القول بالتكفير لكل من قال لا اله إلا الله، ثم عرجوا على مناقشة أمر ابن عربي وتمسح المتصوفة بجبته، وأخذهم بكلماته، وقال التاجي مذكراً:

- وأسفاه على زمن مضى، عندما أوصى الشيخ كمال زاد قبل مائة عام بمنع كتب ابن عربي، وعده متزندقاً، ووافقه المماليك، والله لا أعرف أي غي أعاده للنور، إلى حد أن يكتب الشيخ المكي ابن المظفر اعتذاراً له، معظماً لفكره، هذه هي النتائج، يتبرك به الهوام والعوام والسذج كأنه ولي من أولياء الله الصالحين، حتى من أصابه من العلم جانب، مثل هذا الكركي، يستشهد به، ويحاججنا بحججه، فما نقول عن كل ضعيف العقل والفهم!! لا بد تزل قدمه ظاناً إنه يفك أسرار كلماته المبطنة الخفية، هذا والله تضييع للعقول، مع هذا؛ يقيمون له زاوية وضريحاً..

قاطعه الميداني وهو يحاول أن يكون أكيسهم وأكثرهم منطقاً، قائلاً:

- ليس الأمر على هذا النحو تماماً، فإقامة المقام لابن عربي، أو الرفع من شأنه في مثل احتفالات الدراويش التي يحضرها أئمة وسلاطين، ما هو إلا استرضاء للعامة، وتوسل لدرب مفتوح بمقدار بين الناس والسلاطين، تطبيب للخواطر، وتخفيف من احتقان النفوس، كأنما يجتمعون على تقديس أمر معاً، لكن مثلنا يعرف تمام المعرفة إن أصحاب

الشأن، والحريصين على الشرع والفقه والدين، يتكفلون بحجب جوهر تفكير ابن عربـــي، ومقاصد كلامه، ووجهة دربه عن العامة، والعوام معـــذورون، يخلطون في فهمه ويزلون؛ لأن الصورة خفيه في معظمها، فتراهم يختلقون ويتوهمون.

استنكر التاجي تبسط رفيقه، واعترض:

- لا أظنك تدافع عنه، فما لعاقل مشرع فقيه الأخذ بما جاء به، ما هو إلا مرواغ بالكلمات وخارج عن الإسلام، زنديق.

رد الميداني برهبة:

- أعـــوذ بـــالله، إن كل مَن خاف الله عز وجل؛ استعظم القول بالـــتكفير لمن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله محمداً رسول الله، والكفر لـــيس إلا الـــتكذيب الـــصريح وهذا لعمري من الجنون، أما التنطح والجهالـــة؛ فتعـــصمها عن التكفير شهادة أن لا إله إلا الله، وهذا شأن صـــاحبنا وغيره من المتصوفة، ولا يخفى عليك ما قاله ابن مالك: "من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق".

احـــتقن وجه التاجي ونفرت أوردته، وجحظت عيناه وهو يجيب مقهوراً:

- ابن مالك! وأنت الشافعي! أرأيت!! أرأيت ماذا يفعل بنا رجل مـــثل هذا! في ليلة واحدة، ونحن العلماء! أما كنت تلومه وتؤدبه منذ هنـــيهة؟؟ والآن! والله إنـــه لفتنة، صرنا الآن نتجادل؛ كأننا لسنا على قلب رجل واحد، صرت تبحث عن مثالبـــي، ناسياً وزره، أرأيت ما أوصـــلنا له الرجل في ليلة واحدة؟ فما عساه فاعل بالعامة البسطاء لو تُـــرك يصول ويجول بينهم؟؟ علينا أن نتنبه فلا نصير ملاعب يعبث بنا الرجل كيفما شاء، وعلينا فض ليلنا هذا على قرار، فمن تنطع واعترض

علـــى الـــسلطان؛ لا يمنعه مانع من الاعتراض على المشايخ في أحوالهم وأفعـــالهم، هـــذه ردة؛ والـــردة والله تستوجب القصاص، "ولكم في القصاص حياة" (1)

ارتبك الميداني وخطف لون وجهه اصفراراً وهلعاً، همس بحروف راجفة:

- الـــردة في ضـــمير المرء، لسنا كاشفين عنها، وتكفير امرئ أو طائفة، أو أي انسان على الاطلاق حمل ثقيل يكسر ظهر صاحبه، وفتنة تحيل الحياة إلى خراب.

انفعل التاجي صارخاً:

- الخراب أن يطلق العنان لكل مستبنط غرور أن يدلي بدلوه.

أثـــر المـــيداني الرجوع عن المجادلة وهو يلمس حدة طبع رفيقه، وأنـــصرف يرتشف من كوبه، فعل البوريني فعله، لكن قاضي القضاة تنحنح، ووضع الكوب أرضاً، ثم قال:

- جعل الله علومنا في خدمة ديننا، فقد قال عمر رضي الله عنه: ثلاثة يهدمن الدين، زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، وأئمة مضلون.

تنهد الميداني مستأنساً قائلاً:

- هـــذا ورب الكعبة ما يرقق قلبـــي على الرجل، أخاف أن يكون المنافق الذي يجادل بالقرآن، لكني أخاف أكثر من زلة وضلال يمسنا ونحن غافلون!هل نحل دم وعرض ومال رجل، ونحن مثله بشر خطاؤون!!

نظـــر التاجي منـــزعجاً فاغراً فمه استنكاراً، حرك قاضي القضاة كفه يهدئ روع الرجلين، وخاطبهما تباعاً:

- أفهم لينك وأخذك الرجل بحسن النوايا يا ميداني، كما أوافقك جـــزعك مـــن هول القول بكلمة فصل تحكمك بحياة انسان، ولكني

---

(1) سورة البقرة 179.

أعـــرف دقـــة وحرج الموقف الذي يثيرك يا تاجي، وأعرف أن الرجل بليغ، أحاط بالكتاب والسنة، وقد يعجبنا في حفظه أو منطقه، فقد قتلنا جـــدلاً، وصبرنا عليه كراً وفراً، لكنه مثل كل أرباب القراءة الذين لا يقـــنعون بالـــسند الثابت وحده، ويتوهمون أن عقلهم بئر لا قرار له، يقذفون فيه كل ما يمر بهم، وهذا، قد وزع عقله بين كتب الضلالات والـــبدع، لم يكـــتف بالأثر الذي يغنيه، إلا أن الخطر الذي أراه ماثلاً أمامـــي لا علاقة له بفكر الرجل إن تصوف أو تزندق، أو جن حتى، فاســـتحق الحـــبس في البيمرستان، فما هو إلا فرد تسهل ازاحته، لقد انـــصرم الليل ونحن نتباعد عن جوهر المشكلة، لقد سمعتكم عسى أن تكفـــوني عـــسير ما سأقول، ولكنكم انسقتم إلى هوامش الجدل الذي أراده اللعين، وتركتم اللب، الآن أضع بين أيديكم المسألة كما هي.

حـــرك العيـــشاوي كوبه أمامه و لم يرفعه، تنشق جرعة وافرة من الهواء وعاود الحديث على وقع هادئ متريث، قال:

- لـــيس زمـــن التكفير لمن تشيع أو تصوف أو اجتهد باختلاف وانـــــزياح هـــنا وهناك ببعيد، فما انقضت مائة عام على قتل ألوف العـــوام والـــناس في كل ركن من أركان السلطنة، لكننا ننسى، وليس ببعـــيد عنا ما عجل به السلطان في المحروسة بالغاء أئمة المذاهب مكتفياً بإمامـــة المفـــتي الحنفي، وليس سراً إنهم غضوا الطرف عن الشام لوافر خراجها، واستتاب الأمن فيها، وحكمة شيوخها وولاتها وأئمتها الذين يعالجون حياتهم بكتمان، ويسترون كل شأن ينغص على السلاطين، لا تنـــسوا أن أباءنا استجاروا بالعثمانيين من المماليك، جئنا بهم بأنفسنا، وخـــرجنا في استقبالهم فرحين مهللين، أعطيناهم عهد الولاء، وأعطونا عهـــد الآمـــان؛ ليس في صالحنا أن نترك لفرد أو جماعة إفساد حالنا، وإثـــارة غـــضبة السلاطين على بلادنا، وليس خفياً أيضاً أن السلطنة

تضطرب في بقاع كثيرة، فالصفويون رغم المواثيق المتجددة، يحنثون كل مـــرة، وتتجدد المعارك وتراق الدماء، وقد يكون أولادنا وقود الحروب القادمة، إذا غضبوا منا وعلينا، راق لهم اذلالنا بترحيل أبنائنا إلى أصقاع الأرض البعيدة، خاصة؛ والانكشارية والسباه يتحولون إلى أعيان ثقلاء الهمـــة، نهمـــين للحياة، لا مقاتلين شجعان، كيف في مثل هذا الفضاء الملبد بالمخاطر والمخاوف؛ يترك رجل كثير الكلام، متقول، قادر على جمـــع الناس وتحريضهم، طليقاً! أهذا ما تراه مناسباً يا ميداني؟؟ أظنك تفهم ما أقول!

نكص الميداني والأفكار تتنازعه وتحير قلبه؛ شعر بالعجز والخجل وهـــو يذعن صامتاً حزيناً، وانقطعت أنفاس الرجال وهم يدركون أن المسائل التي يعرضها قاضي القضاة لم تخطر لهم في بال.

تنهد العيثاوي مستعرضاً حكمته التي فاتتهم بابتسامة خفية، وقول جاد قاطع:

- ليست المسألة رجل مجنون نـــزج به في المشفى، أو شقي نلقيه مغلـــولاً في الحـــبس، لكـــنه مثل ناقوس العواني، إذا دق؛ جمع حوله الكثيرين، إذا دق؛ أسمع من قلب دمشق حتى أذن استانبول، وإذا أُسمع؛ التفـــتوا، وبتـــنا نرتق ما فتق رجل جهول، ونخيط ما مزق، قد يكون طيب السريرة خالي الذهن عما يوقعه من ضر، وقد يكون مسكيناً على بـــاب الله، أو عالمـــاً علامة لم يجد الزمان بمثله، لكن زماننا لا يحتمله، ومكانـــنا لا موقع فيه لقدمه، إذا أفلتنا رجلاً يقف نداً للسلطان؛ أكثر الـــسلطان مـــن أعـــوانه بيننا، وبث عيونه على رزقنا وشرعنا وزرعنا وتجارتنا، إذا تعاملنا معه كمعتوه خفيف العقل؛ لم يتعامل مع ذاته بمثل ذلك، واستمرأ التهاون معه ولم يرعوِ، إذا كفرناه وأوقعنا به القصاص؛ نكون قد استأصلنا جذوره التي تفتن الأمة، وأبعدنا نظر السلطان عنا،

ووجهنا رسالة لكل من تسول له نفسه بالجرأة على التفقه والفتوى، وترويج الأفكار دون إجازة نعتمدها، فنؤكد على هيبة الإفتاء والقضاء، وعلى شرعية ما على الناس أن يسلموا به، بعيداً عن اجتهادات المراوغين، وخربطات المتفلسفين، فالسيادة للشرع وليس للأمة، والمشرع هو الله، ومن أناب من خليفة، وليس للشعب أن يسن قانوناً أو يتخطى شرعاً، وما ذلك إلا بدع وجبت محاربتها.

انخفضت الأصوات في المجلس، وما عاد الحرس قادرين على سماع الأحاديث التي تدور في جمع الشيوخ الذين تقاربوا، وأحنوا الرؤوس قليلاً مشكلين حلقة من عباءات وعمائم تخفي الأصوات والأوراق التي حبروها بكتابهم للوالي الحافظ؛ يطلبون ختمه لتوقيع القصاص على الرجل إذا لم يعلن توبته النصوح، توافقوا على العبارات التي تشير إلى ما بذلوه من جهود لرد الرجل عن كفره وإلحاده، وأشاروا بذكاء إلى تماديه على السلطان، وإلى تجميعه العامة، وما أحدث من فتنة في المشفى، وطالبوا بعبارات صريحة لا تحمل الترجي، ولا الاحتمالات، ولا تترك الأبواب مفتوحة لاجتهاد مغاير، إنما تستأذن لتوقيع قصاص القتل على الرجل الذي لم يعرف حدود دينه، وعرض الناس إلى المفاسد وخراب العقل والنفس.

تخيلوا ما سيكون ترسيم الوالي، أيجازيه بالخازوق على عادة الترك؛ فيترك الرجل للموت البطيء ولتحريض الناس على دمه؟ أم يطوف؛ فيجمع وراءه العامة ويزداد الضرر؟ أو يوسط في الساحة العامة؛ فيتناتش تابعوه ومريدوه لحمه، ويحولونه إلى ولي وشهيد؟ كل الاحتمالات بدت مرعبة، جعلت الأختام التي طبعوها على كتابهم، باهتة، مهتزة عن مواقعها، وتركتهم ساهين مثقلين، لم ينتبهوا إلى انطفاء النار في المجمرة، وإن كان قاضي القضاة ملزماً بالحراك الذي

عجـــز عنه البقية، مستدعياً أحد الحراس، وهامساً بأذنه، واضعاً كتاب الشيوخ في كفه، ثم مستدعياً سواه، هامساً مجدداً بأمر خفي.

خـــرج الحارســـان المكلفان من الباب الخلفي للمحكمة إلى ممر الخـــدمات المـــؤدي إلى الاصطبل، وسقط صمت كئيب على القاعة، وناست الأضواء متأرجحة في القناديل.

* * *

لم تنقشع عتمة الليل والحارسان يتسللان إلى حصانيهما في اسطبل المحكمـــة، راعهمـــا حـــراك الخيل وراء القواطع الخشبية وهي تحمحم وتـــرفس في موقعها وتتململ يمنة ويسرة، احتاجا إلى مساعدة السائس وهما يفكان حصانين بينما عيونهما على شطط بقية الأحصنة التي تعاند أرســـانها، تعـــوذا باسم الرحمن من الشيطان الرجيم، وخرجا في مرور سريع محاذين لتجمع العامة، الذين تململوا رغم الصقيع وأنوفهم تضيق بـــرائحة كـــبريتية خفيفة تدوخ رؤوسهم، رجحوا أن تلاصقهم طلباً للدفء تسبب في تنافر الأبدان التي ضاقت بمقعدها، لم يلفت انتباههم مرور الحصانين مسرعين.

كـــان الظلام دامساً في الطرقات، لكن الحارسين انطلقا لا يلويان على أمر، عارفين بوجهتيهما ومقصديهما، يحمل الأول رسالة الشيوخ إلى الوالي، ويسوط حصانه كي يصعد إلى القلعة، متخوفاً من الصدود، فما تعود نقل الكتب والمراسلات في مثل هذا الوقت، ويجتاز الثاني حي ساروجة باحثاً عن منـــزل السياف.

صرخت شهناز مستشعرة لجسد ملس حلس يتسلل بين قدميها، فأر لا يمكنها تقدير حجمه في مثل تلك الليلة الدهماء، قفزت إلى الوراء مـــصطدمة بـــصاحباتها راجفة، تصايحن معاً، وأفسحن ممراً ضيقاً بين الأجـــساد لجمع الفئران التي انسلت فارة متتابعة من حجرها في أسفل

حجـــارة المحكمـــة العتيقة، لا يردعها خوف ولا اعتبار لأقدام البشر المحـــيطين بالبوابة، تسربت الجرذان السمينة والفئران الصغيرة بين الجمع متسارعة قلقة، والتقطت أذنا الأندلسي خفق أجنحة تتخبط، وإذ حدق في الفـــضاء المدلهم، تبينت لناظريه المدربتين على الدقة أسرابَ الحمام المبعثـــرة في غـــير انـــتظام على عرض الأفق؛ أوجس خيفة، وصمت متفكراً.

اختـــرق حـــارس الجندرمة حي ساروجة بحاراته الضيقة الرطبة، مـــستعيناً بمشعل يطفئه عصف الريح كلما أوقده، توقف مرات يعالج شـــعلته، ويثـــبت طربوشه الطويل فوق رأسه، ولعن الشوام الذين لم يحكمـــوا إغـــلاق أقفـــاص الأرانب، وأخمام الدجاج، الذي يتقافز في الدرب على غير تعيين معثراً الحصان، في حين أن الليل أولى بحبس تلك الكائنات في أقفاصها، تمتم غاضباً:

- *عرب تمنبل*[1]*، ترالالي*[2].

مـــا أراد دق الأبواب ولما يطلع الفجر بعد، لكنه راح يفاضل بين البيوت بحثاً عن باب يعرفه تماماً، لا يخفاه لو أن ضوء النهار يعينه، خيل له أن الباب الخشبـــي الوطيء الذي لا خوخة تتوسطه قد يكون باب الـــسياف الذي يعرف، ترجل عنده، وشد لجام حصانه، وضربه ضربة غاضـــبة في عنقه ليخفف من توثبه الذي يتجدد بين الحين والآخر، جر الرسن بيمناه مثبتاً إحكام قبضته عليه، وطرق الباب بعنف بيسراه، فلم يطغَ مرور الهواء وصفيره في الدرب الضيق الطويل على صدى الطرقات الـــتي وقعت كأنها الطبل، استطاع تمييز الخطوات المتعجلة التي خرجت تستطلع، وميز وجه السياف عند انشقاق الباب؛ فتنهد، وحمد الله أن لم

---

(1) كسول.

(2) غبي.

يقـــع في الخطـــأ في تلك العتمة، تبادل الرجلان كلمات قليلة موجزة، وتأفـــف السياف مستنكراً توقيت استدعائه، وإن خطر في تفكيره إن الشأن عظيم لا يحتمل التأجيل، ارتدي عباءته على عجل، وأحكم ربط عمامـــته، ودس ســـيفه المصقول في جرابه الجلدي المتين، ثم عاد مرة أخرى داخل بيته حين عاود الحارس الهمس، رجع وقد انتفخت عباءته علـــى الجانبين، ممسكاً بمقبض سيفه في يمنه، لاوياً في يسراه سلة جلدية انـــبعجت وطويت مسطحة تحت العباءة، تذكر كم من مرة تذلل حتى يـــسمح له بارتداء لباس الجندرمة الذي يبرر حمله سيفه ويقيه انكشاف مهنـــته أمـــام المحيطين به، لكنهم استكثروا على عبد أسود ارتداء زي الجراكـــسة والأرناؤوط، أفكاره، وصقيع الليل، وعرقلة الطيور الداجنة لخطـــواته، أســـباب معقولة للغضب، ركل الدجاج الهائج عند الباب، ونادى زوجه كي تلم الدجاج إذا كان يخصهم، وصاح بنـــزق يشتم الكلاب التي تتصايح عواءً في الحارة.

أردف الحارسُ السياف، وانطلقا، وقلب الأخير يخشى عما ستأتي به تلك الليلة التي بات على يقين من شؤمها.

عانى الحارس الآخر من هيجان حصانه حتى ظن به الجنون، وفقده عند بوابة القلعة، أفلت الحصان منه مختفياً في الظلمة بمجرد ترجله عند البوابة؛ أزالت الرسالة التي يحملها من قاضي القضاة كل الحواجز أمامه ليـــصل إلى الوالي الوزير أحمد الحافظ باشا الذي تولى منصبه للتو خلفاً لمراد باشا.

في الردهة المؤثثة بالأرائك والثريات والدولايب والمرآيا، والمضاءة بالقـــناديل، وقـــف الحارس ينتظر تسليم رسالته يداً بيد كما أُوصي، متوجـــساً مـــن تعنيف الوالي له على إيقاظه في مثل تلك الساعة، لكن الوزيـــر الحـــافظ لم يكن قد أغمض جفنيه لنوم ليلتين متعاقبتين، ففقد

همته وقدرته على التوبيخ، خرج لرسول القاضي متورم العينين مقطب الجبين متراخي الأوصال، تحول غضبه إلى كآبة، وإن كان لديه أسباب كثيرة للغضب، ليس أخرها أن أوامره وتراسيمه بعزل سنجقي عجلون وحوران، نقضت وضُرب بها عرض الحائط، إذ تمكن الأمير فخر الدين المعـــني مـــن إعادة السنجقيين المعزولين بقوة السلاح، مجاهراً أنهما من أعـــوانه ورجالـــه وتابعيه، وإنه لا يسمح بالتعرض لرجاله، ويحميهم بالسلاح والدم إذا لزم الأمر، كان الأمير اللبناني المعني يؤلم ويوجع إذا ضـــرب ويجـــود ويفـــيض إذا رضي، إلا أن الحافظ عده خازوقاً في مؤخـــرته، فبعد المواثيق والتحالفات التي قامت بينه وبين الوالي الأسبق مـــراد، الـــذي صاحبه، فغُمره بالهدايا والأعطيات الكريمة؛ التي عدتها اســـتانبول رشاوي مكنت فخر الدين المعني من اقتطاع بيروت لنفسه، مع الجبل والضواحي، انقطع حبل الود بين المعني والعثمانيين.

تعثـــر حظ الحافظ؛ فحرم من النعم التي يوزعها الأمير في شرائه الرجال والأعوان، إذ استلم ولاية دمشق وقد انكشف أمر تعاون المعني مـــع فريناردو الأول ملك فرنسا، الذي أوفد سفيره ليتأمر على إمداد ثـــورة اللبنانيين بالبنادق، كما أوفد خبراءه يعينون الأمير الدرزي على صـــب المدافع وفق أحدث طراز، وحرض مسيحيي لبنان على تشكيل مقاومـــة للحكـــم العثماني، فصارت مراكب السلاح تقف في وضح النهار في مرافيء صيدا مزودة المقاومين بالبندقية القداحة المخيفة، عائدة بالحرير والزيت والبهارات.

وجد الوالي نفسه في خضم تلك المعركة، ولا متسع للتمتع برفاه الـــولاية وامتـــيازاتها، مُحمـــلاً وزر المقاومات المحلية في شام العرب، وصـــراعات العـــشائر والعائلات، وملاحقة فلول التابعين للصفويين، وانقاد الدينار الشامي الذي تنهار قيمته، ويخف وزنه، كما هو مطالب

بـــرفع تـــسعيرة السلع والبضائع التي لم يعد الناس قادرين على احتمال المـــزيد مـــن غلائها، ومن ثم اجبارهم عليها، وشكم كل اعتراض أو تململـــل في صفوف الانكشارية أو عامة الناس من العرب، كانت لديه أسباب كثيرة للسهر والغضب والضجر والتفكير، وقد وصله للتو تمرد العلمـــاء في المغـــرب على سلطانهم الذي أهدى مدينة العرائش المغربية لملك اسبانيا، فاسقطوا بيعته وأباحوا دمه، وألقوا جثته في البرية تنهشها الضواري، وأعلنوا حداداً يخلعون فيه أحذيتهم الصفراء، ويلبسون كما اليهود، النعال السود، إلى أن تعود العرائش للمسلمين، على بعد الديار؛ كـــان ذلـــك الحدث إنذاراً لا يصح تجاهله، لم يدرِ الحافظ إذا ما كان حـــداد شيوخ وعوام المغاربة نصرة للدين؛ يعجبه، أو أن تمردهم على سلطانهم؛ يخيفه ويؤرقه.

يمـــوج العـــالم بالمتناقضات والكوارث والدماء؛ واعداً بمزيد من الـــويلات، وتحـــتقن حدقـــتا عـــيني الوزير محمرتين، وينسدل جفناه متغضنتين.

في مثل كل تلك المحن التي تحيط به متضاربة؛ تنهش عقله، وتطيح بهـــدأة تفكـــيره، وتعكر صفوه واعتداده بمنصبه الجديد، يأتيه رسول القاضـــي بأمر لا ينتظر حتى الصباح! وتطن أذناه بأزيز واهتزاز خفيف يكاد يفلق رأسه وجعاً.

دس بنصره في أذنه ورجه بعنف مقطباً.

حدق الحافظ في الرسالة التي مهرها شيوخ الأموي بأختامهم، ثم دفع بها إلى يد مترجمه الذي تبعه متعثراً، تأتأ المترجم معيباً على الشيوخ تصدير كتابهم بالعربية، كأنما يحقرون الوالي التركي، ثم ترجم إجمال ما جاء في الكتاب، من شرح قضية الغريب الكركي، الذي استفرد بأفكار صوفية أقرب إلى الكفر، فتزندق؛ وما أخجله منحه فرصة ليتوب على

أيدي الشيوخ، بل إنه قرعهم، وجادلهم بغلظة، وكان من قبل قد أفسد أجـــواء البيمرســـتان؛ لخلـــل في مزاجه وعقله، ثم وصل به الحال، أن اســـتنكر حـــق السلطان في نيل دعوات المؤمنين المسلمين على منابر مساجد الله، وجادل في استحقاقه تلك الرحمة التي خصه الله بها.

عند هذا الحد؛ تغضن جبين الحافظ، وتلاصق حاجباه استنكاراً، وأزبد بضيق قائلاً بالتركية:

- *سيس*[1]..

خـــط المترجم كتاباً موجزاً لا يحتمل التأويل، يهدر فيه دم المجنون الـــذي جاء خبره، ويكل أمر قتله للقاضي، ولكن الوالي أضاف عبارة أراد فـــيها أن ينتهـــي من تافه الشأن الذي قطع انشغالات ليله، أشار بسبابته لكاتبه قائلاً:

- *أكتب.. يطوف، ويشهر به، ثم يقتل؛ قطعًا لدابر الفتنة.*

قـــبل دق خـــتمه علـــى الكتاب، أضاف المترجم آية من القرآن الكـــريم ارتأى أنها مناسبة للحال، تفنن في خطها وإمالة حروفها، كاتباً "ولكم في الحياة قصاص يا أولى الألباب".

ثم دق الوالي الوزير أحمد حافظ باشا ختمه.

* * *

في الفضاء غموض عجيب، حلكة الكون خالطتها صفرة كابية، والهـــواء الـــسريع النقي حمل أتربة وذرات سناج خفية أثقلت صدور المتنفسين.

عـــاد الحارس بكتاب الوالي على ظهر فرس وفرها له الجندرمة في القلعـــة، قطع الطريق المحاذية للساحة المكتظة بالنائمين أرضاً، والقائمين تتحرك زوالاتهم بوتيرة متكررة كأنما يتدفأون بحراك أجسادهم، وتمكن

---

(1) قلة أدب.

مـــن سماع هزمجة خفيفة لصوت امرأة تشدو بالغناء وسط جمع الناس، يرتج الشدو غاصاً بالدمع مختنقاً بالنشيج، ثم ينفرد:

- *يا عين عذرك في حبيبك واضح سحي لوحشته دماً أو أدمعا*

سهل، إذا لمس الصفا سال الندى صعب، إذا لمس الأشم تصدعا[1]

ولج الحارس الاصطبل يودع فرسه، فوجد السائس خائفاً يضرب رأسه بقبضته متشكياً، وقد حطمت الخيول مصاريع وأقفال حظائرها، ولم يـــتمكن من السيطرة عليها، ففرت مفزوعة، وتسببت في رعبه من أســـباب هيجانها الذي بدأ في أول الليل وتصعد على نحو مربك، كما خـــاف ملامة القاضي وعقابه جراء تفريطه بالخيل وفشله في لجمها، لم يـــتوقف الحـــارس لمواساته، فقد سبقه الحارس الأول وواساه مطبطباً كتفه، وإن أسرع كلاهما بعد ذلك هاربين من الريح والصقيع يتقدمهما السياف وهو يحكم شد عباءته يداري سيفه وسلته، شقت لهم في البوابة الخلفـــية فتحة ضيقة، احنوا رؤوسهم ودلفوا منحنين، بينما كان الفجر يميز سواده ببياض شفيف خط الأفق عازلاً الأرض عن السماء، وخالط صوت الآذان هدير الريح.

توضـــأ الشيوخ يرافقهم الساعور وكاتب المحكمة، وحمل الحرس مـــاءً قلـــيلاً لـــيحيى، نقلوا عقدة أغلاله المشدودة وراء ظهره إلى أمام صـــدره؛ كي يتمكن من غمس كفيه في الطاس؛ وتبليل وجهه بما يشبه الوضـــوء المنقوص، ثم ترك برفقة حارس وحيد في الحجرة، بينما لحق الحارســـان الغائـــبان والسياف على الوضوء لحوقاً متعجلاً، واصطفوا متلاصقين وراء الرجال؛ يؤمهم العيثاوي؛ يصلون الفجر جماعة.

أطال القاضي سجوده؛ غير راغب برفع رأسه عن الأرض، مثقلاً، غلبه الإرهاق والوجل، وانقضت ركعات الصلاة؛ فما جاهر بتكبير أو

(1) ابن النبيه.

آيـــة أو دعـــاء، فقد غل الصمت حناجرهم، وعقد ألسنتهم، فقاموا وقعدوا، ركعوا وسجدوا؛ زائغي الفكر والروح، ثم سلموا يمنة ويسرة، وتـــشهدوا بـــسباباتهم راعشين، قبل أن يقف القاضي ويتناول بتباطؤ كتاب الوالي.

ربمـــا خطر ببال أحد الشيوخ تعجب من سرعة استجابة الوالي لما خطوه، لم يكونوا يظنون إن الجواب يصل في تلك السرعة المذهلة، ظنوا اللـــيل يؤخره، أو يحول دون سهل وصول الخيالة ريح أو مطر، ولعلهم تـــركوا هامـــشاً بسيطاً يرفض فيه الوالي اقتراحهم فيأمر بحبس أو يعيد المجـــنون إلى مشفاه، لكن الكلمات واضحة جلية، وكاتب المحكمة الذي أمـــسك بالكتاب بعد أن قرأه القاضي بناظريه كان مرغماً على القراءة جهـــراً، أضـــواء الفجر باهتة يعتريها غبش تسللت من صفحات النوافذ الزجاجية ممتزجة بظلال ألوان النقوش والخطوط التي تداخلت فيها شظايا الزجاج المعشق، ولم يكن في فضاء الحجرة نأمة توحي بصوت أو حراك، حـــتى الـــنار انطفأت تماماً، حبس الحراس أنفاسهم، والسياف ينظر في الوجـــوه الذاهلة يستجلى ذاك الوجوم، صفير الريح يعبر الباب بين الفينة والأخـــرى، ثم حـــشرجة الهواء يمر في صدر التاجي وهو يسحب نفساً عميقاً، وقد اختلجت عضلات وجنتيه، واستجمع شجاعته قائلا:

- *سود الله وجهه، لم يترك لنا منفذاً.*

هتف الميداني بلهفة:

- *كـــتاب الوالي لا ينفذ إلا إذا لم يتب الرجل، لقد أمهلناه حتى الصباح، وحاشا الله أن نظلمه.*

بـــدا لو أن هناك متسعاً لمحو الأمس واليوم معاً وعودة الحياة إلى ايقاعهـــا، تنفس الشيوخ الصعداء، وانهدم الساعور متعباً على الأريكة، في حين قال التاجي:

- إذا ما تاب صاحبكم ولا أناب، سيكون من الجهالة تطويفه، فيقع بين أتباعه والجند خصومة ولدد، عندما أمر الوالي بالتطويف والتشهير إنما أراده عبرة لسواه، لكنه لا يعرف أن الناس في الخارج أعوانه، وقد تزايدوا بدلاً من أن يطردهم الصقيع، فلا نقع بتلك الغلطة، نخرجه؛ فينتصرون له، وقد يخلصونه من أيدي الجند، وتراق دماء كثيرة، لا أعتقد خروجه حياً من مجلسنا هذا؛ صواباً.

تعوذ البوريني من الشيطان وتمتم:

- ذاك سابق لاوانه.. سابق لاوانه، تفترضون الأسوأ!

أشار القاضي بهزة رأس إلى السياف الواقف إلى يمين المجلس، وقال بتؤدته المخيفة الجادة:

- إنما نحترز، وقد تجهزت بأسباب كل حل نصل إليه، فالسياف هنا، ولم يفتني خطورة إخراج الرجل بين العوام والمريدين السلهاء، بل يهرق دمه في هذا المجلس الشريف، سيكون الوالي لنا شاكراً، فلسنا في حمل فتنة تعم دمشق، إذا لم يتب هذا الكركي؛ سار إلى حتفه بقدميه.

* * *

أُخرج يحيى من الحجرة الجانبية، وبالغ الحارس في دفعه ليرضي الشيوخ ويفصح عن هيبته الخاصة، كان الحرس قد أعادوا غل ذراعيه وراء ظهره، إلا أن ماء الوضوء القليل جلا وجهه بالرضا، وعلقت قطرات منه في لبدة لحيته الكثة تبرق كحبات ماس، غاب عن عينيه وخم النعاس، بل فج من وجهه نور رائق لطيف، ألم السياف بالنور في نظرة خاطفة لم يثنّيها؛ غض نظره سريعاً، وراح يتسلى بجر سيفه الأزرق الحاد المسنون من غمده وإعادته، كأن ما يدور في المكان لا

يعنـــيه، وتكوم الساعور في مكانه فزعاً؛ غير قادر على النظر إلى يحيى الذي وقف في منتصف القاعة.

لم يكن يسيراً سماع الكلمات التي تتردد بين شفاه الكركي، فهو يهمس بلطف، وتندغم الأحرف في تعالق، ويفوه مغمضاً عينيه بكلام مأثور عن المتصوفة:

- اقعـــد في ثقب الابرة ولا تبرح، إذا دخل الخيط في الابرة، فلا تمـــسكه، وإذا خرج، فلا تمده، وافرح؛ فإني أحب الفرحان، وقل لهم: قـــبلني وحـــدي، وردكم، فإذا جاؤوا معك، قبلتهم، ورددتك، وإذا تخلفوا، عذرتهم، ولمتك، فالناس كلهم براء.[1]

ســـكت الرجال إلا التاجي الذي تقدم عن قاضي القضاة بخطوة جانبية لا يلحظها الرائون، قال:

- مـــا زلت على هذرك منذ الأمس!! أية إبرة وأي ثقب يا هذا؟ تحـــدث بما يفهم الناس؛ ولا يضلك الخيال، أما منحناك فرصة للتفكر بحالـــك ودنـــياك؟ ما وقع فيها وما يجد؛ لتعقل وتنظر ليوم جديد في حياتك؛ إن أردت لهذه الحياة أن تستمر.

تبسم يحيى ابتسامة عريضة أجفلت الشيوخ وقطعت إقدام قاضي القـــضاة، فتراجع إلى الوراء يطلب كوباً من الماء، ويحيى يجيب ناظراً في وجه التاجي:

- الحياة التي أعرف، تنقضي، لكنها تتجدد كل يوم، تولد بثوب قـــشيب، هي ذات الحياة التي كانت، وجوهها شتى، وأسماؤها مغايرة، وجوهرها واحد.

ارتشف القاضي كوبه، ثم اعتدل في مواجهة الرجل، وإن تفادى تلاقي النظرات، قال:

---

(1) النفري.

- استيقظت فيلسوفاً، وقد تركناك بالأمس تخاصم السلطان وتحرض الهوام والعوام، وما قدرت عاقبة تعنتك، وقصاص ذاك الخصام، وهو خصام في الدين قبل الدنيا.

رد يحيى مستبشراً:

- في الدين نجتهد، في الله لا نخاصم، فالمحبوب لا يخاصم ولا يعارض.

احتد صوت القاضي وتحشرج:

- لكنك خاصمت وعاندت، وها أنت ترجع للترهات، إذا كنت محباً لله هكذا، طائعاً، كيف لم تذكره قبل أن تطأ عتبات خلفائه من السلاطين؟ وكيف لم تطعه بطاعة من يستخلفه؟ اذكر الله ينفعك.

تدفق نور النهار من النوافذ، وتكسر الضوء على الرياش وبلاط الأرض في مثلثات ومربعات تعكس زخارف النوافذ، ووقعت على وجه يحيى دائرة نور ساطع زادت بهاء وجهه، وهو يردد شعر المتصوف الرذباري:

- الله يعلم أني لست أذكره... وكيف أذكره؟ ولست أنساه؟

وقف الميداني شفوقاً هلوعاً وصاح:

- كيف لا تذكره يا هذا؟؟ ما دمت لست تنساه، دعك من خلابيط الكلام، واستقم، وقر بوضوح اسلامك، واعتذر عما صدر منك، خلص نفسك وخلصنا، وإلا؛ فأنت جاهل بما ينتظرك من قصاص، ثكلتك أمك.

اتسعت ابتسامة يحيى في وجه الميداني، رأى في خوفه خيراً وضميراً حياً، وعلم إن الرجل يمد يده يحول بينه وبين سوء العقاب، لكنه حين فتح شفتيه يدعو بخشوع غاب عنه كل قصاص قد يكون:

- *إلى الله أشـــكو، وهو منتقم، ظلاً أقام بأرض أتخنت بالأسية، وكفـــاً أرادت غير ما يطلب الهدى.. وعيناً تعامت عن رشاد البرية... فيا رب، يا ذا الانتقام، ابن لنا مقام خطانا في الطريق السوية.*

التفت التاجي غاضباً إلى قاضي القضاة وصاح:

- *أسمعت الرجل؟ يتظاهر أنه يناجي ربه وهو يضمر الدعاء علينا، أسمعت؟؟*

سعل قاضي القضاة ثم التقط أنفاسه، واقترب خطوة من الكركي:

- *يا رجل، تعرف إنك إذا لم تقدم اعتذراً وتذللاً كما يجب؛ فإن الوالي وقع بقصاص لا تنجو منه؛ أنت هالك.*

تمتم يحيى:

- *"كل شيء هالك إلا وجهه"، و"الناس نيام، إذا ماتوا انتبهوا".*

خرجت كلمات القاضي جافة راجفة:

- *تخاصم ولا تتوب!*

- *لا أخاصـــم محبوبـــي، وأخاصم السلطان الظالم، وأتوب عن ضعفي وخوفي، ولا أتوب عن حق.*

صاح الميداني:

- *أي شيء يستحق أن تتسبب في ازهاق روحك يا رجل؟؟*

تمتم يحيى:

- *ومـــا المـــرء إلا كالشهاب وضوئه... يحور رماداً بعد إذ هو ساطع*(1)

رمـــي المـــيداني جسده جالساً في أسى إلى جوار البوريني، وسار التاجي بنـــزق جيئة وذهاباً، والقاضي ينحني إلى أوراق الكاتب ويلقنه هامـــساً، ثم يتحـــرك لينقل همساً جديداً للسياف الذي انتصب عوده

---

(1) لبيد بن أبي ربيعة.

وتأهـــب، وفـــرد أطراف سلته فاستقامت متكورة على الأرض، بينما الـــساعور يـــضغط زنديه بكفيه ويطأطئ رأسه، إلى أن طلب قاضي القضاة من الحرس الالتفاف خلف يحيى والحرص على تثبته، ثنوا قدميه دون مـــشقة، فجـــثا جـــسده في منتصف القاعة، وتحرك بقية الحرس متوتـــرين يرقبون، ووقف القاضي ينظر إلى يحيى جاثياً، ثم يقرأ ما خطه الكاتب:

- في مجلسنا هذا مجلس الشرع الشريف، وفي يومنا هذا، الثلاثاء، الثامن من ذي القعدة، سنة ثماني عشرة بعد الألف، من تاريخنا الهجري، وبإجمـــاع الشيوخ الحاضرين، والمبينة أختامهم، وانصياعاً لترسيم صادر عن مولانا، الوالي، أحمد حافظ باشا، الوزير، نائب السلطان، وبعد أن تحقق لنا اصرار محكومنا يحيى الكركي على ضلاله وتحريفه، واحتكامه إلى كتب الضلالات عوضاً عن الاكتفاء بكتاب الله، وسنة نبيه، خالطاً الـــبدع بالـــشرع، محرضـــاً الغافلين من العوام، متمادياً على السلطان وحقـــوقه، جـــريئاً على الإفتاء دون حق، فإننا نقر؛ وقد استتبناه؛ فما تاب، أن يوقع به القصاص الذي حكم به مولانا الوالي، فيهرق دمه في باحتـــنا هـــذه، وفي ساعتنا تلك، ليظهر أن سيف الشريعة طائل الوقع لأهل الضلال والتحريف، كما أُمرنا في كتابة الكريم: "أن احكم بينهم بمـــا أنـــــزل الله ولا تتبع أهواءهم، وأحذرهم أن يفتنوك"، صدق الله العظيم.

تـــراجفت القلوب وجفت الحناجر، وتفادى المجتمعون النظر إلى المحكـــوم، وأشاح الميداني بوجهه عن المشهد متحاملاً على معدته تنذر بقـــذف ما فيها، في حين اتخذ السياف موقعه على يمين يحيى، وسحب ســـيفه كاملاً من غمده، رفع الشيوخ؛ إلا الميداني، رؤوسهم متمهلين مسترقين النظر، وظل السياف المدرب على ازهاق الروح دون تبعات،

حريـــصاً أن لا تلتقي عيناه بعيني ذبيحه؛ تشاغل بالتدقيق بنصل سيفه يقـــيم حدته، ويرقب تلامع بريقه، ثم يدفع بقدمه سلته على بعد أمتار من يحيى الجاثي على ركبتيه.

لمح يحيى على الأرض التماعات أسقطها الضوء من شفرة السيف الـــذي يتلاعب به السياف، فتراقصت أمامه، تبسم متذكراً ولعه بلعبة الـــضوء والظـــل في طفولته، ثم فكر راضياً إنه في لحظاته الأخيرة، وإن الروح سيف الله، والبدن المكثف غمده، فكأن اللعبة انكشفت له تماماً، وغمرته بهجة المعرفة؛ فألهته عن وجل الموت.

تمهل السياف رافعاً سلاحه الحديدي الثقيل في محاذاة كتفه، ناظراً إلى الخـــط الأفقـــي اللامع الذي رسمته مرآة نصل السيف ضوءاً على مؤخرة جيد المحكوم، ومقدراً بأن السيف سيعرف مهواه بدقة، خاطب القاضي يحيى قبل أن يعطي أمره الأخير:

- *هل تريد أن تقول شيئاً؟*

فكر الميداني في اطراقته متمنياً، سيعتذر، سيعتذر.

وفكر الساعور مفجوعاً، سأعتزل مهنتي والحياة.

وفكر البوريني دائخاً، أي نهار مفجع طلع علينا!.

وحدقت أعين الحراس وشنفت أذانهم، وصوت يحيى يردد:

- *اللـــهم، ارحم ذُلّي وتضرعي إليك، وآنس وحشي بين يديك، وارحمني برحمتك، يا كريم.*

اهتز السيف في يد السياف، فأخفضه واستنشق مزيداً من الهواء، تـــشاغل بالتلفت عن النظر إلى قاضي القضاة، لكن ذلك لم يطُل، فقد رفـــع ســـيفه مجدداً، وتتبع بناظريه سطر الضوء الأفقي على جيد قتيله الـــذي حافظ على رأسه مرفوعاً، فما أحوج جلاده لنخزة ترفع الرأس وتكـــشف الجـــيد، بدا هادئاً لا ترتعش أوصاله ولا تهتز رموشه، ولا

يحاصر ذباحه بنظرات التحدي، كما لو أنه مسافر إلى البعيد، ترنم بكلمات عذبة مغمض العينين:

- إلهي.. مميت الحي.. مستأثر البقاء.. أمت في يا ربي خطى أتلفت خطى... وروحا أطاحت بالذي كان والتي.. إلهي... مميت الشر في كل ملة، أمت يا إلهي الشر في كل ملتي... أمت شر هذى النفس إن غرها الهوى... وعد لها من نفسها برء نفسها.. فلا برء لولا أنت من كل علة... يا الهي.. يا مميت...

أراد الميداني الصراخ بأن تلك المناجاة توبة عن كل ذنب كان أو يكون، لكن حلقه تيبس، وانحبس لسانه، ودمعت عيناه، وأراد الساعور اطلاق قدميه في فرار؛ مدعياً إنه وإن كان حكيما تعود على رؤية الجراح، وشق جسد البشر في قطع ورتق، إلا أن قلبه يخونه في رؤية مثل هذا القصاص، لكنه شل في مطرحه، وغامت موجودات المكان في ناظريه، وأغمض البوريني جفنيه، يرمش بين الفينة والأخرى واجفاً، وحدق الحراس كأن لهم عيون أموات مفتوحة على الفراغ، وهبطت كف قاضي القضاة في إشارة أخيرة للسياف الذي شد عضل زنده، وأحكم قبضته على ممسك سيفه، وهوى بضربة سريعة، متقنة، حاسمة.

* * *

وقعت أحداث ذلك اليوم المشؤوم، الثلاثاء، الثامن من ذي القعدة في العام، ثمانية عشر بعد الألف، الموافق ستمائة وعشرة بعد الألف الميلادي، انقضت آجال كل الحاضرين أنذاك، وإن عاشوا زمناً بعد ذلك التاريخ، فمنهم من نسي، ومنهم من انطوى على حزنه، ومنهم من ظل يحدث بما صار حتى توفاه الله، بعضهم حملوا الجسد المقطوع الرأس إلى مقبرة قليط عند الباب الصغير، فواروها التراب بعد أيام من

وقوع الزلزلة، وإن لم يعثروا على أثر للرأس؛ رجحوا أن الأرض ابتلعته، أو أن السياف حمله بسلته إلى حيث لا يدرون، وانقضى زمن طويل وتراكمت أغبرة التاريخ وتقلبت أحوال.

لم يكن الكركي مهماً في صيرورة الحياة، ولا ترك وراءه أقوالاً وأمثالاً، ولا أقيم له مقام أو زاوية، انتهى ذكره تماماً، إلا شذرات لا وزن لها، تمر خفيفة بين أرتال الكلام في كتب تاريخ منسية لا يقرأها أحد، لكنه لسبب مجهول، اختارني وأغواني، في بدايات القرن الحادي والعشرين، شدني من قلمي لنتعالق في حكاية مظلمة عجيبة، كان أقسى فصولها تلك المشاهد المهولة التي حدثت في الثواني التي تلت قطع رأسه بضربة السياف الماهر المدرب، لم يفسح الكركي لي لاتحرر منه، أو أخط كلمة النهاية السعيدة في حكايته كما رغبت، ولا رحمني، ولا شفع لي العذاب الطويل الذي تجرعته وأنا أعايشه منذ عام الطاعون في جلجول، وحتى عام الزلزلة في الفيحاء، لم يعتقني، بل اشهدني على تلك الثواني الهائلة بكل حذافيرها، ثوان مرت كأنها الدهر.

بعدما قص نصل السيف عنقه، وطير رأسه، جذبني إليه، أدخلني في عينيه، رأيت بناظريه أو رأى بناظري، وجُحطتُ، كما جفنيه اللذين استجابا للوجع، طار الرأس وهوى ثم تدحرج وأنا فيه، وانقلب، فشاهدت قدم السياف تدفع بالسلة في تخبط مذعور، علها تتلقف الكرة الطائرة ورشاش الدم، لكن الأرض مادت فجأة، فزاحت السلة في اتجاه بعيد، ورشرشت الشرايين المقطوعة دماً كثيراً على الأرض، وتطايرت لطخات حمر على رداء السياف وعباءة القاضي الذي نفر إلى الوراء، وصعد الألم مثل جيش نمل من أسفل الفك، منتشراً فيّ، وفي تجويف جمجمته، صاح لسان الرأس المقطوعة:

- *الهي.. يا اله...*

نظرتُ؛ ثم رأيت شأناً عجيباً.

شـــاهدت البوابة تنخلع وتطير في الهواء مع عصف كثير؛ اهتزت الحجـــرة ومالـــت وانبعث من جدرانها عواء صادر عن الشروخ التي تضربها من الأعلى، وتشرطها إلى الأسفل أو العكس، وتطوح الحارس مفـــزوعاً عـــند البوابة، وقد زلت قدمه إثر انـــزياح العتبة، وانشقاق الأرض في ثلـــم عريض، وصار صراخ كثير وهوج، والقضاة ينقلبون ويتساقطون على ظهورهم ويتكومون أكداساً، لفت الرأس، فشاهدت الناس في الخارج يتخابطون، يتعانقون، يتدافعون، ويرفعون أيديهم إلى الـــسماء جائحين مولولين، وقفت جمان بينهم بكامل بهائها وروائها، مـــثل زنبقة سوسن، تنظر إلى الأعلى غير عابئة بالأرض تتشقق في كل اتجاه، نظرتُ حيث تنظرُ، شاهدت نتفاً من أوراق وبتلات الورد الأحمر جلبـــته الريح وبعثرته؛ انهمر من البستان في أعلى الهضبة، منصباً على الناس كأنه مطر غزير، انقلب الرأس في تدحرجه مرات؛ فغامت الرؤيا كالـــضباب، ثم شـــاهدت وجه الجلاد ينوح وبدنه يتطوح في المكان يـــبحث عـــن عمود يسنده، وكان جسد يحيى المذبوح جاثياً على بعد أمـــتار ينتفض، ثم ينهدم، وينهار مدفقاً دماً غزيراً قانياً، وأقدام الشيوخ تـــنهض مـــن تكدسها؛ تتراكض في القاعة، تتعثر بالجبب والعباءات، وتـــرتطم بالجسد المقطوع الرأس، نط المشخص من جيب القتيل، برم مثل مخروط الدوامة ولعبة البلبل التي يحب، ثم انـــزلق في الفتحة المنشقة عند أرض العتبة، وغاب.

رأيـــت نوراً كثيراً، وسمعت هدهدة على مقام السيكاه، وشممت عطـــراً كأنـــه الياسمين، وتقدمت مني امرأة لم يسبق لي لقاؤها، لكني عـــرفتها، جاءتني نفل في معمعمة الزلزلة، أنقذتني من الدهس بين أقدام

الــضائعين، وحملــت الــرأس المقطوع مثل قمر بين كفيها يخر دماً، وتبسمتْ فتبسمتُ، ثم راحت تصعد بـــي سلماً من ضياء، والعالم من تحتنا، يجوح، ينوح، يتجلل بالسواد والدم، وقد صعقته الزلزلة.

خاتمة

عندما رفعت أصبعي عن الضغط على مفتاح حروف الطباعة في جهاز الحاسوب، قلت؛ سأكتب كلمة النهاية، لكني ترددت، لأني على قـــناعة إن النهاية مستحيلة في تلك الحكاية، كل ما مر يتجدد في كل عصر، ولكني اقترفت رواية على الورق، من أين جاءت؟ كيف سكن هذا الرجل عقلي لعامين!! وهل سيغادرني كما تفعل شخوص أعمالي دائماً؟ الأهم ماذا يهم القارئ من تلك الخاتمة المتعلقة بـــي؟

الـــرواية التي عاشت بين أصابعي وعيني وعقلي والورق، كانت عالمـــاً ينداح مثل مسقط حجر في ماء، لكني كنت اشرع للريح أشرعة عقلـــي ونفسي، كما أنده مسحورة مستدعية من يملك شذرات يعينني علـــيها في غـــياب المراجع حول تلك الحقبة التي تلبستني، طالعت كتباً ومـــؤلفات، وتابعت مواقعاً على الانترنيت، كان العالم يتأمر معي في تأثـــيت زمـــان سكت عنه التأريخ، وتلقفته اهتمامات طفيفة متناثرة، جهدت في لملمتها، ثم انصرفت إلى نصي الأدبـــي متصرفة بكل ذلك الارث العظـــيم كمـــا يقودني خيالي وخياري، مستعيرة لمحة أو نسمة عابـــرة، بـــدا كمـــا لو أن تلك الكتب على يسير ما استحلبت منها؛ أرسلت قبساً من نور أضاء جنبات عالمي، وأرشدت طريقي في العتمة، ربمـــا بشرارة أو فكرة، نافذة على عصر؛ لتكون الرواية، وجدت من حـــق الذين مضوا على درب المعرفة وتوقفوا ليوشوشوا بأذني بعض ما لديهم، أن أوثقهم كمراجع أعانتني، شيدت عالمي كما لو كنت عشته،

ذلـــك العالم الفسيح انبعث من مخيلتي التي صنعت الشخوص والأماكن والأحـــداث، لكنها ارتكزت على عالم حقيقي كان هنا قبل أربعمائة عام وما يزال، لهذا أذكر تلك المراجع التي تبدو منبثة عن الرواية، لكنها بعض لبناهًا:

القرآن الكريم.

الإنجيل – العهد الجديد.

التوراة – العهد القديم.

"الكامل في التاريخ" لابن الاثير.

"خلاصـــة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر"، المحبـــي – محمد الأمين فضل الله–.

"التاريخ عند العرب في العصر العثماني"، د. مهند مبيضين.

"الكـــرك ثالـــثة الأثـــافي، تاريخاً وبوابة فتوح"، د. حسن محمد الربابعة.

"مفاكهة الخلان في حوادث الزمان"، محمد بن طولون.

"تراجم الأعيان من أنباء الزمان"، البوريني.

مخطـــوط "مجموع فتاوي – جواز عقد صلاة الجمعة للسلطان في ظل عسف جباة الضرائب وتعطل الناس عن الفلاحة والعمل الذي هو عبادة"، مكتبة الأسد – مجموع فتاوى رقم 4/221 ق 41– 32.

"القانون في الطب" لابن سينا.

"عيون الحكمة" لابن سينا.

"موجز تاريخ الموسيقى والغناء"، صبحي أنور رشيد.

رسائل إخوان الصفا.

"الاجتهاد في الشريعة الإسلامية" للقرضاوي.

"عيون الأنباء في طبقات الأطباء" لابن أبو اصيبعه.

"قديماً في البلد المقدس"، كلاوس بولكين.
ديوان ابن النبيه.
"السيرة الهلالية"، عبد الرحمن الأبنودي.
"الأعلام" للزركلي.
"إخبار العلماء بأخبار الحكماء وإنباه الرواة على أنباه النحاة" للقفطي.
"مروج الذهب" للمسعودي.
"الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة"، لمحمد بن أبي السرور البكري.
"المقدمة" لابن خلدون.
"تاريخ الدولة العثمانية"، د. علي حسون.
"العهد العثماني"، محمود شاكر.
"الإمام الصادق والمذاهب الأربعة"، أسد حيدر.
"الفتوحات المكية" لابن عربي.
رسائل ابن عربي.
"فصوص الحكم" لابن عربي.
أناشيد أبو مسلم البهلالي المتصوف العُماني الزنجباري بصوت الفنان لطفي بشناق.
"تقديس الاشخاص في الفكر الصوفي"، محمد لوج.
"أبو حامد الغزالي والتصوف"، عبد الرحمن دمشقية.
"موقف ابن تيمية من التصوف والمتصوفة".
"روائع من التاريخ العثماني"، أورخان محمد علي.
"المختصر من الممتع زاد المستقنع"، للعلامة العثيمين.
"حقائق عن التصوف"، عبد القادر عيسى.

"تاريخ العرب الحديث" د. هند أبو الشعر.

"حديث عيسى بن هشام" لمحمد المويلحي.

"إجماع المسلمين على احترام مذاهب الدين"، محمد سيد الطنطاوي.

"الأردن في مـــوروث الجغرافيين والرحالة العرب"، المهدي عيد الرواضيه.

"معجم المنسوبين إلى الديار الأردنية"، حنا حداد ونعمان جبران.

"إحكـــام الأحكـــام الصادرة من شفتي سيد الإمام"، ابن النقاش المغربـــي المصري.

"الشرعية السياسية في الإسلام"، عزام التميمي.

"رحلة ابن خلدون"، حررها نوري الجراح.

"رحلة المقدسي"، حررها شاكر لعيبـــي.

"خطـــرة الطـــيف" للسان الدين بن الخطيب"، حققه أحمد مختار العبادي.

"الأغاني" لأبـــي فرج الأصفهاني.

"ترويح الأرواح ومفتاح السرور والأفراح" لأحمد الدولة، تحقيق د. إبراهيم السامرائي.

"حـــركات التمرد في مصر في بداية العهد العثماني" (1517–1524) والنتائج المترتبة عليها، د. أسامة محمد أبو نحل.

شبكة الإنترنت في المعلومات التي تتناول طرق التصوف والأحكام الفقهـــية والمعلومات الجغرافية والتاريخية والعادات والتقاليد والفلكلور، والمهن المشروحة مثل النحال والنساج وطارق النحاس والعطار والوراد وصناعة الحرير.

– الأغـــاني الـــشعبية في فلكلور كل من جنوب الأردن وسيناء ومصر والشام.

- سيرة الهلالي في التراث الشعبـــي في مصر والبادية
- أساطير وميثولوجيا فرعونية وعربية.
- معلـــومات تاريخـــية في حوار شفاهي مع المؤرخ المعلم الشيخ د. عبد الكريم غرايبة.
- تاريخ سلاطين بني عثمان:من أول نشأتهم حتى الآن، ليوسف اصاف- محمد زينهم ومحمد عزب
- تـــاريخ الدولـــة العلية العثمانية - للمؤلف محمد فريد -المحقق إحسان حقي.
- سلاطين بني عثمان بين قتال الأخوة وفتنة الانكشارية -نـــزار قازان.
- وثيقة بائع أنتيكات ووثائق في السوق الشعبـــي بوسط البلد - عمّان.

صدر للمؤلفة

في القصة القصيرة:

- مع الارض- دار الأيام - الخرطوم عام 1978.
- اوركسترا - دار الكندي - اربد- الاردن 1996.
- دومينو - دار نارة - عمان- الاردن - 2009.

في الرواية:

- رحلتي - دار الهيثم - بيروت 1980.
- المد - دار الشروق - الاردن 1990.
- شـــجرة الفهـــود - تقاســـيم الحياة - دار الكرمل - الاردن 1995 صـــدرت في خمـــس طـــبعات بعدها، واحدة منها دار شرقيات في القاهرة - وتحولت إلى دراما اذاعية كتبت السيناريو الخاص بها المؤلفة.
- شـــجرة الفهود - تقاسيم العشق - دار شرقيات القاهرة 1997، أعدت سيناريو اذاعي كما منها ثلاثة طبعات بعد ذلك.
- القرمية 1999- أمانة عمان - الطبعة الثانية دار السنابل - القاهرة، صـــدرت مـــنها طبعتان في الاردن بعد ذلك، وحولت إلى دراما اذاعـــية2003 حصل على الجائزة الفضية في مهرجان القاهرة عام 2009، وعلى ذهبية نفس المهرجان للموسيقى.
- خشخاش - المؤسسة العربية للدراسات - بيروت 2000، واعدت عملاً مسرحياً وسيناريو اذاعي.

- الـــصحن – دار أزمنة – الاردن 2003 – تترجم إلى اللغة الالمانية حالياً.
- دفاتر الطوفان 2003 في ثلاث طبعات، واحدة عن الدار المصرية اللبنانـــية في القاهـــرة، وترجمت إلى الاسبانية 2006 دار دون كيـــشوت في مدريـــد – ويجري تحويلها إلى مسلسل تلفزيوني حالـــياً من انتاج المركز العربـــي، كما تجري ترجمتها إلى اللغة الالمانية.
- روايـــة بعـــنوان "امبراطورية ورق – ناره "– عن دار نارة للنشر والتوزيع – عمان – الاردن 2006.
- رواية بعنوان "نحن" عن دار ناره للنشر والتوزيع 2008.
- الأعمال الروائية عن امانة عمان 2008.
- رواية بعنوان "الرقص مع الشيطان" عن دار نارة 2009.
- صـــدر الـــنص المسرحي" خشخاش" مطبوعاً عن دار نارة للنشر والتوزيع 2008.

أعمال قادمة:

- مخطوط في ادب الرحلات والسيرة بعنوان "على جناح الطير".
- مخطوط روائي بعنوان "عاج وأبنوس".

الجوائز:

- جائزة الدولة التشجعية عام 1997 عن رواية شجرة الفهود.
- الجائزة الذهبية في مهرجان القاهرة للدراما عن السيناريو المعد عن رواية شجرة الفهود 2002.
- جائزة أبو القاسم الشابـــي من تونس عام 2005 عن رواية "دفاتر الطوفان".

- جائزة مؤسسة الفكر العربـــي عن الابداع الادبـــي لمجمل الانتاج عام 2008.
- الجائـــزة الفضية لمهرجان القاهرة للدراما للمسلسل الاذاعي "الليل والبيداء" المعد عن رواية القرمية 2009 – الذهبية في نفس المهرجان لموسيقى المسلسل نفسه.
- تم اقرار قصة قصيرة لها بعنوان "سميرة" في منهج المدارس السويسرية الثانوية.

---

www.samihakhrais.com

khrais_samiha@yahoo.com
